نعوم تشومسكي

آفاق جديدة

في دراسة اللغة والعقل



ترجمة

عدنان حسن

علي مولا

آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل

● آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل

● نعوم تشومسكي

● ترجمة: عدنان حسن

● الطبعة الأولى 2009

● *الناشـر: دار الحـوار للنشـر والتـوزيـع*

اللاذقيـة ـ سـوريـة ـ ص.ب: 1018

هاتف وفاكس: 422339 41 963

البريد الإلكتروني: soleman@scs-net.org

daralhiwar@gmail.com

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار

تصميم الغلاف: ناظم حمدان

نعوم تشومسكي

آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل

ترجمة: عدنان حسن

العنوان الأصلي للكتاب بالإنكليزية

Noam Chomsky,

New Horizons in the Study of Language and Mind

CAMBRIDGE University Press 2000

الفهرس

مقدمة

بقلم: نيل سميث

يتمتع تشومسكي بموقع فريد في المشهد الفكري العالمي. فقد كان الشخصية القيادية في "الثورة المعرفية" في الخمسينيات والستينيات، وهيمن على حقل اللسانيات منذ ذاك الوقت. كانت نظريته في النحو التوليدي، بعدد من الأشكال المختلفة، دليلاً وملهماً لكثير من اللسانيين حول العالم ونقطة المقارنة لكل شخص تقريباً. قد لا تتفق مع عمل تشومسكي لكن من قصر النظر وعدم اللياقة العلمية أن تتجاهله.

تخرَّج تشومسكي من جامعة بنسلفانيا في عام 1949، بأطروحة تخرّج حول اللغة العبرية الحديثة، ثم نُقحت لاحقاً وتم توسيعها لتصبح أطروحته لنيل شهادة الماجستير. هذا العمل، مهما يكن جنينياً، قد دشن النحو التوليدي الحديث. فالقضايا التي عالجها بعدئذ تفرعت لتحدد حقلاً من الاستقصاء لا يزال يساهم فيه بعد

خمسين عاماً، وهو في جزء كبير منه نتاج لعبقريته. مع ذلك فإن هذه الرحلة الفكرية لم تستغرق سوى نصف وقته. أما النصف الآخر فقد كرسه للنشاط السياسي، فاضحاً الأكاذيب المكشوفة للحكومة [الأمريكية] والمخططات الخفية للمؤسسة المتحدة. وهذا ما ورطه في إلقاء محاضرات لا حصر لها كما يبدو في كل أنحاء العالم، وأدى إلى تأليف حوالي خمسين كتاباً ومئات المقالات وآلاف الرسائل. قد تكون هناك صلة بين طاقي عمله، لكن شهرته وجزءاً من نفوذه هما حصيلة للإثنين معاً. (إن نتاج تشومسكي ضخم؛ من أجل عرض حديث ومناقشة لمجموعة فرعية تمثل أعماله، انظر سميث (1999).

إن لعمله التأسيسي حول اللغة تطبيقات واسعة الانتشار ليس فقط بالنسبة للسانيات بل أيضاً بالنسبة لعدة حقول معرفية أخرى، أبرزها الفلسفة وعلم النفس. يركز هذا المجلد من المقالات على هذا الطاق الثالث في فكره، الذي يعالج بشكل خاص القضايا الميتافيزيقية المنبثقة عن أبحاثه، ويكشف بعض خفايا التشويش والتحامل اللذين أصابا الدراسة الفلسفية للغة. وهو بفعله ذلك، إنما يقدم حلولاً جديدة للألغاز التقليدية ومنظورات جديدة حول قضايا الشأن العام، من مشكلة العقل ـ الجسد إلى توحيد العلم.

إن جوهر هذه المقالات هو التأمل الموسّع حول تفسير تشومسكي "الذاتاني" internalist لملكة اللغة البشرية. لقد تركز الكثير من التراث الفلسفي على اللغة بوصفها منشأً construct عمومياً يمتلك الأفراد معرفة جزئية به. هذه الرؤية مهموكة بالعلاقة بين اللغة والواقع البراني: العلاقة بين الكلمة والعالم التي تشكل أساس

النظريات المعترف بها لعلم الدلالات الإحالي. في مقابل هذا التراث يدافع تشومسكي مطولاً وبسلسلة من التحليلات الألسنية التخيلية عن الرأي القائل بأن معرفة اللغة هي معرفة فردانية individualistic، جوانية بالنسبة للعقل / الدماغ البشري. يترتب على ذلك أن الدراسة الصحيحة للعقل يجب أن تتعامل مع هذا المُنْشأ العقلي، [وهو] كيان نظري يشير إليه باللفظة المستحدثة "لغة الأنا" I- Language، هي خاصية جوانية للفرد. النتيجة الطبيعية لرأيه [هذا] هي أن المفهوم العادي (والفلسفي) "للغة"، الذي وفقاً له لا تكون اللغة الصينية (كما تُحكى في هونغ كونغ وبكين) أو الإنكليزية (كما استعملها شكسبير ونستعملها نحن) حقلاً يمكن للمرء أن ينشيء حوله نظريات علمية متماسكة.

إن تركيز تشومسكي على الرؤية الذاتانية للغة يدخل عمله إلى حقل علم النفس، وفي نهاية المطاف إلى حقل علم الأحياء [البيولوجيا]: فاللغة البشرية هي "موضوع بيولوجي". وفقاً لذلك، ينبغي تحليل اللغة عن طريق ميثودولوجيا [منهجية] العلوم الطبيعية، ولا يوجد متسع لأجل القيود [المفروضة] على الاستقصاء اللغوي خارج تلك التقديرات النموذجية لكافة الأعمال العلمية. رغم أن هذه الميثودولوجيا يتم تطويرها على النحو الأكمل في الفيزياء، وهي صفة مميزة لها، فلا يستتبع ذلك أن اللسانيات يمكن اختزالها إلى الفيزياء أو إلى أي علم آخر من العلوم "العويصة". فهي لها قوانينها وتعميماتها الخاصة بها التي لا يمكن وصفها بلغة الكواركات وأشباهها". إن "الطبيعانية" بهذا المعنى هي مركزية لكل أعمال تشومسكي، وتستبعد صراحة المطالب الثنائوية dualist

بأن على تحليل اللغة أن يستوفي محكات مختلفة عن، أو بالإضافة إلى، محكات الكيمياء أو علم الجراثيم. إن مقياس النجاح بالنسبة للسانيات، كما بالنسبة لأي حقل معرفي تجريبي، ينبغي أن يكون البصيرة التفسيرية وقوة نظرياتها، وليس امتثالها لقيود الفلسفة.

ينتج عدد من التبعات عن فرضيته الطبيعانية: لا يوجد مبرر للافتراض الشائع [القائل] بأن اللغات الطبيعية ينبغي أن تعامل مثل اللغات الاصطلاحية المبتكرة للمنطق أو الرياضيات، لأجل المطالبة بأن تكون قواعد اللغة التي نعزوها إلى الأفراد ينبغي أن تكون سهلة المنال، لأجل اشتراط أن يُختزل العقلي إلى الجسدي.
إن رفض تشومسكي لهذه الثنائوية الفلسفية جلي بشكل صارخ في معالجته لمشكلة العقل - الجسد. فقد كانت المشكلة الأبدية في الفلسفة هي تفسير كيف يمكن للعقلي أن يؤثر على الجسدي، وكيف أن شيئاً ما هو بالتعريف خيالي [غير ملموس] يمكن أن يحدث تغيرات في كيانات محددة الموقع مكانياً: بعبارة أخرى، كيف يمكن للعقل أن يحرك الجسد. لقد فك تشومسكي العقدة الغوردية بالتشديد على مشكلة أكثر أساسية: إن مشكلة العقل - الجسد لا يمكن حتى أن تصاغ. وهذا ليس، كما يفترض عموماً، لأننا نمتلك فهماً محدوداً أكثر مما ينبغي للعقل، بل لأننا لا نمتلك محكات لما يشكّل الجسد. في محاولة جذرية بشكل نموذجي للإيضاح يشير إلى أنه مثلما أدت تبصرات اسحق نيوتن إلى اندثار ميكانيك الاحتكاك، كذلك فإن المفهوم الديكارتي للجسد قد تم دحضه ولم يحل محله شيء منذئذٍ. في غياب مفهوم متماسك "للجسد"، لا تمتلك مشكلة العقل - الجسد التقليدية وضعاً

مفاهيمياً، لذلك لا تظهر أية مشاكل محددة للسببية. بشكل عام أكثر، لا توجد مشكلة ميتافيزيقية خاصة متصلة بالمحاولات الجارية للتعامل بشكل طبيعاني مع الظاهرات "العقلية" (مثل معرفة اللغة)، أكثر مما توجد مشاكل ميتافيزيقية للكيميائيين في تعريف "الكيميائي".

إن المعنى الضمني الآخر لهذه الحجة هو أن المفاهيم الشائعة للاختزال في العلم غير ملائمة. إننا نود بوضوح أن ندمج نظرياتنا في العقلي ـ بما في ذلك اللسانيات على وجه الخصوص ـ مع نظرياتنا في الدماغ وأي حقل آخر ذي صلة. على كل، رغم مثال اختزال البيولوجيا إلى الكيمياء الذي حققته الثورة في البيولوجيا الجزيئية، فإن التوحيد ينبغي ألا يأخذ شكل الاختزال. مما له دلالة أكثر أن الجزم بأن الفيزيائي أو الفيزيولوجي له نوع من الأولوية إنما يُساء فهمه: فالنظريات في اللسانيات غنية وتقدم تنبؤات محددة في حقل واسع، مثلها في ذلك مثل نظريات الكيمياء أو البيولوجيا. إن محاولة اختزال اللسانيات إلى علم الأعصاب في الحالة الراهنة لفهمنا من غير المحتمل، إذاً، أن تكون مثمرة. تأمّل المثال المحدد على فهم المعاني الضمنية للنشاط الكهربائي في الدماغ، عندما يقاس بـ "قدرات الدماغ المرتبطة بالحدث" (ERPS)*.

تمتلك اللسانيات فهماً معقولاً لأنواع مختلفة من البنية اللغوية "الشاذة" deviant، حيث يُعرّفُ الشذوذ بلغة الانحراف عن

* الأحرف الأولى من كلمات العبارة الإنكليزية: Event –Related brain potentials

مبادئ النحو، ويبدو الآن أن هذه الاختلافات تترابط مع أنماط بعينها من النشاط الكهربائي في الدماغ. هذه الترابطات اعُتبرت أنها توحي بأن الحقائق اللغوية يمكن تفسيرها بلغة الأعصاب. أما هنا، وفي طيف من الحالات الأخرى، فإن اللسانيات هي التي تمكننا من فهم أي معنى للنتائج على الإطلاق، عندما لا توجد نظرية كهرو ـ فيزيولوجية. من المستحيل أن نعبر عن التعميمات المثيرة للاهتمام حول اللغة بلغة منشآت الخلايا أو العصبونات مثلما يستحيل أن نعبر عن التعميمات حول الجيولوجيا أو علم الأجنة بلغة منشآت فيزياء الجسيمات. في الحالتين تذهب المطالبات بالاختزال أبعد مما ينبغي.

في بعض المجالات، فإن التوحيد العلمي، ناهيك عن الاختزال، قد يكون مستحيلاً من حيث المبدأ. هذا ليس ببساطة ادعاءً بدهياً بأننا عاجزون عن فهم بعض الحقول، بل إن النقطة الأكثر حذاقة هي أنه ثمة جوانب من بنيتنا تكون عصية على المنال بشكل متأصل بالنسبة لذكائنا. إننا لا نشك في أن الجرذان عاجزة ذهنياً عن التعامل مع مفاهيم مثل العدد الأولي prime number، وينبغي ألا نشك في أن بنيتنا المحددة وراثياً قد نتج عنها وجود متعض عاجز بشكل مماثل عن فهم بعض الحقول. على حد تعبير تشومسكي. فالعالم الذهني يقسم إلى "مشاكل" problems و"ألغاز" mysteries. الأولى يمكن (أو لا يمكن) أن تخضع لتنظيرنا؛ أما الثانية فإنها لا تخضع له أبداً. إن ملكة تشكيل العلم Forming – Science Faculty لدينا قد تمكننا من الحصول على بعض الفهم النظري للرؤية واللغة وعلم الوراثة وهلم جرا. لكن ذلك لا يستتبع

أن كافة الحقول ستكون سهلة الانقياد كذلك، وبعض القضايا ـ مثل قضايا الإرادة الحرة أو التوصيف الدقيق للوعي ـ قد تكون خارج نطاق قدراتنا الذهنية وتبقى ألغازاً، تماماً مثلما أن العدد الأولي هو بشكل مفترض لغز بالنسبة للجرذ. ليس الزعم هو أن بإمكاننا أن نتبصر في هذه المجالات، بل لا يمكننا (ربما) أن نحرز أي تبصر علمي وسنكون بحاجة للاعتماد على عبقرية الروائيين أو الشعراء لأجل الحصول على فهم أكبر.

أحد المجالات التي يكون فيها تشومسكي متشائماً بشأن التوصل إلى فهم علمي هو استعمالنا للغة كمقابل لمعرفتنا باللغة. فقد دشنت أعماله على مدى نصف القرن المنصرم دراسة "كفاية" نا competence (لنستخدم المصطلح الذي يستبدل الآن بمصطلح لغة الأنا I- Language)، أما كيف نضع هذه الكفاية قيد الاستخدام في أدائنا فلا يزال إلى حد كبير كتاباً مغلقاً، وربما لغزاً. هذا ليس [معناه] أن ننكر أننا قد أحرزنا تقدماً في فهم كيف يعالج process البشر الجملَ التي يسمعونها.

إن كل ما يلي قد أمّن بعض الفهم: الدراسات التجريبية والنظرية لإدراك اللغة وإنتاج اللغة؛ التبصرات [المأخوذة] من اكتساب اللغة وتغيّر اللغة؛ وتحليل وظيفة الدماغ في العينات البشرية السوية والمرضية. ثمة حتى تبصرات أولية في كيف نفسر ألفاظاً بعينها في السياق، لكننا لا نزال بعيدين بعد رينيه ديكارت عن معرفة لماذا يختار شخص ما أن يكون رد فعله على لوحة بعبارة "كم هي جميلة" أو "إنها تذكرني بلوحات بوش Bosch"، بدلاً من أن يكون رد فعله بالسكوت.

تدعى هذه المجموعة من المقالات "آفاق جديدة"، لكن كثيراً من المواضيع التي نوقشت أعلاه هي المواضيع التي كانت بؤرة الاهتمام لسنوات عديدة. فمنذ فتحه المبكر في تاريخ الأفكار في كتاب ***اللسانيات الديكارتية*** (1966، Cartesian Linguistics)، أظهر تشومسكي قدرة مذهلة على وضع أفكاره ضمن منظور تاريخي أوسع وعلمي عام. إن أبحاثه التاريخية تفيد ليس فقط في جعل اقتفاء السوابق الفكرية ممكناً، بل تفيد أيضاً في تسليط الضوء على التطورات في اللسانيات بمقارنتها مع تلك التطورات في العلوم التقليدية، وخصوصاً تاريخ الكيمياء. وفي الوقت نفسه يربط هذه التطورات بالعمل الجاري في علم النفس والفلسفة والرياضيات والعلوم المعرفية بشكل عام أكثر.

ثمة جانبان لما هو جديد. فمن ناحية أولى، ثمة أنواع جديدة من الأدلة لأجل المواقف القديمة؛ ومن ناحية أخرى، ثمة الآن إمكانية لطرح الأسئلة، التي كان من المستحيل سابقاً حتى صوغها. ونحن لا نمتلك بعدُ أجوبة على هذه الأسئلة، لكن المقدرة على طرحها هي بحد ذاتها تقدم مثير.

يمكن إيضاح الجانب الأول بالرجوع إلى زعم طالما كان تشومسكي شهيراً (أو بارزاً) بسببه: أي، إن جزءاً أساسياً من معرفتنا باللغة يتحدد وراثياً، أو يكون فطرياً. إن كون شيء لغوي فطرياً مبرهن ذاتياً من حقيقة أن الأطفال يكتسبون اللغة - لكن القطط والعناكب والصخور لا تفعل ذلك. كان الكثير من عمل تشومسكي في الـ 40 عاماً الماضية مكرساً لتوضيح التفاصيل التقنية لما يتعين علينا بالضبط أن نعزوه إلى "الحالة البدئية" لملكة اللغة

البشرية لشرح تلك الحقيقة الأولية. إن التطورات في اللسانيات والحقول المعرفية المتصلة بها قد أحدثت وضعاً توجد فيه الآن "إمكانية بعيدة" لتقديم الأدلة من علوم الدماغ والوراثة لإظهار كيف يحدث هذا التحديد، وبالتالي [الإمكانية] لتوحيد هذا الجزء من اللسانيات مع العلوم الأخرى. هذا التوحيد ليس أساسياً لعمل تشومسكي، لكن سفسطة لسانياته جعلته مشروعاً قابلاً للتطبيق.

الجانب الثاني هو إمكانية ربط معرفتنا باللغة بوصف بقية معارفنا. يتطلب شرح كيف تحقق ذلك تلخيصاً لتاريخ حديث صغير. إذ يهيمن على اللسانيات التوليدية تياران هما: نظرية "المبادئ والمتغيرات" كما يتضح في كتاب ***معرفة اللغة*** (1986) The Knowledge of language ونظرية الحد الأدنى [الأدنوية] Minimalism ـ كما يتراءى بأوضح شكل في كتابه ***البرنامج الأدنوي*** (1995) The Minimalist Program. على مدى سنوات كثيرة كرس تشومسكي وأتباعه جهداً كبيراً لاستنباط إواليات اصطلاحية وافية لوصف التعقيد الهائل للغات الطبيعية، [وهو] تعقيد يصبح أكثر إثارة للدهشة كلما نظر المرء إلى اللغات الفردية. كان بعض هذه الحيل الاصطلاحية ناجحاً بشكل لافت، وبالأخص التحويلات ومفهومي البنية العميقة والبنية السطحية، وحقق رواجاً شائعاً خارج اللسانيات، بين الفلاسفة وعلماء النفس، وحتى بين الناس العاديين. كانت مشكلة هذه المرحلة من النظرية هي أن التعقيد الناجم جعل الأمر يبدو كما لو أن اللغات غير قابلة للتعلّم: كيف يمكن لطفل أن يفهم هذا التعقيد المثير في السنوات القليلة التي يحصل فيها الاكتساب الأول للغة؟

كان جواب تشومسكي هو أن ثمة كماً فطرياً من معرفتنا باللغة يفوق ما كان يُظن سابقاً. إن لغات محددة كالإنكليزية أو اليابانية من الواضح أنها لا يمكن أن تكون فطرية ـ كما تشهد على ذلك الاختلافات المحدَثة بيئياً بينهما ـ لكن مسار اكتساب اللغة القياسية يجعل من الواضح بالقدر نفسه أن قدراً كبيراً منها لابد أن يكون فطرياً. ليس معنى ذلك بالضبط أن ثمة تقييدات على نوع الفرضية التي يمكن أن يضمرها الطفل الذي يتعلم لغته الأولى، فكل الخواص الجوهرية للغة تكون داخلة في تركيبها built - in منذ البداية، أي إن الطفل لا حاجة به لأن يتعلم من اللاشيء خواص اللغة التي يكون معرَّضاً لها؛ بالأحرى، إنه يختار فحسب خيارات بعينها من مجموعة محددة مسبقاً. على سبيل المثال، تكون اللغات إما "أولية الفاعل" head – first (مع الفعل يسبق المفعول به، كما في الإنكليزية) أو "آخرية الفاعل" head – last (مع المفعول به يسبق الفعل، كما في اليابانية). إذ يولد الطفل وهو عارف أنه يوجد بديلان، وما عليه أن يفعله مكافئ لتحريك مفاتيح علبة المفاتيح لـ "تثبيت متحولات" اللغة التي يتعلمها. إنه لذو دلالة أن هذا الحل للتوتر بين الوصف والتفسير يعكس التطورات في العلوم الأخرى. ففي علم المناعة immunology تم استبدال النظرية "المنورة" لنشوء مضادات الأجسام antibodies، بنظرية "انتقائية" استدعى فيها وجود مولدات الأضداد antigens، حتى المنتجة صناعياً منها، وجود مضادات الأجسام التي كانت موجودة قبلاً في المتعضي قبل أن يتعرض للتأثير الخارجي. إن التوازي [هنا] مع اكتساب اللغة هو مذهل.

ربما تكون نظرية المبادئ والبارامترات التي تم تطويرها على مدى العقدين الماضيين أول مقاربة جديدة فعلاً للغة الألفين وخمسمائة سنة الأخيرة. إنها مختلفة مفاهيمياً للغاية عن التفسيرات السابقة للغة، سواء كانت تفسيرات تقليدية أم توليدية، في أن هذه هي المرة الأولى، بالنسبة لتشومسكي، التي يمكن فيها للنظرية اللسانية أن تسوغ صفة "الثورية" التي أُضفيت بشكل أكثر اعتيادية على أعماله في الخمسينات. إن الطبعة الحالية من المبادئ والبارامترات - المختلفة قبلئذ اختلافاً كبيراً عن طبعة أوائل الثمانينات - إنما هي متضمنة في البرنامج ***الأدنوي*** minimalist للتسعينيات. هذه محاولة جذرية لإعادة النظر في أسس الحقل المعرفي، تتجنب كل المنشآت التي ليست ضرورية مفاهيمياً أو تفرضها الضرورة الأمبريقية: المتطلبات العادية للعلم. كانت إعادة النظر هذه تعني التخلي عن الكثير من الآليات الوصفية للطبعات السابقة من النحو التوليدي - حتى الابتكارات الناجحة مثل مستوى البنية العميقة ومستوى البنية السطحية - وفرضت البحث عن تفسيرات جديدة.

إن تشومسكي حريص على التأكيد أن ***الأدنوية*** ليست نظرية بعد؛ إنها مجرد برنامج يعرّف نوعاً محدداً من السعي البحثي. إذ يجب على أية نظرية لغة أن تقدم بالضرورة ربطاً بين الصوت والمعنى، بين تمثيلات اللفظ وتمثيلات الخواص المنطقية للكلمات والجمل. وفقاً لذلك، يجب على النحو - لغة الأنا - أن يعرّف مستويين من التمثيل، يدعيان PF، اختصاراً لـ "الشكل الصوتي" phonetic Form، وLF، اختصاراً لـ "الشكل المنطقي" Logical

Form، ويحدد الصلة بينهما. من الناحية المثالية، ينبغي ألا تكون هناك مستويات أخرى وينبغي أن يكون تعقيد هـذه الصـلة في حـده الأدنى. هذا يوحي بسؤالين كـان مـن المسـتحيل الانكبـاب عليهمـا سابقاً بشكل جدي أو ربمـا حتـى صـياغتهما. الأول، كيـف يكـون الحل الجيد لهذه المشكلة المفاهيمية لربط الصـوت والمعنـى هـو لغـة بشرية؟ هل مـن الصـواب أن نفـترض أن أنحـاء (ج نحـو) اللغـات الطبيعية هي المثلى بمعنى ما؟ الثاني، ما هي العلاقات بـين ملكـة اللغة والأنظمة الأخرى للعقل/ الدماغ؟ على وجـه الخصـوص، هـل يمكـن لأيـة شـذوذات متصـوَّرة عـن الأمثليـة optimality في الأولى (ملكة للغة) أن تُعزى إلى الشـروط الـتي تفرضـها الثانيـة (الأنظمـة الأخرى)؟

يعالج تشومسكي هذه القضايا بلغة السـؤال: "كـم تكـون اللغـة" كاملة".؟ مع الجواب، المـثير للمفاجـأة لأجـل النظـام البيولـوجي، أنها قريبة جداً من الكمال. ما يعنيه هذا هو أن أيـة شـذوذات عـن الضرورة المفاهيمية الجلية من قبل ملكة اللغة (أي، لغة الأنا) إنمـا تحرضها شروط مفروضة من الخـارج. يطلـق تشومسـكي علـى هـذه الشروط اسم "شروط المقروئيـة" Legibility: الشـروط الـتي تفرضـها الحاجة لأجل الأنظمة الأخرى العقل / الدماغ لاستعمال التمثـيلات التي تقدمها ملكة اللغة. على وجه الخصوص، يشير هذا إلى حاجة الأنظمة الإفصاحية articulatory والإدراكية الحسية Perceptual لاستغلال تمثـيلات PF، وحاجـة النظـام المفـاهيمي لاسـتغلال LF. على هذه الخلفية، فإن سيرورات الانتقال أو "الانزيـاح" مـن النـوع الـذي يُشـاهد في المواقـع المختلفـة الـتي تحتلـها كلمـة Clinton في

الجملـتينThey elected Clinton [انتخبـوا كلنتـون] و Clinton was elected [انتُخِبَ كلنتون] يبدو أنها غير ضرورية مفاهيميـاً. لماذا تستغل اللغات الطبيعية مثل هذه الحيـل الغريبـة تمامـاً علـى اللغات الاصطناعية للمنطق والرياضيات؟ إحـدى الإجابـات المؤقتـة هي أن الانزياح يمكن أن تحرضه بشكل معقول الحاجة إلى تركيـب المعلومات لأجل التواصل الأمثل. إذا كان هذا، بالفعل، هو التفسير الصحيح يبدو عندئذٍ كما لو أن خاصية ملكية اللغة تكـون مفروضـة من خارج النظام، من جزء آخر من العقل/ الدماغ.

لا يتوقف تشومسكي هناك، بل يحاول ربط هذا الـنقص الظـاهر للغة بنقص آخر. إن اللغات الطبيعية مليئة بالظاهرات التي تسبب المشاكل لمتعلمي اللغات الثانيـة، وتسـبب الغضـب للفلاسـفة. ثمـة تعقيـدات مورفولوجيـة مثـل البارادايغمـات التصـريفية والأفعـال اللاقياسية، التي يبدو أنها لا تمتلك معنى حقيقياً خاصاً بها وأنها عديمة الفائدة دلالياً. إنها نقص آخر، يحتّم التفكر في السمات غير القابلة للتفسير؛ أي السمات التي بلا تفسير دلالي. مع ذلك، فـإن النظرية التركيبية syntactic الراهنة تخلق استعمالاً منهجيـاً لمثـل هذه السمات غير القابلة للتفسير: إن وظيفتها هي قيادة سـيرورات الانتقال التي رأينا للتو أنها تكون محرَّضة من خـارج ملكـة اللغـة. إذا كانت هذه التخمينات على المسار الصحيح فإنها تتيح الإمكانية المـثيرة لاختـزال نـوعين مـن "الـنقص" الظـاهر إلى نـوع واحـد. في الحقيقة، إذا كانت الحجـة صـحيحة، يكـون "الـنقص" في الواقـع "ظاهرياً" فقط. نظراً للتقييدات التي تفرضها الأنظمة الأخرى للعقل/

الدماغ على الحلول لربط الصوت والمعنى، فقد لا تكون هناك أية بدائل اخرى، هكذا فإن الضرورة المفاهيمية تفسر شكل النحو ككل.

أخيراً، أعود إلى المقالات المنفردة. إن الفصل الافتتاحي "آفاق جديدة في دراسة اللغة" (الفصل الأول) هو مدخل بليغ، وغير تقني عموماً، إلى تفكير تشومسكي الحالي حول طبيعة ملكة اللغة، يضع أفكاره في إطارها التاريخي والفكري: التراثين الغاليلي والديكارتي. إنه يكشف عن ميله المألوف الآن إلى الأمثلة البسيطة واستخلاص النتائج العميقة منها. إذا كانت مكتبة ما تحتوي على نسختين من رواية تولستوي *الحرب والسلم*، وأخذت كل واحدة منهما من قبل شخص مختلف، فهل يكونان قد استعارا الكتاب نفسه أم كتابين مختلفين؟ إن أي جواب من هذين الجوابين هو صحيح تبعاً لما إذا كنا ننظر إلى الكتاب كمادة أم ككيان [شيء] مجرد. قد يبدو هذا مبرهناً ذاتياً لكن، كما يتابع تشومسكي كشفه، ثمة معاني ضمنية خطيرة [لذلك] بالنسبة لفلسفة اللغة. ثمة ملاحظة مذهلة أخرى، هي أن معرفتنا بأن أشياء مثل الكتب يمكن النظر إليها بهاتين الطريقتين المختلفتين يبدو أنها تأتينا إلى حد كبير بشكل مستقل عن الخبرة. وفقاً لذلك، فإننا نعاني فقراً في الحجة الحافزة لصالح التحديد الفطري لمثل هذه المعرفة. إن كثيراً من المقال ينبغي أن يكون سهل المنال بالنسبة للشخص العادي، لكن فيه قدر كبير مما يقدمه للشخص الخبير.

إن "تفسير استعمال اللغة" (الفصل الثاني) هو نقد لمواقف الفلاسفة الموضوعانيين externalist، وخصوصاً هيلاري بوتنام ودفاع عن الطبيعانية في استقصاء اللغة. يقدم تشومسكي سلسلة

طويلة من الأمثلة الجديدة ليثبت الراي [القائل] بأن أنجح معالجة للغة إنما تكون بلغة الحسابات، compututatations الجارية على التمثيلات الباطنية، العقلية. هذا هو، بالطبع، الحقل الذي تكمن فيه أعظم مساهماته التقنية، لكن المناقشة لا تفترض مسبقاً أي خبرة في النظرية التركيبية. إن جزءاً من عرضه يتضمن تعميماً للمفهوم الذاتاني للغة الأنا على الحقل الابستمولوجي، معيداً إلى الأذهان مفهوم اعتقاد الأنا belief -I مرة أخرى، إن الفرضية توضحها الأمثلة البسيطة، لكن الصارخة، على عمق وتفصيل معرفتنا بمفردات معجمية شائعة مثل house و near. ففي جملة [جون يطلي البيت البني].

John is painting the house brown

نعرف ظاهرياً بدون إرشاد ـ أن السطح الخارجي للبيت هو الذي يتم طلاؤه، وليس من الداخل. لكن معنى house لا يمكن حصره. بسطحه الخارجي.

إذا كان شخصان على بعدين متساويين من السطح، أحدهما في الداخل والآخر في الخارج، فإن الذي في الخارج هو وحده الذي يمكن وصفه بأنه "قرب" البيت. مرة أخرى، كما تم إثباته في التجارب العملية، حتى الأطفال الصغار جداً يبدو أنهم يعرفون مثل هذه الحقائق، ما يوحي بأن المعرفة تكون بمعنى ما متوفرة مسبقاً للمتعضي.

يمضي الفصل الثالث، "اللغة والتفسير"، بهذه الأفكار بعيداً، ويطور، بشكل خاص، حججه ضد ويلارد كواين ومايكل دومت وغيرهما في قضايا مثل لا حسمية [لا قطعية]

الترجمة، واللغة العمومية مقابل اللغة الخصوصية، وطبيعة المعرفة الضمنية ومنزلة "القواعد" اللسانية. يأخذ تشومسكي أمثلة تركيبية بسيطة برزت على نطاق واسع في الأدب التقني ويستعملها ليجادل لصالح طيف من المواقف الفلسفية. تأمل تفسير جملة

Mary expects to feed herself (حيث Mary و herself يعبران عن الشخص نفسه)، في مقابل الجملة المماثلة لها جزئياً

I wonder who Mary expects to feed herself حيث يكون هذا التفسير المشترك الدلالة مستحيلاً. إن تشومسكي يوضح عددا من المعاني الضمنية coreferential لهذه الأمثلة وتحليلها. إنها تكذب الزعم الكوايني بأنه لا توجد "حقيقة للمادة"؛ إذ يمكن استعمالها [الأمثلة] لتأييد التمييز التحليلي ـ التركيبي؛ إنها تثير مشاكل لأجل أي مفهوم لكليانية المعنى meaning holis؛ وهي تشير إلى استقلال ملكتنا المعرفية عن الجوانب الأخرى لنظامنا الاعتقادي.

يعود مقال "الطبيعانية والثنائوية في دراسة اللغة والعقل" (الفصل الرابع) إلى الهجوم على الفلاسفة بسبب تبنيهم الضمني لـ "فرضية التشعب" bifurcation: الرأي [القائل بأن] دراسة اللغة ينبغي أن تكون عرضة لمعايير وشروط مضافة إلى تلك الشروط التي تطبق لأجل العلوم الطبيعية عموماً. مبتدئاً بملاحظة أن مصطلح "عقلي" يميز ببساطة جانباً من العالم الذي نرغب في إخضاعه للبحث العلمي، يباشر تشومسكي تقديم تاريخ أفكار محكم ـ خصوصاً فيما يتعلق

بدراسة اللغة - من ديكارت حتى الوقت الحاضر، مستنتجاً التشابهات بشكل خاص من الكيمياء ودراسة الرؤية. إن المعنى الضمني لهذا التمرين هو أن مشكلة العقل - الجسد لا يمكن صوغها في كلمات؛ فالدور المفترض للوعي في تعريف ما يشكّل معرفة اللغة لا يشجع عليه، وأن التفسير الذاتاني للمعرفة اللغوية هو وحده القادر على تقديم أي شرح لقدراتنا.

يعود الفصل الخامس "اللغة كشيء طبيعي" إلى عدد من القضايا نفسها، لكن مع التركيز بشكل مباشر أكثر على اللغة ومعرفة اللغة. إن اللسانيات هي إحدى العلوم الطبيعية، وتشومسكي يحذو حذو أسلافه الفكريين في تلخيص واسع المعرفة وتنويري لتاريخ العلم. رغم هذا الزعم المبرر بشكل متكرر حول المنزلة "العلمية" للسانيات، فإن تشومسكي يكون فظاً في معالجته للمساعي الاختزالوية لاختزال اللغة إلى الفيزيولوجي أو الفيزيائي. إن المطلوب هو التوحيد unification، والاختزال ليس سوى حالة نادرة من هذا الاندماج. يتضمن مجال اللسانيات الحالية مسائل كيف يتعلم الأطفال لغتهم الأولى، وكيف يستعملها البالغون. هنا يورد ملاحظتين مثيرتين للدهشة. الأولى، لو كانت اللغات قابلة للتعلم حقاً، لكان ذلك اكتشافاً تجريبياً مذهلاً؛ الثانية، أن اللغات تبدو في جزء منها غير صالحة للاستعمال، كما هو جلي من حقيقة أن أنظمة الأداء تفشل غالباً. تنهي المقالة بمناقشة رصينة لحدود البديهية intuition. فالبديهيات أو المحاكمات اللغوية هي أساسية للمحاججة في اللسانيات، لكن تشومسكي يستنتج أننا لا يمكن أن تكون لدينا بديهيات متماثلة عندما يتعلق الأمر بالمفردات التقنية للرياضيات أو

الفلسفة، وأن اعتماد الفيلسوف على الاحتكام إلى البديهيات حول توأم الأرض Twin- Earth، على سبيل المثال، هو ضار من الناحية المنهجية.

يعالج الفصل السادس، "اللغة من منظور ذاتاني" بعض القضايا نفسها لكن مع أمثلة مختلفة، ومع مناقشة مطولة للفرق بين الاستقصاء العلمي الطبيعاني وبين ما يدعى غالباً "العلم الشعبي" Folk science. ليست العلاقة بين الإثنين مبرهنة ذاتياً. ففي الفيزياء لا يتوقع المرء من وجهات النظر الشعبية أن تنم عن بنية نظرية الخبراء، وفي حين أن العلم الإثني ethnoscience هو بحد ذاته حقل مثير للاستعلام، فلا يوجد أي مبرر للافتراض المسبق أن مفاهيم وبنى السجال ما قبل العلمي ينبغي أن تحول بدون تغيير إلى نظريات شكلية للغة الأنا. بشكل محدد أكثر لا يوجد مبرر لفرض شروط قابلية الوصول إلى الوعي حول القواعد التي تصف لغتنا. فإذا قالت طفلة I rided my bike [ركبت دراجتي] فلا مبرر لنا لإنكار أنها تتبع القاعدة النظامية لتشكيل صيغة الماضي ولدينا مبرر أقل لافتراض أنها مدركة للحقيقة. كما هو الحال دائماً، فإن الاستنتاجات العميقة والمعقدة ـ حول عقم التصور الموضوعاني للغة وضرورة التصورات الذاتانية، إنما تنبع من أمثلة بسيطة.

يواصل الفصل الأخير "استكشافات ذاتانية" (الفصل السابع) عرض منظوره الذاتاني، مقدما أمثلة وحججاً جديدة، وموسعاً الانتقادات الموجهة إلى طيف أوسع من الأهداف، وخصوصاً مظاهر توأم الأرض. بالإضافة إلى ذلك، فإنه يربط المناقشة بشكل أكثر إحكاماً بعمله الحديث في البرنامج الأدنوي "minimalist وينتهي

بمناقشة مدعمة بالبراهين لمجال وأهمية مفاهيم الفطرية Innateness.

بعيداً عن عمله السياسي (الغائب كلياً، هنا)، فإن تشومسكي معروف على النحو الأفضل بسبب تنظيره التركيبي. يتضمن كثير من المقالات الواردة هنا أمثلة واضحة ومحيرة من النوع الذي يشتهر بتركيبه؛ قارن بين الجملة

John was too clever to Catch

والجملة المرادفة لها **John was too clever to be caught**

بين الجملة: **John was clever to be caught**

والجملة المستحيلة **John was clever to catch**

من المدهش بالإضافة إلى هذه الأمثلة التركيبية أن الكثير من الأمثلة الواردة في هذه المقالات هو معجمي، مع وجود حجج بارعة قائمة على مجال من المفردات البسيطة بشكل خادع. إن الحجج منظمة بنفس المنطق القوي السابق، والاستنتاجات تؤدي إلى نفس الرؤية العلمية التي كان يدافع عنها على مدى أربعين عاماً، لكن الحجج جديدة.

إن ما هو مؤثر في كتابة تشومسكي ليس فقط اتساعها المرعب ومداها الكبير بل إنه بعد نصف قرن لا يزال يمتلك القدرة على الإدهاش: من ملاحظة أن الكائنات البشرية ليست نوعاً طبيعياً إلى أهمية اللغة اليابانية لتحليل اللغة الإنكليزية؛ من رفض اختراعه

المشهور "البنية العميقة" إلى حدسه بأن تلك اللغة، رغم طبيعتها البيولوجية، قد تكون قريبة من الكمال؛ من التوتر بين البديهة common sense والعلم إلى المعاني الضمنية لما نعرفه حول بيت بني اللون أو فنجان من الشاي. كل شيء يتفاعل ليعطي رؤية فريدة وطاغية للغة والعقل.

مدخل

خلال نصف القرن المنصرم، حصل استعلام مكثف ومثمر إلى حد كبير غالباً في الملكات المعرفية البشرية وطبيعتها والطرق التي تدخل بها في الفعل والتفسير. إنه يتبنى عموماً الطروحة القائلة بأن "الأشياء العقلية، والعقول في الواقع، هي خواص ناشئة للأدمغة"، في حين يقر بأن "تلك النشوءات تنتجها المبادئ التي تتحكم بالتفاعلات بين الأحداث من المستوى الأدنى ـ المبادئ التي لم نفهمها بعد" (mmount castle 1998:1). إن كلمة "بعد" تعبر عن روح التفاؤل الذي كان، على حق أم على خطأ، موضوعة دائمة طوال هذه الفترة.

تعيد الطروحة إحياء فرضيات القرن الثامن عشر التي قدمت لأسباب قاهرة تماماً: خصوصاً الاستنتاج الذي يبدو أن نيوتن قد توصل إليه، [وأثار] فزعاً كبيراً، وهو أن "الفيزياء المادية materialist أو الميكانيكية الخالصة" هي "مستحيلة" (Koyré 1957: 210)؛ والمعاني الضمنية لافتراض لوك Locke أن الله ربما

اختار أن "يضفي على المادة ملكة التفكير" تماماً مثلما "ألحق بالحركة آثاراً لا يمكننا بأي شكل من الأشكال أن نتصور الحركة قادرة على إحداثها" (Loucke 1975: 541 Book IV, CH3, SECTION 6). إن سوابق أوائل العصر الحديث، والفكر الكامن وراءها، تستحق برأيي اهتماماً أشد مما تناله عموماً. من الجدير بالذكر أيضاً أن النقص في فهم "تفاعل العقل/ الدماغ" ليس الجانب الوحيد الذي قيّد التقدم منذ نشوء الثورات العلمية الحديثة. ففي حين أن الاستعلام في الملكات العقلية العليا قد قطع شوطاً كبيراً في بعض الحقول، فإن النتائج لا ترقى إلى [مستوى] القضايا التي عُدّت، بشكل معقول برأيي، في صلب المشكلة. بعض هذه المواضيع سيتم التطرق إليه في الفصول التالية.

أحد الحقول التي حصل فيها تقدم ملموس هو دراسة اللغة، بالأخص في العشرين سنة الماضية. هنا أيضاً، تبقى الأسئلة التقليدية في الأفق، إن وُجد حتى. إن فهمي لهذا العمل هو أنه يسلم جدلاً (بشكل ضمني غالباً) بنسخة ما من الطروحة حول العقل / الدماغ التي ذكرت للتو، ويمكن تفسيره بشكل معقول بوصفه جزءاً من علم النفس أو، بشكل أوسع، من البيولوجيا البشرية. لقد اصطلح البعض بشكل متفق عليه على تسميته باسم "اللسانيات الحيوية" biolinguistics (Jenkins 1999). إذ أن موضوعه هو الحالات الخاصة للبشر، وبشكل أعم، أدمغتهم: لنطلق عليها اسم "الحالات اللغوية" Linguistic states. إنه يسعى إلى الكشف عن طبيعة وخواص هذه الحالات، وتطورها وتنوعها وأساسها في الموهبة الطبيعية البيولوجية الفطرية. هذه

الموهبة الطبيعية يبدو أنها تحدد "ملكة اللغة" التي هي مكوّن [مقوم] مميز لملكات عقلية أرقى (كنظام، أي إن عناصرها قد تمتلك كل أنواع الوظائف) وهي "خاصية نوعية" specie - property مشتركة بين كافة البشر إلى [درجة] التقارب الشديد، على نطاق واسع. إن ملكة اللغة هي ارتقاء تطوري حديث جداً و، كما هو معروف، معزول بيولوجياً في نواحٍ حاسمة. فالاستعلام اللغوي الحديث ينشد الاتحاد مع المقاربات الأخرى لخواص الدماغ، أملاً في أن تكتسب الشحطة المائلة " / " في عبارة "عقل / دماغ" يوماً ما مضموناً أكثر جوهرية. إنه يُعنى ليس فقط بطبيعة وارتقاء الحالات اللغوية، بل أيضاً بالطرق التي تدخل بها في استعمال اللغة. إن ما يتضمنه ذلك من حيث المبدأ، أحياناً في الحقيقة، هو علاقات هذه الحالات بوسط خارجي (الانتاج والإدراك الحسي)، ودورها في التفكير والتحدث عن العالم والأفعال والتفاعلات البشرية الأخرى. في بعض الحقول، خصوصاً فيما يتعلق بمشاكل الدلالة والمعنى في اللغة الطبيعية، تبدو المقاربة لي أنها توحي بأن إعادة التفكير الواسعة النطاق قد تكون مشروعة، لأسباب ستناقش في الفصول التالية.

يتعين، بالطبع، إظهار أن هذه المقاربة "الطبيعانية" هي طريقة ملائمة لاستقصاء ظاهرات اللغة واستعمال اللغة. إن الطروحة الأكثر طموحاً هي أنها مفترضة سلفاً (على الأقل بشكل ضمني، وأحياناً في مواجهة الإنكار الصريح) عن طريق العمل البنّاء عموماً في هذه الحقول؛ وأن شيئاً مماثلا يصح في دراسة الملكات المعرفية الأخرى. لابد أيضاً من إظهار أن الانتقادات مضللة، بما في ذلك تلك

الانتقادات الواسعة الانتشار والمؤثرة. إنني أعتقد أن كل ذلك معقول إلى حد ما. إن المقالات التالية، التي تقوم في معظمها على الأحاديث التي [أجريتها] على مدى السنوات القليلة الماضية، تحاول تقديم بعض المبررات لهذه الاستنتاجات، ورسم بعض الاتجاهات التي تبدو لي ملائمة وتستحق الاستكشاف.

الفصل الأول

آفاق جديدة في دراسة اللغة

إن دراسة اللغة هي أحد أقدم فروع الاستعلام المنهجي، إذ تعود في أصولها إلى الهند واليونان الكلاسيكيتين، مع تاريخ غني ومثمر من الإنجازات. من وجهة نظر مختلفة، إنها حديثة العهد تماماً. فمشاريع الأبحاث الكبرى في يومنا هذا لم تأخذ شكلها إلا منذ حوالي 40 عاماً، عندما تم إحياء الأفكار الموجهة للتراث وأعيد بناؤها، مفتتحة الطريق لما أثبت أنه استعلام مثمر جداً.

من غير المفاجئ أن تكون اللغة قد مارست مثل هذه الفتنة على مدى سنوات. إذ تبدو ملكة اللغة البشرية "خاصية نوعية" تختلف قليلاً فيما بين البشر وليس لها شبيه ذو أهمية في أمكنة أخرى. ربما يوجد أقرب أشباهها لدى الحشرات، على مسافة تطورية تبلغ مليون سنة. لا يوجد مبرر جدي اليوم لتحدي الرأي الديكارتي القائل بأن القدرة على استخدام الإشارات اللغوية للتعبير عن الأفكار المكونة بحرية تشكل "الفارق الحقيقي بين الإنسان والحيوان"، أو الآلة، سواء "كنا نعني "بالآلة" الإنسان الآلي automata الذي أسر مخيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر، أو تلك التي تقدم حافزاً للفكر والمخيلة اليوم.

علاوة على ذلك، فإن ملكة اللغة بشكل عام تدخل في كل مجال من مجالات الحياة البشرية والتفكير والتفاعل البشريين. إنها مسؤولة إلى حد كبير عن حقيقة أنه في العالم البيولوجي فإن البشر وحدهم الذين يمتلكون تاريخاً، وتطوراً ثقافياً وتنوعاً ذا تعقيد وغنى، وحتى نجاحاً بيولوجياً بالمعنى التقني بحيث أن أعدادهم [باتت] هائلة. إن العالم المريخي الذي يرصد الأفعال الغريبة على الأرض من الصعب عليه أن يتجنب الإصابة بالصدمة من بروز وأهمية هذا الشكل الفريد ظاهرياً من التنظيم الفكري. ما هو أكثر طبيعية حتى هو أن الموضوع، بألغازه الكثيرة، لابد أن يكون قد أثار فضول أولئك الذين يسعون إلى فهم طبيعتهم الخاصة ومكانتهم ضمن العالم الأوسع.

تقوم اللغة البشرية على خاصية أولية تبدو أيضاً معزولة بيولوجياً: إنها خاصية اللامحدودية [اللانهائية] infinity المتفردة، التي تتكشف بشكلها الأنقى عن طريق الأعداد الطبيعية 1، 2، 3،... إن الأطفال لا يتعلمون هذه الخاصية؛ فما لم يمتلك العقل المبادئ الأساسية قبلاً، لا يمكن لأية كمية من الأدلة أن توفرها. بشكل مماثل، لا يتعين على أي طفل أن يتعلم أنه توجد جمل من ثلاث وأربع كلمات، ولكن لا توجد جمل من ثلاث كلمات ونصف، تستمر في ذلك إلى الأبد؛ من الممكن دوماً أن نركب جملة أكثر تعقيداً، ذات شكل محدّد ومعنى. هذه المعرفة لابد أن تأتينا من "اليد الأصلية للطبيعة"، على حد تعبير ديفيد هيوم (David Hume 1748/ 1975: 108, section 85) كجزء من موهبتنا الطبيعية البيولوجية.

هذه الخاصية أسرت اهتمام غاليليو، الذي اعتبر اكتشاف وسيلة لتوصيل "أفكارنا الأكثر سرية إلى أي شخص آخر بعدد قليل قدره 24 حرفاً" (Galileo 1632/ 1661) أعظم الاختراعات البشرية قاطبة. إن الاختراع ينجح لأنه يعكس اللانهائية المتفردة للغة التي تستعمل هذه الحروف لتمثيلها. بعد ذلك بوقت قصير، صدم مؤلفو كتاب Port Royal Grammar "بالاختراع العجيب لوسيلة لتركيب عدد لا نهائي من التعابير التي تمكننا من أن نكشف للآخر عما نفكر به من دزينة قليلة من الأصوات، وأن نتخيل ونشعر. من وجهة نظر معاصرة، إنه ليس "اختراعاً"، لكنه لا يقل "عجباً" كنتاج للتطور البيولوجي، إذ لا يُعرف عنه شيء بشكل حقيقي، في هذه الحالة.

يمكن اعتبار ملكة اللغة بشكل معقول بمثابة "عضو لغة" بالمعنى الذي يتحدث به العلماء عن الجهاز البصري، أو جهاز المناعة، أو جهاز الدوران، بوصفها أعضاء من الجسم. إن العضو، الذي يُفهم بهذه الطريقة، ليس شيئاً يمكن إزالته من الجسم، وترك بقية الجسم سليمة. إنه نظام ثانوي (نظيم) sub system ذو بنية أكثر تعقيداً. إننا نأمل في فهم المركب الكامل عن طريق استقصاء الأجزاء، التي تمتلك خصائص مميزة، وتفاعلاتها. فدراسة ملكة اللغة تجري بالطريقة نفسها.

نفترض علاوة على ذلك أن عضو اللغة يشبه الأعضاء الأخرى في أن خصيصته الأساسية هي تعبير عن المورثات [الجينات]. أما كيف يحدث ذلك فيبقى أفقاً بعيداً لأجل الاستعلام، لكننا نستطيع أن نستقصي "الحالة البدئية" المحددة وراثياً لملكة اللغة بطرق

أخرى. من الجلي أن كل لغة هي نتيجة لتفاعل عاملين: الحالة البدئية وسيرورة الخبرة. إذ يمكننا أن نفكر بالحالة البدئية بوصفها "جهاز اكتساب اللغة" الذي يأخذ الخبرة كـ "دخل" input ويعطي اللغة كـ "خرج" output يتم تمثله داخلياً في العقل/ الدماغ. إن كلاً من الدخل والخرج مفتوحان للتفحص: إذ يمكننا أن ندرس سياق الخبرة وخواص اللغة التي يتم اكتسابها. إن ما يتم تعلمه بهذه الطريقة يمكن أن يخبرنا الكثير تماماً حول الحالة البدئية التي تتوسط بينهما.

علاوة على ذلك، ثمة مبرر قوي للاعتقاد بأن الحالة البدئية مشتركة بين النوع [البشري]. فلو كبر أطفالي في طوكيو لتكلموا اليابانية، مثل الأطفال الآخرين هناك. هذا يعني أن الأدلة حول اليابانية تقوم مباشرة على الافتراضات المتعلقة بالحالة البدئية للانكليزية. بهذه الطرق، يكون من الممكن إثبات الشروط التجريبية القوية التي يجب على نظرية الحالة البدئية أن تستوفيها وكذلك طرح بضع مسائل على بيولوجيا اللغة: كيف تحدد الجينات الحالة البدئية وما هي إمراليات الدماغ المشمولة في الحالة البدائية والحالات اللاحقة التي تتخذها؟ هذه مسائل بالغة الصعوبة، حتى بالنسبة للأنظمة الأبسط بكثير حيث تكون التجربة المباشرة ممكنة، لكن البعض منها قد يكون في آفاق الاستعلام.

تُعنى المقاربة التي لخصتها بملكة اللغة: حالتها البدئية والحالات التي تتخذها. لنفترض أن عضو لغة بيتر هو في الحالة L. يمكننا أن نفكر بـ L بوصفها "اللغة" المذوّتة "internalized" لبيتر. عندما أتكلم عن اللغة هنا، فهذا هو ما أعنيه. إن اللغة، المفهومة

هكذا، هي شيء ما مثل "الطريقة التي نتكلم ونفهم بها"، [إنه] تصور تقليدي للغة .

بتكييف المصطلح التقليدي وفقاً لإطار جديد، ندعو نظرية لغة "بيتر" "نحو" "grammar" لغته. تحدد لغة بيتر عدداً لا نهائياً من التعابير، لكل واحد صوته ومعناه. بالمصطلحات التقنية، إن لغة بيتر "تولّد" تعابير لغته. إن نظرية لغته لذلك تدعى نحواً توليدياً. كل تعبير هو مركب من الخواص، التي تقدم "تعليمات" instructions لأجل أجهزة أداء بيتر: جهازه النطقي [التلفظي]، أنماط تنظيمه لأفكاره، وهلم جرا . بلغته وأنظمة الأداء المرتبطة بها في مكانها، يمتلك بيتر قدراً هائلاً من المعرفة حول صوت ومعنى التعابير، ومقدرة مقابلة لها على تفسير ما يسمعه، والتعبير عن أفكاره، واستعمال لغته بتشكيلة من الطرق الأخرى.

نشأ النحو التوليدي في سياق ما يُدعى غالباً "الثورة المعرفية" للخمسينيات، وكان عاملاً هاماً في تطورها. سواءً كان مصطلح "ثورة" ملائماً هنا أم لا، فقد كان ثمة تغير هام في المنظور: من دراسة السلوك ونتاجاته (كالنصوص)، إلى الإواليات الداخلية [الباطنية] التي تدخل في التفكير والفعل. إن المنظور المعرفي يعتبر السلوك ونتاجاته ليس بمثابة موضوع للاستعلام، بل بمثابة معطيات [بيانات] data يمكن أن تقدم الأدلة حول الأواليات الداخلية للعقل والطرق التي تعمل بها هذه الإواليات لدى القيام بالأفعال وتفسير الخبرة. تجد الخواص والأنماط التي كانت بؤرة الاهتمام في اللسانيات البنيوية لها مكاناً، لكن كظاهرات يجب شرحها بالتوازي مع ظاهرات أخرى لا حصر لها، بلغة الإواليات

الداخلية التي تولد التعابير. [هذه] المقاربة "عقلانية" mentalistic لكن بالمعنى الذي لا خلاف حوله. إنها تُعنى "بالجوانب العقلية للعالم" التي تسير في موازاة جوانبه الميكانيكية والكيميائية والبصرية وغيرها. فهي تتولى دراسة موضوع حقيقي في العالم الطبيعي - الدماغ، حالاته ووظائفه - وبالتالي تنقل دراسة العقل في اتجاه الاندماج النهائي مع العلوم البيولوجية.

إن "الثورة المعرفية" قد جددت وأعادت تشكيل كثيراً من تبصرات وإنجازات ومآزق ما يمكن أن ندعوها "الثورة المعرفية الأولى" للقرنين السابع عشر والثامن عشر، التي كانت جزءاً من الثورة العلمية التي غيرت فهمنا للعالم على نحو جذري للغاية. فقد تبيّن في ذاك الوقت أن اللغة تنطوي على "الاستعمال اللامحدود لوسائل محدودة"، على حد تعبير فيلهلم فون هُمبولت Wilhelm Von Humboldt؛ لكن [هذا] التبصر لم يكن بالإمكان تطويره إلا بطرق محددة، لأن الأفكار الأساسية بقيت غامضة ومبهمة. في منتصف القرن العشرين، قدمت التطورات في العلوم المنهجية مفاهيمٍ ملائمة بشكل حاد وواضح جداً، ما جعل من الممكن إعطاء وصفاً دقيقاً للمبادئ الحوسبية computational principles التي تولد تعابير اللغة، وبالتالي تسليط الضوء، جزئياً على الأقل، على فكرة "الاستعمال اللامحدود لوسائل محدودة". لقد فتحت التطورات الأخرى أيضاً الطريق لاستقصاء المسائل التقليدية بأمل أكبر في النجاح. إن دراسة تغير اللغة سجلت إنجازات كبرى. فقدّمت اللسانيات الأنثروبولوجية [الإناسية] فهماً أغنى بكثير لطبيعة وتنوع اللغات، مقوضة أيضاً كثيراً من الأنماط المقولبة Stereotypes.

وتطور بعض الموضوعات، أبرزها دراسة أنظمة الصوت، كثيراً عن طريق اللسانيات البنيوية للقرن العشرين.

كشفت أقدم المحاولات لتنفيذ برنامج النحو التوليدي بسرعة أنه حتى في أفضل اللغات المدروسة، فإن الخواص الأولية قد مرت دون تمييز، بحيث أن الأنحاء (جمع نحو) والمعاجم الأكثر شمولاً لا تلامس سوى السطح. فالخواص الأساسية للغات تكون مفترضة سلفاً في كل مكان، وغير مميَّزة وغير معبر عنها. يكون هذا ملائماً تماماً إذا كان الهدف هو مساعدة الناس على تعلم لغة ثانية أو إيجاد المعنى المألوف ولفظ الكلمات، أو امتلاك فكرة ما عن كيفية اختلاف اللغات. لكن إذا كان هدفنا هو فهم ملكة اللغة والحالات التي يمكن أن تتخذها، فلا يمكن أن نفترض مسبقاً بشكل ضمني وجود "ذكاء القارئ". بالأحرى، ليس هذا هو موضوع الاستعلام.

تقود دراسة اكتساب اللغة إلى الاستنتاج نفسه. تكشف نظرة متأنية إلى تفسير التعابير بشكل سريع جداً أن الطفل، منذ المراحل المبكرة، يعرف بشكل هائل أكثر مما قدمته له الخبرة. يصح ذلك حتى على الكلمات البسيطة. ففي الفترات الذروية لنمو اللغة، يكتسب الطفل الكلمات بمعدل يبلغ حوالي كلمة واحدة بالساعة، مع التخلي المحدود إلى أقصى درجة عنه تحت شروط غامضة إلى حد كبير. تُفهم الكلمات بطرق مرهفة ومعقدة تكون خارج نطاق أي معجم، وهي ليست سوى في بداية استقصائها. عندما ننتقل إلى ما وراء الكلمات المنفردة، يصبح الاستنتاج حتى أكثر إثارة. يبدو اكتساب اللغة شبيهاً كثيراً بنمو الأعضاء عموماً؛ إنه شيء ما يحدث للطفل، وليس الطفل هو الذي يقوم به وفي حين أن البيئة

تهم بشكل واضح، فإن المسار العام للتطور والسمات الأساسية لما ينشأ [عنه] إنما تحددها مسبقاً الحالة البدئية. لكن الحالة البدئية هي ملكية بشرية مشتركة. إذاً، ففي خواصها الجوهرية وحتى نزولاً إلى أدق التفاصيل، لابد أن تُشكل اللغات وفق القالب نفسه. فالعالم المريخي قد يستنتج بشكل معقول أن ثمة لغة بشرية واحدة، مع اختلافات في الهوامش فقط.

عندما تم استقصاء اللغات بشكل أدق من وجهة نظر النحو التوليدي، تبين أن تنوعها قد أسيء تقديره بشكل جذري مثلما أسيء تقدير تعقيدها وإلى أي مدى تحددهما الحالة البدئية لملكة اللغة. في الوقت نفسه، نعلم أن التنوع والتعقيد لا يمكن أن يكونا أكثر من مظهر سطحي.

كانت هذه استنتاجات مفاجئة، مفارقة، لكن لا يمكن إنكارها. إنها تطرح بشكل صارخ ما أصبحت المشكلة المركزية للدراسة الحديثة للغة: كيف يمكننا أن نبرهن أن كل اللغات هي تنويعات على ثيمة واحدة، في حين أنها في الوقت نفسه تدل بشكل مخلص على خواصها المعقدة للصوت والمعنى، المتنوعة ظاهرياً؟ يتعين على النظرية الأصلية للغة البشرية أن تحقق شرطين: "الكفاية الوصفية descriptive adequqcy" والكفاية التفسيرية" explanatory adequacy. إن نحو لغة معينة يحقق شرط الكفاية الوصفية بقدر ما يقدم وصفاً كاملاً ودقيقاً لخواص اللغة، لما يعرفه متكلم اللغة. لتحقيق شرط الكفاية التفسيرية، يجب على نظرية اللغة أن تبين كيف أن كل لغة بعينها يمكن اشتقاقها من حالة بدئية موحدة في

ظل "الشروط الحدية" التي تحددها التجربة. بهذه الطريقة تقدم تفسيراً لخواص اللغات على مستوى أعمق.

ثمة توتر خطير بين هاتين المهمتين البحثيتين. فالبحث عن الكفاية الوصفية يبدو أنه يؤدي دوماً إلى تعقيد وتنوع أكبر لأنظمة القواعد، في حين أن البحث عن الكفاية التفسيرية يتطلب أن تكون بنية اللغة ثابتة إلا في الهوامش. هذا التوتر هو الذي يرسم إلى حد كبير الخطوط الدليلية لأجل البحث. الطريقة الطبيعية لحل التوتر هي تحدي الفرضية التقليدية، المنسحبة على النحو التوليدي المبكر، [القائلة] بأن اللغة هي منظومة معقدة من القواعد rules، كل واحدة منها خاصة بلغات بعينها وتراكيب نحوية بعينها: قواعد تشكيل أشباه جمل الأسماء الموصولة relative clauses في اللغة الهندية، عبارات الفعل في اللغة السواحلية، الأفعال المبنية للمجهول في اللغة اليابانية، وهلم جرا. تشير التأملات في الكفاية التفسيرية إلى أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً.

كانت المشكلة الأساسية هي إيجاد الخواص العامة لمنظومات القواعد التي يمكن ردها إلى ملكة اللغة نفسها، على أمل أن الباقي سوف يبرهن على أنه أبسط ومنتظم. منذ حوالي 15 عاماً، تبلورت هذه الجهود في مقاربة للغة كانت افتراقاً عن التراث أكثر جذرية بكثير مما كان النحو التوليدي الأسبق. إن مقاربة "المبادئ والمتغيرات" هذه، كما أطلعت عليها، قد رفضت مفهوم القاعدة والتركيب النحوي كلياً: لا توجد قواعد لأجل تشكيل أشباه جمل الأسماء الموصولة في الهندية، وعبارات الفعل في السواحلية والأفعال المبنية للمجهول في اليابانية ـ وهلم جرا. تُعدُّ التراكيب النحوية

المألوفة نتاجات تصنيفية، مفيدة لأجل الوصف العامي لكن ربما بدون أي موقف نظري. إنها تمتلك شيئاً من مرتبة "الثديي البري" أو "الحيوان المدلل المنزلي". ويتم تفكيك القواعد إلى مبادئ عامة لملكة اللغة، تتفاعل لتنتج خواص التعابير.

يمكننا أن نتخيل الحالة البدئية لملكة اللغة بوصفها شبكة ثابتة مربوطة بعلبة مفاتيح؛ تتكوّن الشبكة من مبادئ اللغة، في حين أن المفاتيح هي الخيارات التي تقررها التجربة. عندما تعيّر المفاتيح بطريقة واحدة نحصل على اللغة السواحلية؛ وعندما تعيّر بطريقة أخرى نحصل على اليابانية. فكل لغة بشرية ممكنة تُعرّف بعيار محدد للمفاتيح - عيار للبارامترات [المتغيرات]، بالمصطلحات التقنية. لو نجح برنامج البحث، لكنا قادرين حرفياً على استنباط السواحلية من خيار واحد من العيارات، واليابانية من خيار آخر، وهلم جرا، من خلال اللغات التي يمكن أن يكتسبها البشر. تتطلب الشروط التجريبية لاكتساب اللغة أن يكون بالإمكان تعيير المفاتيح على قاعدة المعلومات المحدودة جداً المتاحة للطفل. لاحظ أن التغيرات الصغيرة في عيارات المفاتيح يمكن أن تؤدي إلى تنوع ظاهر كبير في الخرج، عندما تتكاثر المؤثرات من خلال المنظومة. هذه هي الخواص العامة للغة التي يجب على أية نظرية أصيلة أن تركز الانتباه عليها بشكل ما.

هذا، بالطبع، برنامج، وهو بعيد عن أن يكون نتاجاً ناجزاً. إن الاستنتاجات التي تم التوصل إليها تجريبياً من غير المحتمل أن تصمد بشكلها الحالي؛ ولا داعي للقول أن ليس بمقدور المرء أن يتيقن من أن المقاربة برمتها تسير على المسار الصحيح. مع ذلك،

فإنه كبرنامج بحث، كان ناجحاً إلى درجة كبيرة، مؤدياً إلى انفجار حقيقـي للاستعلام التجـريبي في لغـات ذات مـدى تـايبولوجي [نماذجي] عريض جداً، إلى أسئلة جديـدة لم يكـن بالإمكـان حتـى صياغتها من قبل، وإلى أجوبة آسرة عديـدة. إن مسـائل الاكتسـاب والمعالجة processing والباثولوجيا وغيرها اتخـذت أيضـاً أشـكالاً جديدة، برهنت على كونها مثمرة جداً أيضاً. علاوة على ذلك، فإن البرنامج، مهما يكن مصيره، يوحي بكيف أن نظرية اللغة يمكن أن تستوفي الشروط المتناقضة للكفاية الوصفية. والتفسيرية. فهـو يقـدم على الأقل مخططاً عاماً لنظرية أصيلة للغة، للمرة الأولى فعلاً.

ضمن برنامج البحث هـذا، فإن المهمـة الرئيسـة هـي اكتشـاف وإيضاح المبادئ والمتغيرات وطريقة تفاعلها، وتوسيع الإطار ليشـمل جوانب أخرى من اللغة واستعمالها. في حين أن قدراً كبيراً لا يزال غامضاً، فقد حصل تقدم كافٍ على الأقل لدراسـة، وربمـا لمتابعـة، بعض الأسئلة الجديدة والأبعد مدى حول تصميم اللغة. علـى وجـه الخصوص، يمكننا أن نسأل عن مدى صلاح التصميم. إلى أي مـدى تقترب اللغة مما يتصوره مهندس خـارق، بـافتراض الشـروط الـتي يجب على ملكة اللغة أن تستوفيها؟

ينبغي شحذ الأسئلة، وثمة طرق للمباشرة. إن ملكة اللغة محتواة ضمن العمـارة الأوسـع للعقـل / الـدماغ. إنهـا تتفاعـل مـع أجهـزة أخرى، تفـرض شـروطاً يجـب علـى اللغـة أن تسـتوفيها. إذا كـان يتعين عليها أن تكون صالحة للاستعمال بـالمرة، يمكننـا أن نعتـبر هذه الشروط بمثابة "شروط المقروئية"، بمعنى أن الأجهـزة الأخـرى يجـب أن تكـون قـادرة علـى "قـراءة" تعـابير اللغـة واسـتعمالها

كـ"تعليمات" لأجل التفكير والفعل. فـالأجهزة الحسـية ـ الحركيـة sensiomotor، على سبيل المثال، ينبغـي أن تكـون قـادرة علـى قراءة التعليمات المتعلقة بالصوت، أي "التمثـيلات الصـوتية" الـتي تولدها اللغة. إن الجهازين النطقي والإدراكي يمتلكان تصميماً خاصاً يمكنهما من تفسير خواص صوتية معينة، دون غيرها. بذلك تفرض هذه الأجهزة شروط المقروئية على السيرورات التوليدية لملكة اللغة، التي يجب أن تمد التعابير بالشكل الصوتي الملائم. الشـيء نفسـه يصح على الأجهزة المفاهيمية والأجهزة الأخرى التي تستخدم موارد ملكة اللغة: إنها تمتلك خواصها الجوهرية، التي تشترط أن تمتلـك التعابير التي تولدها اللغة أنواعاً معينـة مـن "التمثـيلات الدلاليـة" دون غيرها. لذلك يمكننا أن نسأل إلى أية درجة تكون اللغـة" حـلاً جيـداً "لشـروط المقروئيـة الـتي تفرضـها الأجهـزة الخارجيـة الـتي تتفاعل معها. حتى وقت متأخر تماماً، لم يكن بالإمكان طرح هـذا السؤال بشكل جدي، ولا حتى صياغته بشكل معقول. أما الآن فإن ذلك يبدو ممكناً، وثمة حتى إشارات إلى أن ملكـة اللغـة قـد تكـون قريبة من "الكمال" بهذا المعنى؛ إذا كان ذلك صـحيحاً، فـإن هـذا استنتاج مفاجئ.

إن ما صار يـدعى "البرنـامج الأدنـوي" minimalist program هو محاولة لسبر هذه الأسئلة. مـن السـابق لأوانـه أن نطلـق حكمـاً نهائياً على المشـروع. أمـا حكمـي الخـاص فهـو أن الأسـئلة يمكـن وضعها الآن بشـكل مثمـر علـى جـدول الأعمـال، والنتـائج المبكـرة واعدة. أود قول كلمات قليلة حول الأفكار والتوقعات، ومن ثم أعود إلى بعض المشاكل التي لا تزال في الآفاق.

يشترط البرنامج "الأدنوي أن تُخضع الفرضيات التقليدية للتمحيص الدقيق. أما الأكثر تبجيلاً من بين هذه الفرضيات فهي أن اللغة تمتلك صوتاً ومعنى. بالمصطلحات الدارجة"، تترجم بطريقة طبيعية إلى الطروحة القائلة بأن ملكة اللغة تشارك في الأجهزة الأخرى للعقل / الدماغ على "مستويين بينيين" interface levels، واحد يتصل بالصوت، والآخر بالمعنى. يحتوي التعبير الخاص الذي تولده اللغة على تمثيل صوتي يكون مقروءاً للأجهزة الحسية ـ الحركية، وتمثيل دلالي يكون مقروءاً للأجهزة المفاهيمية والأجهزة الأخرى للتفكير والفعل.

أحد الأسئلة المطروحة هو ما إذا كان ثمة مستويات أخرى غير المستويات البينية: هل توجد مستويات "جوانية" بالنسبة إلى اللغة، بالأخص مستويا البنية العميقة والبنية السطحية اللذان تم افتراضهما في الأعمال الحديثة؟ (انظر، على سبيل المثال، Chomsky 1965; 1981, 1986).

يسعى البرنامج "الأدنوي إلى إظهار أن كل شيء تم تفسيره بلغة هذين المستويين قد أخطيء وصفه، ويُفهم جيداً أو بشكل أفضل بلغة شروط المقروئية عند السطح البيني: بالنسبة للذين يعرفون الأدبيات التقنية، يعني هذا مبدأ الإسقاط projection principle، ونظرية الربط binding theory، ونظرية الحالات الإعرابية Case theory، وشرط السلسلة chain condition، وهلم جرا.

إننا نحاول أيضاً أن نبين أن العمليات الحوسبية الوحيدة هي تلك التي لا يمكن تجنبها على أضعف الفرضيات حول الخواص

البينية. إحدى هذه الفرضيات هي أنه توجد وحدات شبيهة بالكلمات word- like: إذ يتعين على الأجهزة [المنظومات] الخارجية أن تكون قادرة على تفسير مفردات مثل "peter" و"tall". الفرضية الأخرى هي أن هذه المفردات تكون مرتبة في تعابير أكبر، مثل "Peter is tall". الفرضية الثالثة هي أن المفردات تمتلك خاصيتي الصوت والمعنى: فكلمة "Peter" تبدأ بزم الشفتين وتستخدم للدلالة على الأشخاص. لذلك فإن اللغة تنطوي على ثلاثة أنواع من العناصر:

- خواص الصوت والمعنى، التي تدعى "السمات" features.
- مفردات مركبة من هذه الخواص، تدعى "المفردات المعجمية" lexical items.
- التعابير المعقدة المشكلة من هذه الوحدات "الذرية" atomic.

يستتبع هذا أن الجهاز الحوسبي computational system الذي يولد التعابير يقوم بعمليتين أساسيتين: واحدة تجمّع السمات في مفردات معجمية، والثانية تشكل موضوعات تركيبية syntactic أكبر، من تلك الموضوعات المشكّلة قبلاً، بدءاً بالمفردات المعجمية.

يمكننا أن نفكر بالعملية الأولى بوصفها أساساً قائمة من المفردات المعجمية. بالمصطلحات التقليدية، فإن هذه القائمة ـ التي تدعى المعجم lexicon ـ هي قائمة "الاستثناءات"، الارتباطات [التداعيات] الاعتباطية للصوت والمعنى والخيارات الخاصة من بين الخواص التصريفية inflectional التي تتيحها ملكة اللغة التي تحدد كيف نشير إلى أن الأسماء والأفعال هي في صيغة الجمع أو المفرد، وأن

الأسماء تأخذ حالة المرفوع أو المنصوب، وهلم جرا. هذه السمات التصريفية يتبين أنها تلعب دوراً مركزياً في الحوسبة.

لن يدخل التصميم الأمثل أية سمات جديدة في سياق الحوسبة. إذ لا ينبغي أن تكون هناك مؤشرات indices أو وحدات عباراتية phrasal units ولا توجد مستويات اشتراطية (وبالتالي لا توجد قواعد لتركيب العبارة أو نظرية س ـ بشرط، انظر Chomsky C 1995). إننا نحاول أيضاً أن نبين أنه لا توجد علاقات بنيوية مُحْدثة غير تلك العلاقات التي تفرضها شروط المقروئية أو التي يتم استنتاجها بطريقة طبيعية ما عن طريق الحوسبة نفسها. في الفئة الأولى لدينا خواص مثل التجاور adjacency على المستوى الصوتي، وعلاقات الـ الحجة ـ البنية argument – structure والمكمم ـ المتحول quantifier- Variable على المستوى الدلالي. في الفئة الثانية، لدينا علاقات موضعية local جداً بين السمتين وعلاقات أولية بين موضوعين تركيبين متصلين معاً في سياق الحوسبة: إن العلاقة الرابطة بين أحد هذين [الموضوعين] وأجزاء [الموضوع] الآخر هي علاقة التحكم المكوني Command C؛ فكما أشار صموئيل إنشتاين Samuel Epstein، هذه الفكرة لا تلعب دوراً مركزياً عبر تصميم اللغة وقد اعتبرت غير طبيعية إلى حد كبير، مع أنها تقع في مكانها بطريقة طبيعية من هذا المنظور. لكننا نستبعد الحكم الذي يربط العلاقات الداخلية باشتقاق التعابير، وتشكيلة من العلاقات والتفاعلات الأخرى.

كما سيدرك أي شخص مطّلع على الأعمال الحديثة، يوجد دليل تجريبي وافر يدعم الاستنتاج المعاكس في كل مكان. الأنكى من

ذلك، مع ذلك، أن الفرضية الجوهرية للعمل ضمن إطار المبادئ والبارامترات، وإنجازاته المؤثرة إلى حد ما، هو أن كل ما افترضتُه قبل الآن خاطئ - أن اللغة "ناقصة" إلى درجة كبيرة في هذه النواحي، كما هو متوقع. لذلك ليست بالمهمة الصغيرة أن نبين أن هذا الجهاز قابل للإزالة بوصفه تقانة وصفية غير مطلوبة؛ أو حتى بشكل أفضل، أن القوة الوصفية والتفسيرية تتسع إذا أُسقطت هذه "النظرية البالية". مع ذلك، أعتقد أن عمل السنوات القليلة الماضية يوحي بأن هذه الاستنتاجات، التي تمخضت عن المسألة قبل ذلك، مقبولة على الأقل، وصحيحة بشكل ممكن تماماً.

تختلف اللغات بشكل واضح، ونحن نريد أن نعرف كيف [تختلف]. أحد جوانب [الاختلاف] هو في اختيار الأصوات، التي تتنوع ضمن مجال محدد. الجانب الآخر هو في ارتباط الصوت والمعنى، الذي يكون في الجوهر اعتباطياً. هذان الجانبان واضحا المعالم ولا داعي لأن يعوقاننا. أما الأكثر إثارة للاهتمام فهي حقيقة أن اللغات تختلف في الأنظمة التصريفية: كأنظمة الحالات [الإعرابية]* Case Systems، على سبيل المثال. إذ نجد أن هذه [الأنظمة] غنية تماماً في اللغة اللاتينية، وهي حتى أكثر غنى من ذلك في السنسكريتية أو الفنلندية لكنها في الحد الأدنى في اللغة الإنكليزية وغير مرئية في الصينية. أو هكذا يتراءى؛ إذ توحي اعتبارات الكفاية التفسيرية أن المظهر هنا قد يكون مضللاً، وفي

---

* يقصد بها حالات الرفع والنصب والجر والجزم وغيرها التي يمر بها الاسم. (المترجم).

الحقيقة تشير الأعمال الحديثة (تشومسكي 1998، 1995c) إلى أن هذه الأنظمة تختلف اختلافاً أقل بكثير مما يبدو عليه الحال من الأشكال السطحية. فالصينية والإنكليزية، على سبيل المثال، قد تمتلكان نفس نظام الحالات الإعرابية الموجود في اللاتينية، لكن التجسيد realization الصوتي يكون مختلفاً. علاوة على ذلك، يبدو أن كثيراً من تنوع اللغة يمكن اختزاله إلى خواص الأنظمة التصريفية. إذا كان ذلك صحيحاً، عندئذٍ فإن تغير variation اللغة يكمن في جزء ضيق من المعجم.

تفرض شروط المقروئية تقسيماً ثلاثي الاتجاهات بين السمات المركبة في المفردات المعجمية:

(1) السمات الدلالية، التي يتم تفسيرها في السطح البيني الدلالي؛

(2) السمات الصوتية، التي يتم تفسيرها في السطح البيني الصوتي؛ و

(3) السمات التي لا يتم تفسيرها في أي من السطحين البينيين.

في اللغة المثالية التصميم، كل سمة هي دلالية أو صوتية، وليست مجرد حيلة لاختلاق موقف أو لتسهيل الحوسبة. إذا كانت كذلك، فلا توجد أية سمات شكلية غير قابلة للتفسير. وهذا شرط قوي أكثر مما ينبغي، كما يبدو. فالسمات الشكلية النموذجية البدئية كالحالة [الإعرابية] البنيوية Structural case ـ صيغتي المرفوع nominative والمنصوب Causative اللاتينيتين، على سبيل المثال ـ لا تفسير لها في السطح البيني الصوتي، ولا حاجة

للتعبير عنها في المستوى الصوتي. وهناك أمثلة أخرى أيضاً ضمن الأنظمة التصريفية.

في الحوسبة التركيبية syntactic computation، يبدو أن ثمة عيباً ثانياً وأكثر إثارة في تصميم اللغة، وهو نقص ظاهر على الأقل: إنه "خاصية الإزاحة / الانزياح" displacement property التي هي مظهر عام [متخلل] من مظاهر اللغة: أن تُفسّر العبارات كما لو كانت في موقع مختلف من التعبير، حيث تظهر مفردات مماثلة أحياناً وتُفسَّرُ بلغة العلاقات الموضعية الطبيعية.

خذ جملة "Clinton seems to have been elected" [يبدو أن كلنتون قد انتُخب]. فنحن نفهم علاقة "elected" و"Clinton" كما نفهمها عندما تكونان مرتبطتين موضعياً في جملة " It seems that they elected Clinton" [يبدو أنهم انتخبوا كلنتون]: "Clinton" هو المفعول به المباشر للفعل "elect"، بالمصطلحات التقليدية، مع أنه "أُزيح" إلى موقع فاعل الفعل "seems"؛ فالفاعل والفعل يتفقان في السمات التصريفية في هذه الحالة، لكن ليس لهما ارتباط دلالي؛ إذ أن الارتباط الدلالي للفاعل هو بالفعل البعيد "elect".

لدينا الآن "عيبان" هما: السمات غير القابلة للتفسير، وخاصية الانزياح. بافتراض التصميم الأمثل، نتوقع أن يكونا مترابطين، ويبدو أنهما كذلك: فالسمات غير القابلة للتفسير هي الإوالية التي تطبق خاصية الانزياح.

إن خاصية الانزياح ليست من بنية الأنظمة الرمزية المصممة لأغراض خاصة، التي تدعى "لغات" أو "لغات اصطلاحية" في

الاستعمال المجازي: مثل "لغة الحساب" arithmetic، أو "لغات الحاسوب" أو "لغات العلم". هذه الأنظمة أيضاً ليس لها أنظمة تصريفية، وبالتالي ليس لها سمات غير مفسَّرة. فالانزياح والتصريف هما الخاصيتان المميزتان للغة البشرية، من بين الخاصيات الكثيرة التي يتم تجاهلها عند تصميم الأنظمة الرمزية لأغراض أخرى، التي قد ترفض شروط المقروئية التي تفرضها على اللغة البشرية عمارة العقل / الدماغ.

يُعبر عن خاصية انزياح اللغة البشرية بلغة التحويلات النحوية أو بحيلة أخرى، لكنها يعبر عنها دوماً بشكل ما. أما لماذا يتعين أن تمتلك اللغة هذه الخاصية فهو سؤال مثير للاهتمام، تمت مناقشته منذ الستينات بدون الوصول إلى حل. إن نقطة الشك لدي هي أن جزءاً من السبب له علاقة بالظاهرات التي تم وصفها بلغة تفسير البنية السطحية، إذ أن الكثير من هذه الظاهرات مألوف من النحو التقليدي: التعليق على الموضوع topic- comment، الخصوصية specificity، المعلومات information الجديدة والقديمة، القوة المنفذة agentive التي نجدها حتى في موقع الانزياح، وهلم جرا. إذا كان ذلك صحيحاً، عندئذٍ فإن خاصية الانزياح إنما تفرضها، في الواقع، شروط المقروئية: تحرضها شروط المقروئية: تحرضها المتطلبات التفسيرية التي تكون مفروضة خارجياً من قبل أنظمة تفكيرنا، التي تمتلك هذه الخواص الخاصة. (هكذا تشير دراسة استعمال اللغة). هذه الأسئلة يتم تقصيها في الوقت الحالي بطرق مثيرة للاهتمام، لا يمكنني الخوض فيها الآن.

منذ نشوء النحو التوليدي، افتُرضَ أن العمليات الحوسبية هي من نوعين:

- قواعد بنية العبارة phrase - structure rules التي تشكل أشياء تركيبية أكبر من مفردات معجمية، و
- قواعد تحويلية transformational تعبر عن خاصية الانزياح.

إن للنوعين جذوراً تقليدية، لكن سرعان ما يتبين أنهما يختلفان اختلافاً جوهرياً عما كان مفترضاً، مع التنوع والتعقيد اللذين لا يطالهما الشك. لقد سعى برنامج البحث إلى إظهار أن التعقيد والتنوع ظاهريان فحسب، وأن نوعي القواعد يمكن اختزالهما إلى شكل أبسط. الحل "المثالي" لمشكلة تنوع قواعد بنية العبارة هو إزالتها كلياً لصالح العملية التي لا يمكن اختزالها التي تأخذ شيئين [مفعولين] مشكلين مسبقاً. وتربط أحدهما بالآخر، لتشكل شيئاً أكبر يمتلك خواص الهدف من الربط: العملية التي يمكن أن نسميها الدمج merge. تشير الأعمال الحديثة إلى أن هذا الهدف يمكن تحقيقه جيداً.

يتكون الإجراء الحوسبي الأمثل، إذاً، من عملية الدمج والعمليات [المطبقة] لبناء خاصية الانزياح: العمليات التحويلية أو بعض نظائرها. كان المسعى الثاني من هذين المسعيين المتوازيين ينشد اختزال المكون [المقوم] التحويلي إلى أبسط شكل، مع أنه، خلافاً لقواعد بنية العبارة، يبدو غير قابل للإزالة. كانت النتيجة النهائية هي الفرضية القائلة بأنه من أجل مجموعة جوهرية من الظاهرات، توجد عملية تحريك Move واحدة فقط ـ تقوم أساساً

بتحريك أي شيء في أي مكان، بدون أية خواص خاصة بلغات أو تراكيب بعينها. أما كيفية تطبيقها فتحددها المبادئ العاملة المتداخلة مع خيارات المتغيرات النوعية - عيارات المفاتيح - التي تحدد لغة بعينها. تأخذ عملية الدمج شيئين متميزين x وy وتربط Y بـ X. أما عملية التحريك فتأخذ شيئاً وحيداً X وشيئاً Y الذي هو جزء من X، وتدمج Y إلى X.

المشكلة التالية هي إظهار أن الحال، في الواقع، هو أن السمات غير القابلة للتفسير هي الإوالية التي تنفذ خاصية الانزياح، لذلك فإن النقصين [العيبين] الأساسيين للنظام الحوسبي يختزلان إلى نقص واحد. فإذا تبين أن خاصية الانزياح تحرضها شروط المقروئية التي تفرضها أنظمة التفكير الخارجية، كما افترضت للتو، عندئذٍ فإن العيوب تتم إزالتها كليًّاً ويتبين أن تصميم اللغة هو الأمثل، رغم كل شيء: فالسمات غير المفسرة مطلوبة كإوالية لتحقيق شرط المقروئية الذي تفرضه العمارة العامة للعقل / الدماغ.

إن الطريقة التي يباشر بها هذا التوحد / التوحيد بسيطة تماماً، لكن شرحها بشكل متسق يقع خارج نطاق هذه الملاحظات. الفكرة البديهية الأساسية هي أن السمات غير القابلة للتفسير يجب حذفها لتحقيق شرط السطح البيني interface، والحذف يتطلب ارتباطاً موضعياً بين السمة المزعجة والسمة المضاهية لها التي يمكنها أن تحذفها. من الناحية النموذجية تكون هاتان السمتان بعيدتين عن بعضهما البعض لأسباب لها علاقة بالطريقة التي يجري بها التفسير الدلالي. فعلى سبيل المثال، في الجملة "Clinton seems to have been elected" يتطلب التفسير

الـدلالي أن يكـون "elect" و"Clinton" مرتبطـان موضـعياً بعبـارة elect Clinton لكي يفسر التركيب تفسيراً صحيحاً، كما لو كانت الجملـة فعـلاً هـي "Seems to have been elected Clinton" فالفعل الرئيس للجملة، "seem" يمتلك سمات تصريفية غير قابلة للتفسير: فهو فعل [في صيغة] المفرد [فاعله] شخص ثالث [غائب] / مذكر، [وهي] خواص لا تضيف شـيئاً مسـتقلاً إلى معنـى الجملـة، نظراً لأنه تم التعبير عنه قبلئذٍ في العبارة الإسمية التي تتوافق معه، وهي غير قابلة للإلغاء هنـاك. هـذه السـمات المزعجـة لـ "seem" يتعين حذفها في الرابطة الموضعية، وهي نسخة واضحة من المقولـة الوصفية التقليدية للـ "الاتفاق / التوافق agreement. لتحقيق هذه النتيجة، يتم لفـت الانتبـاه إلى السـمات المضـاهية للعبـارة الموافقـة "Clinton" عن طريق السمات المزعجة للفعل الرئيس "seem" التي يتم حذفها فيما بعد بموجب المضـاهاة الموضـعيةlocal matching. لكن العبارة "Clinton" تتم إزاحتها الآن.

لاحظ أن سمات "Clinton" فقـط هـي الـتي يـتم لفـت الانتبـاه إليها؛ فالعبارة الكاملة تنتقل لأسباب لها علاقة بالجهـاز الحسـي الحركي. الذي يكون عاجزاً عن "لفظ" أو "سماع" السمات المعزولـة المفصولة عن العبارة التي تنتمي إليها. على كـل، إذا كـان الجهـاز الحسي الحركي معطلاً، لسببٍ ما، عندئذٍ تبرز السـمات لوحـدها، وبالتوازي مع جمل مثل " an unpopular candidate seems to have been elected" [إن مرشـحاً غـير شـعبي يبـدو أنـه قـد انتُخب]، بانزياح صريح، نحصل على الجمل من الشكل: " seems to have been elected an unpopular Candiate" هنا العبارة

البعيدة "an unpopular Candiate " تتوافق مع الفعل "seems" ما يعني أن سماتها قد لفتت الانتباه إلى ارتباط موضعي مع "seems" في حين تترك وراءها بقية العبارة. إن حقيقة أن الجهاز الحسي الحركي قد تم تعطيله تدعى "حركة خفية" Covert movemet، [وهي] ظاهرة ذات خواص مثيرة للاهتمام تماماً. في لغات كثيرة - كالإسبانية مثلاً - توجد مثل هذه الجملة، واللغة الإنكليزية تحتوي عليها أيضاً، مع أنه من الضروري لأسباب أخرى أن ندخل العنصر الخالي دلالياً "there" ما يعطينا الجملة: " There seems to have been elected an unpopular candidate" وكذلك، لأسباب مثيرة للاهتمام، أن نقوم بإعكاس الترتيب، وهكذا تنشأ لدينا الجملة:

" There seems to have been an unpopular elected"

هذه الخواص تنبع من الاختيارات المحددة للبارامترات التي تكون لها تأثيرات عبر اللغات عموماً وتتفاعل لتعطي مجموعة معقدة من الظاهرات التي تكون بادية سطحياً فقط. في الحالة التي ننظر فيها، كل شيء يختزل إلى الحقيقة البسيطة وهي أن السمات الشكلية غير القابلة للتفسير يجب إزالتها في الارتباط الموضعي مع سمة مضاهية، فينتج عن ذلك خاصية الانزياح المطلوبة للتفسير الدلالي في السطح البيني.

ثمة قدر لا بأس به من البراعة في هذا الوصف الموجز. إذ يقدم ملء الفراغات صورة مثيرة إلى حد ما، ذات تفرعات عديدة في اللغات المختلفة من الناحية الرمزية. لكن الاستمرار سيخرجنا عن نطاق هذا البحث.

أود أن أنهي بإشارة مقتضبة على الأقل إلى مسائل أخرى لها علاقة بالطرق التي ترتبط بها الدراسة "الذاتانية internalist للغة بالعالم الخارجي. توخياً للبساطة، دعونا نلتزم بالكلمات البسيطة. افترض أن "book" كلمة في معجم وبستر. إن الكلمة هي مركب من الخواص، الصوتية والدلالية. تستخدم الأجهزة الحسية الحركية الخواص الصوتية لأجل النطق والإدراك الحسي، بربطها بالأحداث الخارجية: حركات الجزئيات، على سبيل المثال. أما أجهزة العقل الأخرى فتستخدم الخواص الدلالية للكلمة عندما يتحدث بيتر عن العالم ويفسر ما يقوله الآخرون عنه.

لا يوجد خلاف كبير حول كيفية المباشرة من ناحية الصوت، أما من ناحية المعنى فثمة خلافات شديدة. إن الدراسة الموجهة تجريبياً تبدو لي أنها تقارب مشاكل المعنى إلى حد ما بالطريقة التي تدرس بها الصوت كما في علم الصوت phonology والصوتيات phonetics*. إنها تحاول إيجاد الخواص الدلالية لكلمة "book": أي أنها كلمة إسمية وليست فعلية، تستخدم للدلالة على منتج صنعي وليس على مادة كالماء أو معنى مجرد كالصحة، وهلم جرا. قد يتساءل المرء عما إذا كانت هذه الخواص جزءاً من معنى كلمة "book" أو جزءاً من المفهوم المرتبطة بالكلمة؛ في الفهم الراهن، لا توجد طريقة صالحة لتمييز هذه الافتراضات، لكن ربما سيتم الكشف ذات يوم عن وجود قضية تجريبية. في

---

* علم الصوت هو فرع من الفيزياء في حين أن الصوتيات هي فرع من اللسانيات (المترجم).

الحالتين، فإن بعض سمات المفردة المعجمية "book" التي تكون داخلية بالنسبة إليها تحدد أنماط التفسير من النوع الذي سبق ذكره.

باستقصاء استعمال اللغة، نجد أن الكلمات تفسر بلغة عوامل مثل التركيب المادي، والتصميم والاستعمال المتعمَّد والمميز، والدور المؤسساتي وهلم جرا. تُعرّف الأشياء وتنسب إلى فئات بلغة هذه الخواص - التي اعتبرها سمات دلالية - مكافئة للسمات الصوتية التي تحدد صوتها. إن استعمال اللغة يمكن أن يشهد بطرق مختلفة على وجود هذه السمات الدلالية. افترض أن في المكتبة نسختين من رواية *الحرب والسلم* لتولستوي، فيأخذ بيتر نسخة ويأخذ جون الأخرى. فهل يكون بيتر وجون قد أخذا الكتاب نفسه، أم كتابين مختلفين؟ إذا ركزنا على العامل المادي من المفردة المعجمية، يكونان قد أخذا كتابين مختلفين؛ وإذا ركزنا على المكوّن المجرد، يكونان قد أخذا الكتاب نفسه. يمكن أن نشدد على العاملين المادي والمجرد في الوقت نفسه، كما عندما نقول أن "الكتاب الذي يخطط له سوف يزن خمسة باوندات على الأقل إذا كتبه"، أو "كان كتابه في كل مخزن في البلد". بالشكل نفسه، يمكن أن نطلي الباب باللون الأبيض ونمر من خلاله، باستعمال الضمير "it" للإشارة بشكل ملتبس إلى الإطار الخارجي [للباب] والأرضية. يمكننا أن ننقل خبراً مفاده أن المصرف قد فجّر بعد أن رفع سعر الفائدة، أو أنه رفع السعر اتقاءً للتفجير. هنا الضمير (ـه) (it) "والفئة الخالية" التي هي فاعل "فُجِّر" يتبنيان في الوقت نفسه العاملين المادي والتكويني institutional؟

تكون الحقائق المتعلقة بهذه المسائل واضحة غالباً، لكنها ليست تافهة. لذلك فإن العناصر التابعة إحالياً referntially dependent، حتى المحصورة على النحو الأضيق، تراعي بعض التمييزات، لكنها تتجاهل البعض الآخر، بطرق تتنوع بالنسبة للأنواع المختلفة من الكلمات بطرق مثيرة للفضول. يمكن استقصاء هذه الخواص بطرق عديدة: اكتساب اللغة، الصفات العامة بين اللغات، الأشكال المبتكرة، الخ. إن ما نكتشفه معقد بشكل مدهش؛ وهو بشكل لا يثير الدهشة، معروف مسبقاً قبل وجود أي دليل، ومن هنا فهو مشترك بين اللغات. لا يوجد سبب افتراضي لأن نتوقع أن اللغات البشرية ستكون لها هذه الخواص؛ فاللغة المريخية يمكن أن تكون مختلفة.

تم تطوير مقاربة للتفسير الدلالي بلغة مشابهة وذلك بطرق مثيرة للاهتمام في فلسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر، التي تتبنى غالباً مبدأ هيوم Hume القائل بأن "الهوية التي ننسبها" إلى الأشياء. هي "مجرد هوية تخيلية" (Hume, 1970, se. 27)، أوجدها الفهم البشري. إن استنتاج هيوم معقول جداً. فالكتاب الموجود على مكتبي لا يمتلك هذه الخواص الغريبة بفضل تكوينه الداخلي؛ بل بالأحرى، بفضل الطريقة التي يفكر بها البشر، ومعاني المصطلحات التي يتم التعبير بها عن هذه الأفكار. تستعمل الخواص الدلالية للكلمات للتفكير والتحدث عن العالم بلغة المنظورات التي توفرها موارد العقل، إلى حد ما بالطريقة التي يبدو أن التفسير الصوتي يعمل بها.

تتبع فلسفة اللغة المعاصرة نهجاً مختلفاً. إنها تسأل عما تدل عليه الكلمة. فتعطي إجابات مختلفة. لكن ليس للسؤال معنى

واضح. إن مثال "الكتاب" نموذجي. إنه يضفي قليلاً من المعنى على الشيء الذي تدل عليه عبارة "الحرب والسلم لتولستوي"، عندما يأخذ بيتر وجون نسختين متماثلتين من المكتبة. يعتمد الجواب على كيفية استخدام السمات الدلالية عندما نفكر ونتحدث، بطريقة أو بأخرى. على العموم، إن الكلمة، حتى من أبسط نوع، لا تميز مجمل العالم، أو مجمل "فضاء اعتقادنا". فالفرضيات التقليدية حول هذه المسائل تبدو لي مشكوكاً فيها جداً.

لقد ذكرت أن النحو التوليدي الحديث سعى لمعالجة القضايا التي أحيت التراث، بشكل خاص الفكرة الديكارتية أن "الفارق الحقيقي (Descartes, 1649, 1927: 360) بين البشر والمخلوقات الأخرى أو الآلات هو القدرة على التصرف بالطريقة التي اعتادوها المثّلة بالشكل الأوضح في الاستعمال العادي للغة: بدون أية قيود محددة، تفرضها لكن لا تحددها الحالة الداخلية، ملائمة لأوضاع لكنها ليست بسبب منها، تكون متماسكة وتحرض الأفكار التي يمكن للسامع أن يكون قد عبر عنها، وهلم جرا. إن هدف العمل الذي ناقشته هو الكشف عن بعض العوامل التي تدخل في هذه الممارسة الطبيعية. مع ذلك، فإنه كشف عن بعض هذه العوامل فقط.

يسعى النحو التوليدي إلى اكتشاف الإواليات المستعملة مساهماً بذلك في دراسة كيف تستعمل بالشكل الخلاق للحياة الطبيعية أما كيف يتم استعمالها فهي المشكلة التي أسرت اهتمام الديكارتيين. ولا تزال غامضة بالنسبة لنا كما كانت بالنسبة لهم، حتى رغم الشوط الأبعد الذي قطع اليوم في فهم الإواليات المتضمنة.

بهذا الخصوص، إن دراسة اللغة هي، مرة أخرى، تشبه كثيراً دراسة الأعضاء الأخرى. فدراسة الجهازين البصري والحركي قد كشفت الإواليات التي يفسر بها الدماغ منبهات متفرقة مثل مكعب، وذراع تمتد إلى كتاب على الطاولة. لكن فروع العلم هذه لا تطرح سؤال كيف يقرر البشر أن ينظروا إلى كتاب على الطاولة أو يلتقطوه، والتأملات حول استعمال الجهازين البصري أو الحركي، أو غيرهما، قليلة العدد جداً. هذه القدرات، الظاهرة بالشكل الأكثر وضوحاً في استعمال اللغة، هي التي تقع في صميم الهموم التقليدية: بالنسبة لديكارت في أوائل القرن السابع عشر، إنها أنبل شيء يمكن أن نمتلكه" وكل "ما ينتمي حقاً" إلينا. قبل نصف قرن من ديكارت لاحظ الفيلسوف ـ الطبيب الإسباني خوان هوارتي Juan Huarte أن هذه "الملكة التوليدية" للفهم والفعل البشريين العاديين غريبة على "البهائم والنباتات" (Huarte 1575/ 1698: 3, see also Chomsky 1966: 786) مع أنها شكل أدنى من الفهم لا يكفي للممارسة الحقيقية للتخيل الإبداعي. حتى الشكل الأدنى يقع خارج متناولنا النظري، بغض النظر عن دراسة الإواليات التي تدخل فيه:

في عدد من المجالات، بما فيها اللغة، عرف الكثير حول هذه الإواليات في السنوات الأخيرة. إن المشاكل التي يمكن مواجهتها الآن صعبة وتمثل تحدياً، لكن كثيراً من الألغاز لا يزال يقع خارج متناول شكل الاستعلام البشري الذي ندعوه "العلم" [وهو] استنتاج ينبغي ألا نجده مفاجئاً إذا اعتبرنا البشر جزءاً من العالم العضوي، وربما ينبغي علينا ألا نجده مزعجاً أيضاً.

الفصل الثاني

تفسير استعمال اللغة

يجادل هيلاري بوتنام، في "محاضرات جون لوك"، بأن "بعض القدرات البشرية - تكلم اللغة مثال نموذجي على ذلك - من غير الممكن أن تكون قابلة للتفسير نظرياً بمعزل عن غيرها، بعيداً عن نموذج تام "للتنظيم الوظيفي البشري" الذي "يمكن أن يكون غير قابل للفهم unintelligible بالنسبة للبشر عندما يتم عرضه بأي تفصيل". المشكلة هي "أننا، من الناحية الواقعية، لن نحصل على نموذج تفسيري مفصل لأجل النوع الطبيعي "الكائن البشري"، ليس بسبب "التعقيد المحض" بل لأننا "مبهمين جزئياً بالنسبة لأنفسنا، بمعنى عدم امتلاك القدرة على أن يفهم أحدنا الآخر كما نفهم ذرات الهيدروجين". هذه حقيقة "تكوينية" في "الكائنات البشرية في العصر الحديث" رغم أنها قد لا توجد في عدة مئات من السنين (Putnam 1978).

هكذا فإن "النوعين الطبيعيين"، الكائن البشري وذرة الهيدروجين، يستدعيان نوعين مختلفين من الاستعلام، أحدهما يقود إلى "نماذج تفسيرية مفصلة" والآخر لا يقود إلى ذلك، على الأقل في الوقت الحالي. الفئة الأولى هي استعلام علمي، نبحث فيه

عن نظريات تفسيرية قابلة للفهم ونتطلع إلى دمجها مع العلوم الطبيعية الأساسية؛ دعونا نسمي هذا النمط من الاستعلام "طبيعانياً" naturalistic بالتشديد على خصيصة العمل والأهداف المعقولة، بتجرد عن الإنجاز الفعلي. خارج هذا المجال، توجد قضايا على صعيد "التنظيم الوظيفي البشري" الكامل، وهو ليس موضوعاً جدياً بالنسبة للاستعلام الطبيعاني (الراهن) لكنه أكثر شبهاً بدراسة كل شيء، مثل المحاولات للإجابة على أسئلة زائفة مثل "كيف تعمل الأشياء؟" أو "لماذا تحدث؟". إن كثيراً من الأسئلة ـ بما في ذلك تلك التي لها الأهمية البشرية الكبرى، يمكن أن يجادل المرء ـ لا تقع ضمن الاستعلام الطبيعاني؛ إننا نقاربها بطرق أخرى. كما يؤكد بوتنام، فإن الفروقات ليست حادة، لكنها مفيدة رغم ذلك.

في مناقشة نقدية "للنزعة العقلية" mentalism المسفسطة من نوع الـ "MIT"* (تحديداً، "لغة التفكير" لدى جيري فودور؛ فودور 1975)، يضيف بوتنام بعض الملاحظات المتممة حول الاستعلام النظري الذي لا يساعد في شرح تكلم اللغة. إنه يدرس إمكانية أن تكتشف علوم الدماغ أننا عندما "نفكر بكلمة Cat" (أو عندما يفكر متكلم اللغة التايلندية بمرادف لها)، يتشكل شكل C في الدماغ. "هذا شيء فاتن، إذا كان صحيحاً" يختتم قائلاً، ربما يكون مساهمة هامة في علم النفس وعلوم الدماغ، "لكن ما علاقته بمناقشة معنى Cat" (أو معنى المرادف التايلندي أو معنى C)؟ المعنى الضمني هو أنه لا صلة له بالموضوع (Putnam 1988a).

---

* MIT الأحرف الأولى من اسم معهد ماسا شوستس للتكنولوجيا (المترجم).

هكذا تكون لدينا أطروحتان مترابطتان. الأولى، إن "تكلم اللغة" والقدرات البشرية الأخرى لا تقع حالياً ضمن الاستعلام الطبيعاني. الثانية، لا شيء يمكن تعلمه حول المعنى (وبالتالي حول مظهر أساسي من تكلم اللغة) من دراسة تكوينات وعمليات الدماغ (على الأقل من النوع المشروح). يبدو لي أن الاستنتاج الأول قد تم التقليل من شأنه وليس مصاغاً بشكل ملائم تماماً؛ أما الثاني فهو قوي أكثر مما ينبغي. دعونا ندرسهما، كلاً بدوره.

إن مفهوم الكائن البشري هو جزء من فهمنا البديهي، له خواص التفرد individuation والمثابرة النفسية، وهلم جرا، التي تعكس هموم ومواقف ومنظورات بشرية بعينها. الشيء نفسه يصح على "تكلم اللغة". بعيداً عن الصدفة غير المحتملة، فإن هذه المفاهيم لن تقع ضمن النظريات التفسيرية من النوع الطبيعاني، ليس الآن فقط، بل دوماً. هذا ليس بسبب القيود الثقافية أو حتى البشرية بشكل جوهري (مع أن هذه القيود موجودة)، بل بسبب طبيعتها. قد يكون لدينا الكثير لنقوله حول البشر، المتصوَّرين هكذا؛ حتى التعليلات ذات المستوى المتدني التي تقدم تفسيراً ضعيفاً. لكن هذه التعليلات لا يمكن دمجها في العلوم الطبيعية جنباً إلى جنب مع النماذج التفسيرية لذرات الهيدروجين أو الخلايا أو الكيانات الأخرى التي نفترضها لدى البحث عن نموذج تفسيري متماسك ومفهوم من الصنف الطبيعاني. لا يوجد مبرر لافتراض أنه يوجد "نوع طبيعي "الكائن البشري"؛ على الأقل إذا كانت الأنواع

الطبعية هي أنواع الطبيعة، الفئات [التصنيفية] المكتشفة في الاستعلام الطبيعاني.

ليس السؤال هو ما إذا كانت مفاهيم الفهم الفطري نفسها يمكن دراستها في فرع ما من الاستعلام الطبيعاني؛ فربما كان من الممكن ذلك. بالأحرى، إننا، لدى دراسة العالم الطبيعي (بقدر ما يتعلق الأمر بذلك، لدى دراسة هذه المفاهيم كجزء من العالم الطبيعي)، ننظر إلى ذلك من نقطة الاستشراف التي توفرها هذه المفاهيم. يمكن أن تكون هناك دراسات علمية لبعض مظاهر ماهية البشر وما يفعلونه، لكنها لن تستخدم الفكرتين العامتين الفطريتين، أي **الكائن البشري** أو **تكلم اللغة** - مع دورهما الخاص في الحياة والفكر البشريين - في صياغة مبادئها التفسيرية.

يصح الشيء نفسه على المفاهيم البديهية عموماً. إن مفاهيم عامة مثل desk (مقعد) أو book (كتاب) أو house (بيت) ناهيك عن المفاهيم "المجردة" أكثر، ليست ملائمة للاستعلام الطبيعاني. إذ يعتمد ما إذا كان شيء ما يوصف بشكل صحيح كمقعد، بدلاً من أن يوصف كطاولة أو كسرير قاس، على مقاصد مصممة وعلى الطرق (التي نقصد) نحن والآخرون أن نستعمله بها، من ضمن عوامل أخرى. إن الكتب هي أشياء ملموسة. يمكننا أن نشير إليها هكذا ("الكتاب يزن خمسة باوندات")، أو من منظور مجرد ("من كتب الكتاب؟"، كتب الكتاب في ذهنه؛ لكنه من ثم نسيه")؛ أو من المنظورين بآن معاً (الكتاب الذي كتبه كان يزن خمسة باوندات"، "الكتاب الذي يكتبه سيزن خمسة باوندات على الأقل إذا نُشر"). إذا قلت: "تلك المجموعة من أوراق اللعب، التي تنقصها الملكة

(البنت) مهترئة إلى درجة لا يمكن استعمالها" فإن تلك المجموعة من أوراق اللعب تعتبر في الوقت نفسه مجموعة ناقصة وصنفاً غريباً من "شيء ملموس" مبعثر، بالتأكيد ليس مجموعاً كاملاً mereological. يستخدم مصطلح house للإشارة إلى أشياء ملموسة، لكن من وجهة نظر المصالح والأهداف البشرية الخاصة وبخواص مثيرة للفضول. فالبيت يمكن هدمه وإعادة بنائه، مثل المدينة؛ إن لندن يمكن تهديمها بالكامل وإعادة بنائها على امتداد نهر الثيمز Thames بعد ألف عام وتبقى لندن. في ظل بعض الظروف، من الصعب أن نتخيل كيف يمكن أن تكون هذه مفاهيم صالحة لأجل الدراسة النظرية للأشياء والأحداث والسيرورات في العالم الطبيعي. مما لا خلاف حوله أن الشي نفسه يصح على المادة والحركة والطاقة والعمل، والسائل والمفاهيم الفطرية الأخرى التي يتم التخلي عنها عندما يبدأ الاستعلام الطبيعاني. فالفيزيائي الذي يسأل ما إذا كانت كومة من الرمل صلبة أم سائلة أم غازية ـ أو نوعاً آخر من المادة ـ لا يقضي أي وقت في السؤال عن كيفية استعمال هذه المصطلحات في الخطاب العادي، ولن يتوقع أن تكون للإجابة على السؤال الأخير أية صلة بالأنواع الطبيعية إذا كانت هذه هي الأنواع في الطبيعة (Jaeger and Nagel 1992).

إن المعقول فقط هو أن نتوقع أن يصح الشيء نفسه على الاعتقاد والرغبة والمعنى، وصوت الكلمات والقصد.. الخ، طالما أن مظاهر الفكر والعمل البشريين يمكن معالجتها ضمن الاستعلام الطبيعاني. فكون المرء واقعياً قصدياً Intentional Realist، كما يبدو، هو

تقريباً بنفس معقولية أن يكون واقعياً مقعدياً ـ أو صوت لغوياً أو هرياً أو مادياً، ليس (بمعنى) أنه لا توجد أشياء مثل المقاعد ـ الخ. بل أنه في الحقل الذي تبرز فيه أسئلة الواقعية بطرق مثيرة للفضول، في سياق البحث عن قوانين الطبيعة لا يتم تصور الأشياء من المنظورات الخاصة التي تقدمها مفاهيم الفطرة. يُعتقد على نطاق واسع أن "الحديث العقلاني mentalistc والكيانات العقلية سوف تفقد في نهاية المطاف مكانها في محاولاتنا لوصف وتفسير العالم" (Burge 1992). هذا صحيح بما يكفي، لكن من الصعب أن ندرك أهمية المذهب، نظراً لأن الشيء نفسه يصح بشكل لا خلاف حوله على "الحديث الجسداني والكيانات الجسدية" (مهما يكن الحد الذي يكون عنده التمييز "العقلي" ـ "الجسدي" قابلاً للفهم).

حتى المفاهيم العامة الأكثر بدائية، مثل الشيء القابل للتسمية nameable thing، تنطوي بشكل حاسم على مفاهيم عامة معقدة مثل الفاعلية البشرية. إن ما نعدها أشياء، وكيف نشير إليها ونصفها، والعدد الكبير من الخواص التي نخصها بها، إنما تعتمد على مكانتها في مصفوفة الأفعال والمصالح البشرية والقصد intent في جوانب تكمن خارج المجال الممكن للاستعلام الطبيعاني. ومصطلحات اللغة يمكن أيضاً أن تدل على مواقف في أنظمة الاعتقاد، تزيد من ثراء المنظورات التي تقدمها هذه المصطلحات لأجل رؤية العالم، مع أنها بطرق ما غير ملائمة لغايات الاستعلام الطبيعاني. يمكن لبعض المصطلحات ـ بالأخص تلك التي تفتقر إلى "البنية العلاقية الداخلية" (أبرزها، ما تسمى "مصطلحات النوع الطبيعي") أن تفعل أكثر قليلاً من ذلك، بقدر ما يتعلق الأمر بمعجم

اللغة الطبيعية. (انظر ;Moravcsik 1975; Chomsky 1975b (Moravcsik 1990; Bomberger 1992a أقصد "بالبنية العلاقية الداخلية" الخواص الانتقائية لكلمات مثل "give" (الذي يأخذ فاعلاً منفذاً ومفعولاً محورياً theme ومفعولاً هدفياً goal غير مباشر) التي تكون معدومة بالنسبة لكلمات "Cat"، "liquid"، الخ. إن مفهومي اللغة الطبيعية، والفطرة common sense عموماً، ليسا مرشحين حتى لأجل النظريات الطبيعانية.

يوسع بوتنام استنتاجاته إلى طروحة برنتانو Brentano القائلة بأن "القصدية" intentionality لن تُختزل ولن يُطاح بها": / لاتوجد خاصية قابلة للوصف علمياً تشترك بها كل حالات أي ظاهرة قصدية بعينها" (لنقل، التفكير حول القطط) (Putnam 1988a). بشكل عام أكثر، ترتبط الظواهر القصدية بالبشر وما يفعلونه عندما ينظر إليها من موقع المصالح البشرية والتفكير اللا تأملي، وبالتالي لن تقع (منظوراً إليها هكذا) ضمن النظرية الطبيعانية، التي تسعى إلى وضع هذه العوامل جانباً - مثل الأجسام الساقطة، أو السماء، أو السوائل، يمكن ربط ظاهرة قصدية بعينها بمنطقة ما عديمة الشكل في فضاء على درجة عالية من التعقيد والتغير من المصالح والهموم البشرية. لكن هذه ليست مفاهيم ملائمة للاستعلام الطبيعاني.

يمكن أن نفترض أن بعض مكونات العقل (لندعوها "ملكة تشكيل العلم"، تبجيلاً للجهل فالعنوان) تدخل في الاستعلام الطبيعاني، إلى حد كبير كما تدخل ملكة اللغة (التي نعرف حولها

قدراً لا بأس به) في اكتساب واستعمال اللغة. إن منتجات ملكة تشكيل العلم هي شذرات من الفهم النظري، والنظريات الطبيعانية ذات الدرجات المتفاوتة من القوة والمعقولية التي تشمل مفاهيم تم بناؤها ومنحها معنى بطريقة مدروسة ومحددة، طالما كان ذلك ممكناً، بقصد شحذها أو تعديلها خلافاً لذلك عندما يتم إحراز المزيد من الفهم. تنتج ملكات العقل الأخرى مفاهيم الفهم الفطري التي تدخل علم دلالات اللغة الطبيعية وأنظمة الاعتقاد. إن هذه ببساطة "تنمو في العقل" إلى حد كبير بالطريقة التي ينمو بها الجنين متحولاً إلى شخص. أما كم يمكن أن تكون الفوارق حادة فهذا سؤال مفتوح، لكنها تبدو واقعية مع ذلك.

في بعض الأحيان يكون هناك تشابه بين مفاهيم تنشأ بهذه الطرق المختلفة؛ فالاستعلام الطبيعاني يمكن أن يبني نظيراً ما للمفهوم العام الفطري **كائن بشري**، مثلما أن H_2O يتطابق تطابقاً شبه تام مع الماء (مع أن التراب والهواء والنار، مثلها في ذلك مثل الماء بالنسبة للقدماء، تفتقر إلى مثل هذه النظائر). من الشائع أن أية تشابهات مع المفاهيم العامة الفطرية لا تترتب عليها أية نتيجة بالنسبة للعلم. على سبيل المثال، ليس شرطاً بالنسبة للكيمياء الحيوية أن تقرر عند أية نقطة في الانتقال من الغازات البسيطة إلى البكتريا نجد "جوهر الحياة"؛ ولو فرض شيء من هذا التصنيف لما كان التطابق مع أي مفهوم عام فطري يعني أكثر مما يعني لأجل الجوار (المكاني)، أو الطاقة، أو السمكة.

بشكل مشابه، ليس من شأن الدراسة النفسية ـ الأحيائية للمتعضيات أن تتعامل مع المفاهيم التقنية للخطاب الفلسفي كمفهوم

المضمون الإدراكي Perceptual Content، بخواصه المفترضة (التي تعزى بشكل ملتبس أحياناً إلى "علم النفس الشعبي" Folk psychology، وهو مُنشَأ [تركيب] يبدو أنه يشتق جزئياً من التقاليد والتراثات الثقافية الضيقة للخطاب الأكاديمي). ولا يجب على هذه الاستعلامات أن تفرد منزلة خاصة للإدراك الحقيقي في ظل الشروط "العادية". هكذا، لدى دراسة تحديد البنية من خلال الحركة، ليس مهماً ما إذا كان الحدث الخارجي هو مجموعة متلاحقة من الومضات على شاشة عرض tachistoscope تنتج الخبرة البصرية بمكعب يدور في الفراغ، أو بمكعب دوار حقيقي أو تنبيهاً للشبكية، أو العصب البصري أو القشرة الدماغية البصرية. بأي حال، فإن الاستقصاء الحوسبي يُعنى بطبيعة التمثلات الداخلية التي يستخدمها الجهاز البصري والسيرورات التي تشتق بها" كما تعنى دراسة الخوارزميات algorithms (Ullman, 1979: 3) والميكانيزمات في هذا العمل والأعمال الأخرى وفق طرق افتتحها ديفيد مار (1982) David Marr. ليس مهماً أيضاً ما إذا كان من الممكن أن يقبل البشر الحالات الوهمية مثل "رؤية مكعب" (مع اعتبار "الرؤية" seeing تساوي امتلاك الخبرة، سواء كانت "وهمية" أم حقيقية)؛ أو ما إذا تم الانكباب على قضايا النظريات الفلسفية ذات الصفة القصدية. إن علم النفس الذي يتعامل مع القضايا الأخيرة سيكون بلاشك فردانياً، كما يجادل مارتن ديفيز (1991) Martin Daves، لكنه أيضاً سيحيد عن الاستعلام الطبيعاني في طبيعة المتعضيات، وربما عن علم النفس الشعبي

الأصيل أيضاً[1]. لنأخذ مثالاً معيارياً آخر، بناءً على افتراض (غير معقول إلى حد ما) أن المقاربة الطبيعانية، للغيرة مثلاً، كانت ممكنة التطبيق، من الصعب بشكل محتمل أن تفرق هذه المقاربة بين الحالات التي تشمل أشياء حقيقية أو متخيلة. إذا اعُتبر "العلم المعرفي" معنياً بالصفة القصدية، فقد يتبين أنه مسعى مثير للاهتمام (كما هو الأدب)، لكن من غير المحتمل أن يقدم نظرية تفسيرية أو يدمج في العلوم الطبيعية.

عندما يتقدم الفهم وتُشحذ المفاهيم، يميل مسار الاستعلام الطبيعاني نحو نظريات تُجرد فيها المصطلحات من البقايا المشوهة للفهم الفطري، وتخصص لها علاقة بكيانات مفترضة ومكاناً في مصفوفة المبادئ: **العدد الحقيقي**، **الالكترون**، وهلم جرا. يكون الافتراق عن اللغة الطبيعية مضاعفاً: المصطلحات المبنية تتجرد من الخواص المعقدة لتعابير اللغة الطبيعية، إنها تمنح خواص دلالية قد لا تصلح لأجل اللغة الطبيعية، مثل الإحالة (يجب أن نكون مدركين لما دعاه ستروسون Strawson ذات مرة "خرافة اسم العلم منطقياً"، في اللغة الطبيعية، والخرافات ذات الصلة المعنية بأسماء الإشارة indeicals والضمائر (Strawson 1952: 216)؛ عندما يستمر هذا المسار، يزداد الافتراق عن اللغات الطبيعية بين الطرق التي نفهم بها ذرة الهيدروجين من ناحية، والكائن البشري (و"المقعد"، و"السائل"، و"السماء"، و"الخريف"، و"المطاردة"، "ولندن"، "وهذا"، الخ...) من ناحية أخرى.

لكن حتى النسخة المقواة من طروحة بوتنام الأولى لا تخولنا الانتقال إلى الطروحة الثانية، وبشكل عام أكثر، إلى استنتاج أن

النظريات الطبيعانية للدماغ لا صلة لها بفهم ما يفعله البشر. تحت شروط معينة يرى البشر الصور الدوّارة الـ T achistoscopic كمكعب دوار أو ضوء ينتقل في خط مستقيم. إن دراسة القشرة البصرية يمكن أن تقدم فهماً لسبب حدوث ذلك، أو السبب في أن الإدراك الحسي يسير كما يسير في الظروف العادية. والاستعلامات المماثلة قد يكون لديها الكثير لتقوله حول "تكلم اللغة" والنشاطات البشرية الأخرى.

لنأخذ حالة بوتنام: اكتشاف أن التفكير بالقطط Cats يعيد إلى الذهن حرف C. بالتأكيد إن هذا الاكتشاف قد تكون له صلة ما بالاستعلام في ما يعنيه بيتر (أو ما يشير إليه، أو يفكر به) عندما يستعمل مصطلح Cats، وبالتالي له صلة ما بـ "مناقشة معنى cat. على سبيل المثال، كان ثمة جدل ـ شارك فيه بوتنام ـ حول الخواص الإحالية لـ cat لو تبيّن أن القطط هي روبوتات يتم التحكم بها من المريخ. افترض أنه بعد أن يتوصل بيتر إلى تصديق ذلك، فإن دماغه يشكل، أو لا يشكل، C عندما يحيل إلى القطط (أو يفكر بها، الخ). قد يكون ذلك ذا صلة بالنقاش. أو، لنأخذ حالة واقعية: تظهر الدراسات الحديثة للنشاط الكهربائي للدماغ (القدرات الكامنة المرتبطة بالحدث، ERP) استجابات متميزة للتعابير الصائبة والمخالفة ومن ضمن هذه الأخيرة استجابات لمخالفات:

(1) توقعات معاني الكلمات؛

(2) قواعد تركيب العبارة؛

(3) شرط خصوصية الإحالة على استخراج المحدّدات Operators extraction

(4) شروط الموضعية على الانتقال (.Neville et sl).

هذه النتائج يمكن بالتأكيد أن تكون ذات صلة بدراسة استعمال اللغة، وبالأخص دراسة المعنى.

يمكننا التعمق أكثر. ترتبط أنماط النشاط الكهربائي للدماغ بالفئات الخمس للبنية المشار إليها وهي: اللاانحراف والأنواع الأربعة للانحراف. لكن دراسة هذه الفئات هي أيضاً دراسة للدماغ، وحالاته، وخواصه، تماماً مثلما أن دراسة الخوارزميات المتضمنة في رؤية خط مستقيم أو في إجراء عملية تقسيم طويلة هي دراسة للدماغ. يمكن دراسة الدماغ، مثل الأنظمة المعقدة الأخرى، على مستويات مختلفة: الذرات، الخلايا، تجمعات الخلايا، الشبكات العصبية، الأنظمة الحوسبية ـ التمثيلية (C-R)، الخ. تربط دراسة الـ ERP إثنين من هذه المستويات: النشاط الكهربائي للدماغ والأنظمة الحوسبية ـ التمثيلية C-R. فدراسة كل مستوى على حدة دراسة طبيعانية من حيث صفة العمل ومن حيث الاندماج مع العلوم الطبيعية الأساسية هي أمل يمكن تعليل النفس به بشكل معقول. في سياق مناقشة بوتنام، فإن الاكتشافات حول الدماغ على هذه المستويات من الاستعلام هي مساوية للاكتشاف المتعلق بتشكل C (المتخيّل)، عندما يفكر بيتر بالقطط.

في حالة اللغة، تمتلك النظريات الحوسبية ـ التمثيلية (C-R) سنداً تجريبياً أقوى بكثير من أي شيء متاح على مستويات أخرى، وهي متفوقة إلى حد كبير في القدرة التفسيرية؛ إنها تقع ضمن العلوم الطبيعية إلى حد لا يصل إليه الاستعلام في "تكلم اللغة" على مستويات أخرى. في الحقيقة، تكمن الأهمية الراهنة لدراسات ERP

بالدرجـة الأولى في ارتباطاتهـامع نظريـات C-R الأغنـى والأفضـل تأسيساً بكثير. ضمن هذه الأخـيرة، تمتلـك الفئـات الخمـس مكانـاً ووفقاً لذلك، مجالاً عريضاً من السند التجريبي غير المباشر؛ بمعـزل عن نظريات C-R. تكون ملاحظات ERP هـي مجـرد أشـياء مـثيرة للفضول، تفتقر إلى الأساس النظري. بشكل مماثل، سيكون اكتشاف أن C ترتبط باستعمال Cat، كحقيقة معزولة، اكتشافاً حول C أكثر من كونه اكتشافاً حول معنى Cat ـ ولهذا السبب وحده سوف يلقي قليلاً من الضوء على الخلاف حول الروبوتـات المسيَّرة مـن المـريخ. لنأخذ حالة أخرى، هي أن اكتشاف الانزياح الإدراكـي للطقطقـات clicks إلى حدود العبارات هو، في الوقت الحالي، اكتشـاف حـول صلاحية التجربة أكثـر ممـا هـو اكتشـاف حـول حـدود العبـارات. السبب هو أن الأدلة على الأنـواع الأخـرى مـن [الاكتشـاف] حـول حدود العبارات ـ تسمى أحياناً أدلة "لغوية" بدلاً مـن تسمية أدلـة "سيكولوجية" (مصطلح مضلل إلى حد كـبير) ـ تكـون أكثـر إلزامـاً بكثير ومحتواة في بنية تفسيرية أغنى بكـثير. لـو تـبين أن تجـارب الطقطقـات clicks يُعـول عليهـا بشـكل كـافٍ في تعريـف هويـات الكيانات المفترضـة في النظريـات الحوسـبية ـ التمثيليـة، ولـو كـان إطارها النظري معمقاً، لكان بمقدور المرء أن يعول عليها في الحالات التي يكون فيها "الدليل اللغوي" غامضاً؛ بل ربما أكثـر مـن ذلـك، عندما يتقدم الاستعلام. (حول بعض حالات سوء فهم هـذه المسـائل انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب، (Chomsky 1991a; 1991 b).

في الوقت الحالي، إن النظريات الحوسبية التمثيلية هي النظريات الطبيعانية الأفضل تأسيساً حول اللغة واستعمالها. ونحن نزعم، بناء على الاعتقاد بشكل أساسي، أنه يوجد نوع ما من الوصف بلغة الذرات والجزيئات، وإن كنا لا نتوقع أن تكون المبادئ العاملة وبنى اللغة والتفكير قابلة للإدراك على هذه المستويات. بقفزة يقين أكبر، نميل إلى الزعم بأن ثمة وصف باللغة العصبولوجية (بدلاً من اللغة الدبقية glial أو الوعائية، مع أن نظرة إلى الدماغ تكشف عن وجود الخلايا الدبقية والدم بالإضافة إلى العصبونات[2] neurons. من الممكن أيضاً أن عناصر ومبادئ تركيب الدماغ ذات الصلة لم تكتشف بعد. ربما ستقدم النظريات الحوسبية ـ التمثيلية خطوطاً دليلية للبحث عن الإواليات، إلى حد كبير كما قدمت كيمياء القرن التاسع عشر شروطاً تجريبية حاسمة لأجل المراجعة الجذرية للفيزياء الأساسية. إن الشعار الشائع أن "العقلي هو الفيزيولوجي العصبي على مستوى أعلى" ـ حيث توضع نظريات C-R ضمن "العقلي" ـ يعيد الأمور نحو الوراء. إذ ينبغي إعادة صياغته حالما يتبين أن افتراض أن الفيزيولوجي العصبي هو "العقلي على مستوى أدنى" ـ أي افتراض أن الفيزيولوجيا العصبية يمكن، ذات يوم أن تبرهن على أن لها تأثيراً ما على "الظاهرات العقلية" المعالجة في النظريات الحوسبية ـ التمثيلية. فيما يتعلق بالمزاعم الأخرى للمادية الإزالية، يبقى المذهب لغزاً إلى أن يتم تقديم تعليل ما لطبيعة "المادي"؛ وبفرض ذلك التعليل فإن بعض السبب في أنه يتعين على المرء أن يأخذه على محمل الجد أو يكترث إن كانت النظريات ناجحة، إنما يقع وراء حدوده المفترضة.

في الوقت الحاضر، تقدم المقاربات الحوسبية ـ التمثيلية التفسير الطبيعاني الأفضل تأسيساً والأغنى للمظاهر الأساسية لاستعمال اللغة. ضمن هذه النظريات، ثمة مفهوم أساسي يحمل أوجه شبه بالمفهوم العام الفطري "لغة": إنه **الإجراء التوليدي** generative procedure الذي يشكل **الأوصاف البنيوية** Structural descriptions (SDS)، كل تفسير مركب من خواص صوتية ودلالية وبنيوية. دعونا نسمي هذا الإجراء لغة أنا I- language، وهو مصطلح فردي، وقصدي (لذلك فإن لغات أنا المتميزة يمكن، من حيث المبدأ، أن تولد المجموعة نفسها من الأوصاف البنيوية SDS، رغم أن الخواص السليقية الحصرية إلى درجة كبيرة لملكة اللغة يمكن أن تترك هذه الإمكانية غير محققة). يمكننا أن نعد التعابير اللغوية للغة أنا مفترضة بمثابة الأوصاف البنيوية المولدة من قبلها. فالتعبير اللغوي، إذاً، هو مركب من خواص صوتية ودلالية وغيرها. إن امتلاك لغة أنا هو شيء يشبه امتلاك "طريقة للتكلم والفهم" وهي إحدى الصور التقليدية لماهية اللغة ـ ثمة مبرر للاعتقاد بأن لغات أنا ("الكفاية النحوية") مختلفة عن التنظيم المفاهيمي و"الكفاية البراغماتية"، وأن هذه الأنظمة يمكن إضعافها بشكل انتقائي وتفكيكها تطورياً (انظر: Yamada 1990; John Marshall 1990)

تحدد لغات أنا شكل ومعنى عناصر معجمية مثل desk، work، tall، طالما أن هذه العناصر تقررها ملكة اللغة نفسها. بشكل مشابه، يتعين عليها أن تفسر خواص تعابير أكثر تعقيداً:

على سبيل المثال، حقيقة أن "John rudely departed" [انصرف جون بوقاحة] يمكن أن تعني إما أنه انصرف بطريقة وقحة أو أن انصرافه كان وقاحة، وأنه، في الحالتين، انصرف (ربما ينبغي افتراض دلالات الحدث كمستوى من التمثيل للتعامل مع هذه الحقائق؛ (انظر Higginbotham) وينبغي أن تشرح حقيقة أن الفاعل المفهوم للفعل expect في المثال (1) يعتمد على ما إذا كان X يساوي الصفر (معدوم) أو هو بيل، مع مجموعة من التبعات الدلالية الأخرى:

(1) John is too clever to expect anyone to talk to X

وفي الحقيقة، إن كلمة Ladder، في كلامي، تتساجع مع matter، لكن madder لا تفعل ذلك. في طيف واسع من هذه الحالات، سترد تفسيرات هامة. إن دراسة الأجهزة الحوسبية ـ التمثيلية لا تقدم أدنى تبصر "في كيف يفصح الناس عن أفكارهم وكيف يفسرون ما يسمعون، مع أن قليلاً ـ وكثيراً ـ من دراسة هذه الأفعال كفيزيولوجيا وسيكولوجيا الإبصار هي بالطبع دراسات للرؤية البشرية للأشياء.

إن الاستعلام الأعمق في اللغات المذوتة سوف يسعى إلى تفسير حقيقة أن بيتر يمتلك LP اللغة المذوتة في حين أن جوان يمتلك لـا اللغة المذوتة ـ مع كون هذين البيانين تجريديين من المستوى الرفيع، لأن ما يمتلكه بيتر وجوان في ذهنهما هو في الواقع مثير للاهتمام تقريباً لأجل الاستعلام مثل مسار ريشة في يوم عاصف. لابد أن التفسير الأساسي يكمن في خواص ملكة اللغة للدماغ. لتقريب الموضوع جيداً، فإن الحالة البدئية المحددة وراثياً لملكة

اللغة هي نفسها بالنسبة لبيتر وجوان والناس الآخرين. فهي تسمح لمجموعة محصورة فقط من لغات الأنا بالتطور تحت التأثير المحرض والمشكّل للخبرة. في ضوء الفهم الحالي، من غير المعقول أن نفترض أن الحالة البدئية تحدد النظام الحوسبي للغة بشكل فريد، بالتوازي مع مجال معقد البنيان من الإمكانيات المعجمية وبعض الخيارات بين "العناصر النحوية" التي تفتقر إلى المضمون الحقيقي. خارج هذه الإمكانيات يمكن اختزال تغيرات variations اللغات المذوتة إلى اعتباطية سوسورية Sausaurean (ارتباط المفاهيم بالتمثيلات المجردة للصوت) وأجزاء منظومة الصوت الذي يمكن الوصول إليها نسبياً و، بالتالي "قابلة للتعلّم" learnable (لنستعمل مصطلحاً ذا دلالات مضللة). إن الاختلافات الصغيرة في نظام معقد، بالطبع، تنتج اختلافات ظاهراتية كبيرة، لكن العالم المريخي العقلاني الذي يدرس البشر قد لا يجد الاختلاف بين الانكليزية ولغة نافاجو مهماً جداً.

إن لغة الأنا هي خاصية للدماغ (موصوفة نحو ضيق)، إنها عنصر مستقر نسبياً من الحالات الانتقالية لملكة اللغة. فكل تعبير لغوي (SD) تولده لغة الأنا يتضمن تعليمات لأجل أجهزة الأداء التي تُحتوى فيها لغة الأنا. هذه الحالة الدماغية لا تكون مؤهلة لتكون لغة إلا بفضل اندماجها في أجهزة الأداء. يمكن لمتعضي آخر، من حيث المبدأ، أن يمتلك نفس لغة الأنا (حالة الدماغ) التي يمتلكها بيتر، لكنها تكون محتواة في أجهزة أداء تستعملها لأجل التحريك. فنحن ندرس موضوعاً حقيقياً، ملكة اللغة للدماغ، التي

تلبست شكل لغة أنا كاملة وهي مدمجة في أنظمة الأداء التي تلعب دوراً في الإفصاح والتفسير والتعبير عن المعتقدات والرغبات والإحالات وسرد القصص وهلم جرا.

يبدو أن أجهزة الأداء تقع تحت نوعين عامين: نطقي (إفصاحي) - إدراكي، ومفاهيمي - قصدي[3]. إذا كان الأمر هكذا، فمن المعقول أن نفترض أن التعبير المولّد يتضمن مستويين بينيين، واحد يقدم المعلومات والتعليمات للأجهزة النطقية - الإدراكية، والآخر للأجهزة المفاهيمية - القصدية. يفترض بسطح بيني واحد عموماً أن يكون تمثيلاً صوتياً (شكلاً صوتياً PF). إن طبيعة الآخر هي أكثر إثارة للجدل؛ دعونا نسميه "الشكل المنطقي" (Logical Form(LF.

إن خواص هذه الأجهزة، أو وجودها، هي من مسائل الحقائق التجريبية. إذ ينبغي ألا يضلّل المرء بالدلالات غير المقصودة لمصطلحات مثل "الشكل المنطقي" و"التمثيل"، المأخوذة من الاستعمال التقني في الأنواع المختلفة للاستعلام. بشكل مماثل، رغم أنه يوجد إلماح إلى مفهومي "النحو العميق" و"النحو السطحي" للتحليل الفلسفي، فإن المفهومين لا يتطابقان تماماً. فما يكونه "السطح" من وجهة نظر لغة الأنا هو، إن كان ثمة شيء من ذلك، PF، السطح البيني مع الأجهزة النطقية الإدراكية. فكل شيء آخر يكون "عميقاً". ليس للنحو السطحي للتحليل الفلسفي مكانة خاصة في الدراسة التجريبية للغة؛ إنه شيء ما يشبه الحكم الظاهراتي، يتوسطه التعليم المدرسي، والمرجعيات التقليدية والأعراف، والمنتجات الصنعية الثقافية، وهلم جرا. تبرز أسئلة مشابهة بخصوص ما يصطلح على تسميته بشكل متفق عليه باسم "علم

النفس الشعبي" Folk Psychology، كما نوهنا. ينبغي على المرء أن ينظر إلى هذه المفاهيم باحتراس: قد يكون ثمة الكثير مما هو محجوب خلف الوضوح الظاهراتي البادي.

يدخل مركب لغة الأنا وأجهزة الأداء في الفعل البشري. إنه موضوع دراسة مناسب لأجل النظريات الطبيعانية، يمكن أن يحملنا بعيداً نحو فهم كيف ولماذا يفعل الناس ما يفعلون، مع أنه يقصر دائماً عن الوصف الكامل، مثلما تفشل النظرية الطبيعانية للجسد في تسليط الضوء بشكل تام على أفعال وإنجازات بشرية مثل رؤية شجرة أو المشي.

وفقاً لذلك، سيكون من المضلل، أو أسوأ من ذلك، أن نقول أن جزءاً من الدماغ أو نموذجاً مجرداً له (على سبيل المثال، شبكة عصبية أو حاسوب مبرمج) يرى شجرة أو أشكالاً أو يستخرج جذراً تربيعياً. إن البشر في طيف ملتبس من الظروف النموذجية يلفظون الكلمات، يشيرون إلى القطط، يعبرون عن أفكارهم، يفهمون ما يقول الآخرون، يلعبون الشطرنج، أو أياً يكن؛ أما أدمغتهم فلا تفعل ذلك، وبرامج الكومبيوتر لا تفعل ذلك - رغم أن دراسة الأدمغة، ربما بالنمذجة المجردة لبعض خواصها، يمكن أن تقدم تبصراً في ما يفعله الناس في هذه الحالات. يمكن أن تقدم الخوارزمية المشكّلة في النظرية الحوسبية - التمثيلية C-R وصفاً صحيحاً لما يحدث في الدماغ عندما يرى بيتر خطاً مستقيماً أو يقوم بعملية تقسيم طويلة أو "يفهم الصينية"[4]. ويمكن دمجها كلياً في نظرية مؤسّسة جيداً في مستوى ما آخر من الشرح (لنقل الخلايا).

لكن الخوارزمية، أو الآلة التي تطبقها، لن تنفذ هذه الأفعال، مع أننا قد نقرر تعديل الاستعمال القائم، كما عندما نقول إن الطائرات تطير والغواصات تبحر (لكنها لا تسبح). لا شيء جوهري موضع رهان. بشكل مشابه، في حين قد ينفذ البشر الفعل بفضل حقيقة أن أدمغتهم تطبق الخوارزمية، فإن نفس هؤلاء البشر ما كانوا لينفذون الفعل لو كانوا ينفذون التعليمات بشكل آلي، بطريقة الآلة (أو بطريقة أدمغتهم). من الممكن أن أرى خطأً مستقيماً (أو أقوم بقسمة طويلة، أفهم الإنكليزية، الخ) بفضل حقيقة أن دماغي يطبق خوارزمية معينة؛ لكن إذا كنت أنا، الشخص، أنفذ التعليمات بشكل آلي، أحول تمثيلاً رمزياً للدخل إلى تمثيل للخرج، فلا أنا ولا أنا زائد الخوارزمية ـ زائد الذاكرة الخارجية أرى خطأً مستقيماً (الخ)، مرة أخرى، لأسباب غير مهمة[5].

سيكون من الخطأ أيضاً، لدى دراسة طبيعة أجهزة الأداء، أن ننتقل فوراً إلى "دراسة كل شيء" الفارغة. كمثال، لندرس مناقشة ديفيدسون لبيتر بوصفه "مفسراً" يحاول أن يستخرج ما في ذهن توم عندما يتكلم. يلاحظ ديفيدسون أن بيتر يمكن أيضاً أن يستعمل أية معلومة، أو افتراض فرضية أساسية، أو تخميناً، أو أياً يكن، مشكلاً "نظرية عابرة" لأجل المناسبة. لذلك فإن تأمل "المفسر" يحملنا إلى النماذج الكاملة للتنظيم الوظيفي البشري. يستنتج ديفيدسون أنه لا فائدة من "مفهوم للغة" يخدم بمثابة "آلة مفسرة متنقلة معيّرة لاستخراج معنى لفظة اعتباطية"؛ إننا قد دفعنا إلى "التخلي ليس فقط عن المفهوم العام العادي للغة، بل قمنا بإزالة الحد الفاصل بين معرفة اللغة ومعرفة طريقنامن حولنا في العالم

عموماً". بما أنه "لا توجد قواعد لأجل التوصل إلى النظريات العابرة"، فيجب أن نتخلى عن فكرة البنية المشتركة المعرّفة تعريفاً واضحاً التي يكتسبها مستعملو اللغة ثم يطبقونها على حالات" (Davidson 1986b: 446). "لا يوجد شيء كهذا بوصفه لغة". هكذا تفتتح دراسة حديثة لفلسفة ديفيدسون، وهو قول يحظى باستحسان. (Davidson 1986b; Ramberg 1989)

إن الملاحظة الأولية حول "النظريات العابرة" صحيحة، لكن الاستنتاجات لا تصح بالضرورة. الرد المعقول على الملاحظة ـ إذا كان هدفنا هو أن نفهم ماهية البشر وماذا يفعلون ـ هو محاولة عزل الأنظمة المتسقة التي تكون خاضعة للاستعلام الطبيعاني والتي تتفاعل لتنتج بعض مظاهر التعقيد التام. إذا اتبعنا هذا المسار فإننا نُدفع إلى افتراض وجود إجراء توليدي "يستخرج" تعابير لغوية مع خواصها البينية، وأنظمة الإجراء التي تتيح الوصول إلى هذه التعليمات وتستعمل لأجل تفسير أفكار المرء والتعبير عنها.

ماذا عن "فكرة البنية المشتركة المعّرفة تعريفاً واضحاً التي يكتسبها مستعملو اللغة ثم يطبقونها على حالات"؟ هل يجب علينا أيضاً أن نسلّم بوجود هذه "البنى المشتركة" بالإضافة إلى لغة الأنا وأنظمة الأداء؟ يُجادل غالباً بأن مفاهيم عامة مثل "اللغة العمومية" المشتركة أو "المعاني العمومية" مطلوبة لشرح إمكانية التواصل أو إمكانية وجود "مخزون مشترك من الأفكار". بمفهوم غوتليب فريغه (Frege 1892/ 1965: 71). هكذا، إذا لم يكن بيتر وماري يمتلكان "لغة مشتركة"، ذات "معاني مشتركة" و"دلالة مشتركة"،

عندئذ كيف يمكن لبيتر أن يفهم ما تقوله ماري؟ (مما يثير الانتباه، أن لا أحد يتوصل إلى الاستنتاج المماثل حول "اللفظ العمومي"). ترى إحدى الدراسات الحديثة أن الألسنية يمكنها أن تتبنى منظور لغة الأنا فقط" بكلفة إنكار أن الوظيفة الأساسية للغات الطبيعية هي أن تتوسط التواصل بين متكلميها، بما في ذلك مشكلة "التواصل بين الفواصل الزمنية للهجة الفردية idiolect" (ما يسمى "التعلّم التدرجي") (Fodor and Lepore)[6].

لكن هذه الآراء لا تقوم على أسس قوية. فالتواصل الناجح بين بيتر وماري لا يستتبع وجود مخزون مشترك من الألفاظ المشتركة في لغة عمومية (أو مخزون مشترك من الأفكار أو الإفصاحات عنها)، بأكثر مما يستتبع التشابه الفيزيائي [الجسدي] بين بيتر وماري وجود شكل عمومي يشتركان به. فيما يتعلق بفكرة أن "الوظيفة الأساسية للغات الطبيعية هي توسّط التواصل"، فمن غير الواضح ما المعنى الذي يمكن إعطاؤه للمفهوم العام المطلق لـ "الوظيفة الأساسية" لأجل أي نظام بيولوجي؛ وإذا كان بالإمكان التغلب على هذه المشكلة، قد نسأل لماذا يكون "التواصل" هو "الوظيفة الأساسية"؟ زد على ذلك أن مشكلة الانتقال لا تبدو أكثر غموضاً من مشكلة كيف يمكن أن يكون بيتر الشخص الذي يكونه، بالنظر إلى المراحل التي يكون قد مر بها. فليس منظور لغة الأنا ملائماً للمشاكل قيد المعالجة فحسب، بل إنه ليس من السهل أن نتخيل بديلاً متماسكاً.

ربما يبدأ بيتر، عندما يصغي إلى ماري وهي تتكلم، بافتراض أنها مماثلة له، Modulo M، مع مجموعة من التعديلات التي

يجب عليه أن ينفذها. في بعض الأحيان تكـون المهمـة سـهلة، وفي بعـض الأحيـان صعبة، وفي أحيـان أخـرى ميـؤوس منهـا. لتنفيـذ التعديل M، سوف يستخدم بيتر أي وسيلة متاحة له مع أن كثيراً من السيرورة يكون بدون شك تلقائياً وطائشاً[7]. إن بيتر، وقد استقر على M، سوف يستخدم، بشكل مماثل، أية وسيلة لبنـاء "نظريـة عابرة" ـ حتى لو كان M يساوي الصفر. طالما أن بيتر ينجح في هذه المهمات، فإنه يفهم ما تقوله ماري كما تعنيه بتعبيرها. إن "البنيـة المشتركة" (افتراضياً) بين البشـر عمومـاً هـي الحالـة البدئيـة للملكـة اللغـة. بعيـداً عـن كوننـا نتوقـع ألانجـد أكثـر مـن تقريبـات approximations، كما في حالة الأشياء الطبيعيـة الأخـرى الـتي تنمو وتتطور.

إن مناقشة اللغة واستعمالها تُدخل بشكل منـتظم أنواعـاً أخـرى من البنيـة المشـتركة: مشـتركات [جماعـات] Communities مـع لغاتهـا، لغـات مشـتركة عـبر ثقافـة أوسـع... الخ. يكـون بعـض الممارسات مقياسياً في الخطاب غير الرسمـي العـادي أيضـاً. لهـذا نقول أن بيتر وتوم يتكلمان اللغة نفسها لكن خوان يتكلم لغة أخرى مختلفة ونقول، بالمثل إن بوسطن قريبة من نيويورك، لكنها ليست قريبة من لندن، أو إن بـيتر وتـوم يبـدوان متشـابهين، لكـن أحـداً منهما لا يشبه جـون. أو قـد نـرفض هـذه المـزاعم كلـها. لا يوجـد اختيار صائب أو خاطئ بتجرد عـن المصـالح الـتي قـد تـتغير بكـل طريقة يمكن تصورها. لا توجد أيضاً فئات طبيعية، ولا أية مثلنـات idealization. بهذا الخصوص، فتكلم اللغة نفسـها مكـافئ لكـون

المرء قريباً من أو شبيهاً بـ. إن الملاحظة المتفق عليها في منهاج اللسانيات الجامعي هي نكتة ماكس فاينرايش Max Weinreich القائلة بأن اللغة هي لهجة ذات جيش وأسطول بحري، لكن اللهجات هي أيضاً مفاهيم غير لغوية، يمكن إنشاؤها بطريقة أو بأخرى، تبعاً لمصالح وهموم بعينها. إن عوامل مثل الفتوحات، الحواجز الطبيعية (المحيطات، الجبال)، التلفزيون الوطني،.. الخ. يمكن أن تخلق الأوهام حول هذه المسألة، لكن لم تتم صياغة أي مفهوم عام لـ "اللغة المشتركة" بأية طريقة مفيدة أو متماسكة، ولا تبدو الآفاق واعدة. ومن هنا: إن أية مقاربة لدراسة اللغة أو المعنى تعتمد على هذه المفاهيم العامة هي موضع شك إلى حد كبير.

افترض، مثلاً، أن "اتباع قاعدة" يحلل بلغة المشتركات [الجماعات البشرية]. فجونز يتبع القاعدة إذا كان يخضع لممارسات أو معايير الجماعة. إذا كانت الجماعة متجانسة، فإن الإشارة [الإحالة] إليها لا تقدم شيئاً (تثير مفاهيم **المعيار** norm، **الممارسة**، **العرف**، الخ، أسئلة أخرى). إذا كانت "الجماعة" متنافرة - بغض النظر عن الغموض الأكبر حتى لمفهوم المعايير (الممارسة، ..الخ) في هذه الحالة - تبرز بضعة مشاكل. أحدها هي أن التحليل المفترض غير دقيق من الناحية الوصفية. من الناحية النموذجية، ننسب اتباع القواعد في حالة الانعدام الملحوظ للتطابق مع الممارسة التقادمية prescriptive أو المعايير المزعومة. لذلك يمكن أن نقول إن جوني، ذا الأعوام الثلاثة، يتبع قاعدته الخاصة عندما يقول brang بدلاً من brought؛ أو أن أباه يتبع "القاعدة الخطأ" ("ينتهك القواعد" عندما يستعمل كلمة disinterested

(منزّه) ليقصد (uninterested) "غير مهتم" (كما يفعل معظم الناس). لكن عالم اللغة وحده سيقول إن جوني وبيتر يراعيان الشرط (B) في نظرية الربط Binding (Chomsky 1981a: 188) Theory، كما يفعل "المشتَرَك" عموماً (في الحقيقة، مشترك كل متكلمي اللغة، بشكل مرجح جداً). الاعتراض الأكثر خطورة هو أن مفهوم "المشترك" أو "اللغة المشتركة" لا يحمل من المعنى إلا بقدر ما يحمله مفهوم "مدينة مجاورة" أو "يبدوان متشابهين" في غياب مزيد من تحديد المصالح، ما يجعل التحليل عديم الأهمية[8].

لأسباب مألوفة، لا شيء في هذا يوحي بأن ثمة أية مشكلة في الاستعمال اللغوي العامي، بأكثر مما في الاستعمال العادي لتعابير مثل: Boston is near New York "بوسطن قريبة من نيويورك".

أو John is almost home "يكاد جون أن يصل إلى منزله"

إنها (المشكلة) بالضبط أننا لا نتوقع أن تدخل هذه المفاهيم في الخطاب النظري التفسيري. فقد تكون غير ملائمة لأجل المناقشة غير الرسمية لما يفعله الناس، بافتراضات ضمنية من النوع الذي يشكل الأساس للخطاب العادي في ظروف بعينها؛ أو حتى للخطاب التقني، حيث المحددات ذات الصلة تكون مفهومة ضمناً. ليس لها مكان آخر في الاستعلام الطبيعاني، أو في أي محاولة للتوصل إلى فهم أكثر دقة.

إن العوامل الاجتماعية المزعومة في استعمال اللغة غالباً ما يكون لها تفسير فرداني - ذاتاني internalist طبيعي. فإذا كان بيتر

يحسّن لغته الإيطالية أو كان جياني يتعلم لغته، فإنهما (بطريقتين مختلفتين تماماً) يصبحان أكثر شبهاً بطيف واسع من البشر؛ يتغير كلٌ من نمطي الاقتراب وانتقاء النماذج مع تغير مصالحنا. إننا لا نكتسب أي تبصر فيما يفعلانه بافتراض أن ثمة كيان ثابت يقتربان منه، حتى لو كان بالإمكان إيجاد بعض المعنى لهذا المفهوم الغامض. إذا كان برت يشكو من التهاب المفاصل في كاحله وفخذه، ويخبره الطبيب أنه يعاني من مشاكل في الإثنين، لكن بطريقتين مختلفتين، فإنه قد يختار (وقد لا يختار) أن يتحول من استعماله للغة إلى استعمال الطبيب لها. بعيداً عن التفصيل الزائد، الذي قد يتغير إلى حد كبير مع الاحتمالات المتغيرة والهموم المتغيرة، لا شيء يبدو مفقوداً من هذا التفسير. على نحو مشابه، فإن الحديث العادي عما إذا كان شخص ما قد فهم بشكل كامل مفهوماً ما لا يتطلب أية فكرة عامة عن اللغة المشتركة. فأن نقول إن برت لم يفهم فهماً كاملاً مفهوم التهاب المفاصل arthritis أو الزكام flu يساوي ببساطة أن نقول أن استعماله اللغوي ليس هو بالضبط استعمال الناس الذين نعول عليهم لأجل شفائنا ـ وهذا وضع عادي. إذا أخبرني جاري برت عن التهاب مفاصله، فإن افتراضي الأولي هو أنه مماثل لي في هذا الاستعمال اللغوي. سوف أدخل تعديلات لأفسره حسبما تتطلب الظروف؛ إذ أشير إلى "لغة عمومية" مفترضة ذات "مضمون حقيقي" لأجل التهاب المفاصل لا تلقي ضوءاً آخر على ما يحدث بيننا، حتى لو كان بالإمكان إعطاء معنى واضحاً للمفاهيم المفترضة ضمناً. إذا كنت لا أعرف شيئاً حول الدردار والزان أبعد من حقيقة أنهما شجرتان نفضيتان كبيرتان، فلا شيء

بعد هذه المعلومة يمكن تمثيله في معجمي العقلي (ربما ليس حتى هذا، كما لاحظنا من قبل)؛ إن الاختلاف المفهوم في الخواص الدلالية قد يكون نتيجة لشرط الالتزام بالمعجم عموماً: انعدام الإشارة إلى علاقة دلالية يعتبر إشارة على أنها ليست قائمة(9).

تبقى الأسئلة ـ حقيقية، كما افترض ـ [موجهة] إلى ما هو بالضبط نوع المعلومات [الموجودة] داخل المعجم، بوصفها متميزة عن منظومات الاعتقاد. فالتغيرات في الاستعمال، كما في الحالات السابقة، قد تكون في الحقيقة تغيرات هامشية للغة الأنا، أو تغيرات في منظومات الاعتقاد، المتصورة هنا بوصفها الأنظمة الحوسبية ـ التمثيلية للدماغ [الموصوفة بالمعنى الضيق)، التي تغني المنظورات والمنطلقات لأجل التفكير والتفسير واستعمال اللغة والأفعال الأخرى (دعونا نسميها منظومات اعتقاد الأنا، وهي نظائر للمعتقدات التي يمكن اكتشافها في الاستعلام الطبيعاني). يقدم العمل في علم الدلالات المعجمية قاعدة لأجل الحل التجريبي في بعض الحالات (خصوصاً في النظام اللفظي، ببنيته العلائقية الأكثر غنى) ملتزماً بالإطار الفرداني الذاتاني.

لا يفهم سوى القليل حول العمارة العامة للعقل / الدماغ خارج مناطق متفرقة قليلة [منه]، بشكل نموذجي غير تلك التي كانت بؤرة للتأملات الأكثر عمومية لما يدعى "العلم المعرفي" cognitive science. فقد كان ثمة، مثلاً، الكثير من النقاش المثير للاهتمام حول نظرية الاعتقاد ومكانتها الممكنة في تفسير التفكير والفعل. لكن العمل التجريبي الهام الذي يمكن أن يساعد في تفحص أو تهذيب

أو اختبار هذه الأفكار نادراً ما يكون متاحاً. يبدو من المعقول على الأقل أن نفترض أن اعتقادات الأنا لا تشكل مجموعة متجانسة، إذ إن للنظام بنية أخرى يمكن أن تؤمن موارد لأجل القرارات حول الاعتقاد الزائف وسوء تعريف الهوية. افترض أن بعض معتقدات الأنا هي معتقدات معرفة للهوية والبعض الآخر ليس كذلك، أو أنها تندرج على امتداد هذا الطيف، حيث يتم التخلي عن الأخير (أو الأقل) على نحو أسرع بدون أن يؤثر على الشروط لأجل الإحالة referring. افترض أن معلومات بيتر حول مارتن فان بورن Martin Van Buren يستهلكها الاعتقاد بانه لو كان (1) رئيس الولايات المتحدة، (2) الرئيس السادس عشر، مع كون (1) اعتقاداً معرفاً للهوية أكثر من (2). إذا علم بيتر أن لنكولن كان الرئيس السادس عشر فقد يُسقط اعتقاد الأنا اللامحدد للهوية في حين يستعمل المصطلح للإحالة. لو أُبلغ بشكل يمكن تصديقه أن كافة كتب التاريخ خاطئة وأن فان بورن لم يكن رئيساً بالمرة، فإنه سيحتار كيف يبدأ. يبدو هذا خطوة أولى معقولة نحو القدر الكبير من التحليل الذي يمكن أن يقدمه المنظور الذاتاني، وبقدر ما يبدو ذلك واضحاً بشكل فعلي على الإطلاق. يمكن التوصل إلى مزيد من الأحكام في ظروف محددة، بطرق متنوعة ومتناقضة[10].

قد يبدو أن نوعاً من الخصيصة العمومية (أو البينشخصية) للتفكير والمعنى ينتج عن وحدة الموهبة الطبيعية البدئية التي تسمح فقط للغات الأنا المتشابهة في مظاهر هامة، موفراً بذلك سبباً تجريبياً لاعتماد نسخة ما من المبدأ الفريغي Fregean [القائل] بأنه لا يمكن إنكار أن النوع البشري يمتلك مخزوناً مشتركاً من الأفكار يتم

تناقله من جيل إلى جيل (Frege 1892, 1965:). والتصورات الخاصة لملكة تشكيل العلم يمكن أيضاً أن تقارب خصيصة عمومية (وهذا أكثر أهمية لأجل اهتمامات فريغه الخاصة). لكن فيما يتعلق بالأنظمة التي تنمو بشكل طبيعي في العقل، خارج تجسيد الموهبة الطبيعية البدئية كلغة الأنا (ربما أيضاً اعتقاد الأنا والأنظمة ذات الصلة)، فإن خصيصة التفكير والمعنى تختلف عندما تختلف المصلحة والظرف، بدون أي طريقة واضحة لإقامة مقولات أخرى، حتى بشكل مثالي. لذلك فإن الاحتكامات إلى أصل مشترك للغة أو التأملات حول الاصطفاء الطبيعي، التي توجد في كل مكان من الأدب. تبدو خارج الموضوع تماماً.

لندرس الحالة البدئية المشتركة لملكة لغة الدماغ والمجال المحدود للغات الأنا التي يمكن تحصيلها عندما تنشأ في وقت مبكر من الحياة. عندما نبحث في الخواص المعجمية، نجد نسيجاً غنياً من الدلالات الذاتانية المحضة ذات الخواص العامة المثيرة للاهتمام، ودليلاً على وجود علاقات دلالية شكلية (تتضمن صلات تحليلية؛ انظر المراجع على الصفحة 22). علاوة على ذلك، فإن قسماً كبيراً من هذه البنية الدلالية يبدو أنه يشتق من طبيعتنا الجوانية التي تقررها الحالة البدئية لملكتنا اللغوية، ومن هنا فإنه [هذا الجزء] لا يُتعلم ويكون كلياً في "لغات الأنا". ويصح الشيء نفسه على الخواص الصوتية والخواص الأخرى. باختصار، إن لغة الأنا (بما في ذلك الدلالات الذاتانية internalist) تبدو شبيهة جداً بأجزاء أخرى من العالم البيولوجي.

يمكننا أن نسمي هذا كله شكلاً من التركيب، أي دراسة الأنظمة الرمزيـة للنظريـات الحوسـبية التمثيليـة ("التمثيـل العقلـي"). إن المصطلحات نفسها تبقى ملائمة إذا تم تطوير الجهاز النظري ليشمل النماذج العقلية وتمثيلات الخطاب والقيم الدلالية، والعوالم الممكنـة كما تفسر عموماً، والتصورات النظرية الأخرى التي لا يـزال يـتعين ربطها بطريقة مـا بالأشـياء في العـالم، أو بالكيانـات المفترضـة عـن طريق ملكـة تشـكيل العلـم لـدينا أو الـتي تتصـورها ملكـات العقـل الأخرى.

إن خواص التعبير اللغوي المقررة جوانياً يمكـن أن تكـون بعيـدة المدى تماماً، حتى في الحالات البسيطة جداً. تأمـل، مـرة أخـرى، كلمـة house، مـثلاً في العبـارة John is painting the house brown [جون يطلي البيـت بـاللون الـبني] مجموعـة محـددة مـن الخواص البنيوية والصوتية والدلالية. إذ لا يمكن أن نقول إنه نفس التعبير بالنسبة لبيتر وتوم إلا بالمعنى الذي يمكن أن نقـول فيـه أن جهازيهمـا الـدورانيين أو البصـريين همـا الجهـاز نفسـه: إنهمـا متماثلان بما يكفي لأجل الأغراض الـتي تعنينـا. إحـدى الخـواص البنيوية للتعبير هي أنه يتألف من ست كلمات. أما الخواص البنيويـة الأخـرى فمتميـزه عـن John is painting the brown house [جون يطلي البيت البني]، الذي يمتلك وفقاً لذلك شروط اسـتعمال مختلفة. الخاصية الصـوتية هـي أن الكلمـتين الأخيرتـين، house وbrown تشتركان بنفس الحرف الصـوتي [حـرف العلـة]، إنهمـا ترتبطان بعلاقة تسـاجع assonance شـكلي، في حـين أن كلمـتي house وmouse ترتبطان بعلاقة تقافي rhyme شكلي، والعلاقتان

بين التعابير اللغوية يمكن تعريفهما بلغة سماتهما الفونولوجيـة[11]. الخاصـية الدلاليـة هـي أن إحـدى الكلمـتين الأخيرتـين يمكـن استعمالها للإشارة إلى أنواع معينة من الأشـياء والأخـرى تعـبر عـن خاصية هذه الأشياء. هنا، أيضاً، ثمة علاقات شكلية يمكن التعبير عنها بلغة سمات المفردات، كمـا، علـى سـبيل المثـال بـين كلمـتي house وbuilding. أو، لنأخذ خاصـية أكثـر إثـارة للاهتمـام. إذا كان جون يطلي البيت باللون البني، عندئـذٍ فإنـه يسـتعمل الطـلاء على سطحه الخارجي، وليس على سطحه الـداخلي؛ إنهـا علاقـة اسـتلزام (اسـتتباع) entailment تصـح بـين التعـبيرين اللغـويين المتماثلين.

إن علاقات الاستتباع، منظوراً إليها من الناحيةالشكلية، تمتلك إلى حد كبير نفس المنزلة التي يمتلكها التقافي؛ فهي علاقات شكلية بين تعابير، يمكن تحديد صفاتها المميزة في ضـوء سماتهـا اللغويـة. يصدف أن تكون بعض العلاقات مثيرة للاهتمام، باعتبارها مختلفـة عن كثير من العلاقـات الـتي ليسـت كـذلك، بسـبب الطـرق الـتي تُحتوى بها لغات الأنا في أنظمة الأداء التي تستخدم هذه التعليمات لأجل مختلف النشاطات البشرية.

يكون بعض خواص التعـبير عامـاً والـبعض الآخـر خاصـاً بلغـة بعينها. مـن الخـواص الصـوتية العامـة أن يكـون الحـرف الصـوتي [حـرف العلـة] لكلمـة house أقصـر مـن الحـرف الصـوتي لكلمـة brown؛ من الخواص الصوتية الخاصة أن يكون الحرفي الصوتي في لغة الأنا الخاصة بي أمامياً أكثر مما هو وسطي، كما هـو في بعـض

لغات الأنا المشابهة للغتي. إن حقيقة أن البيت البني له خارج بني، وليس داخلاً بنياً، تبدو أنها شاملة لكل اللغات، تصح على الكلمات "الحاوية" لفئة عريضة، بما في ذلك الكلمات التي يمكن أن نخترعها: igloo, airplane, box, learn to، الخ. فطلاء مكعب كروي باللون البني هو إعطاؤه خارجاً بنياً. وحقيقة أن house يختلف عن home هي سمة خاصة بلغة الأنا. ففي الإنكليزية، أعود إلى منزلي بعد العمل؛ أما في العربية، فأعود إلى البيت.

عندما ننتقل إلى ما وراء البنية المعجمية، تتعزز الاستنتاجات حول غنى الحالة البدئية لملكة اللغة، وبنيتها الخاصة ظاهرياً، تأمل عبارات كتلك الواردة في المثال (2):

أ) يظن أن الشاب عبقري

a) He thinks the Youngman is a genius.

ب) يظن الشاب أنه عبقري

(2) b) The Youngman thinks he is a genius.

جـ) تظن أمه أن الشاب عبقري

c) His mother thinks the Youngman is a genius.

في الجملتين (2b) أو (2c) يمكن أن يكون الضمير معتمداً من الناحية الإحالية على الشاب the young man؛ أما في (2a) فلا يمكن ذلك (مع أنه يمكن استعماله للإشارة إلى الشاب موضوع النقاش، وهي قضية منفصلة)[12]. تبدو المبادئ المنضوية تحت هذه

الحقائق عامة، على الأقل إلى حد بعيد؛ مرة أخرى، إنهـا تفـرض شروطاً غنية على التفسير الدلالي، على علاقات المعنـى الجوهريـة بين التعابير، بما في ذلك الروابط التحليلية. الأهم من ذلك، أننا في هذا المجال نحصل على نتائج نظرية [تتصف] بشـيء مـن العمـق، ذات تبعات مفاجئة. هكذا، يبدو أن نفس المبـادئ تنـتج الخـواص الدلالية لتعابير من الشكل (1)، في الصفحة 60.

نظراً لوجود أنظمة الأداء، فإن التمثيل في المسـتوى البـيني PF، يفرض شروطاً تقييدية على الاستعمال (النطق والإدراك الحسـي، في هذه الحالة). يصح الشيء نفسه على التمثيل LF، كمـا شـرحت في المثالين (1) و(2)، أو في المستوى المعجمي، في المنزلة الخاصة للسطح الخارجي بالنسبة للكلمات الحاوية. تكشف نظرة أكثر دقـة مزيـداً من التعقيد. فالسطح الخارجي يتميز بطرق أخرى ضمن دلالات لغة الأنا. إذا رأيت البيت، فإنني أرى سطحه الخـارجي؛ إذ أن رؤيـة السطح الداخلي لا تكفي. إذا كنت بداخل طائرة، فإنني أراها فقـط إذا تطلعت خارج النافذة ورأيت سطح الجناح، أو إذا كان ثمة مرآة في الخارج تعكس سطحـها الخارجي. لكن البيت ليس مجرد سطحه الخارجي، إنه كيان هندسي geometrical entity. إذا كان بـيتر وماري على مسافة متساوية من السطح ـ بيتر في الـداخل ومـاري في الخارج، لا يكون بيتر بقرب البيت، لكن ماري قـد تكـون بقربـه، وذلك اعتمـاداً علـى الشـروط الراهنـة للقـرب. إن البيـت يمكـن أن يحتوي كراسي بداخله أو خارجه، وذلك وفقاً للنظر إليه علـى أنـه سطح. لكن في حين أن الذين في الخـارج قـد يكونـون بقربـه، فـإن

الذين في الداخل ليسوا كذلك بالضرورة. هكذا، فإن البيت يتضمن سطحه الخارجي وداخله، لكن الداخل يتم تصوره بشكل مجرد؛ إنه البيت نفسه إذا ملأته بالجبن أو حركت الجدران ـ مع أنني إذا نظفت البيت فقد أتفاعل فقط مع الأشياء في الفضاء الداخلي، وأنا أحيل فقط إلى هذه عندما أقول أن البيت غير مرتب أو يحتاج إلى إعادة ترتيب. يتم تصور البيت كسطح خارجي وفضاء داخلي (بخواص معقدة). بالطبع، إن البيت نفسه هو شيء ملموس [عياني]؛ إذ يمكن بناؤه من الآجر أو الخشب، والبيت الخشبي ليس له خارج خشبي تحديداً. البيت الخشبي البني له خارج بني (باعتماد المنظور المجرد) ويصنع من الخشب (باعتماد المنظور الملموس). إذا اعتدت أن يكون بيتي في فيلادلفيا، لكنه الآن في بوسطن، عندئذٍ يكون الشيء الفيزيائي قد نُقل. بالمقابل، إذا اعتدت أن يكون منزلي في فيلادلفيا، لكنه الآن في بوسطن، عندئذٍ لا داعي لأن يكون أي شيء فيزيائي قد نقل، رغم أن منزلي هو أيضاً ملموس ـ مع أنه بطريقة ما مجرد، سواءً فهم بمثابة البيت الذي أسكن فيه، أو المدينة، أو القطر، أو العالم؛ إن البيت ملموس بمعنى مختلف جداً. إن لاختلاف **البيت ـ المنزل** house- home تبعات عديدة: فأنا بإمكاني أن أذهب إلى المنزل، وليس إلى البيت؛ يمكنني أن أسكن في بيت بني، وليس في منزل بني؛ في لغات كثيرة، يكون نظير **home** ظرفياً، كما هو الحال بشكل جزئي في الإنكليزية أيضاً.

حتى في هذا المثال عديم الأهمية، نرى أن الشروط الجوانية على المعنى غنية، معقدة وغير مشكوك فيها؛ في الحقيقة، إنها بالكاد

معروفة. إن القواميس الأكثر تطوراً لا تحلم بمثل هذه الأشياء الدقيقة: فهي لا تقدم أكثرمن إلماحات تمكن من تعريف المفهوم المقصود من قبل الذين يعرفونه مسبقاً على الأقل، في جوانب أساسية. يعمل تنويع الأنا I- Variant لتلسكوب فريغه بطرق مثيرة للفضول ومعقدة.

يبدو من النظرة الأولى أن ثمة شيء ما متناقض في هذه الأوصاف. هكذا، فإن البيوت والمنازل تكون ملموسة [عيانية] لكنها، من وجهة نظر أخرى، تعتبر مجردة تماماً، وإن كانت مجردة بطرق مختلفة تماماً. وبشكل مماثل، الكتب ومجموعات ورق اللعب، والمدن، الخ.. ليس [معنى] ذلك أننا نمتلك أفكاراً مشوشة ـ أو معتقدات متضاربة ـ حول البيوت والمنازل، أو العلب أو الطائرات، أو الأكواخ الجليدية، أو المكعبات الكروية.. الخ. بالأحرى، إن المادة المعجمية تقدم لنا مجالاً محدداً من المنظورات لرؤية ما نعدها الأشياء في العالم، أو ما ندركه حسياً بطرق أخرى؛ هذه المواد هي مثل المرشحات filters أو العدسات، تقدم لنا طرقاً للنظر إلى الأشياء والتفكير في نتاجات عقولنا. إن المصطلحات نفسها لا تحيل، على الأقل إذا استعمل مصطلح (يحيل) refer بمعناه اللغوي الطبيعي؛ لكن البشر يمكنهم أن يستخدموها للإحالة إلى الأشياء، لرؤيتها من وجهة نظر معينة ـ بعيدة عن منطلق العلوم الطبيعية، كما لاحظنا.

يصح الشيء نفسه أينما تقصينا في لغة الأنا. إن لندن ليست تخييلا [من وحي الخيال]، لكن بالنظر إليها كلندن ـ أي من

خلال منظور اسم مدينة، نوع بعينه من التعبير اللغوي ـ فإننا نضفي عليها خواص مثيرة للفضول؛ كما لاحظنا قبلاً، إننا نسمح بذلك في ظل بعض الظروف، أنها يمكن ان تدمَّر تماماً ويعاد بناؤها في مكان آخر، أو بعد سنوات أو حتى بعد آلاف السنوات، ومع ذلك تبقى على كونها لندن، المدينة نفسها. لقد وصف تشارلز ديكنز واشنطن بأنها "مدينةالنوايا العظيمة"، ذات "الجادات الفسيحة، تبدأ بلاشيء وتؤدي إلى لا مكان؛ شوارع بطول ميل، لا تحتاج سوى إلى بيوت وطرقات وسكان؛ بنايات عامة لا تحتاج سوى إلى ناس لتكون مكتملة؛ وتزيينات الشوارع العظيمة، لا تفتقر سوى إلى الشوارع العظيمة، إلى التزيينات" ــ لكنها تظل واشنطن. يمكننا أن ننظر إلى لندن مع أو بدون اعتبار لسكانها؛ فمن جهة، إنها نفس المدينة إذا هجرها أهلها؛ وجهة أخرى، يمكننا أن نقول إن لندن صارت تمتلك لمسة أقسى خلال سنوات تاتشر، [وهو] تعليق حول كيف يتصرف الناس ويعيشون. بالإحالة إلى لندن، يمكن أن نتحدث حول موقع أو منطقة، حول أناس يسكنون هناك في بعض الأحيان، عن الهواء الذي فوقها (لكن ليس إلى ارتفاع عال جداً)، عن الأبنية، المؤسسات، ...الخ، في مختلف التراكيب (كما في قولنا:

London is so unhappy, ugly, and polluted that it should be destroyed and rebuilt 100 miles away,

[لندن كئيبة، قبيحة وملوثة إلى درجة أنه يتعين تدميرها وإعادة بنائها على بعد 100 ميلاً] وتظل المدينة نفسها). إن مصطلحات مثل [لندن] تستعمل للحديث حول العالم الحقيقي، لكن لا يوجد

ولا يعتقد بوجود أشياء في العـالم ذات خـواص الأنمـاط المعقـدة مـن الدلالة التي ينطوي عليهـا اسـم مدينـة. ثمـة مجموعتـان مـن هـذه المنظورات يمكن أن تنطبق بشكل مختلـف علـى منظومـة معتقـدات بـيتر، كمـا في أحجيـة كريبـك Kripke puzzle. (لأجـل مناقشـة موسعة من وجهة نظر مختلفة نوعاً ما، انظر Bilgrami 1992).

لأغراض الاستعلام الطبيعاني، نبني صورة للعالم منفصلة عـن هـذه المنظورات "الفطرية" common- sense (ليس بشكل كامـل أبـداً، بالطبع؛ إذ لا يمكننا أن نصبح شـيئاً آخـر غـير المخلوقـات الـتي نكونها[13]. إذا مزجنا هذه الطرق المختلفة للتفكير في العـالم، فقـد نجد أنفسنا ننسب إلى البشر اعتقادات غريبة وحتى متناقضة حـول أشياء يتعين أن ينظر إليها بشكل ما بعيداً عن الوسيلة التي تقدمها لغة الأنا وأنظمة اعتقاد الأنا التي تضيف نسيجاً آخـر إلى التفسـير. سيبدو الوضع حتى أكثر غموضـاً إذا أضـمرنا الفكـرة الغامضـة، أن بعض المصطلحات لها علاقة بأشياء ("إحالـة" reference) ثابتـة في لغة عمومية مشتركة، ربما توجد حتى "بشـكل مسـتقل عـن أي متكلمين بعينهم يمتلكون فهماً جزئياً، مغلوطاً للغـة" (Dummett 1986)؛ وأن "مصطلحات اللغة العمومية" هـذه في اللغـة المشـتركة تحيل (بمعنى ما يـتعين شـرحه) إلى أشـياء مثـل لنـدن تعـد شـيئاً مفصولاً عن الخواص التي يوفرها اسم المدينة (أو نمـط آخـر مـا مـن التسمية) بلغة أنا بعينها، وعـن العوامـل الأخـرى الـتي تـدخل في إحالة بيتر إلى لندن. إن المشاكل سيبدو أنها تشتد إذا تجردنـا مـن خلفية الاعتقادات الفردية أو المشتركة التي تنضوي تحت اسـتعمال

اللغة المعياري. كل هذه النقلات تتجاوز قيود المقاربة الطبيعانية، والبعض منها، ربما، يتجاوز الخطاب المعقول.

كما تتجاوز هذه النقلات الحدود الذاتانية، [وهي] مسألة مختلفة. فالمقاربة الطبيعانية لا تفرض حدوداً ذاتانية، فردانية. هكذا، إذا درسنا (نظيراً ما لـ) للأشخاص بوصفهم أطواراً في تاريخ الخلايا الجرثومية الخالدة من الناحية المثالية، أو بوصفهم مراحل في تحول الأوكسجين إلى ثاني أوكسيد الكربون، فإننا نبتعد عن هذه الحدود. لكن إذا كنا مهتمين بتفسير ما يفعله البشر، ولماذا، بقدر ما يكون ذلك ممكناً من خلال الاستعلام الطبيعاني، تبدو الحجة لصالح الالتزام بهذه الحدود مقنعة[14].

لقد بدأنا بدراسة الاكتشاف (الافتراضي) المتمثل في أن دماغ بيتر ينتج الشكل C عندما يفكر بالقطط Cats. ثم انتقلنا إلى المثال الأكثر واقعية على الـ "القدرات الكهربائية المتصلة بالحدث ERPS، والحالة الأكثر واقعية مع ذلك (من منطلق علمي) للأنظمة الحوسبية التمثيلية C-R؛ قد يفكر المرء بعناصرها على أنها مكافئة لـ C، مع أنها واقعية الآن، وليست افتراضية، كما توحي الأدلة المتوفرة. يصح الشيء نفسه على المقاربة الطبيعانية التي تبتعد عن هذه الحدود الذاتانية بالنظر إلى دماغ بيتر كجزء من منظومة أكبر للتفاعلات. لن يكون التشابه مع الشكل C المنتج في دماغ بيتر عندما يفكر بالقطط، بل مع شكل فيزيائي Ć ما يتضمن C بالتوازي مع شيء ما آخر، ربما شيء ما حول القطط. إننا الآن في مجال الافتراضي - لا علم لي ببديل جدي. لكن افترض أن هذه المقاربة يمكن استنباطها، وتبرهن على أنها تقدم استبصاراً في مسائل استعمال اللغة، إذا كان كذلك،

فإنه قد يغير الطرق التي ندرس بها اللغة وعلم النفس، لكنه لن يجسر الهوة مع وصف البشر وما يفعلون.

يتعين علينا أن نميز بين الطبيعانية الموضوعانية الافتراضية من النوع الذي أوجزناه للتو، والموضوعانية اللاطبيعانية التي تسعى إلى معالجة الفعل البشري (الإحالة إلى أو التفكير في القطط، الخ) في سياق الجماعات، الأشياء الحقيقية أو المتخيلة في العالم، وهلم جرا. هذه المقاربات يتعين الحكم على حسناتها كمساعي لخلق معنى ما للأسئلة التي تكمن وراء الاستعلام الطبيعاني ـ كالأسئلة حول الطاقة والحجارة المتساقطة، والسماء، .. الخ. بالمعنى العادي للمصطلحات. لقد ذكرت مبرراً ما لأجل الشك في اللجوء إلى المشتركات وممارساتها، أو اللغات العمومية ذات المعاني العمومية. لنتأمل أكثر الوجه الآخر للموضوعانية وهو العلاقة المزعومة بين الكلمات والأشياء.

– ضمن علم الدلالات الذاتاني، ثمة نظريات تفسيرية ذات أهمية كبيرة تم تطويرها في ضوء علاقة R (اقرأ "refer / يحيل) مفترضة لتقف بين التعابير اللغوية وشيء ما آخر، كيانات مشتقة من مجال D مفترض ما (ربما قيم دلالية)[15].

إن العلاقة R، على سبيل المثال، تصح بين التعابير London ‌(house، الخ) والكيانات D التي يفترض أن لها علاقة ما بما يحيل إليه الناس عندما يستعملون الكلمات London ‌(house، الخ) مع أن تلك العلاقة المفترضة ما تزال ملتبسة. كما لوحظ، أعتقد أن هذه النظريات ينبغي اعتبارها بمثابة نوع من التركيب.

فالعناصر التي تفترضها (النظريات) هي موازية، في المجالات ذات الصلة هنا" للتمثيلات الفونولوجية أو تمثيلات بنية العبارة، أو التشكيل الدماغي الافتراضي لـ C؛ يمكننا أيضاً أن نشمل D وr ضمن الوصف البنيوي SD (التعبير اللغوي)، كجزء من مستوى بيني.

يصاغ شرح ظواهر المثال (2) (في الصفحة 35) عموماً بلغة العلاقة R. تنسحب نفس نظريات الربط وعائدية الضمائر anaphora بدون تغيير جوهري إذا استبدلنا Young في المثال (2) بكلمة average (متوسط) أو كلمة typical (نمطي) أو استبدلنا the young man بـ young Doe، المشترطة ليكون الرجل المتوسط العادي لأغراض خطاب محدد(15). تنسحب نفس النظريات على الخواص الأنفورية [العائدية] للضمائر في المثالين (3) و(4):

(3) a) It brings good health's rewards.
b) Good health brings its rewards.
c) Its rewards are what make good health worth striving for.

(4) a) [There is a flow in the argument], but it was quickly found.
b) [the argument is flawed], but it was quickly found *

---

* وترجمتها هي على التوالي:

3a - إنها تجلب فوائد الصحة الجيدة 3b) الصحة الجيدة تجلب فوائدها،

3c - إن فوائدها هي ما يجعل الصحة الجيدة تستحق السعي إليها.

4a - [ثمة عيب في الحجة]، لكنه اكتشف بسرعة 4b) [الحجة معيبة] لكنه اكتشف بسرعة.

بلغة العلاقة R، المفترضـة لتربـط بـين الــ the average man وJohn Doe، good health، flaw والكيانـات المشـتقة مـن D، يمكننا أن نعلل السلوك التمييزي للضمير بالضبط كما نفعل مع the young man، Peter، fly في قولنـا (there is a fly in the coffee) [ثمة ذبابة في القهوة]. تختلف علاقـات الأنفـرة في (4a، 4b)، مع أنـه لا يوجـد اخـتلاف ذي صـلة في المعنـى بـين أشـباه الجمل المحصورة بين قوسين. وقد يتـبين أيضـاً أن هـذه التعـابير، بـالتوازي مـع تعـابير مثـل "the argument has a flow" (مـع الخيارات الأنفورية (4a) تشترك بخواص بنيوية أعمق، ومن الممكن حتى أن تشترك بنفس التمثيل البنيوي على المستوى المتعلـق بعلـم الدلالات الداخلي للعبارات، [وهي] إمكانية تم سبرها علـى مـدى سـنوات (انظـر Tremblay 1991)[17]. يصـح الشـيء نفسـه في الحالات الأكثر غرابة إذ يبـدو مـن قبيـل الحماقـة أن نبحـث عـن علاقة بين الكيانات في D والأشياء في العالم ـ الحقيقـي، المتخيـل، أو أياً يكن. أي علاقة تتصف بأية عمومية على الأقـل. قـد يتصـور المرء أن علاقة عناصر D بالأشياء في العالم هي أكثـر "شـفافية" ممـا هـي في حـالات التمثـيلات التركيبيـة، كمـا أن العلاقـة بـالأمواج الصوتية هي أكثر "شفافية" بالنسبة للتمثيل الصوتي phonetic مما هي بالنسبة للتمثيل الفونولوجي، لكن حتى هكذا فإن الدراسات لا تتجاوز تركيب التمثيلات الذهنية. إن العلاقـة R والمَنْشـأ D يجـب تبريرهما بناءً علـى النـوع نفسـه مـن الأسـس الـتي تسـوغ المفـاهيم التركيبيـة التقنيـة الأخـرى؛ أي مفـاهيم الفونولوجيـا، أو نمـاذج

الفئات الخالية في التركيب. فالتشابه العَرَضي بين R والمصطلح refer في اللغة العادية ليس له أهمية أكبر مما له في حالة الزخم [القوة الدافعة] momentum أو اللاحسمية undecidability.

ليس لدينا، على وجه الخصوص، أية حدوس حول R بأكثر مما لدينا حول الزخم أو اللاحسمية بالمعنى التقني، أو حول التحكم المكوني C- Command أوالمستوى القطعي المستقل autosegmental في (أجزاء أخرى) من النظريات الحوسبية ـ C- R للإعراب[18]، فالمصطلحات [هذه] تمتلك المعاني المخصصة لها. لدينا أحكام حدسية حول المفهوم العام المستخدم في تعابير مثل

Mary often refers to the young man as a friend (to the average man as John Doe ,to good health as life's highest goal).

[تشير ماري غالباً إلى الشاب بوصفه صديقاً (إلى الرجل العادي بوصفه جون دو، إلى الصحة بوصفها أسمى هدف للحياة)] لكن ليس لدينا هذه الحدوس حول العلاقة R التي تربط بين ماري (أو الرجل العادي، أو جون دو، أو الصحة الجيدة، أو العيب) والعناصر المفترضة لـ D. إن R وd هما ما نحدد ماهيتهما، ضمن إطار الشرح النظري. يمكننا أن نقارن R و D بـ P وpf حيث p هي علاقة تربط بين تعبير وتمثيله الشكلي الصوتي pf (بين "took" و [thuk] ربما)، مع أن المفاهيم في الحالة الأخيرة تنطبق على نظرية أفضل تأسيساً وأغنى للعلاقات البينية.

هب أن افتراض R وd يبرره النجاح التفسيري ضمن النظرية -C R للغة الأنا، بالتوازي مع نظرية P و PF والتحكم المكوني -C

Command و المستوى القطاع المستقل autosegmental. هذه النتيجة لا تقدم أي سند للإيمان بأن علاقة شبيهة بـ R، لندعوها Ŕ، تربط بين الكلمات والأشياء، أو الأشياء كما هي متخيلة، أو متصوَّرة خلافاً لذلك. إن افتراض هذه العلاقة سيتعين تبريره على أسس ما، كما في حالة أية فكرة تقنية مبتكرة أخرى. وإذا استنبطنا علاقة Ŕ تربط بين التعابير اللغوية و"الأشياء"، تُفسر بشكل ما، فلن تكون لدينا حدوس حول ذلك ـ فالمسائل لا تصبح أكثر غموضاً إلا إذا استحضرنا المفاهيم العامة غير المفسَّرة "للمشْتَرَك" أو "اللغة العمومية"، بالمعنى المطلق. إننا نمتلك أحكاماً حدسية بخصوص التعابير اللغوية والمنظورات المحددة ووجهات النظر التي تقدمها لأجل التفسير والتفكير. الأهم من ذلك يمكننا أن نباشر بدراسة كيف أن هذه التعابير والمنظورات تدخل في الأفعال البشرية المختلفة، كالإحالة. بعد ذلك، ندخل عالم الخطاب التقني، المجرد من المحاكمة الحدسية.

لنأخذ تجربة التفكير بتوأم الأرض المؤثرة لبوتنام (Putnam 1975). لا يمكن أن تكون لدينا حدوس حول ما إذا كان مصطلح Water يمتلك نفس "الإحالة" بالنسبة لكل من أوسكار وتوأم أوسكار: إنها مسألة قرار حول المصطلح التقني الجديد "إحالة" reference (اختيار محدد لأجل Ŕ). إن لدينا أحكاماً حول ما يمكن أن يشير إليه أوسكار وتوأم أوسكار، يبدو أنها تتغير بشكل ملحوظ مع تغير الظروف. في ظل بعض الظروف، تبدو فرضيات بوتنام حول "نفس السائل"، وهو مفهوم عام (مجهول ربما) من

العلوم الطبيعية، معقولة جداً، وفي ظروف أخرى، يبدو مفهوما التماثل أو التشابه المستنتجين من الفهم الفطري أكثر ملاءمة، تنتجهما أحكام مختلفة. لا يبدو لي أن من الواضح تماماً أن ثمة شيء عام لنقوله حول هذه القضايا، أو ثمة أي معنى عام أو مفيد يمكن إضفاؤه على مفاهيم تقنية مثل "مضمون عريض" (أو أي مفهوم عام آخر يثبت "الإحالة") في أي من التفسيرات الموضاعانية.

إذا كان الأمر كذلك، تبرز الأسئلة حول منزلة ما يدعوه بوتنام، في محاضرات لوك (Putnam 1988a: ch.2) "التعاون الاجتماعي زائد مساهمة نظرية البيئة في تحديد الإحالة"، النسخة الأكمل والأكثر كفاية من "النظرية السببية للإحالة" التي طورها في مقالته "معنى "المعنىَ" (Putnam) وكتاب سوك كريبك Saul Kripke **التسمية والضرورة** Naming and Necessity (Kripke, 1972) اللذان يعدان الآن نقطتي علام في هذا الحقل.

إن "للتعاون الاجتماعي" علاقة "بتقسيم العمل اللغوي": دور الخبراء في تحديد إحالة مصطلحي elm [الدردار] و beech [الزان]، على سبيل المثال. يقدم بوتنام تفسيراً مقنعاً لبعض الظروف. في ظل بعض الشروط، إنني في الواقع أقبل أن ما أشير إليه عندما أستعمل المصطلح elm هو ما يعنيه خبير، ربما جنائني إيطالي لا أتقاسم معه سوى المصطلحات اللاتينية (مع أنه لا يوجد معنى ذو مغزى نكون فيه جزءاً من نفس" المشترك اللغوي" أو نتكلم "لغة مشتركة"؛ في ظل شروط أخرى، ربما لا، لكن ذلك ينبغي توقعه في استعلام يطال كل "التنظيم الوظيفي البشري"، بشكل افتراضي دراسة كل شيء. كما ذكرنا سابقاً، ليس من الواضح ما إذا

كان السؤال يرتبط بلغة الأنا أم باعتقاد الأنا، مع افتراض أن التصور النظري مشروع.

فيما يتعلق "بنظرية البيئة" فلا يمكنها أن تساهم في تحديد الإحالة إلا إذا كان ثمة مفهوم عام متماسك "للإحالة" (Ŕ) يربط بين التعابير اللغوية والأشياء، يكون بعيداً عن الوضوح، مع أن الناس يستعملون هذه التعابير (بطرق شتى) للإحالة إلى الأشياء، معتمدين المنظورات التي تقدمها هذه التعابير. ثمة ظروف تبدو فيها الاستنتاجات الخاصة التي تم التوصل إليها بشكل اعتيادي، ملائمة، يساعد فيها "النوع نفسه"، "السائل نفسه".. الخ، في تحديد ما أحيل إليه: وثمة ظروف أخرى لا يساعد فيها ذلك[19].

يبدو من غير الواضح أيضاً أن القضايا الميتافيزيقية تبرز في هذا السياق. لنأخذ بعض أمثلة كريبك، إذ مما لا شك فيه أن ثمة اختلافاً حدسياً بين الحكم القائل أن نيكسون سيكون الشخص نفسه لو لم ينتخب رئيساً للولايات المتحدة في عام 1968، في حين أنه لن يكون الشخص نفسه لو لم يكن شخصاً بالمرة (لنقل، لو كان صورة عن شخص على قاعدة من السيليكون). لكن هذا ينبع من حقيقة أن نيكسون هو اسم شخص، يقدم طريقة للإحالة إلى نيكسون بوصفه شخصاً؛ ليس لذلك أية دلالة ميتافيزيقية. إذا تحررنا من المنظور الذي توفره اللغة الطبيعية، التي يبدو أنها لا تمتلك أسماء محضة بمفهوم عالم المنطق [المنطيق] (والشي نفسه يصح على المتحولات، على الأقل إذا اعتبرت الضمائر متحولات، ويصح على الإشارات "indexicals"، إذا نظرنا في شروط استعمالها

الحقيقية في للإحالة، عندئذ تنهار الحدود: سيكون نيكسون كياناً entity مختلفاً، كما أعتقد، لو تم تمشيط شعره بشكل مختلف. بشكل مماثل، إن الشيء الذي أمامي ليس من حيث الجوهر مقعداً أو طاولة؛ ذاك الشيء نفسه يمكن أن يكون أي عدد من الأشياء المختلفة، مثلما تتغير مصالح ووظائف ومقاصد المخترع، الخ. لنستشهد بعمل حديث، حكم جوزف ألموغ Joseph Almog القائل بأن جبل نانغا باربات هو جبل في **الجوهر** يمكن أن يكون قابلاً للفهم في ظل بعض الظروف؛ مع ذلك، على العكس مما يزعمه، فإن "اختبار الملموس ـ المجرد" الذي يقوم به يبدو لي أنه يسمح لنا في ظل ظروف أخرى، بأن نحرم نانغا باربات من هذه الخاصية، تاركين إياه الكيان نفسه: لنقل، إذا ارتفع منسوب البحر عالياً بما يكفي لكي تصبح قمته جزيرة، في هذه الحالة لا يكون جبلاً أكثر مما هي بريطانيا؛ أو إذا نهضت الأرض حوله صعوداً إلى قمته، لكن على بعد ميليمتر. في هذه الحالة لا يكون جبلاً بل جزءاً من هضبة محاطة بفالق، مع أنه يبقى الكيان نفسه (Almog 1991).

باختصار، من المشكوك فيه أن تتمكن الاستنتاجات المقياسية من الصمود أمام التحليل الدقيق للمفهوم التقني "reference" [إحالة] (بمعنى شبيه بـ Ŕ) أو "تحديد الإحالة". قد يكون ثمة مبرر لمفهوم R جواني بالنسبة إلى النظريات الحوسبية التمثيلية C-R (بالأساس مفهوم تركيبي، رغم المظاهر). لكن يبدو أن ثمة سبباً واهياً للاعتقاد بأن مفهوماً عاماً مناظراً Ŕ يمكن إعطاؤه صياغة متماسكة ومفيدة كعلاقة تربط بين التعابير ونوع ما من الأشياء، معزولة عن الشروط والظروف الخاصة للإحالة. إذا كان الأمر كذلك، فلن يكون أيضاً

هناك أي استعلام منطقي في مفهوم "المعنى / المغزى" أو "المضمون" "يرسخ الإحالة" (Ŕ) على الأقل بالنسبة للغة الطبيعية، مع أن ثمة استعلام تركيبي واعد في الشروط الخاصة باستعمال اللغة (بما في ذلك الإحالة referring).

إن الاستعلام الطبيعاني، كما ناقشناه سابقاً، قد يؤدي إلى خلق إضافات خارجية شبيهة باللغة إلى لغة الأنا؛ بسبب هذا، فإن مفهوم الشبيه بـ Ŕ (Ŕ – like) قد يكون ملائماً، عندما تجرد المصطلحات من خواص لغة الأنا التي توفر المنظورات التفسيرية والعلاقات الدلالية، وتكون مفصولة عن اعتقاد الأنا، وتعزى إليها خواص غير موجودة في اللغة الطبيعية. هذه الأنظمة المتصورة قد تستخدم موارد لغة الأنا (اللفظ، المورفولوجيا، تركيب الجملة، الخ)، او قد تتجاوزها (مدخلة شكلانيات رياضية، على سبيل المثال). إن لغة الأنا هي نتاج لملكة اللغة، مجرد من المقومات الأخرى للعقل؛ هذه مثلنة idealization بالطبع، ومن هنا يتعين تبريرها أو رفضها على أساس دورها في إطار تفسيري. يمكن توسيع الصورة، بشكل معقول كما يبدو، عن طريق تمييز نظام الاعتقاد الفطري common - sense عن نتاجات ملكة تشكيل العلم. فالأخيرة ليست أنظمة لغات أنا ولا أنظمة اعتقاد أنا، وبسبب ذلك قد يكون من الملائم أن نفترض وجود علاقة Ŕ.

إن بعضاً من الدافع إلى المقاربات الموضوعانية ينبع من الاهتمام بإضفاء المعنى على تاريخ العلم. هكذا، يجادل بوتنام بأن علينا أن نعتبر نيلز بور Niels Bohr المبكر يحيل إلى الإلكترونات بمفهوم

نظرية الكم Quantum – theory، أو كان علينا أن "نرفض كل معتقداته في عام 1900 باعتبارها مغلوطة كلياً" (Putnam 1988a) ربما على قدم المساواة مع معتقدات شخص ما حول الملائكة. [وهو] استنتاج عبثي تماماً. الشيء نفسه يصح على الكيميائيين قبل دالتون الذين يتكلمون عن الذرات. وربما، على الأساس نفسه، يتعين أن نقول إن الكيميائيين قبل أفوغادرو كانوا يحيلون إلى ما نسميها ذرات وجزيئات، مع أن المصطلحين كانا، بالنسبة لهم، قابلين للتبادل فيما بينهما، ظاهرياً.

– تزعم المناقشة أن مصطلحات مثل electron تنتمي إلى المنظومة نفسها التي ينتمي إليها water, house والأنفورة* الضميرية، بحيث تنسحب الاستنتاجات حول electron على مفاهيم عامة في الفئة الأخيرة. يبدو الزعم متضمناً في افتراض بوتنام أن "تحديد التعقيد الجوهري للمهمة هو أن نسأل "كم هو صعب في أصعب الحالات؟"، "أصعب الحالات" لأجل "الإحالة نفسها" أو "المعنى نفسه" الذي تطرحه مفاهيم مثل momentum [عزم] أو electron في الفيزياء. لكن الفرضية مشكوك في صحتها. إن دراسة اللغة ينبغي أن تسعى إلى صورة أكثر تمايزاً من ذلك. وما يصح على التصورات التقنية لملكة تشكيل العلم قد لا يصح على معجم اللغة الطبيعية. افترض أننا نسلم بهذه النقطة، رغم ذلك. بالاتفاق أكثر على أن الاهتمام بقابلية الفهم في الخطاب العلمي عبر الزمن يشكل

* الأنفورة: هي تكرار اللفظة الواحدة في أوائل جملتين أو بيتين متعاقبين وبخاصة لغرض بلاغي.. (المترجم).

هماً كافياً تماماً، يبقى أنه غير قادر على أن يفيد بوصفه الأساس لأجل نظرية عامة للمعنى، إنه، رغم كل شيء، ليس سوى واحد من بين هموم كثيرة، وليس مركزياً لدراسة علم النفس البشري. علاوة على ذلك ثمة إعادات سبك ذاتانية. لذلك يمكننا القول، في الاستعمال الأبكر لبور، إنه عبّر عن الاعتقادات بأننا كنا زائفين حرفياً، لأنه لم يكن ثمة شيء من النوع الذي وضعه في ذهنه لدى الإحالة إلى الالكترونات، لكن صورته للعالم والتعبير عنها كانا مشابهين بنيوياً للتصورات اللاحقة بحيث يمكننا أن نميز معتقداته حول الإلكترونات عن المعتقدات حول الملائكة. وعلاوة على ذلك، فإن هذا يبدو طريقة معقولة للبدء.

لنأخذ مثالاً أبسط من ذلك بكثير، من دراسة اللغة. لندرس سجالاً دار منذ حوالي 30 عاماً حول طبيعة الوحدات الفونولوجية (الصوتية). لقد افترض علماء الفونولوجيا البنيوية قطاعات [فونيمات] وسمات صوتية ذات مجموعة محددة من الخواص. جادل علماء الفونولوجيا التوليدية بأنه لا توجد هذه الكيانات، وأن العناصر الحقيقية تمتلك خواص مختلفة نوعاً ما. افترض أن إحدى هذه المقاربات تبدو صحيحة (لنقل، الأخيرة). فهل كان الفونولوجيون يحيلون لذلك منذ البدء إلى قطاعات وسمات بمفهوم الفونولوجيا التوليدية؟ بالتأكيد لا. لقد أنكروا ذلك صراحة، وكانواعلى حق في فعل ذلك. هل كانوا يتحدثون كلاماً غامضاً؟ مرة أخرى. بالتأكيد لا. إن الفونولوجيا البنيوية قابلة للفهم؛ فبدون افتراض وجود كيانات من النوع الذي سلّم به يمكن إعادة تفسير

الكثير من النظرية ضمن الفونولوجيا التوليدية، مع النتائج المؤجلة أساساً. لا توجد طريقة مبدأية لتحديد كيفية إنجاز ذلك، أو لتحديد "تشابه المعتقد" بين مدرستي الفكر أو ما هي الأفكار والمعتقدات التي كانتا تشتركان بها. في بعض الأحيان يكون من المفيد أن نلاحظ أوجه الشبه، وأحياناً أخرى لا. الشيء نفسه يصح على بور Bohr السابق واللاحق. ولا يتطلب الأمر تحديداً أكثر من هذا للحفاظ على سلامة المشروع العلمي أو الحفاظ على مفهوم محترم للتقدم نحو الحقيقة حول العالم، طالما أنه يقع ضمن المقدرة المعرفية البشرية.

من الجدير بالذكر أن التحليل بهذه المصطلحات، الذي يتحاشى الفرضيات الموضوعانية حول تثبيت الإحالة، متوافق مع بديهيات الشخصيات المحترمة. إن مناقشة معنى water, electron، الخ. تعود إلى الوراء في الزمن، لكننا نستطيع أن ندفعها إلى الأمام. لندرس مسألة ما إذا كان باستطاعة الآلات أن تفكر (تفهم، تخطط، تحل المشاكل، الخ). فعن طريق الحجة الموضوعانية القياسية standard، يجب تسوية المسألة عن طريق الحقيقة حول التفكير: ما هو جوهر تفكير بيتر حول الأطفال، أو حل معادلة تربيعية، أو لعب الشطرنج أو تفسير جملة، أو تقرير ما إذا كان سيرتدي معطفاً مطرياً؟ لكن هذه ليست الطريقة التي كان يبدو بها بالنسبة للودفيغ فتغنشتاين وآلان تورينغ، كمثالين بارزين. فبالنسبة لفتغنشتاين، لا يمكن طرح السؤال عما إذا كانت الآلات تفكر، بشكل جدي:

"يمكننا فقط أن نقول عن كائن بشري وما يشبهه أنه هو الذي يفكر"، (Wittgenstein 1958: 113) ربما الدمى والأرواح، تلك

هي الطريقة التي تُستعمل بها الأداة. كتب تورينغ، في مقالته الكلاسيكية عام 1950، أن سؤال ما إذا كان بإمكان الآلات أن تفكر:

[ربما يكون عديم المعنى إلى درجة لا تستحق المناقشة. مع ذلك أعتقد أنه في نهاية القرن سيكون استعمال الكلمات والرأي المثقف العام قد تغير كثيراً بحيث سيكون المرء قادراً على التكلم عن الآلات التي تفكر بدون توقع أن يكون ذلك متناقضاً] (Turing 1950: 442).

لا يتبنى فيتغنشتاين وتورينغ التفسير الموضوعاني المعترف به. فبالنسبة لفيتغنشتاين، إن الأسئلة تافهة تماماً: تستعمل الأدوات كما هي، وإذا تغير الاستعمال تكون اللغة قد تغيرت، نظراً لكون اللغة ليست أكثر من الطريقة التي نستخدم بها الأدوات. إن تورينغ أيضاً يتكلم عن استعمال لغة "الرأي المثقف العام"، التي تتغير عندما تتغير المصالح والهموم. بلغتنا، سيكون ثمة انتقال من لغات الأنا التي يصفها فيتغنشتاين إلى لغات جديدة، [انتقال] سوف تُلغى فيه كلمة (يفكر) think القديمة لصالح كلمة جديدة تنطبق على الآلات كما على البشر. فأن نسأل في عام 1950 ما إذا كانت الآلات تفكر هو [سؤال] ذو مغزى كمثل السؤال عما إذا كانت الطائرات والبشر (لنقل، أبطال القفز العالي) يطيرون فعلاً؛ في الإنكليزية تطير الطائرات وأبطال القفز العالي لا يفعلون ذلك (إلا بشكل مجازي)؛ في العبرية لا يفعل أي منهما ذلك، وفي اليابانية يطيران. هذه الحقائق لا تخبرنا شيئاً حول السؤال (عديم المعنى) المطروح، سوى تنويعات هامشية واعتباطية إلى حد ما للغة الأنا. إن

سؤال ما الذي كانت تعنيه الذرة atom قبل دالتون، أو الإلكترون بالنسبة لبور في عام 1900، إنما يبدو شبيهاً، من وجوه ذات صلة، بسؤال ماذا كان يعني فعل think بالنسبة لغيتغنشتاين وتورينغ؛ إنه سؤال غير قابل للمقارنة تماماً، لأن electron, atom, think ربما ينبغي عدم اعتبارها تنتمي إلى لغة أنا متجانسة. في كل هذه الحالات، يبدو المنظور الذاتاني ملائماً، ليس فقط لبديهيات فيتغنشتاين وتورينغ، بل لتفسير ما يحدث، أو ما يمكن أن يحدث عندما تتغير الظروف والمصالح.

قد يجادل المرء بأن النظريات الدلالية الحديثة تطيح ببديهيات فيتغنشتاين وتورينغ بسب نجاحها التفسيري. مع ذلك، لا تبدو هذه فكرة واعدة؛ فالنجاح التفسيري من الصعب أن يتحمل هذا العبء. على العموم، لدينا مبرر واهٍ الآن للاعتقاد بأن ثمة أكثر من تجمع فيتغنشتاين للخصوصيات particulars يكمن خلف حقل الاستعلام الذاتاني، الذي هو، مع ذلك، أغنى وأكثر تنويراً بالمعلومات مما افترض فيتغنشتاين وجون أوستن John Austin (1962)، وآخرون.

سيكون الاستعلام الطبيعاني على الدوام قاصراً عن القصدية. بهذه الشروط، على الأقل، فإن "القصدية لن تختزل ولن تفنى"، كما يقول بوتنام، و"تكلم اللغات" سيبقى غير "ممكن الشرح نظرياً". (Putman 1998a:1). تبدو دراسة الأنظمة الحوسبية - التمثيلية C-R، بما فيها علم الدلالات الذاتاني، في الوقت الحالي، هي الشكل الأكثر وعداً للاستعلام الطبيعاني، مع برنامج بحث ناجح بشكل معقول؛ إذ أن فهم أنظمة الأداء هو أكثر بدائية، لكن

ضمن مجال الاستعلام، في بعض الجوانب على الأقل. هذه المقاربات تثير أسئلة من النوع المألوف في كل مكان من العلوم الطبيعية، لكن أياً منها لا يبدو مختلفاً من الناحية الكيفية. بمتابعة هذه الأسئلة، نأمل في تعلم الكثير حول الحيل المستخدمة للإفصاح عن الأفكار والتفسير، وهلم جرا. إنها تترك أسئلة أخرى كثيرة دون مساس، لكن يبقى أن نبين أن هذه أسئلة حقيقية وليست زائفة، تشير إلى موضوعات استعلام يمكن للمرء أن يأمل في استكشافها ـ لا بل أكثر قليلاً من ذلك.

الفصل الثالث

اللغة والتفسير:

التأملات الفلسفية والاستعلام التجريبي

في الأدبيات الفلسفية على مدى الأربعين سنة المنصرمة، كان ثمة بضعة تيارات مؤثرة تبدو لي إشكالية في جوانب هامة منها، وحتى أساسية. تخطر ببالي، بالدرجة الأولى، المقاربات التي تنطلق من بعض التصورات لكيفية دراسة اللغة أو كيفية دراستها، من قبل العالم التجريبي - أو "عالم اللغة الميداني"، بلغة النموذج الإرشادي المألوف لكواين Quine. يمكن للمرء أن يضمّن هنا كواين، دونالد ديفيدسون، وآخرين أحرزوا تقدماً نحو شكل من البراغماتية* والابستمولوجيا المطَبْعَنةَ naturalized، دامجين مسائل يُعتقد أنها ذات أهمية فلسفية ضمن تصورهم للعلم التجريبي، لكن آخرين أيضاً يتبنون منطلقاً مختلفاً: مايكل دومت، وكثيراً من المتأثرين بفتغنشتاين وفلسفة اللغة العادية، على سبيل المثال.

لشرح الصفة المميزة لهذه الأفكار، دعونا نأخذ بعض تعليقات ريتشارد رورتي الواردة لدى ليبور (1986) Lepore حول ديفيدسون

---

* البراغماتية pragmaticm في اللسانيات تطلق على فرع من علم الدلالات يعني بالمعاني التي تأخذها الجملة في سياقات بعينها يتم فيها النطق بهذه الجملة.. (المترجم).

إذ يكتب أن "ديفيدسون على حق بالتأكيد في أن كواين "أنقذ فلسفة اللغة بوصفها مادة جدية" بالتخلص من التمييز التحليلي - التركيبي. كانت أفضل حجة لكواين لفعل ذلك هي أن التمييز ليس بذي فائدة "لعالم اللغة الميداني" (Rorty 1986: 339).

فيما يتعلق "بعالم اللغة الميداني"، كل ما عليه "أن يواظب عليه هو رصده للطريقة التي يرتصف بها السلوك اللغوي مع السلوك اللالغوي في سياق تفاعل الأصلاني native مع بيئته، والتفاعل الذي يعتبره [عالم اللغة] موجهاً بقواعد العمل / (الفعل)..."، وخصوصاً "المبدأ التنظيمي" [القائل] بأن "معظم قواعد الأصلاني هي نفس قواعدنا، أي أن معظمها صحيح" (ص. 340؛ "القواعد" هنا تحيل ظاهرياً إلى المعتقدات). لا حاجة بنا لأن ننشغل بـ"مخطط مفاهيمي، طريقة لرؤية الأشياء، منظور (أو... لغة، أو تراث ثقافي)، [لأن] عالم اللغة الميداني لا يحتاجها، [هكذا] لذلك فإن الفلسفة لا تحتاجها أيضاً" (p. 344). يتفق كواين وديفيدسون على أن "نظرية المعنى لأجل اللغة هي ما يتمخض عن البحث التجريبي في السلوك اللغوي"، عندما تتم متابعته بشكل صحيح، انسجاماً مع مذهبي "الكليانية والسلوكية".

هذا الاتجاه في التفكير، يتابع رورتي قائلاً: يقود إلى شكل من البراغماتية يعتنقه وينسبه إلى جيمس وديوي، بما في ذلك الإنكار القاطع لأية علاقات "يجري تحقيقها" تربط بين المعتقدات والعالم". بالأحرى، إننا نفهم كل ما هو موجود لنعرفه حول علاقة المعتقدات بالعالم عندما نفهم علاقاتها السببية بالعالم" (p. 335).

لنضع الاستنتاجات التي توصل إليها رورتي جانباً[1]، ونتأمل فرضياته. إذا كانت أفضل حجة للاستغناء عن التمييز التحليلي ـ التركيبي هي أنها ليست مفيدة لعالِم اللغة الميداني، عندئذٍ من المفترض أن كل شخص يشتغل فعلاً بعلم الدلالات الوصفي، أو سبق له أن اشتغل به، لابد أن يكون مخطئاً بشكل خطير، نظراً لأن الاشتغال تشوبه فرضيات حول صلات المعنى، التي من شأنها أن تستقري induce (بشكل خاص) أمثلة التمييز التحليلي ـ التركيبي. سيكون من الصعب إكراه المرء على العثور على دراسات لغة لا تعين assign التراكيب وتصف معنى kill، so، الخ، بطريقة يوجد فيها تمييز كيفي تحدده اللغة ذاتها ـ بين الجملتين:

جون قتل بيل، وهكذا يكون بيل ميتاً

John killed Bill, so Bill is dead

جون قتل بيل، وهكذا يكون جون ميتاً.

John killed Bill, so John is dead

أو لنأخذ حالة أخرى، سيكون من الصعب أن نجد دراسة للتبعية الإحالية referential dependence في اللغة الطبيعية لا تستنتج أن اللغة ذاتها تقرر أن العلاقة تربط بين Mary وherself في (1) لكن ليس عندما يكون نفس التعبير متضمناً في السياق "I wonder who" ـ معطياً (2):

(1) Mary expects to feed herself.

(2) I wonder who Mary expects to feed herself.

هذه الخـواص الإعرابيـة ـ الدلاليـة سـوف تحـث induce حـالات التمييز التحليلي ـ التركيبي؛ لذلك فإنها سوف تنتج تمييزاً بين جملة:

"Mary expects to feed herself, so Mary expects to feed Mary"

(تحليلي، مع اعتبار الورودات الثلاثة لـ Mary متحـدة الإحالـة Coreferntial) وجملة:

I wonder who Mary expects to feed herself, so I wonder who Mary expects too feed Mary"

(ليس تحليلياً، بموجب التفسير نفسه). لكن ما يُزعم أن كـواين قد أثبته يتجاوز مسألة التحليلية، ليصل إلى استنتاج أنـه لا توجـد صلات دلالية يمكن عزوها إلى ملكة اللغة ذاتها بوصفها متميزة عـن أنظمة اعتقادنا العامة؛ في مكان آخر، يعد رورتـي هـذا واحـداً مـن الاكتشافين الأساسيين اللذان يقوضان صورة العالم التقليدية.

كما هو معروف جيداً، فإن كواين وآخرين قدموا تفسـيرهم لهـذه التمييزات. أعود إلى هذه الفرضيات، وكيف يمكن تقييمها انسجاماً مع قوانين استعلام العلوم الطبيعية، لكن نلاحظ هنا فقط أن الإحالة إلى "عالم اللغة الميداني" لا يمكن بالتأكيد فهمها كإحالـة إلى الـذين يقومون فعلاً بالعمل اللغوي. بالأحرى، إن لها خصيصـة معياريـة، تشير إلى الطريقة التي ينبغي بها القيام بهذا العمل، التزاماً بشرطي "الكليانية والسلوكية" التي يشرعها الفيلسوف، لكن لا يتم اتباعها عملياً من قبل العالم الضال. في حين يمكن أن يتبين لدى الاستقصاء أن هذا الموقف قابل للتبرير، فإن أولئك الذين يكنون تقديراً لتـاريخ الحقل المعرفي يمكن أن يغفر لهم بعض الشك الأولي.

دعونا نختار مثالاً آخر لتفسير الصفة المميزة لهذه المناقشات. لنتأمل حجة دومت Dummett في نفس المجلد (Dummett 1986) القائلة بأن "المعنى الأساسي" الذي يجب علينا أن نفهم به مفهوم اللغة هو المعنى الذي تكون فيه الهولندية والألمانية لغتين مختلفتين (يعطي مثالاً مختلفاً، لكن القصد هو نفسه)، كل واحدة منهما ممارسة اجتماعية خاصة "ينخرط فيها البشر"، ممارسة يتم "تعلمها من الآخرين وتُشكلها قواعد تكون جزءاً من عرف اجتماعي يتعين اتباعه" (ص. 473). هكذا توجد الهولندية والألمانية بهذا "المعنى الأساسي" بشكل مستقل عن أي متكلمين بعينهم"؛ "كل متعلم منفرد" يملك "هذه اللغة"، لكنه من الناحية النمطية يمتلك فقط "فهماً جزئياً ومغلوطاً جزئياً للغة". إن المغزى المقصود لفرضية دومت بعيد المدى. إنه يخبرنا أي مفهوم "للغة" يكون ضرورياً لأجل الأغراض الفلسفية، لأجل نظرية المعنى بشكل خاص؛ وكذلك، كما يبين، فإن هذا المفهوم للغة هو، برأيه، مطلوب لشرح استعمال اللغة، تحديداً، لأجل فهم "أي نظرية طويلة المدى تضع شخصاً ما في مواجهة لغوية مع شخص آخر". لذلك، فإنه افتراض يقوم على الدراسة التجريبية للغة، وللبشر، لما يعرفونه وما يفعلونه. ربما يقصد أن يقر بأن علماء اللغة يمكن أن يتبعوا مساراً مختلفاً لأجل همومهم الخاصة، لكن من الواضح أن هذه الفرضيات تعتمد على الممارسة الصحيحة في الاستعلام التجريبي ضمن اللغة واستعمالها.

هنا الصفة المميزة المفارقة من مرتبة مختلفة نوعاً ما. إنها تكمن في التناقض بين اقتراح دومت والفرضية الشائعة في الممارسة التجريبية القائلة بأنه لا يوجد معنى عام مفيد يمكننا به أن نوصّف characterize "اللغة" بحيث تكون الهولندية والألمانية "لغتين" متميزتين، يعرفهما الناس "جزئياً" فقط و"بشكل مغلوط". هكذا هو الأمر سواء كنا ندرس تركيب اللغة، أم الألسنية النفسية أم تغير اللغة، أم علم النماذج typology، أم مشاكل التواصل، أم مهما يكن. إن الناس الذي يعيشون قرب الحدود الهولندية يمكنهم أن يتواصلوا بشكل جيد تماماً مع الذين يعيشون على الجانب الألماني من الحدود، لكنهم يتكلمون لغتين مختلفتين وفقاً للمعنى الذي يجادل به دومت "بشكل أساسي"؛ وأولئك الذين على الجانب الألماني من الحدود، مع "معرفتهم الجزئية" بـ" Language German" يمكن ألا يفهموا شيئاً مما يتكلمه أناس يعيشون في منطقة أخرى "يمتلكون "معرفة جزئية" مختلفة بـ " Language German" بمفهوم دومت. لهذه الأسباب لا يلعب مفهوم كهذا أي دور في الاستعلام التجريبي في اللغة أو في علم النفس. تستعمل مصطلحات مثل "انكليزية" "English" و"يابانية" "Japanese" لأجل الخطاب التفسيري العام، لكن مع فهم أن استعمالها الفطري common-sense، الذي يتبناه دومت بشكل غير نقدي إلى حد ما، يتعين أن يتم التخلي عنه عندما نتحول إلى الدراسة الفعلية للغة والسلوك والتواصل(2). إذا كان مفهوم دومت أساسياً بالفعل لأجل الاستعلام التجريبي ولأجل الأغراض الفلسفية، عندئذٍ تكون الفلسفة أو الدراسة التجريبية للغة والسلوك، أو كليهما، في مشكلة

عميقة، لأسباب ينبغي أن تكون معروفة. إن مفهوم اللغة الذي يعده دومت أساسياً، ينطوي على عناصر اجتماعية - سياسية، تاريخية، ثقافية ومعيارية - غائية normative- teleological معقدة وغامضة. هذه العناصر قد تكون ذات أهمية بالنسبة لسوسيولوجيا التماهي identification ضمن الجماعات الاجتماعية والسياسية ودراسة بنية السلطة، لكنها تقع ببساطة خارج أي استعلام في طبيعة اللغة أو سيكولوجيا مستخدمي اللغة.

لنأخذ مثالاً واحداً، تأمل دراسة اكتساب اللغة. في الاستعمال العادي، نقول أن الطفل في الخامسة من عمره والأجنبي هما في طريقهما إلى اكتساب اللغة الإنكليزية، لكن ليس لدينا طريقة لتسمية أياً يكن ما "يمتلكانه". إن الطفل، في المسار الطبيعي للأحداث، سيتوصل إلى امتلاك الانكليزية (على الأقل جزئياً وبشكل مغلوط)، مع أن الأجنبي ربما لن يفعل ذلك. لكن لو توفي كل البالغين فجأة ونجا الأطفال بطريقة ما، عندئذٍ فإن أي شيء مهما يكن ما يتكلمونه سوف يكون لغة بشرية، مع أن اللغة غير موجودة انذاك. إن الاستعمال العادي لا يقدم طريقة مفيدة لوصف أياً من هذا، نظراً لأنه ينطوي على هموم ومصالح متباعدة وغامضة كثيرة، [وهو] أحد الأسباب في أن مفهوم اللغة الذي يتبناه عديم الفائدة لأجل الاستعلام الفعلي. هذه المسألة تكتسب بعض الأهمية عندما نتأمل التعويل على مفاهيم "سوء استعمال اللغة"، "معايير المشترك"، "الممارسة الاجتماعية" و"اتباع القواعد"، التي يتم تبنيها غالباً كما لو كانت واضحة بما فيه الكفاية؛ لكنها ليست كذلك[3].

بهذا الخصوص، من الجدير بالاهتمام ربما أن نستذكر بعض الحقائق البدهية الأخرى؛ ففي الاستعلام العقلاني، في العلوم الطبيعية أو في أماكن أخرى، لا يوجد موضوع من قبيل "دراسة كل شيء". فليس دور الفيزياء أن تحدد بالضبط كيف يتحرك جسم بعينه تحت تأثير كل جسيم أو قوة في الكون، بتدخل بشري ممكن، إلخ. هذا ليس موضوعاً للنقاش. بالأحرى، في الاستعلام العقلاني ننسب صفات مثالية إلى حقول مختارة بطريقة (نأمل) أن تسمح لنا باكتشاف السمات الحاسمة للعالم. فالمعطيات والملاحظات، في العلوم، تمتلك صفة أداتية. إنها ليست ذات أهمية خاصة في حد ذاتها، إلا بقدر ما تشكل دليلاً يسمح للمرء بتحديد السمات الأساسية للعالم الحقيقي، ضمن مسار استعلام يتم اتخاذه بشكل ثابت في ظل المثلنات idealizations الحادة، الفهم الضمني غالباً والمشترك ببساطة، لكنه الحاضر دوماً. إن دراسة "اللغة" بمفهوم دومت تشرف على "دراسة كل شيء"، ولذلك فهي ليست موضوعاً مفيداً للاستعلام، مع أن المرء قد يأمل، ربما، في إنشاء دراسة جوانب هذه المسائل بلغة ما يتم التوصل إلى فهمه حول المقومات الخاصة لهذا المزيج اليائس.

يثير تصور اللغة بوصفها "ممارسة اجتماعية"، الذي يقترحه دومت وآخرون، مزيداً من الأسئلة، كما يتضح عندما يطبق على أمثلة ملموسة. تأمل مرة أخرى المثالين (1) و(2) على الصفحة (47). في المثال (1) تعتبر feed herself مُسْنَدة من ماري Mary، أما في المثال (2) فهي مسندة من شخص (مؤنث) مختلف عن ماري؛ لذلك يستنتج من المثال (2) أنني أتساءل عن أي شخص

تتوقع منـه أن يطعـم ذاك الشـخص تحديـداً، ولا أتسـاءل عـن أي شخص تتوقع ماري أن يطعم ماري نفسها. يطرح المثال أسئلة بارزة كثيرة، من بينها كيف نعرف هذه الحقائق. يبـدو الجـواب هـو أن الحالة البدئية لملكـة اللغـة المشـتركة تضـم بعـض المبـادئ المتعلقـة بالتبعيـة الإحاليـة referential dependence (نظريـة الـربط)؛ وعندما يتم تثبيت بعض الخيارات المتروكة بدون تحديد في الحالـة البدئية عن طريق الخبرة الأولية، عندئذٍ لا يكـون أمامنـا أي خيـار آخر لكيفية تفسير المثالين (1) و(2) أكثر مما نملك حول ما إذا كنا ندرك شيئاً ما كمثلث أحمر أو كشخص. يبدو أن العرف الاجتماعي لا علاقـة لـه بالمسـألة في هـذه الحـالات، مـع أنـه، في كـل هـذه الحالات، تساعد الخبرة المبكرة في تحديد بعض تفاصيل الإواليـات الثابتة، المحددة بيولوجياً، للعقل / الدماغ. يبدو أن الشـيء نفسـه يصـح عمومـاً إلى حـد مـا. إن فرضـيات دومـت والآخـرين المتعلقـة "بالممارسة الاجتماعية"، إذا أخذت حرفياً على الأقل، تبدو زائفة، كمسألة حقيقية تجريبية. في الحد الأدنى، فـإن شـيئاً مـن الجـدال سيكون مطلوباً لتبيان لماذا يتعين دراستها جدياً.

إذا فُسرت اللغة كممارسة اجتماعية على طريقة هذه المناقشات، عندئذٍ يكون من المغري أن نفهم معرفة اللغة على أنها المقدرة المثقّفة على الانخراط في هذه الممارسات، كما يقترح دومت أو ـ بشكل عام أكثر ـ كمقدرة يمكن ممارستها عن طريـق الـتكلم، الفهـم، القـراءة، التحدث إلى الذات [المناجاة]، الخ...: "إن معرفة اللغة هي بالضبط امتلاك المقدرة على القيام بهذه الأشياء وأشياء مماثلة"[4]. (Kenny

138 :1984). ويتعزز هذا الإغراء عن طريق التفسير الشائع للمعرفة بشكل عام أكثر بوصفها نوعاً من المقدرة ability. هذه الرؤية تتعارض مع تصور اللغة كإجراء توليدي يخصص assign أوصافاً بنيوية للتعابير اللغوية، مع كون معرفة اللغة هي التمثيل الداخلي لإجراء كهذا في الدماغ (في العقل، كما يمكن أن نقول عندما نتكلم حول الدماغ عند مستوى معين من التجريد). من وجهة النظر هذه، فإن المقدرة على استعمال لغة المرء (وضع معرفة المرء قيد الاستعمال) يتم تمييزها بشكل واضح عن امتلاك هذه المعرفة. إن للتصور الأخير فضيلتين أوليتين:

(1) يبدو أنه الطريقة الصحيحة لمقاربة دراسة المعرفة البشرية ـ معرفة اللغة بشكل خاص ـ ضمن الإطار العام للعلوم الطبيعية، وقد أثبت أنه مقاربة مثمرة إلى حد كبير.

(2) إنه يتفق كثيراً مع الاستعمال العادي ما قبل التحليلي، [وهي] مسألة ثانوية لكنها ليست عديمة الأهمية كلياً.

في المقابل، أثبتت المقاربة بلغة المقدرة العملية أنها عقيمة تماماً، ولا يمكن إدامتها إلا عن طريق فهم "المقدرة" بطريقة تختلف اختلافاً جذرياً عن الاستعمال العادي.

لفهم السبب في ذلك، افترض أن جونز، الذي يتكلم ضرباً مما ندعوها "الإنكليزية" في الاستعمال العامي، يحسن مقدرته على تكلم لغته باتباع دورة تكلم عمومي، أو يفقد مقدرته بسبب إصابة [أذية] أو مرض (ثم يستعيد تلك المقدرة عن طريق الدواء، مثلاً). لاحظ أن متكلم "اليابانية"، في ظل الظروف نفسها، سوف يستعيد اليابانية، وليس الإنكليزية، بالدواء نفسه، والاستعادة في هاتين الحالتين

ببساطة تختلف اختلافاً جذرياً عن الاكتساب، فالطفل لا يمكنه أن يكتسب الإنكليزية أو اليابانية بدون أي دليل. في كل هذه الحالات، ثمة شيء ما يبقى ثابتاً، خاصية k ما، في حين أن المقدرة على التكلم، الفهم، الخ تتغير. في الاستعمال العادي، نقول إن k هي معرفة اللغة؛ هكذا بقيت معرفة جونز ثابتة في حين تحسنت مقدرته على تسخير معرفته، ثم هبطت، ثم عادت، ..الخ. إن تفسير الإجراء التوليدي بلغة التمثيل الداخلي internal يتفق مع الاستعمال العامي في هذه الحالة. لاحظ أيضاً ان الدليل الآخر (لنقل، من تشريح الجثة، لو كان معروفاً بشكل كاف حول علوم الدماغ) يمكن أن يقودنا إلى استنتاج أن سميث، الذي لم يسترجع الإنكليزية أبداً، لم يتناول الدواء، مع ذلك لا داعي للقول إنه احتفظ بمعرفته بالإنكليزية سليمة بعد أن فقد كلياً مقدرته على التكلم والفهم. (من اجل مناقشة موسعة أكثر لهذه المسائل، وللتفسيرات البديلة الممكنة، انظر تشومسكي 1880؛ 1986). إذا كانت المعرفة هي المقدرة، عندئذٍ فإن الخاصية k يجب أن تكون نوعاً من المقدرة، مع أنها ببساطة ليست المقدرة بالمعنى العادي تماماً للكلمة، نظراً لأن المقدرة تغيرت في حين بقيت k ثابتة.

لذلك يجب أن نخترع معنى تقنياً جديداً لمصطلح "مقدرة"، دعونا نسميه المقدرة ـ k عندئذٍ تكون المقدرة k قد بقيت ثابتة في حين تغيرت المقدرة[5]. إن المقدرة ـ K تفترق افتراقاً كلياً عن المقدرة، وتمتلك خواص المفهوم القديم للمعرفة؛ يمكن أن تسمى أيضاً "المعرفة" إذا وضعنا المسائل العقائدية جانباً.

من المفارقة إلى حد ما أن هذه النقلات ينبغي تقديمها كما هي بروح فيتفنشتاين لاحقاً، الذي جادل بشكل ثابت ضد ممارسة تركيب المفاهيم الاصطناعية، البعيدة عن الاستعمال العادي، دفاعاً عن بعض العقائد الفلسفية. في الحقيقة، إن التفسير الفيتغنشتايني للمعرفة بوصفها نوعاً من المقدرة يبدو مثالاً نموذجياً على الممارسة التي كان فيتغنشتاين يعتقد أنها مصدر أساسي للخطأ الفلسفي.

لاحظ أن دراسات مشابهة تظهر أن معرفة الكيفية knowing-how ـ على سبيل المثال، معرفة كيفية ركوب الدراجة ـ لا يمكن تحليلها بلغة المقدرات، النزعات، الخ؛ بالأحرى، يبدو أن ثمة عنصراً معرفياً غير قابل للاختزال. لاحظ أخيراً أن تفسير المعرفة بلغة المقدرة، المشمولة بأي شيء يشبه معناها العادي، قد أثبت أنه غير مجد على الإطلاق. إذ يمكن للمرء أن يحاول تعليل المثالين البسيطين (1) و(2) بلغة مقدرات جونز، على سبيل المثال. لم يتم الشروع بأي مسعى كهذا، ونظرة دقيقة إلى المشاكل تكشف بشكل معقول لماذا لم يكن له أي أمل في النجاح.

تصبح الصفة المميزة المتناقضة للأفكار التي أخذت عينات منها أكثر وضوحاً عندما ننظر بتمعن أكثر إلى بعض الوصايا المحددة. لنأخذ مرة أخرى ملاحظة رورتي، التي تعتبر واضحة بدون نقاش، القائلة بأن "كل ما على عالم اللغة أن يتابعه هو رصد الطريقة التي يكون بها السلوك اللغوي متراصفاً مع السلوك اللالغوي في أثناء تفاعل الأصلاني مع البيئة" (Rorty 1986: 339)، بعيداً عن "المبدأ التنظيمي" القائل بأن الراوي الأصلاني يتكلم بشكل صحيح عموماً. هذا التصور، كما يلاحظ، مستمد من

كواين Quine وديفيدسيون. لذلك ففي نموذج كواين الإرشادي "للترجمة الجذرية" radical translation (Quine 1960; 1987) فإن "علماء اللغة الميدانيين" الذين يرصدون جونز يجب أن يدعموا فرضياتهم بالكامل في ضوء رصد سلوك جونز (أو سلوك أفراد "مجتمع الغاب"، الذي يعد متجانساً؛ فإذا لم يكن متجانساً، فإن أياً من الحجج لن تصمد، وإذا كان متجانساً فإننا قد ننبذ المجتمع لصالح جونز بدون التحسر على هذه الأهداف، كما سأفعل). عليّ أن أنوه إلى أنه لدى الرجوع إلى كواين، تبرز الأسئلة النصية، نظراً لأنه - رداً على الاستفسارات والنقد - قدم نسخاً مختلفة عديدة من نموذجه الإرشادي، وهذه النسخ ليست متساوقة (انظر تشومسكي Chomsky 1975: 187f; 198ff). مع ذلك، فإن ما تم اقتباسه للتو، الذي يتبناه ديفيدسون وروورتي، هو ضروري إذا كنا نريد أن نكون قادرين على أن نستمد من النموذج الإرشادي لكواين أياً من الاستنتاجات التي يعتقد أنها هامة.

قبل المتابعة، دعونا نلاحظ مرة أخرى أن هذه الوصفات مختلفة اختلافاً جذرياً عن الممارسة الفعلية "لعالم اللغة الميداني". إنها أيضاً غريبة تماماً على المناهج المتعارف عليها للعلوم الطبيعية في الأدب الفلسفي، تناقش القضايا عموماً فيما يخص نظرية المعنى وخصوصاً فيما يتعلق بجوانب نظرية المعنى التي يعرف القليل عنها (ليس بالارتباط، لنقل، مع قضايا مثل التبعية الإحالية التي يُفهم قدر لا بأس به حولها). هذه ممارسة مشكوك فيها، لأنها تعني ان الضوابط المفروضة على التأمل من قبل المعرفة والفهم النظري ضئيلة

جداً. لكن إذا كان المبدأ (العقيدة) يمتلك أي شرعية فيجب أن يصمد بخصوص كل صفاتنا [التي نسبغها على] الكفاية اللغوية، وقد كان جلياً، لكواين على الأقل، أن الأمر كذلك. لذلك فهو يجادل صراحة بأن الاعتبارات نفسها تصح عندما يزعم "عالم اللغة الميداني" أنه في جملة John contemplated the problem [جون تفكّر في المشكلة] ثمة عبارتان هما: العبارة الاسمية John والعبارة الفعلية contemplated the problem، وليس العبارتين: John contemplated و the problem أو John contemp وlated the problem. بحسب كواين، على الأقل عندما يلتزم بالفرضيات المطلوبة لكي تسري استنتاجاته المشهورة، فإن هذا العزو لخاصية ما (المعرفة، أو مهما اخترنا أن نسميها) إلى الراوي جونز يجب أن يستند حصراً على الدليل حول سلوك جونز؛ في الحقيقة، ينسجم الدليل المستخدم مع القوانين التقييدية إلى درجة كبيرة التي يحدد معالمها. الشيء نفسه يصح أيضاً لدى دراسة بنية الصوت، والعلاقات بين الضمائر العائدة Anaphores ومفسراتها antecendents"، أو أي شيء آخر(6).

من الجدير بالملاحظة أن عالم اللغة، أو العالم التجريبي عموماً، لن يوافق أبداً على أن يكون ملزماً بهذه القيود. الفرضية المماثلة في البيولوجيا هي أنه لدى اختبار الفرضيات حول النشوء الجنيني للبشر، لا يمكننا أن ندرس الدليل المأخوذ من دراسة الإشرشياكولي E. coli، أو ذباب الفاكهة، أو القرود، أو الفيزياء. لنذكر حالة حاسمة واحدة. في الممارسة الفعلية، إن كل عالم لغة يقارب دراسة لغة بعينها على أساس الافتراضات المأخوذة من دراسة اللغات

الأخرى. لذلك فإن أي عالم لغة يعمل بمعايير العلوم سوف يستخدم بشكل مباشر الأدلة المشتقة من دراسة اللغة اليابانية للمساعدة في بناء الافتراضات حول معرفة جونز بالإنكليزية. المنطق مباشر، وسليم تماماً. ثمة دليل تجريبي غامر على أن البشر ليسوا "مولَّفين" tuned وراثياً لاكتساب لغة أكثر من أخرى؛ بالأحرى، إن "الحالة البدئية" لملكتهم اللغوية يمكن افتراض أنها موحدة إلى حد بعيد جداً. إن الطفل، الموهوب بمجموعة من الأدلة، يكتسب لغة معينة، مستفيداً من موارد الحالة البدئية التي تحدد جزءاً كبيراً من المعرفة (الكفاية) المكتسبة؛ فالحالة البدئية يمكن اعتبارها بمثابة وظيفة ثابتة محددة بيولوجياً تحول الأدلة المتوفرة إلى معرفة مكتسبة، بشكل موحد من أجل كافة اللغات[7]. إن دراسة اللغة اليابانية يمكن، بالطبع، أن تمدنا بالدليل، ربما الدليل الدامغ، حول الحالة البدئية، أي، بواسطة مقارنة تتوسطها موارد الحالة البدئية. فلو استعمل متكلمو اللغة اليابانية خاصية شكلية لبنية اللغة (لنقل، التحكم المكوني في تفسير التبعية الإحالية. والدليل المتوفر للطفل الياباني لا "يلزم" بشكل ما أو ليس حتى مفضياً إلى هذه النتيجة الموحدة، فإننا مخولون بأن نعزو إلى الحالة البدئية نسخة من نظرية الربط Binding theory، دامجين هذه الخاصية والمبادئ ذات الصلة التي تنطوي عليها، وبذلك [نكون مخولين] بشرح الحقائق المرصودة. لكن الحالة البدئية يتقاسمها جونز الناطق بالإنكليزية، والفرضيات حول حالته البدئية ستكون لها بالطبع تبعات مترتبة على الوصف الدقيق للحالة المعرفية التي يحرزها. إن

الاستنتاجات المشتقة من اليابانية بخصوص معرفة جونز بالإنكليزية قد تكون بعيدة المدى. لذلك فإن الدليل حول التبعية الإحالية في اليابانية قد يثبت أنه وثيق الصلة بتحديد موقع التخوم العباراتية في الإنكليزية[8].

كل هذا هو مجرد ممارسة علمية متعارف عليها لا ريب فيها - أو حتى لا مجال لمناقشتها، لأنه لا خلاف حولها أبداً - في العلوم الطبيعية. مع ذلك، فإن كواين Quine والمتأثرين بنموذجه الإرشادي يأمرون "عالم اللغة الميداني" بالابتعاد جذرياً عن إجراءات العلوم، بتقييد أنفسهم بجزء صغير من الأدلة ذات الصلة، المنتقاة وفقاً للدوغما [العقيدة] السلوكوية، وأيضاً بنبذ الإجراءات المتعارف عليها المستخدمة في بناء النظرية في العلوم. الفكرة - هنا ليست أكاديمية: فالممارسة المعيارية لعلماء اللغة الوصفيين تستغل بشكل حاسم هذه الفرضيات، التي ينبغي مرة أخرى أن تكون مجرد بديهيات.

يمكننا أن نصيغ الفكرة بشكل مختلف. إن عالم اللغة والطفل يواجهان مهمتين مختلفتين اختلافاً جذرياً. فالطفل، المحبو ببعض القدرات الفطرية، يكتسب المعرفة باللغة - بشكل تلقائي، وبقليل من الاختيار إن وجد أي اختيار في المسألة. يحاول عالم اللغة أن يكتشف ماهية المعرفة التي يكتسبها الطفل، وماهية الخواص الفطرية للعقل / الدماغ التي تكون مسؤولة عن سيرورة نمو المعرفة هذه (يحاول أن يكتشف ما يعرفه الطفل مسبقاً من الخبرة، ليستعمل لفظة تبدو مناسبة تماماً). إن عالم اللغة سوف يستخدم بشكل مناسب تماماً الاستنتاجات حول الخواص الفطرية، كيفما

تم اشتقاقها، لأجل وصف المعرفة التي تم إحرازها، وخصوصاً لدراسة المعنى، حيث يمتلك هذا الحقل نفس المرتبة التي يمتلكها أي حقل آخر.

في الحقيقة، إن وصايا كواين، [إذا] طبقت بشكل متساوق، ستكون مع ذلك أكثر تطرفاً مما يشير إليه هذا المثال. هكذا فإن الدليل المأخوذ من باثولوجيا اللغة، أو التغير [التطفّر] الوراثي، أو البنية العصبية، أو الكيمياء الحيوية، أو في الحقيقة الدليل من أي مصدر، سوف يعتبره أي عالم وثيق الصلة بشكل محتمل من حيث المبدأ بتحديد طبيعة الحالة البدئية أو حالة المعرفة المكتسبة، نظراً لأن هذه ببساطة عناصر من العالم البيولوجي الطبيعي. يلح كواين أيضاً على هذه النقطة فيما يتعلق بدراسة العالم الطبيعي بعيداً عن دراسة البشر فوق العنق عندما يقوم بها "علماء اللغة"، بهذا المعنى للمصطلح. لو كان بالإمكان إظهار أن بعض الحقائق حول البنية العصبية للدماغ توفر تحققاً طبيعياً لأنظمة القواعد من نوع واحد (لنقل، مع تجزيئ جملة John contemplated the problem إلى عبارتي John و contemplated the problem)، وليس من أنواع أخرى، عندئذٍ فإن الاتجاه في الجدال سيكون مقبولاً في العلوم المساعدة في تسوية مسألة ما هو الوصف الدقيق لمعرفة جونز - الحالة المعرفية المحرزة من قبل جونز (مسألة اختيار البنية المكونة في الحالة الخاضعة للنقاش). يصح الشيء نفسه بالنسبة لنظرية المعنى، أو أي استعلام تجريبي. لكن كل هذه السبل، المألوفة في العلوم الطبيعية، يستبعدها الأمر في ظل الشروط الكواينية المفروضة

على عمل "عالم اللغة" وفقاً للنموذج الإرشادي المعتمد على نطاق واسع في الأدبيات الفلسفية.

لقد وصف كواين هذه المذاهب بطرق مثيرة للاهتمام. إذ تكشف نظرة دقيقة إلى هذه الأوصاف بشكل أكثر وضوحاً عن الخصيصة الاعتباطية للاشتراطات المفروضة وسوء الفهم الدائم للقضايا التجريبية. كمثال على الاشتراط الاعتباطي تأمل مناقشة كواين للدليل الذي يمكن أن يقودنا إلى أن نخصص بنية مكونة أو أخرى إلى جمل انكليزية جوْنز (Quine 1986). إذا كان هذا الدليل يشتق من التجارب النفسية ـ اللغوية psycholinguistic على الانزياح المُدرَك حسياً للطقطقات clicks(9)، عندئذٍ فإنه يدخل في الحسبان؛ إذا كان الدليل يشتق من الشروط [المفروضة] على التبعية الإحالية في اللغة اليابانية أو على شكل التراكيب السببية Causative construction في لغات عديدة، عندئذٍ فإنه لا يدخل في الحسبان ـ مع أن هذا دليل يفسر بالأسلوب المعياري للعلوم الطبيعية، بالتوازي مع الاتجاهات التي نوقشت منذ لحظة. ربما يمكن تفسير كواين على أنه يعتقد أن الدليل من النوع الأول (المدعو "بالدليل السيكولوجي") هو في الحقيقة أكثر قوة وإقناعاً مما يدعى "بالدليل اللغوي"؛ إذا كان كذلك، فسيكون هذا خطأً آخر، نظراً لأن العكس هو الحال، في الوقت الحاضر على الأقل. في الحقيقة، يبدو أن كواين يعتقد أن الدليل يختلف في خصيصته الابستمولوجية، وهي فكرة يتعذر الدفاع عنها كلياً. إن الدليل لا يأتي موسوماً بعلامة "لأجل إثبات النظريات" (الدليل السيكولوجي) أو "لأغراض البساطة وقابلية الترجمة العامة" (الدليل

اللغوي). إنه مجرد دليل، جيد أو سيء، دامغ أو غير دامغ، نظراً للأطر النظرية التي يمكن تفسيره فيها لأغراض شحذ أو إثبات الفرضيات.

كمثال على سوء فهم القضايا التجريبية، تأمل مناقشة كواين لما يدعى "تقييد البنية المتناسقة" Coordinate structure، [وهو تعميم وصفي يشمل، على سبيل المثال، الاختلاف الجذري في المرتبة بين التعابير الاستفهامية المشتقة عن طريق سؤال "ماري" Mary في الجملة

"John saw Bill and Mary" والجملة " John saw Bill with Mary" أي الفرق بين "Who did John see Bill and?" و"Who did John see Bill with?"

يستنتج كواين أن "الوحدة الصارخة" المكشوفة في هذا التقييد ليست "ملمحاً من صفات كل اللغات" بل "ملمحاً من قرابة وراثية للغات تبدو مُنَحْوَنة grammatized بالشكل الأسهل بهذه المصطلحات"[10]. مع ذلك فإن هذا الاستنتاج يقوم على سوء فهم خطير للقضايا التجريبية موضوع الرهان. المشكلة هي شرح كيف أن كل طفل يعرف الفرق ذي الصلة بين

"Who did John see Bill and?" و "Who did John see Bill with?"

إذ لا يمكن أن يكون [الفرق] هو أن الطفل يعتمد على الدليل [المأخوذ] من تاريخ اللغة، والطفل بشكل نموذجي ليست لديه خبرة ذات صلة، لكي يقرر (عن طريق "الاستدلال أو أية طريقة)

أن القاعـدة البسـيطة "عبـارة الاسـتفهام" Front-wh-phrase تكون معطلة بشـكل مـا في العبـارة "John saw Bill and who" ولـيس في العبـارة: John saw Bill with who (بالانكليزيـة العامية). فالأطفال، على سـبيل المثـال، لا يقولـون " Who did John see Bill and?" لكي يخبرهم آبـاؤهم أن هـذه هـي الطريقـة لفعل ذلك؛ واللغات لم "تنحرف" لكي تضم هذا "التبسيط" لقاعـدة صياغة السؤال على مـدى عـدة آلاف مـن السـنوات[11]. المشـكلة، باختصار، هـي مشـكلة بـؤس الحـافز، والفرضـيات حـول القرابـة الوراثية للغات لا علاقة لها البتة بـذلك، لا في هـذه الحالـة ولا في الحالات المشابهة الأخرى التي لا حصر لها[12].

إن الرفض المماثل للسماح بمتابعة دراسة اللغـة بأسـلوب العلـوم الطبيعية إنمـا يتضـح في سياقات أخـرى. تأمـل مقالـة ديفيدسـون المعنونة "A Nice Derangement of Epitaphs" في المجلد الـذي سبق ذكره (Lepore 1986). يعتبر ديفيدسون الطروحة القائلة بأن هدف الدراسة الوضـعية للمعنـى هـو بنـاء "نظريـة واضـحة" تكـون نموذجاً للكفاية اللغوية للمفسر"، "نظرية استطرادية من نوع معين" ولا يمكننا أن "نصف ما يمكن للمفسر أن يفعله" إلا باللجوء إلى مثل هذه النظرية. ثم يتابع بقوله: "مـن نافلـة القـول أنـه إذا لم تصـف النظرية بشكل دقيق كفاية المفسر، فإن بعض الإواليات لدى المفسـر يجب ان تتطابق مـع النظريـة" (Davidson, 1986b: 438). لقـد توصل دومت وآخرون إلى أفكار مماثلة[13].

بالنسـبة لأي شـخص يقـارب هـذه المشـاكل مـن منطلـق العلـوم الطبيعية، فإن التعليق الأخير المستشهد بـه متشـبث بالخطـأ بكـل

معنى الكلمة. فلو كان يمتلك أية مصداقية، لكان التعليق المناظر ينطبق على دراسة السلوك البصري، أو الكيمياء. كما في مكان آخر، إنه يضيف قدراً كبيراً إلى الطروحة بقولنا إن "بعض الإواليات لدى المفسر تنطبق على النظرية". أي، إن العلماء الطبيعيين الذين يبنون نظرية "تصف ما يمكن للمفسر أن يفعله" سوف ينسبون إلى الذات بعض الإواليات الثابتة والصريحة التي تمتلك الخواص المزعومة في التفسير الوصفي، وليس غيرها. قد يكون النسب على مستوى مجرد، بلغة أنظمة القواعد المتمثّلة عقلياً، أو بلغة الكيانات المجردة الأخرى كالشبكات العصبية أو بلغة البنية الخلوية، او أياً تكن؛ كل هذا هو علم طبيعي متعارف عليه. إن العالم الطبيعي، وقد عمد إلى نسب بنية وإواليات معينة إلى عقل / دماغ الشخص - غالباً على مسافة من الإواليات الفيزيائية [الجسدية] "الأكثر بدائية" يكون عندئذٍ في وضع [يؤهله] لاختبار النظرية في ضوء مجموعة واسعة من الأدلة، على سبيل المثال، كالدليل المأخوذ من لغات أخرى بالطريقة المشروحة للتو، أو الدليل المأخوذ من الباثولوجيا أو علوم الدماغ أو الكيمياء الحيوية. تحبط وصية ديفيدسون هذه المحاولات لتجنيد وسائل الاستعلام العقلاني في العلوم لتقرير ما إذا كان التفسير المقترح للمفسر هو صحيح فعلاً، ولتعديله إذا لم يكن كذلك (عندما يكون ذلك ممكناً).

تبرز المشكلة نفسها عندما يعترض كواين وديفيد لويس (1983) ودومت وغيرهم الكثيرون بأن مشكلة فلسفية ما تبرز عندما ينسب علماء اللغة إلى المتكلم ـ السامع نظام قواعد rule- system مستذوته

internalized محددة، ثم يسعون إلى تقرير ما إذا كانت نظرية الشخص هذه صحيحة بالوسائل المتعارف عليها للعلوم. ربما يكون هذا حتى "حماقة" خالصة، كما جادل كواين (1972: 447)، يتعين التغلب عليها عن طريق التأمل الملائم في المنهج. إن المشكلة المتصوَّرة هي أنه من أجل مجموعة محددة من السلوكيات المرصودة، أو مجموعة لا نهائية ثابتة من التلفظات المنتقاة على قاعدة غامضة ما ويعدها الفيلسوف هي "اللغة"، من الممكن بالطبع أن نبني نظريات مختلفة لا حصر لها تكون منسجمة مع هذا الدليل ("الأنحاء" grammars كما تدعى أحياناً)، لذلك يعتقد أنها نقلة غير مضمونة أن نفترض أن إحدى النظريات "صحيحة" والأخرى "مغلوطة". ما لم يكن هناك "دليل سيكولوجي"، كما يعتقد كواين أحياناً ـ بخواصه الغامضة التي يفتقر إليها "الدليل اللغوي" ـ لدعم فرضية أو أخرى. [هذه] الحجة يدعمها غالباً التشابه الجزئي مع دراسة اللغات الرسمية، التي تكون عديمة الصلة بالموضوع ومضللة إلى حد كبير بهذا الخصوص. فلو كانت الحجة صحيحة لصمدت في كل العلوم؛ في الحقيقة، إنها ليست أكثر من شكل من الشكوكية لا يأخذه أحد على محمل الجد في دراسة العالم الطبيعي لأسباب كانت جلية في القرن السابع عشر، كما يلاحظ ريتشارد بوبكين[14]. (Popkin 1979). إن عالم الطبيعة سوف ينسب إلى الذات subject نظاماً محدداً، وليس نظاماً آخر ("نحواً" grammar، لنستعمل مصطلحاً مضللاً)، ومن ثم يعمد إلى تقرير ما إذا كان هذا الافتراض صحيحاً بالبحث عن الدليل من تشكيلة واسعة قدر الإمكان، بما في ذلك الدليل بشكل دامغ من لغات

أخرى، بالتوازي مع الاتجاهات التي نوقشت سابقاً. بالطبع، سيبقى هناك دائماً اللاحسم indeterminacy التجريبي، نظراً لأن هذا علم تجريبي، وليس رياضيات، لكن هذا هو كل ما لدينا لقوله حول المسألة. ثمة أدب هام يجادل بعكس ذلك، لكنه يستند على المغالطات الأساسية للتعليل(15). من بين هذه المغالطات تلك الافتراضات الخاطئة التي نوقشت للتو: أي أن الدليل على كفاية جونز لا يمكن استمداده إلا من سلوك جونز (المفسر بلغة المبدأ الناظم حول الحقيقة) وأنه لا يضيف شيئاً إلى وصف سلوك جونز أن نعزو إلى جونز إوالية باطنية محددة، ربما نظاماً بعينه للقواعد أو شكلاً من التنظيم العصبي الذي يحققها.

يمكن شرح الفكرة، مرة أخرى، بمسألة حدود بنية العبارة لنفترض أن لدينا نوعين من الدليل على وضع الحد الكبير بعد الفاعل في جملة: "John – contemplated the problem" دليل [مستمد] من التبعية الإحالية في اللغة اليابانية ("دليل لغوي") ودليل [مستمد] من الإزاحة الإدراكية للـ clicks ("دليل سيكولوجي"). فالنوع الأول من الدليل خاضع لذاك الصنف المألوف من اللاحسم. وكذلك الثاني. افترض أنه في ظل الشروط الاختبارية الموضوعة للحصول على النتائج الصحيحة (بشكل نموذجي، بعد محاولات كثيرة تخطئ)، فإن الطقطقات سوف تزاح إدراكيا إلى حد الفاعل المسند ـ predicate وليس إلى حد الفعل ـ المفعول به. هذه النتائج يمكن تفسيرها على أنها تدعم الاستنتاج القائل بأن البنية هي من الشكل [Np- VNp] وليس من الشكل [NPV-NP] أو

[NP-V-NP]. لكن من السهل أن نطبق فرضية كـواين لإظهـار أنـه "لا توجد حقيقة للمسألة" في هذه الحالة (Quine 1960: 303;see Chomsky 1980:15). بصراحة، توجد تفسيرات أخـرى عديـدة للنتائج التجريبية. ربما تكون الطقطقات مزاحة إدراكياً إلى منتصف العنصر المكون، وليس إلى حده، أو ربما يستجيب الفاعل عن طريق تحديد هوية بنية العبارة مباشـرة تحـت البنيـة الكـبرى. إن كافـة التجارب الأخرى ذات الصـلة يمكـن إعـادة تفسيرها وفـق خطـوط مشابهة، كما يمكن القيام بذلك من حيث المبدأ ـ مع أنه لـيس مـن السهل للغاية عملياً، في حالة الدليل "السيكولوجي" أو "اللغـوي". فالقضايا هي ذاتها في كل مكان؛ أو بالأحرى لا توجد قضـايا ذات صلة بالموضوع هنا، نظـراً لأنهـا تنطبـق علـى الاسـتعلام التجـريبي عموماً.

عندما يتم التوصل إلى الاستنتاجات حول حدود العبارة phrase أو الجوانب الأخرى للغة على أساس "الدليل اللغوي"، فإن كـواين يكـون رافضـاً لقبولهـا" بـدون إلقـاء مزيـد مـن الضـوء علـى طبيعـة المـؤهلات العقليـة equipment المفترضـة"[16]، لكـن عنـدما تقـوم الاستنتاجات نفسها على الدليل السيكولوجي، فإن هذه المخاوف لا تظهر. هذه الثنائوية الابستمولوجية ليست معقولة بأي شكل؛ إنها تتراجع خطوة طويلة إلى الوراء عن الثنائوية الميتافيزيقيـة التقليديـة التي كانـت رد فعـل عقلانـي، [بنـاء] علـى افتراضـات بـات مـن المعروف الآن أنها مغلوطة[17]، على مشاكل تجريبية مدركة حسياً. إن المخاوف، كهذه المخاوف القائمة، هي نفسها من حيث المبـدأ،

مهما يكن الدليل الذي تقوم عليه الاستنتاجات، وهي ببساطة سمات للاستعلام التجريبي.

مع ذلك تبرز مفارقة أخرى ضمن هذا الإطار. فعلماء اللغة، كما يُجادل، لا يسمح لهم أن ينسبوا نظام لغة بعينها إلى الفرد أو الجماعة المثلنة idealized التي يدرسونها بدلاً من ردها إلى لغات أخرى[18]. ليس مسموحاً لهم أن يستكشفوا ما يصح على العقل، الموصوف على المستوى الذي نتصور فيه أنظمة القواعد وما شابه. لكن شيئاً ما يصح على الدماغ؛ ثمة شيء في دماغي يشبه تقريباً دماغك ومختلف بشكل حاسم عن دماغ متكلم اللغة السواحلية. لذلك ينبغي السماح لأحد ما بدراسة هذه المظاهر من العالم الحقيقي، وليس لعلماء اللغة، الذين يكونون مقيدين بالاستعلام في سلوك جونز، ولا يجوز لهم أن يعمدوا إلى نسب إواليات محددة إلى عقل /دماغ جونز واستعمال الأدلة من لغات أخرى (أو من أي حقل آخر، من حيث المبدأ) للتحقق من دقة استنتاجاتهم حول هذه الإواليات. بقبول هذه القيود الاصطلاحية حول ما يجب على عالم اللغة أن يفعله، تكون الخطوة العقلانية هي التخلي عن الألسنية (بما في ذلك دراسة المعنى وفقاً للشروط المفروضة في النماذج الإرشادية الكواينية). أما وقد تخلينا عن هذه المساعي الحمقاء، يمكننا الآن أن نعود إلى هذا الموضوع الآخر، حيث يسمح لنا بأن ننسب إواليات محددة إلى عقل / دماغ جونز، وأن نستقصي هذه الفرضيات بأساليب العلوم، باستعمال أي دليل متوفر: في الحقيقة، إنها الممارسة الفعلية لعلماء اللغة، المدانة في هذا التراث

المثير للفضول، وإن كان تراثاً مؤثراً إلى درجة قصوى، في الفلسفة الحديثة، التي تفتخر بنفسها، بسخرية مطلقة، بناء على "طبيعانيتها" والتزامها بأسلوب العلوم.

يقدم كواين (1987) الحجة التالية، في آخر جهوده المبذولة لتسويغ القيود التي يفرضها. بالنسبة لعالم اللغة، يجادل كواين، تكون "المقاربة السلوكية إلزامية". السبب في ذلك هو أننا عند اكتساب اللغة "نعتمد حصراً على السلوك العلني في الأوضاع القابلة للرصد ـ فلا شيء بالمعنى اللغوي، إذاً، أبعد مما يتم إدراكه من السلوك العلني في الظروف المرصودة" (Quine 1987: 5)، والشي نفسه يصح، بتشابه الحجة، على دراسة اللفظ، أو بنية العبارة، أو أي مظهر من مظاهر اللغة نختاره. الأهم من ذلك، كما يوضح مرة أخرى، أن السلوك، ذا الصلة بالموضوع بالنسبة لعالم اللغة، هو سلوك الأصلانيين الذين ينسب إليهم المعرفة باللغة: "إذا اختلف المترجمون على ترجمة بلغة الغاب Jungle، لكن لا يوجد أي سلوك من طرف شعب الغاب [المفترض ضمناً أنه شعب متجانس] يمكن أن يقوم على الاختلاف [عدم التوافق]، عندئذٍ ببساطة لا توجد صدقية للموضوع" (Quine 1990:38) وعالم اللغة الذي يعتقد أن ثمة حقائق يتعين اكتشافها وأن بعض النظريات (الأنحاء (grammars) صحيحة والبعض الآخر ليس كذلك، إنما يرتكب خطأً ميثودولوجياً [منهجياً] شنيعاً أو "حماقة" خالصة (تذكر أن "المترجم" يمثل متعلم اللغة أيضاً[19]) وأن الحجة نفسها تصح لأجل اللفظ وبنية العبارة، الخ).

تأمل الآن الحجة المماثلة التالية. إن المتعضي، لدى وصوله إلى بنيته الجسدية النهائية في المرور من الحالة الجنينية إلى حالة النضوج، يعتمد حصراً على التغذية المقدمة من الخارج (بما في ذلك الأوكسجين، الخ). لا يوجد شيء في البنية الجسدية للمتعضي الناضج، إذاً، أبعد مما يتكشف من المدخلات الغذائية. يجب على دارس التطور البشري وحصيلته، إذاً، أن يحصر اهتمامه بهذه المدخلات؛ أما بالنسبة للبيولوجي فإن "المقاربة الغذائوية nutritionist الزامية". الحجة هي حجة كواين نفسها، ونفهم على الفور السبب في أنه لا يمكن الدفاع عنها. صحيح أن الجنين "يعتمد" على البيئة الغذائية تماماً مثلما أن متعلم اللغة "يعتمد" على السلوك العلني. لكن ما الذي ينطوي عليه المصطلح "يعتمد"؟ هنا نعود إلى بنية المتعضي، التي يمكننا أن نتخيلها بشكل مجرد بمثابة تحويل M (Mapping) للمدخلات الخارجية إلى الحالة الناضجة. في غياب هذه البنية، فإن السلوك المرصود لن يقود إلى أي معرفة باللغة والتغذية لن تؤدي إلى أي نمو. إن كواين، طبعاً، يقر بذلك. هكذا فإن عالم اللغة الميداني لدى كواين، الذي يتبع مسار متعلم اللغة، "يربط تجريبياً نطق الأصلاني بالوضع المزامن المرصود"، وتتاح له الاستفادة من الفرضيات الأخرى التي تتطابق بشكل مزعوم مع القدرات التي يُنعم بها على متعلم اللغة. هذه الفرضيات، إذا تمت تنقيتها، سوف تشكل نظرية للبنية الفطرية للمتعضي وللتحويل M.

كما هو متفق عليه من كافة الأطراف، لا يوجد خارج البنية الفطرية innate structure أي تأثير للبيئة الخارجية في نمو اللغة (أو غيرها)؛ على وجه الخصوص، خارج البنية الفطرية لم يكن بمقدور جونز أن يتطور بطريقة محددة من جنين إلى شخص، ولم يكن بإمكان ملكته اللغوية أن تكتسي حالة الكفاية الناضجة التي تشكل الأساس والتفسير لسلوك جونز. إن الطفل محبو بهذه البنية الفطرية ولذلك يصل إلى النضج وفق مسار موجه من الداخل inner-directed إلى حد كبير؛ إذ أن مهمة العالم هي كشف ماهية الموهبة الطبيعية الفطرية وماهية الحالة المكتسبة. في الوقت الراهن، إن أفضل نظرية هي تلك القائلة بأن الحالة البدئية لملكة اللغة تضم بعض المبادئ العامة لبنية اللغة، بما في ذلك المبدأين الصوتي والدلالي، وأن الحالة الناضجة للكفاية هي إجراء توليدي يخصص الأوصاف البنيوية للتعابير ويتفاعل مع الجهازين الحركي والإدراكي والأجهزة المعرفية الأخرى للعقل / الدماغ لإعطاء تفسيرات دلالية وصوتية للألفاظ. إن طيفاً واسعاً من الأدلة التجريبية هو وثيق الصلة، من حيث المبدأ، بالتحديد الدقيق لكيف يتعين إيضاح هذه الفرضية بالتفصيل. مرة أخرى، إن كل هذا هو علم معياري ينتج نظريات تكون حقيقية أو زائفة(20) بخصوص كفاية جونز وحالته البدئية، [بوصفهما] جزءاً من الموهبة الطبيعية البيولوجية البشرية. ربما يتعين التخلي عن هذه المقاربة في ضوء تصور آخر، غير متاح الآن؛ مع ذلك، للتوصل إلى هذا الاستنتاج لا يكفي أن نطالب بأن يتخلى عالم اللغة عن طرائق العلوم.

إن اشتراطات كواين المحددة حول البنية الفطرية (وبالتالي التحويل M)، كما في صياغاته الأولى لهذه الأفكار، هي اعتباطية تماماً، وبغض النظر عن السوابق التاريخية، لا صلة لها بالموضوع هنا. إذ لا يوجد مبرر لقبولها في حالة اللغة، تماماً كما يتم استبعاد الدوغمائية المماثلة حول "التبعية" من التداول في دراسة المظاهر الأخرى لنمو المتعضيات. علاوة على ذلك، ثمة دليل دامغ على أنها (أي الاشتراطات) زائفة، بقدر ما هي واضحة. وكما هو الحال في دراسة التطور الجسدي عموماً، فإن المستقصي العقلاني سوف يستبعد هذه الفرضيات الدوغمائية حول طبيعة "التبعية" (التي تدور حول البنية الفطرية) بالتوازي مع العقائد الأخرى كتلك التي تم تلخيصها، وسوف يستعمل أي دليل يمكن العثور عليه بخصوص بنية المتعضي، والتحويل وطبيعة الحالات المكتسبة في الحالات الخاصة. تظل الاستنتاجات التي يتوصل إليها كواين وديفيدسون وورورتي وكثيرون غيرهم غير قابلة للجدل. لا يمكن إعادة إحياء شيء من الصورة الكواينية بخصوص هذه المسائل، على حد علمي، رغم أن بعض استنتاجاته ـ بالأخص فيما يتعلق بـ "كليانية المعنى" meaning holism ـ يمكن أيضاً أن يتبين أنها صحيحة، على الأقل في جزء كبير منها.

دعونا نعود الآن إلى التمييز "التحليلي ـ التركيبي"، والحجة الديفيدسونية (Davidson 1986a:313) القائلة بأن كواين "بالتخلص منه" [التمييز]، قد "أنقذ فلسفة اللغة بوصفها موضوعاً جاداً". تذكر أن ما هو موضوع خلاف هنا ليس ببساطة هذا

التمييز، بـل مسـألة الصـلات الدلاليـة الـتي تحـددها اللغـة. كمـا ذكرت، لا يمكننا أن نحتكم إلى حجة رورتي، المنسوبة إلى كـواين، القائلة بـأن "عـالم اللغـة الميـداني" يجـد التمييـز "عـديم الفائـدة". عملياً، إن البنية الدلالية تنسب بشكل منتظم إلى المفردات المعجمية في الأعمال الوضـعية والدراسـات النظريـة حـول علـم دلالات اللغـة الطبيعية، ومن هذه الخواص وغيرها من الخواص البنيويـة، تكـون الصلات الدلالية من مختلف الأنواع قابلـة للاشـتقاق، بمـا في ذلـك الصلات التحليلية. ثمة أسباب وجيهة لهذه الافتراضات المقياسـية حول البنية المعجمية. إن اكتساب المفردات المعجمية يطرح ما تدعى أحياناً "معضلة أفلاطون" بشكل حـاد جـداً. فهـي، كمـا يعـي أي شـخص حـاول أن يؤلـف قاموسـاً أو أن يعمـل في علـم الـدلالات الوصفي، مسألة صعبة جداً أن نصـف معنـى كلمـة، وهـذه المعـاني تكون ذات تعقيد كبير وتنطوي على الفرضيات الأكثر أهمية، حتى في حالة المفاهيم البسيطة جداً، مثل مـا يعتـبر بمثابـة شـيء قابـل للتسمية. في فترات الـذروة مـن اكتسـاب اللغـة، يكتسـب الأطفـال ("يتعلمون") كلمات كثيرة في اليوم، ربما دزينة أو أكثر، مـا يعـني أنهم يكتسبون الكلمات في تعرضات (تخليـات) exposures قليلـة جداً، حتى مجرد تعـرض واحـد فقـط. يبـدو أن هـذا يشـير إلى أن المفاهيم تكون متاحة قبلاً، بكثير من أو بكل تعقيدها وبنيتها المقررة سلفاً، وأن مهمة الطفل هي أن يخصص صـفاتاً (نعوتـاً) للمفـاهيم، كما يمكن فعله مع الدليل المحدود الذي يُعطى بشـكل كـافٍ بنيـة فطرية غنية. وهذه البنى المفاهيمية يبدو أنها تنتج صلات دلالية من

النوع الذي سوف يستتبع، بشكل خاص، تمييزاً تحليلياً - تركيبياً، كحقيقة تجريبية.

يبدو أن المفردات المعجمية وطبيعتها، على حد ما يعرف عنها، إنما تقوم على بنى مفاهيمية من نوع محدد وشديد التماسك. فقد جُودل بشكل معقول أن المفاهيم ذات الطبيعة الموضعية - بما في ذلك هدف ومصدر الفعل، والمفعول به المحرِّك.. الخ - تدخل على نطاق واسع في البنية المعجمية، في أغلب الأحيان بطرق مجردة تماماً. بالإضافة إلى ذلك، فإن المفاهيم العامة مثل الفاعل، ومتلقي الفعل، والأداة، والحدث، والقصد والتسبب وغيرها هي عناصر متخللة للبنية المعجمية، بخواصها المحددة وروابطها المتبادلة. لنتأمل، مثلاً، كلمتي chase (يطارد) أو persuade (يقنع). إنهما تنطويان بشكل واضح على إحالة إلى القصد البشري. فمطاردة جونز ليست مجرد متابعة له، بل متابعته بقصد الكمون على طريقه، ربما للقبض عليه. إن إقناع سميث بفعل شيء ما هو جعله يقرر أو ينوي فعله؛ فإذا لم يقرر أو ينوي فعله، لا نكون قد نجحنا في إقناعه. علاوة على ذلك، يجب أن يقرر أو ينوي بإرادته، وليس تحت الإكراه بالتهديد، إذا قلنا أن البوليس أقنع سميث بأن يعترفُ عن طريق التعذيب، فإننا نستعمل المصطلح بشكل تهكمي. بما أن هذه الحقائق معروفة أساساً بدون دليل، فلابد أن الطفل يقارب اللغة بفهم حدسي للمفاهيم التي تنطوي على القصد والتسبب، وهدف الفعل، والحدث، وهلم جرا؛ علاوة على ذلك، لابد أن الطفل يضع الكلمات التي يسمعها ضمن منظومة علاقات

تتيحها مبادئ النحو الكلي universal، التي تقدم الإطار لأجل التفكير واللغة، وتكون مشتركة بين اللغات البشرية بوصفها منظومات تدخل في مختلف جوانب الحياة البشرية. هذه العناصر أيضاً يبدو أنها تدخل في "مخطط مفاهيمي" متكامل، [وهو] مكون للحالة البدئية لملكة اللغة التي تُجسَّد بطرق محددة، مع مجال وحدود محددة مسبقاً، في أثناء نمو اللغة، أحد مظاهر التطور المعرفي. قد تكون ثمة مراجعة وإعادة هيكلة لهذه المخططات المفاهيمية، (انظر: Carey 1985)، لكن يجب اتخاذ الحذر لفصل مختلف العوامل التي تدخل في مسار التطور، بما في ذلك، بشكل ممكن تماماً، النضوج المحدد وراثياً الذي يحدث آثاراً لا تُدرك إلا في مراحل متأخرة من النمو المعرفي.

لاحظ مرة أخرى أننا نمتلك، كما يبدو، صلات المعنى في حالات كهذه؛ فنحن نمتلك تمييزاً واضحاً إلى حد ما بين حقائق المعنى وحقائق الواقع. هكذا، إذا أقنع جون بيل بالذهاب إلى الكلية، عندئذٍ فإن بيل في لحظة ما يقرر أو ينوي الذهاب إلى الكلية ويفعل ذلك بدون إكراه بالتهديد. وإلا خلافاً لذلك، لا يكون جون قد أقنع بيل بالذهاب إلى الكلية. بشكل مماثل، لو أن جون قتل بيل، لكان بيل ميتاً (مع أن جون قد يكون وقد لا يكون ميتاً، اعتماداً على الوقائع). هذه حقائق معنى، وليست حقائق واقع. إن الإطار المسبق apriori للتفكير البشري الذي يتم ضمنه اكتساب اللغة، يقدم صلات ضرورية بين المفاهيم، تنعكس في صلات المعنى بين الكلمات، وبشكل أوسع، بين العبارات التي تتضمن هذه الكلمات، كما في مثال التبعية الدلالية المذكور آنفاً. توفر العلاقات

التركيبية مجموعة غنية من الأمثلة الأخرى. على سبيل المثال، يبدو أن ثمة فرق واضح بين جملة:

"everyone who lives upstairs lives upstairs"

وجملة "everyone who lives upstairs is happy"

يبدو أن كواين يؤمن بأن هذا الفرق أكثر إشكالية وغموضاً من تفريقه بين "النحوي" و"اللانحوي"، الذي يعتبره حاسماً بشكل ما لأجل استقصاءات عالم اللغة[21]. إن العكس هو واقع الحال. في الحقيقة، إن التمييز المطلق بين "النحوي" و"اللانحوي" يبدو أن له أهمية ضئيلة، إن كانت له أية أهمية. إذ يمكن إثباته بطريقة أو بأخرى أو، ربما أفضل، يمكن عدم إثباته بالمرة، لأنه من المشكوك فيه أن المفهوم، بمفهوم كواين، يلعب أي دور في نظرية اللغة. لقد نوقشت الأسباب في الأعمال الأولى في النحو التوليدي؛ إن هذا الكتاب، في الحقيقة، هو العمل الوحيد الذي بذل فيه جهد لتطوير مفهوم كهذا بطريقة يمكن أن تكون ذات صلة بالنظرية الألسنية، لكن بلغة اعتبرت منذ وقت طويل أنها غير ملائمة[22].

يبدو، إذاً، أن أحد الاستنتاجات الأساسية للفلسفة الحديثة مشكوك فيه إلى حد ما: أي، الجدال ـ الذي يعتقد غالباً أنه قد تم تأسيسه عن طريق أعمال كواين وآخرين ـ بأن المرء لا يمكنه أن يقيم تفريقاً مبدئياً بين مسائل الواقع [الحقيقة] ومسائل المعنى، إنها مسألة اعتقاد يؤمن به إيماناً عميقاً تقريباً. هذا الاستنتاج تأيّد عن طريق التأمل في طائفة ضيقة بشكل مصطنع من الأمثلة، من بينها المفاهيم التي تمتلك بنية علاقية ضعيفة أو لا تمتلك أية بنية. ففي

حالة جمل مثل Cats are animals، على سبيل المثال، ليس من السهل أن نجد دليلاً يقرر ما إذا كانت الجملة صحيحة كمسألة معنى أو واقع، أو ما إذا كان ثمة جواب على السؤال في هذه الحالة، ولقد كان ثمة الكثير من الجدال غير الحاسم حول المسألة. عندما نعود إلى مفاهيم ذات بنية علاقية متأصلة مثل persuade أو chase، أو إلى تراكيب إعرابية أكثر تعقيداً كتلك التي تكشف عن تبعية إحالية أو تراكيب سببية أو نسبية [علاقية] relative، عندئذٍ يبدو أن الصلات الدلالية يتم تمييزها فوراً. خلافاً لما يؤكده رورتي وآخرون، فإن مسلمة عامة من مسلمات العمل التجريبي في دراسة المعنى اللغوي، وعلاوة على ذلك، يبدو أنه افتراض معقول.

لا يمكن إثبات إن وضع بيان ما كحقيقة معنى، أو حقيقة تجريبية إلا عن طريق الاستعلام التجريبي، واعتبارات من أصناف كثيرة قد تكون أيضاً ذات صلة بالموضوع؛ على سبيل المثال، الاستعلام في اكتساب اللغة والتنوع بين اللغات. إن مسألة وجود حقائق تحليلية وصلات دلالية هي بشكل عام مسألة تجريبية يتعين تسويتها عن طريق الاستعلام الذي يتخطى مجال الأدلة التي يتم حشدها بشكل معتاد في الأدبيات التي تدور حول هذه الموضوعات. افترض أن شخصين يختلفان في حكميهما الحدسيين على ما إذا كان بوسعي أن أقنع جون بالذهاب إلى الكلية بدون قراره أو نيته في فعل ذلك (انظر Harman 1980). فلسنا بأي شكل من الأشكال في مأزق. بالأحرى، يمكننا أن نتصور نظريتين متعارضتين ونباشر في اختبارهما. إن من يعتقد أن الصلة بين persuade [يقنع] وdecide [يقرر] أو intend [يقصد] هي صلة

مفاهيمية سوف يطور بنية المفاهيم، وعناصرها البدائية، والمبادئ التي تُدمج بواسطتها وتُربط بالأنظمة المعرفية، وهلم جرا؛ وسوف يسعى إلى إظهار أن الخاصيات الأخرى للغة والمظاهر الأخرى لاكتساب اللغة واستعمال اللغة، في اللغة نفسها وفي اللغات الأخرى، وأن المفاهيم نفسها تلعب دوراً في المظاهر الأخرى للتفكير والفهم. إن من يعتقد أن الصلة هي صلة اعتقاد يؤمن به بعمق، وليست صلة معنى، تقع على عاتقه مهمة تطوير نظرية عامة لتثبيت الاعتقاد من شأنها أن تنتج الاستنتاجات الصحيحة في هذه الحالات وغيرها من الحالات الكثيرة. افترض أن شخصاً يعتقد، مع بول تشرتشلاند على سبيل المثال، أن الصلة تقوم على "الأهمية الدلالية" للجمل التي تربط persuade و decide أو intend (أي، هذه الجمل تلعب دوراً بارزاً في الاستدلال، أو تفيد في إدخال المصطلح persuade إلى قاموس مفردات الطفل، ولذلك فهي أهم من غيرها لأجل التواصل). (paul churchland 1979:51f). عندئذٍ يواجه المرء مهمة إظهار أن هذه الفرضيات التجريبية هي صحيحة في الحقيقة. إن الطريقة الأولى ـ بلغة البنية المفاهيمية الفطرية ـ تبدو أكثر وعداً بالنسبة لي، وهي المقاربة الوحيدة التي تؤدي إلى نتائج أو حتى إلى مقترحات تحسب لها؛ إنها، مع ذلك، مسألة استعلام تجريبي، وليست مسألة بيانات تستند على أي دليل واقعي. على وجه التحديد. إن الحجج ضد المقاربة الأولى (المفاهيمية) في ضوء اللاحسم، والغموض، والقضايا المفتوحة، الخ. لا تثبت شيئاً ما لم يتبين أن المقاربات البديلة في ضوء بعض

النظريات (غير المتاحة حالياً) لتثبيت الاعتقاد أو الأهمية الدلالية ليست عرضة لهذه المشاكل.

تتطلب المسألة برمتها إعادة تفكير شاملة والكثير من الفرضيات التي جرى تقديمها عموماً على مدى العقود المنصرمة حول هذه المسائل يبدو مشكوكاً فيه في أحسن الأحوال. يبدو واضحاً إلى حد ما أن ثمة بنية مفاهيمية غنية تقررها الحالة البدئية لملكة اللغة (ربما تسنتج من موارد ملكات العقل الأخرى المحددة وراثياً)، بانتظار أن توقظها التجربة. كل هذا يتفق كثيراً مع التصورات العقلانية التقليدية وحتى، في بعض الأوجه، مع التفكير المدعو "تجريبياً" empiricist لجيمس هاريس وديفيد هيوم وغيرهما.

لقد وجد الكثيرون هذه الاستنتاجات غير مقبولة كلياً، وحتى عبثية؛ إذ أن فكرة أن ثمة شيء ما يشبه عدداً كبيراً من المفاهيم الفطرية وأن هذه المفاهيم إلى حد كبير تكون "موسومة" labelled فحسب في أثناء اكتساب اللغة ـ كما يوحي الدليل التجريبي ـ تحيد بالتأكيد بشكل جذري عن الفرضيات الشائعة الكثيرة. لقد جادل البعض، مثل هيلاري بوتنام، أنه من غير المقبول كلياً أن نفترض أننا نمتلك "مخزوناً فطرياً من المفاهيم العامة" بما في ذلك مفهوم Carburetor وbureaucrat (Putnam 1988a:15). فلو كان على صواب في ذلك، لما كان ذلك وثيق الصلة بالموضوع على نحو خاص. نظراً لأن المشكلة تبرز بطريقة أكثر خطورة فيما يتعلق بكلمات مثل table، person، chase، persuade، kill، الخ. مع ذلك، فإن حجته لأجل الأمثلة التي يستشهد بها ليست دامغة. إذ تنص على أننا لكي نمتلك هذا المخزون الفطري من الأفكار، كان

"على التطور أن يكون قادراً على توقع كل احتمالات البيئات الفيزيائية والثقافية المستقبلية. من الواضح أنه لم يفعل ذلك ولم يكن بمقدوره أن يفعل"(p. 15).

لاحظ أن هذه الحجة غير صحيحة منذ البداية. ذلك أن افتراض أن البشر، في مسار التطور، صاروا يمتلكون مخزوناً فطرياً من المفاهيم بما في ذلك Carburetor وbureaucrat لا يستتبع أن التطور كان قادراً على توقع كل **احتمال** فيزيائي وثقافي مستقبلي - بل كان قادراً على توقع هذين الاحتمالين فقط. لنضع ذلك جانباً، لاحظ أن الحجة المماثلة لطالما كانت مقبولة في علم المناعة immunology: وهي أن عدد مولدات الضد antigens هائل جداً، بما في ذلك حتى المواد المركبة صنعياً التي لم تكن موجودة أبداً في العالم، بحيث كان من العبث أن نفترض أن التطور قد قدم "مخزوناً فطرياً" من الأجسام المضادة" antibodies، بالأحرى، إن تشكل الأجسام المضادة لابد أنه كان نوعاً من "سيرورة تعلم" learning process لعبت فيها مولدات الضد "دوراً تعليمياً". لكن هذا الافتراض قد يكون خاطئاً أيضاً. لقد نال نيلز كاج جيرن Niel Kaj Jerne جائزة نوبل على عمله الذي يتحدى هذه الفكرة، ويؤيد تصوره الخاص القائل بأن الحيوان "لا يمكن حثه على صنع أجسام مضادة نوعية، ما لم يكن قد صنع أجساماً مضادة من هذه النوعية سابقاً قبل أن يصل مولد الضد" (Jerne 1985: 1059)، لذلك فإن تشكل الجسم المضاد هو عملية اصطفائية يلعب فيها مولد الضد دوراً اصطفائياً ومضخماً[23]. سواء كان جيرن على صواب أم لا، وهو

بالتأكيد كان على حق، فالشيء نفسه كان صحيحاً في حالة معاني الكلمات؛ ذلك أن الحجة مشابهة تماماً.

علاوة على ذلك، ثمة سبب وجيه لافتراض أن الحجة على الأقل صحيحة في بعدها الجوهري حتى من أجل كلمات مثل Carburetor وbureaucrat، اللتان تطرحان، في الحقيقة مشكلة بؤس الحافز المألوفة، إذا تأملنا بعناية الفجوة الهائلة بين مانعرفه والدليل الذي نعرفه على أساسه. يصح الشيء نفسه غالباً على المصطلحات النقدية للعلم والرياضيات، ويبدو بالتأكيد أن هذا هو واقع الحال بالنسبة لمصطلحات الخطاب العادي. مهما كان مفاجئاً الاستنتاج بأن الطبيعة قد زودتنا بمخزون فطري من المفاهيم، وأن مهمة الطفل هي اكتشاف نعوتها فإن الحقائق التجريبية يبدو أنها تترك قليلاً من الاحتمالات الأخرى مفتوحة. إن الاحتمالات الأخرى (قل، بلغة "إواليات التعلم المعممة") يتعين مع ذلك أن تصاغ بشكل متماسك، وإذا وجدت ذات يوم، فمن الممكن أن تحل القضية الظاهرية.

في الحقيقة، ليس واضحاً ما هي الطروحة التي يقترحها بوتنام وغيره الذين يعارضون ما يدعونها "فرضية الفطرية"، the innateness hypothesis ينبغي أن أضيف، رغم أنه يُزعم أنني أحد أنصار هذه الفرضية، ربما حتى المجرم الرئيسي، فأنا لم أدافع عنها أبداً وليست لدي أية فكرة عما يفترض بها أن تكون. مهما قد تكون الحقيقة حول تشكل الجسم المضاد، فإنه يقوم على الموارد الفطرية للجسم وجهازه المناعي، ومهمة العالم هي اكتشاف ماهية هذه الموارد. الشيء نفسه يصح تحديداً على تشكل المفاهيم

واكتساب اللغة. لهذا السبب، فإن الناس الذين يفترض أنهم مدافعون عن "فرضية الفطرية" لا يدافعون عن الفرضية أو حتى يستعملون العبارة، لأنه لا توجد فرضية عامة كهذه؛ بالأحرى، توجد فرضيات محددة فقط حول الموارد الفطرية للعقل، وخصوصاً ملكة العقل الخاصة به. إن الحجج العامة ضد "فرضية الفطرية" غير القابلة للصياغة ليس لها أي تأثير على الفرضيات الحقيقية حول الفطرية، في حالة نمو اللغة والأنظمة المفاهيمية أو الأشكال الأخرى من النمو الجسدي.

يقدم بوتنام حجة مضادة للحجة التي لخصناها حول الشبه بالجهاز المناعي. إذ يشير إلى أن المفاهيم "تنشأ غالباً عن النظريات theories"، وعدد النظريات الممكنة (أو ربما حتى أنواع النظريات) كبير جداً، حتى لأجل النظريات "القصيرة" لصوغ "فكرة أن التطور قد استنزف كل الاحتمالات مسبقاً هي فكرة غير مقبولة" (Putnam 1988a: 128). هذه الحجة صحيحة، لكنها، مرة أخرى، لا علاقة لها بالموضوع. إننا في المقام الأول ندرس ما يقدر البشر على اكتسابه، ولا يوجد مبرر للاعتقاد بأن "كل النظريات يمكن تعلمها أو بناؤها من قبل البشر، ولا حتى من الواضح ما هو المعنى الذي تحمله هذه الطروحة[24]. علاوة على ذلك، فقد تم اقتراح حجة بوتنام الأصلية للتأثير على الكلمتين المحددتين Carburetor وbureaucrat، ولا توجد حجة أساسية ذات صلة بهذه الحالات، أو حتى بأية فرضية تجريبية جوهرية حول البنية الفطرية. بعبارة أخرى، إن حجته أن "التطور من غير

الممكن أن يكون قد فعل ذلك" لا تصمد في الحالات التي يجري تقديمها لأجلها. فحجة أن التطور لم يكن من الممكن أن يكون قد فعل "كل شيء" - حتى ما هو وراء القدرة البشرية - يمكن أن تصمد لو كان بمقدور المرء أن يفهم معناها؛ مع ذلك، فإن هذه الحجة لن تكون ذات صلة بالموضوع هنا، حتى لو كان بالإمكان تقديمها بشكل متماسك.

يجادل بوتنام في السياق نفسه بأن طروحة "كليانية المعنى"، مع المبدأ الكوايني القائل بأن "المراجعة يمكن أن تصيب في أي مكان"، تساهم في تقويض بعض الاستنتاجات المتعلقة بالبنية الفطرية للأنظمة المفاهيمية واللغة عموماً. لكن هذا الاتجاه في المحاججة مشكوك فيه. افترض أن طروحة "كليانية المعنى" صحيحة بمعنى أنه، على حد تعبير بوتنام، لا توجد "كيانات واقعية سيكولوجياً تمتلك ما يكفي من الخواص التي نردها قبل التحليل preanalytic إلى "المعاني" "لضمان" تحديد الهوية identification"، وتتحدد الإحالة تماماً على أسس كليانية. ومع ذلك، لا يستتبع أن الصلات الدلالية لا يمكن أن تكون ثابتة تماماً ومستقرة بوصفها مسألة موهبة طبيعية بيولوجية. لهذا فإن بعض العلاقات يمكن أن تظل ثابتة عندما تقود الاعتبارات الأخرى إلى مختلف الخيارات حول تثبيت الإحالة. علاوة على ذلك فإن الاعتبارات التجريبية من النوع الذي سبقت مناقشته تقوم على مسألة ما إذا كان صحيحاً بالفعل أن "المراجعة يمكن أن تصيب في أي مكان". هذه النقطة لا يمكن إثباتها بالنسبة للغة الطبيعية بالإحالة إلى ممارسة العلوم الطبيعية التي يستمد منها بوتنام كثيراً من أمثلته؛ هذه الحجج، بافتراض

صحتها، لا تكفي لإظهار غياب البنية الدلالية والمفاهيمية الجوهرية القائمة على الخواص الثابتة للعقل البشري. فطروحة "الكليانية" holism قد تكون صحيحة بدرجة أو شكل ما، لكن مسائل الصلات الدلالية في اللغة الطبيعية تبقى [بحاجة] لتسوية عن طريق الدراسة التجريبية، و ـ في الوقت الحاضر على الأقل ـ يبدو أن الدليل يدعم وجودها ـ بقوة إلى حد ما، كما يبدو لي.

دعونا نتابع المزيد من حجج ديفيدسون في ورقته المعنونة: "A nice Derangement of Epitaphs" (1986b) [تحريف بسيط في شاهدة قبر]

التي يزعم فيها أنه يتبين أن دراسة التواصل الفعلي تقوض "الوصف المقبول عموماً للكفاية اللغوية والاتصال" ويظهر أنه "لا يوجد شيء كهذا بوصفه لغة، ليس إذا كانت اللغة أي شيء يشبه ما اقترحه كثير من الفلاسفة والألسنيين. لذلك لا يوجد شيء كهذا لكي يتم تعلمه أو التعمق فيه أو نولد به" (Davidson 1986b: 446). هذا التصور للغة، الذي يعتقد ديفيدسون أنه قابل للتفنيد، يقوم على ثلاث فرضيات أساسية تتعلق بما يدعوها اللغة الأولى "first language" أو "النظرية المسبقة" "prior theory"، أي "منظومة معقدة أو نظرية"، يتقاسمها المتكلم والسامع تقريباً (ص 436). أما الفرضيات فهي:

(1) إن النظرية المسبقة هي "منظومية" systematic بمعنى أن المفسر interpreter الذي يمتلك هذه النظرية يكون قادراً على تفسير الألفاظ على قاعدة خواص أجزائها وبنية اللفظ؛

(2) إن هذه الطريقة في التفسير هي طريقة مشتركة؛ و

(3) إن العناصر المكونة للمنظومة تحكمها الأعـراف المكتسبة بالتعلم أو النواظم.

إن الفرضية الثالثة يتعذر الدفاع عنها لأسباب أخرى، لكن بدلاً من تأجيل الكلام حول هذه المسألة، دعونا نقدمها بالشكل المطلوب لحجة ديفيدسون: إن العناصر المكونة للمنظومة متاحة، كما يقول، "استباقاً لمناسبات التفسير"؛ إنها عنصر ثابت في أوضاع الاتصـال، لأجل المفسرين في حالة ثابتة من معرفة اللغة.

لدحض هذا التصور، يلاحظ ديفيدسون أنـه في أوضـاع التواصـل العادي يستفيد المفسر من كافة أصناف الحدوس والمسلمات حول ما يضـعه المـتكلم في ذهنـه، اعتمـاداً علـى خـواص السـياق، والنوايـا المفترضة للمتكلم، وهلـم جـرا. لهـذا فـإن المفسـر "يضـبط نظريتـه" بتعديل "النظرية المسبقة" إلى "نظرية عابرة" أي يتم "تكيييفها وفقـاً للمناسبة". لكـن هـذه "النظريـة العـابرة لا يمكنهـا بشـكل عـام أن توازي الكفاية اللغوية للمفسر". هذه "النظرية العابرة ليست نظريـة لـا يسـميها أي شـخص (باسـتثناء ربمـا الفيلسـوف) لغـة طبيعيـة حقيقية" (Davidson 1986b: 443)، يتابع ديفيدسـون، و"إتقـان هذه اللغة سيكون عـديم الفائـدة، نظـراً لأن المعرفـة بنظريـة عـابرة ليست سوى معرفة بكيفية تفسير لفظة بعينهـا في مناسـبة بعينهـا" (p. 443). علاوة على ذلـك، إن التواصـل يمكـن أن يسـير بشـكل جيد تمامـاً عنـدما لا تكـون النظريـة المسـبقة مشـتركة بـين المـتكلم والسامع، والنظريّة المسبقة أيضاً ليست مـا "نـدعوها بشـكل عـادي لغة" نظراً لأنها واقعة سيكولوجية، خاصة بـالمتكلم ـ السـامع ذات

سمات ليست مشتركة عبر "المشترك" community. يمتلك المفسر نوعاً من "الاستراتيجية" "سيرورة غامضة يستعمل بموجبها المتكلم أو السامع ما يعرفه [أو تعرفه] مسبقاً زائد المعطيات الراهنة لإنتاج نظرية عابرة"، ومن أجل التواصل، فإن ما يحتاجه شخصان "هو القدرة على الالتقاء على النظرية العابرة من لفظة إلى لفظة". بالنظر إلى هذه الحقائق، لم يعد ثمة أية فائدة لأجل "آلة التفسير النقالة المعيَّرة لاستخراج معنى اللفظة ـ الاعتباطية". بالأحرى، نحن بحاجة إلى شيء ما أكثر زوالاً، أكثر غموضاً وكليانية" "القدرة على الالتقاء على نظرية عابرة من وقت إلى آخر" (p. 445). لذلك فنحن مدفوعون إلى "التخلي... ليس فقط عن المفهوم العادي للغة، بل إننا قد محونا الحد [الفاصل] بين المعرفة باللغة ومعرفة طريقنا في العالم عموماً... ففي التواصل اللغوي لا شيء يوازي الكفاية اللغوية" (pp. 445-6) القائمة على المبادئ الثلاثة المذكورة آنفاً، لأنه "لا توجد قواعد لأجل التوصل إلى نظريات عابرة". مع ذلك، ففي ختام المناقشة يؤكد ديفيدسون أن النظرية العابرة تشتق بشكل ما "من قاموس خاص ونحو خاص" أي، من "نظرية مسبقة" تستوفي الشروط الأولى وربما تستوفي نسخة من الشرط الثالث، لكنها قد لا تكون مشتركة ضمن "المشتَرَك"؛ ثمة، إذاً، "نظرية سابقة" وثمة بالتأكيد طرق معينة، وليس غيرها، "للتوصل إلى النظريات العابرة"، سواءً شاء المرء أم لم يشأ أن يدعو هذه الطرق "قواعد" rules (p. 446).

إن الأجزاء المختلفة للحجة صحيحة إلى حد كبير، لكن لا يبدو أنها تبرهن الكثير جداً. على وجه الخصوص، لم يُقدم أي مبرر للشك في أنه توجد "نظرية مسبقة" بالمعنى المعتاد لدراسة اللغة ومعرفة اللغة، أي [يوجد] إجراء توليدي محدد مدمَج في الحالة الناضجة المحددة لملكة اللغة. بالطبع، إن هذه "النظرية السابقة" ستكون مختلفة تماماً عما تدعى "اللغة" في الاستعمال العادي. لكن ذلك لأنه لا يوجد مفهوم كهذا يلعب دوراً في الاستعلام التجريبي في اللغة والعقل، كما نوهنا من قبل.

في مواجهة حجج ديفيدسون، يمكن أن نتابع افتراض أن ثمة، بشكل تقريبي جداً، ملكة لغة راسخة وثابتة تحول الأدلة المقدمة إلى منظومة القواعد والمبادئ (أو مهما تبين أنه صحيح فيما يتعلق بالحالة المعرفية المكتسبة) تنسب التفسيرات إلى الألفاظ. دعونا نسمي هذه المنظومة المكتسبة" إجراء توليدياً". فمعرفة اللغة هي امتلاك تمثل داخلي لهذا الإجراء التوليدي، الذي سنعبر عنه في مختلف مستويات التجريد من إواليات "أكثر بدائية" ويسعى إلى الارتباط بهذه الإواليات بالأسلوب المعهود للعلوم الطبيعية(25). باتباع الممارسة المعهودة، يمكننا أيضاً أن نسعى إلى بناء "مُعْرِب" parser - جهاز، ينسب أيضاً إلى العقل / الدماغ - يدمج الإجراء التوليدي المحرز بالتوازي مع البنى والخواص المحددة(26)، ويحول الألفاظ المقدمة إلى أوصاف بنيوية تفسرها المكونات الأخرى للعقل. حتى الآن، إننا نتعامل مع المسائل العملية للاستعلام التجريبي.

ثمة أيضاً مشكلة أخرى، يمكن أن نعبر عنها بلغة غامضة لكن لا يمكن دراستها عملياً: أي إنشاء "مفسر" يتضمن المعرب مكوناً له بالتوازي مع كافة القدرات الأخرى للعقل ـ مهما كانت ـ ويقبل المدخلات اللالغوية بالإضافة إلى المدخلات اللغوية. هذا المفسر، الذي يُقدم له القول (المقال) والمقام يخصص تفسيراً ما لما يقوله شخص في هذا المقام. إن دراسة التواصل في عالم الخبرة الحقيقي هي دراسة المفسر، لكن هذه ليست موضوعاً للاستعلام التجريبي، للأسباب المعتادة: لا يوجد موضوع كدراسة لكل شيء بشكل متشابه. إذ أن العلم لا يستقصي الظواهر الأخرى للعالم كما تقدم إلينا في الخبرة اليومية. فالمفسر ـ كما يلاحظ ديفيدسون بشكل صحيح ـ يتضمن كل ما يقدر الناس على فعله، وهو السبب في أنه ليس موضوعاً للاستعلام التجريبي، ولماذا لا يمكن قول أي شيء معقول حوله. يمكننا أن نأمل في تعلم شيء ما حول عناصر المفسّر، الذي يعمل بالوسائل العادية للعلوم، بدءاً "بالقاموس الخاص والنحو" اللذان يشكلان اللغة المحرزة، ليتوصل إلى المعرب، ثم ربما ـ إلى الحد القابل للتطبيق العملي ـ يتحول إلى عناصر أخرى للعقل وعناصر الأوضاع التي تدخل في الحياة البشرية العادية. على كل، إذا بدأنا بالمطالبة بنظرية لكل شيء، فلن نجد شيئاً؛ إذ أنه مِن غير الضروري أن نبني حججاً متقنة لإثبات هذه الفكرة[27]. ليس الوضع مختلفاً في العلوم الأكثر تطوراً. فالاستنتاج الصحيح هو أنه لا يتعين علينا أن نتخلى عن مفاهيم اللغة التي يمكن دراستها بشكل مثمر، بل إن موضوع التواصل الناجح في العالم الحقيقي للخبرة هو

أكثـر تعقيـداً وغموضـاً مـن أن يسـتحقّ الاهتمـام في الاسـتعلام التجريبي، إلا كدليل على الحدوس عندما نتابع بحثاً صُمم لكـي يـؤدي إلى فهـم مـا للعـالم الـواقعي، بمـا في ذلـك التواصـل. هـذه الملاحظات ليس لها تأثير على ما إذا كان ثمـة "نظريـة مسـبقة" أم لا، أي، إجراء توليدي مستَذْوَت internarlized، بالمعنى المألوف في الممارسة التجريبية.

إن "النظرية العابرة" لديفيدسون ليست فكرة مفيدة؛ وهو في ذلك محق بالتأكيد. فالمفسر لن ينشيء كل ضـروب "النظريـات العـابرة" (مع أنه، بشكل حاسم، لن يشكل أي ضرب)، المتغيرة من لحظـة إلى أخرى، لأن المفسر كما يتصوره ديفيدسـون يتضـمن كـل مـا هـو متاح للعقل البشري؛ مع ذلـك لا معنـى لأن نـدعو حالاتـه العـابرة "نظريات" أو نعدها موضوعاً للاستعلام المباشـر. بشـكل حاسـم، لا شيء في حجة ديفيدسون يؤثر على افـتراض أن "النظريـة المسـبقة" (مع أنها غير مفهومة تماماً بلغته) تبقى عنصراً راسـخاً ولا مـتغيراً مـن "المفسـر" (مثلمـا هـي عنصـر مـن المعـرب المـثلن idealized الأضيق)، وهي تدخل في قيام المفسر بوظائفه.

في هذه المناقشـة، يركـز ديفيدسـون الانتبـاه علـى ظـاهرة سـبق اللسان في نطق الأصوات malapropisms ومـا يـدعى "الاسـتعمال الخاطئ للغة" بشكل عـام أكثـر. هنـا مـن الضـروري اتخـاذ بعـض الحيطة. دعونا، مـرة أخـرى، نأخـذ جـونز، متكلمـاً لضـرب ممـا ندعوها بشكل لا رسمي "الانكليزيـة". لقـد تضـلع جـونز في إجـراء توليدي يربط بالألفاظ أوصافاً بنيوية، بما في ذلك الخواص الدلاليـة ويمتلك قدرات أخرى للعقل تتيح له أن ينتج ويفسر التعابير اللغوية

مستفيداً من هذه الأوصاف البنيوية. دعونا نسمي هذا الإجراء التوليدي "لغة الأنا" الخاصة به حيث أنا توحي بـ "المستذوَت" internalized (في العقل/ الدماغ) والـ "المفهومي" intensional (من حيث أن الإجراء هو وظيفة تعداد الأوصاف البنيوية، معتبرة في قصد مفهوم مع وصف بعينه)[28]. هنا نحيل إلى إواليات مفترضة محددة للعقل / الدماغ، معتبرة بشكل مجرد.

قد يتكلم جونز بطريقة لا تنسجم مع لغة الأنا الخاصة به، أو قد يقدم أحكاماً لا تنسجم مع لغة الأنا الخاصة به؛ فأحكامنا حول أنفسنا، مثلما حول الآخرين، يمكن أن تكون خاطئة، وأكثر بكثير مما تكون لغة الأنا متضمنة في السلوك. هذه حالة غير مثيرة للاهتمام من حالات سوء استعمال اللغة؛ دعونا نسميها "المعنى الفردي" individual sense.

افترض أن جونز، مثل معظمنا، يقول بشكل عادي أشياء من قبيل: "hopefully, we'll be able to solve that problem " أو يستعمل كلمة "disinterested" ليقصد بها uninterested. تخبرنا مختلف الشخصيات الموثوقة أن هذا "خطأ"، "غلط" أو لا يتفق مع "قواعد اللغة الإنكليزية". إن جونز "يخطيء استعمال لغته"، أي الإنكليزية، اللغة التي لا يمتلك سوى معرفة جزئية وربما مشوهة بها، كما في "المعنى الأساسي" fundamental sense للغة لدى دومت. حتى إذا كان 95 بالمئة من السكان - أو فيما يتعلق بهذه المسألة الجميع باستثناء وليام سافير w.Safire وقلة من الآخرين. كانوا سيتصرفون على طريقة جونز، فإن هذه

الحالات ستظل تشكل "خطأ" في استعمال اللغة". أو قد يحاول جونز أن يتكيف مع ممارسة مجتمع لسبب ما، أو ربما بدون سبب على الإطلاق، وقد يخفق في القيام بذلك، في هذه الحالة يمكن للناس الذين يرصدون جونز أن يتكلموا بشكل غير رسمي عن خطأ استعمال لغة هذا المجتمع. هذه المفاهيم "لخطأ استعمال اللغة"، التي يمكن أن نسميها "المعنى المشتركي" "community sense"، قد تكون ذات أهمية لدراسة سوسيولوجيا التماهي بالجماعة group identification، وبنية السلطة، وما شابه لكن لها تأثير قليل على دراسة اللغة، حتى الآن كما نعلم. إننا نفهم هذا بشكل جيد تماماً في حالة اللفظ. لذلك فأن تقول إن ضرباً من الإنكليزية "صحيح والآخر "خاطئ" يرادف إلى حد كبير قولنا إن الإسبانية صحيحة والإنكليزية خاطئة؛ والشيء نفسه يصح - وإن يكن لسبب ما يبدو أكثر غموضاً - على المظاهر الأخرى للغة.

ثمة معنى محتمل آخر لمفهوم "الاستعمال الخاطئ للغة" يشتق من مفهوم هيلاري بوتنام لـ "تقسيم العمل اللغوي". لذلك في المعجم lexicon الممثل في عقلي / دماغي، فإن المدخل لأجل "elm" و"beech" أو "mass" وkintetic energy، يمكن أن يتضمن إشارة مفادها أن الإحالة لأجل هذه المصطلحات إنما يقررها الخبراء الذين نحترمهم. عندئذٍ يمكنني أن أطبق المصطلحات بشكل غير صحيح، بمعنى أن الإحالة لا تتفق مع قرار هؤلاء الخبراء. في هذه الحالة، يمكن أن يقال عني إنني "أخطيء استعمال لغتي الخاصة"[29]. دعونا نسمي هذا "المعنى الخبرائي" expert sense للاستعمال الخاطئ للغة. مرة أخرى، لا شيء ذا أهمية كبيرة يبدو

أنه يستتبع ذلك، ولا شيء بالتأكيد يتعلق بمقاربة اللغة ضمن إطار السيكولوجية الفردية التي سبق ذكرها، والمتبع بشكل نموذجي في الممارسة[30]. لاحظ أنه لا ينبثق أي مفهوم مفيد لـ "اللغة" أو "المشترك" عن هذه الاعتبارات. لذلك فإن خبيري لأجل "elm" و"beech" قد يكون جنائنياً إيطالياً لا يتكلم كلمة واحدة من خلال الإحالة إلى الأسماء التقنية اللاتينية التي نتقاسمها؛ وخبيري لأجل "mass" وkinetic energy قد يكون عالم فيزياء ألماني وحيد اللغة monolingual. لكننا لن نستنتج أن الألمانية والإيطالية متضمنتان في الإنكليزية، أو إننا جميعاً نشكل "مشتركاً واحداً" community بأي معنى مفيد للمصطلح.

هل يوجد أي مفهوم آخر "للاستعمال الخاطئ للغة"؟ إنني أتصور أنه لا يوجد. إذا كان كذلك، فإن المفهوم لا يلعب أي دور هام في دراسة اللغة أو المعنى، والتواصل، أو أياً يكن. لنأخذ بعض الأمثلة من النوع الذي ناقشه تايلر بورغ Tyler Burge، افترض أن جونز يستعمل المصطلح "arthritis" التهاب المفاصل للإحالة إلى وجود ألم في الفخذ. افترض أن هذا هو استعمال قريته للغة، وليس استعمال المشترك الخارجي. إن جونز لا يخطئ استعمال لغته بالمعنى الفردي؛ إن استعماله صحيح بالنسبة إلى لغة الأنا الخاصة به. ففي قريته لا يخطئ استعمال لغته بالمعنى المشتركي، أما خارج حدودها، فإنه يخطئ استعمالها. اعتماداً على كيفية تمثيل "arthritis" التهاب المفاصل في المعجم العقلي لجونز، قد يكون وقد لا يكون مخطئاً في استعمال لغته "بالمعنى الخبرائي". كيف ينبغي

علينا أن نعزو المعتقدات حول التهاب المفاصل إلى جونز؟ هنا تختلف الحدوس، وقد يكون الدليل واهياً جداً، في الوقت الحاضر، لتسوية القضية بشكل مرض. بوضع "المعنى الخبرائي" جانباً، افترض أننا نستعمل "اعتقادُ الانا" I-belief للإحالة إلى المفهوم الذي يشبه الاعتقاد، سوى أن جونز يمتلك نفس الاعتقاد الموجود ضمن قريته وفي المشترك الأوسع، أي، الاعتقاد الذي كنا سنعبر عنه بلغة الأنا الخاصة بنا، بالقول إنه يمتلك نوعاً ما من ألم الجسد[31]. قد يكون هذا وقد لايكون نفس المفهوم للاعتقاد في لغتنا العادية، لكنه المفهوم الذي يبدو مطلوباً لدراسة ما يدعى بشكل مضلل "التسبب في السلوك" behaviour causation - بشكل مضلل، لأنه ليس واضحاً أن السلوك "يتم التسبب به" بأي معنى مفيد للمصطلح. من الواضح أنه لا يوجد مبرر لافتراض أن مفاهيم علم النفس العام ستكون هي مفاهيم الاستعمال العادي، تماماً مثل مفاهيم الفيزياء، أو الفرع من علم النفس المسمى "اللسانيات"، ليس كذلك بشكل نموذجي، وليس من الواضح على الإطلاق بالنسبة لي أن ثمة فرع معقول من العلم (أو لنكن أكثر دقة، العلم البشري، الذي يعني النوع من الاستعلام العلمي الذي يكون البشر، بقدراتهم المعرفية المحددة، قادرين على الاضطلاع به) يعالج مسائل من هذه الطبيعة.

لم يتم، حسب اعتقادي، البرهان على أن ثمة شيء آخر لقوله حول المسألة. على وجه الخصوص، يبدو لي أن الإحالة إلى "الاستعمال الخاطئ للغة"، أو "المعايير" أو "المشتركات" وهلم جرا تتطلب من الحذر أكثر مما هو متخذ غالباً. هذه المفاهيم غامضة،

وليس واضحاً أن لها أية فائدة لأجل الاستعلام في اللغة والسلوك البشري. إن أية حجة تقوم على هذه المفاهيم العامة تستحق التمحيص الدقيق، وأشك في قدرة الحجج المألوفة على تحمل ذلك. إن المشتركات تتشكل بكل أنواع الطرق المتداخلة، ودراسة المشتركات ومعاييرها سرعان ما تنحدر إلى دراسة كل شيء. تبقى الحقيقة أن جونز يتكلم ويفهم بالطريقة التي يفعل بها ذلك على أساس لغة الأنا التي اكتسبها في أثناء نمو اللغة؛ وإذا اتبع جونز أم لم يتبع ما نختار، لأجل هدف عابر، أن ندعوها "معايير المشتركات" community norms أو "الممارسة الاجتماعية" social practice، فإن ذلك يكون على أساس لغة الأنا المستذوتة هذه (جنباً إلى جنب مع الكثير غيرها). إن بوريس، متكلم وحيد اللغة لضرب من الروسية، يمتلك لغة أنا مختلفة، ويتبع "معايير" مختلفة. يمكنني أن أفهم جونز، ضمن حدود، لأن لغة الأنا الخاصة بي لا تختلف كثيراً عن لغة الأنا الخاصة به، ولأننا نتقاسم تقريباً خواص أخرى مجهولة تدخل في المفسر الكامل؛ ليس هذا موضوعاً للاستعلام التجريبي كما يتراءى، بتعقيده غير المحلّل. هذه هي الطريقة التي يبدو لي أنه ينبغي علينا أن نقارب هذه المسائل بها.

بهذه المصطلحات، يمكننا أن نطور مفهوماً "لمعرفة اللغة" يكون ملائماً لأجل الاستعلام في اللغة والعقل، أي، الإتقان والتمثل الباطني للغة أنا محددة. إن نحو grammar عالم اللغة هو نظرية لغة الأنا، والنحو العام هو نظرية الحالة البدئية لملكة اللغة. فلغة جونز هي

حالة ناضجة خاصة ـ أو ناتج [خرج] output، فيما يتعلق بملكة اللغة بوصفها وظيفة تحويل الدليل إلى لغة أنا. ماذا عن لغة المفهوم؟ يمكننا ببساطة أن نفهم اللغات بوصفها لغات أنا، معتبرين بذلك اللغة شيئاً يشبه "طريقة للكلام"، الوسيلة المحدودة التي توفر "الاستعمال اللامحدود" حسب توصيف فيلهلم فون همبولت W. Von. Humboldt للغة (1836: 122, paragraph 13; 1988: 91, see also) (Chomsky 1964: 17)، وهي أيضاً محاولة لتسليط الضوء على مفهومه للغة بوصفها "سيرورة توليد" بدلاً من كونها مجموعة من "الموضوعات المولّدة". لذلك فإننا نعد اللغة، في الحقيقة، "مفهوماً عاماً للبنية" يرشد المتكلم في تشكيل "التعابير الحرة" على حد قول أوتويسبرسن Otto Jespersen.

(1924: 19; see also Chomsky 1977). لأجل الاستعلام التجريبي، أعتقد أنه قرار ملائم، مع أنه من الواضح أنه ليس كذلك لأجل الخطاب العادي. بدلاً من ذلك، يمكننا أن نرغب في بناء مفهوم للغة منفصل عن الحالات المعرفية، ربما وفق الخطوط التي اقترحها جيمس هيغنبوثام (1989) James Higginbotham. باعتبار معرفة اللغة حالة معرفية، يمكننا أن نفسر "اللغة" بوصفها موضوعاً مجرداً، "موضوعاً للمعرفة"، منظومة مجردة من القواعد والمبادئ (أو أي شيء يتبين أنه صحيح) تكون صورة للإجراء التوليدي، لغة الأنا، الممثّلة في العقل وفي نهاية المطاف في الدماغ بإواليات "أكثر بدائية" مجهولة حالياً.

بهذه المصطلحات، يبدو لي أن الأسئلة حول اللغة واستعمالها، التي يمكن إخضاعها للاستعلام التجريبي، يمكن صياغتها

بسهولة، وبما نعرفه حتى الآن، يمكن الانكباب عليها بالشكل الأفضل. قد يكون هناك الكثير من الأسئلة الأخرى التي تكون عرضة للاستعلام التجريبي بأسلوب العلوم ـ وربما لن توجد أبداً ـ إذا كان البشر أنفسهم جزءاً من العالم الطبيعي، وبالتالي يمتلكون قدرات بيولوجية نوعية بمداها وحدودها، مثل أية متعضيات أخرى. يجب أن نكون متنبهين لئلا نستسلم للأوهام حول التطور ومعجزاته التكيفية. إذ لا شيء في نظرية التطور يوحي بأننا ينبغي أن نكون قادرين على الإجابة على الأسئلة التي يمكن أن نطرحها، من حيث المبدأ، حتى لو كانت لها إجابات، أو ينبغي أن نكون قادرين على طرح الأسئلة الصحيحة. إلى الحد الذي يمكننا فيه ذلك، فإننا نمتلك العلم التجريبي، نوعاً من الالتقاء التصادفي لخواص العقل وخواص العالم خارج العقل. لا شيء مفاجئ في ذلك؛ فنحن نسلم جدلاً بأن شيئاً مماثلاً يصح على الجرذان والنحل ويجب ألا نفاجأ بأن نعلم أن البشر متعضيات بيولوجية، وليسوا ملائكة. ضمن حدود العلم البشري، مع ذلك، يبدو لي أن أفضل تخمين في الوقت الحاضر هو أن الإطار الذي أوجزته للتو ملائم لأجل الاستعلام في المسائل التجريبية حول اللغة والعقل، وضمنه توجد بعض النجاحات الملحوظة والكثير من الآفاق الخداعة.

الفصل الرابع

الطبيعانية والثنائوية في دراسة اللغة والعقل

يمكن فهم المصطلحين الواردين في العنوان بطرق مختلفة، وفقاً للأطر التي يكونان متضمنين فيها. أود أن ألخص التفسيرات التي أعتقد أنها مفيدة وملائمة، وأقترح أطروحة أشمل، تتطلب حجة أشمل بكثير: أنه لا يوجد بديل متماسك عن السير في هذا الاتجاه لأجل طيف من القضايا المدروسة، وأن المساعي الأخرى في المجال نفسه تقريباً تتوضح وتصبح سهلة إذا فهمت كامتدادات للمقاربة التي جرى تلخيصها.

التقليل من قيمة المصطلحات

بوضع "اللغة" جانباً في الوقت الحاضر، دعونا نبدأ بتناول المصطلحات الأخرى للعنوان بطرق بريئة لأجل التطبيقات بعيدة المدى، وتحديداً تلك المعزولة عن أية دلالات ميتافيزيقية. لنأخذ المصطلح "عقل" أو، كتمهيد، مصطلح "عقلي" mental. تأمل كيف نستعمل مصطلحات مثل "chemical" (كيميائي) أو "electrical" (كهربائي). إن بعض الظاهرات والأحداث

والسيرورات والحالات تدعى "كيميائية" (الخ) لكن هذا الاستعمال لا يوحي بأي حد فاصل ميتافيزيقي. هذه مجرد مظاهر مختلفة للعالم الذي نختاره كبؤرة للاهتمام لأغراض الاستعلام والكشف. سأفهم المصطلح "عقلي" إلى حد كبير بالطريقة نفسها، بشيء يشبه تغطيته التقليدية، لكن بدون أهمية ميتافيزيقية وبلا إيحاء بأنه سيكون ذا مغزى أن نحاول تحديد هوية المحك الحقيقي أو الصفة المميزة للعقلي، أعني بـ"العقل" المظاهر العقلية للعالم، بدون اهتمام بتعريف المفهوم بشكل أكثر تفصيلاً وبدون أن نتوقع أن نجد نوعاً مثيراً للاهتمام من الوحدة أو التخوم، أكثر مما سنجد في مكان آخر؛ إذ لا أحد يكترث بشحذ تخوم "الكيميائي".

علاوة على ذلك، ينحصر اهتمامي هنا بالعقل البشري (الجهاز البصري، التعليل المنطقي، اللغة، الخ). إذ لا يوجد بحث عن علم موحد للانتقال locomotion، الذي يتراوح من الأميبيا إلى النسر إلى المركبة الفضائية في الخيال العلمي؛ أو للتواصل، الذي يتراوح من الخلية إلى الخطاب الشعري إلى المخلوقات الخارج أرضية [الفضائية] المتخيلة. بالأحرى، إن علماء البيولوجيا يدرسون كيف تسبح الدلافين وكيف يتواصل النمل، بدءاً بوصف "ذاتاني" و"فرداني" (بالرطانة المعاصرة). بفعلهم هذا، يكون لهم اهتمام ضئيل بكيفية استعمال مصطلحات "دلفين"، "يتواصل"، الخ. في الخطاب العامي الذي تطرح فيه الأسئلة أساساً. بالأحرى، إنهم يطورون مفاهيم ملائمة لأغراض الشرح والفهم الخاصة بهم. إن الخطاب العادي والتفكير الفطري Common-sense لا يمسهما الإجراء بأية وسيلة، بالأحرى إنهما متحرران من المطالبات غير

الملائمة والتدميرية. الشيء نفسه يصح على الاستعلام العلمي الآخر ذي المفهوم الأوسع (على سبيل المثال، دراسة مستعمرات النمل)[1].

يمكننا أن نتجاوز هذه الملاحظات ـ البديهيات، كما أظن ـ إلى دراسة اللغة البشرية والعقل البشري. بما أن الدماغ، أو عناصره، مشمول نقدياً في الظاهرات اللغوية والعقلية الأخرى، فيمكننا استخدام المصطلح "عقل" ـ بشكل غير دقيق لكن بكفاية ـ في الكلام عن الدماغ، منظوراً إليه من منظور خاص تم تطويره في أثناء الاستعلام في بعض مظاهر الطبيعة البشرية وتمظهراتها. ثمة فرضيات تجريبية هنا ـ أن الدماغ، وليس القدم، هو العضو الجسدي ذو الصلة بالموضوع، وأن البشر متشابهون بما يكفي في قدرة اللغة بحيث يمكن اعتبار اللغة البشرية بمثابة شيء طبيعي، وهلم جرا. لكن هذه (الفرضيات) لا داعي لأن تعوقنا.

دعونا أيضاً نفهم مصطلح "طبيعانية" بدون دلالات ميتافيزيقية: "فالمقاربة الطبيعانية للعقل تستقصي المظاهر العقلية للعالم مثلما تستقصي أية مظاهر أخرى، سعياً إلى بناء نظريات تفسيرية ممكنة الفهم، على أمل الاندماج النهائي مع العلوم الطبيعية "الجوهرية". هذه الطبيعانية المنهجية يمكن مقارنتها بما يمكن أن تدعى "الثنائوية المنهجية"، القائلة بأن علينا أن نتخلى عن العقلانية العلمية عندما ندرس البشر "فوق العنق" (لنتكلم مجازياً)، وأن نصبح صوفيين mystics في هذا الحقل الفريد، ونفرض اشتراطات تعسفية ومطالب مسبقة من النوع الذي لم يكن وارداً في العلوم، أو نحيد بطرق أخرى عن الأعراف المتعارف عليها للاستعلام.

ثمة أسئلة مثيرة للاهتمام حول كيف ينبغي علينا أن نباشر الاستعلام الطبيعاني، لكن يمكن وضعها جانباً هنا، ما لم يتم تقديم مبرر يثبت أنها ذات صلة فريدة بهذا الاستعلام المحدد. وهذا ما لم يتم القيام به، على حد علمي. على وجه التحديد، يمكن استبعاد الحجج المتشككة في هذا السياق. إذ يمكننا ببساطة أن نتبنى وجهة النظر النموذجية للعلم الحديث، في الجوهر، النزعة المضادة للتأسيس لرد فعل القرن السابع عشر المتمثل في معارضة النزعة الأسسية anti - foundationalism على أزمة الشك الديكارتية، كما يصفها ريتشارد بوبكين Richard popkin التي تتمثل في "الاعتراف بأنه لا يمكن تقديم الأسس الأكيدة بشكل مطلق لأجل معرفتنا، وأننا حتى الآن نمتلك مقاييس لتقييم موثوقية وإمكانية تطبيق ما اكتشفناه عن العالم" وبذلك "نتقبل ونزيد المعرفة ذاتها" في حين نعترف بأن "أسرار الطبيعة، أسرار الأشياء في حد ذاتها، محجوبة عنا إلى الأبد" (popkin 1979: 139ff). قد يكون من الأهمية بمكان أن نتقدم بعد ذلك لكن، إذا كان الأمر كذلك، فإن المكان للبحث عن الإجابات هو حيث يحتمل وجودها: في العلوم البحتة، حيث غنى وعمق الفهم يقدمان بعض الأمل في التبصر في الأسئلة. من الحماقة إثارتها مع الانتباه إلى الاستعلامات التي تحاول بالكاد أن تكتسب موطئ قدم، وهي من الصعب أن تكون أكثر من شكل من المضايقة للحقول المعرفية الناشئة.

إن الطبيعانية، المفهومة هكذا، ينبغي ألا تكون مثيرة للجدل، مع أن مداها لم يحدد بعد؛ والبديل الثنائوي ينبغي أن يكون مثيراً للجدل إلى درجة كبيرة. أعتقد أن العكس هو الصحيح، وهي سمة

مثيرة للفضول يتسم بها التاريخ الفكري الحديث. فقد تم تقديم النظريات التفسيرية للعقل، بشكل بارز في دراسة اللغة. إذ تعرضت للتحدي بشكل خطير، ليس بسبب انتهاك قوانين الطبيعانية الميثودولوجية (التي يبدو أنها تتبعها، إلى حد بعيد)، بل على أسس أخرى: "أسس فلسفية، يزعم أنها ملتبسة، ربما خيالية، بغض النظر عن النجاح الذي حققته بمقاييس العلوم؛ أو ربما تكون ناجحة، لكنها لا تتعامل مع "العقل" و"العقلي". سأقترح أن هذه الانتقادات هي بشكل عام شكل من الثنائوية الميثودولوجية، وأن الدفاع عن ذاك الموقف (أو القبول الضمني به) كان أحد المواقف البارزة لكثير من الأعمال الأكثر إثارة للاهتمام في الفلسفة الحديثة للعقل واللغة.

بصراحة، إن المقاربة الطبيعانية لا تستبعد الطرق الأخرى لمحاولة فهم العالم. فالشخص الملتزم بها يمكنه بشكل ثابت أن يعتقد (وأنا أعتقد) أننا نتعلم عن الاهتمام البشري بكيف يفكر البشر ويشعرون ويتصرفون عن طريق قراءة الروايات أو دراسة التاريخ أو فعاليات الحياة العادية أكثر بكثير مما نتعلم من كل علم النفس الطبيعاني، وربما سيبقى ذلك على الدوام؛ بشكل مشابه، يمكن أن تقدم الفنون تقييماً للسماء لا تطمح إليه الفيزياء الفلكية. إننا نتكلم هنا عن الفهم النظري، عن نمط بعينه من الاستيعاب. في هذا الحقل، إن أي انطلاق من هذه المقاربة يحمل عبء التبرير. ربما يمكن تقديم تبريراً، لكنني لا أعرف تبريراً واحداً.

اللغة في الاستعلام الطبيعاني

لمساعدتنا في تأطير المناقشة، دعونا نتأمل للحظة إلى أين تقودنا الطبيعانية الميثودولوجية في دراسة العقل، واللغة على وجه الخصوص. إنني أفكر في شيء كالتالي، بناءً على الفهم الدارج.

للدماغ مكّون ـ لندعوه "ملكة اللغة" ـ مخصص للغة واستعمالها. فمن أجل كل فرد على حدة، تمتلك ملكة اللغة حالة بدئية، تقررها الموهبة الطبيعية البيولوجية. فإذا تركنا الحالات المرضية الخطيرة جانباً، تكون هذه الحالات متشابهة للغاية عبر النوع specie بحيث يمكننا أن نصرف الانتباه بشكل منطقي إلى الحالة البدئية لملكة اللغة، الشيء المشترك بين البشر. إن البيئة تطلق وتشكل، وإلى درجة محددة، سيرورة النمو الموجهة باطنياً internally directed التي تستقر (تقريباً) في حوالي سن البلوغ. تحاول الدراسة الجادة أن تحدد ماهي الحالات "النقية" لملكة اللغة التي توجد في ظل الشروط المثالية، استخلاصاً من طائفة من التشوهات والتشوشات في الظروف المعقدة للحياة العادية، آملة بذلك أن تحدد هوية الطبيعة الحقيقية لملكة اللغة وتمظهراتها؛ على الأقل، هكذا تملي قوانين الطبيعانية الميثودولوجية. إن وجهة النظر هذه، المتبناة بدون تعليق في الاستعلام الطبيعاني عموماً، تعتبر في غالب الأحيان مثيرة للجدل أو مغلوطة في حقل اللغة والعقل، تفسيراً للثنائوية التي رأيت أنها سائدة ومؤذية.

إن الحالة التي تحرزها ملكة اللغة تميز طائفة لا محدودة من التعابير اللغوية، حيث [تضم] واحدة منها عدداً كبيراً من الخواص

الصـوتية والبنيويـة والدلاليـة. إن حـالتي تحـدد خـواص الجملـة الأخيرة؛ إن حالتك مشابهة بما يكفي لأن يـتمكن عقلـك (أحيانـاً) من إيجاد نظير ملائم لما أقول، في الحالة التي تمتلك فيها الوسـيلة لأجل تحديـد نيـاتي (كـون التعـبير المـدرك لـيس سـوى جـزء مـن دليلك، وكون التواصل شأناً عاماً "تقريبـاً". فالحالـة المحـرزة هـي نظام حوسبي (توليدي). يمكننا أن نطلق على هذه الحالة اسم اللغة أو تفاديـاً للجـدال الاصـطلاحي العقـيم، لغـة أنـا I- Language، حيث تم اختيار "أنا" لتوحي بأن التصور داخلـي (ذاتـي) فـردي، ومتعمد (بالمعنى التقني؛ أي توصـيفاً للوظيفـة في القصـد). بالنسـبة لجونز إن امتلاك لغة الأنا، L، يساوي بالنسبة لملكة اللغة أن تكون في الحالة L. إن الإشارات الخاصة هي تمظهـرات للتعـابير اللغويـة (المحكية، المكتوبة، المؤشَّرة، أياً تكـن)؛ أمـا أفعـال الكـلام فهـي تمظهرات للتعابير اللغوية بمعنى أوسع. يمكن فهـم التعـبير بمثابـة "تعليمـات" للأنظمـة الأخـرى للعقـل /الـدماغ الـتي "تتبعهـا" في استعمال اللغة.

بناءً على الافتراضات التجريبية (الضعيفة جداً) لهذه الملاحظات يكون مفهـوم لغـة الأنـا واضـحاً؛ وأن الـدماغ هـو نظـام معقـد ذو حالات وخواص لا خلاف حوله. يبقى أن نوضـح هـذا التصـور لــ "حالة الدماغ" وأن نكتشف خواصه. تكتسـب المفـاهيم الأخـرى لــ "اللغة". مزيداً من التسويغ ـ الأمـر الـذي، كمـا أعتقـد، لـيس مـن السهل تقديمه.

يجب عدم خلط طائفة التعابير التي تولدها لغة الأنا L مـع فئـة الجمل المصاغة جيداً، [وهـي] فكـرة لم يكـن لهـا مكـان في نظريـة

اللغة، مع أن العرض اللارسمي قد حجب هذه النقطة في بعض الأحيان، مؤدياً إلى كثير من التشوش والجهد المهدور. هكذا، فإن ما تدعى التعابير الـ"منحرفة" deviant يمكن تمييزها عن طريق لغة جونز L بخاصيات معرَّفة تماماً؛ يمكن أن يتبين أنها تخصص تفسيراً محدداً لكل إشارة ممكنة، إذ تتحدد الفكرة الأخيرة بخواص الحالة البدئية.

ربما يكون النظام الحوسبي ذاته ثابتاً (بشكل افتراضي)، ترسخه الموهبة الطبيعية البيولوجية الفطرية، والاختلاف بين اللغات وكون أنماط اللغة محصورة ببعض الخيارات في القاموس؛ إنها خيارات محدودة تماماً. إن التغيرات الطفيفة في نظام معقد يمكن أن تنتج اختلافات تبدو ظاهراتية دراماتيكية؛ لهذا فإن اللغات قد تبدو مختلفة اختلافاً جذرياً إحداها عن الأخرى، مع أنها تختلف فقط بطرق هامشية إلى حدٍ ما، كما يبدو. إنه يشبه ما يتوقعه أي عالم عقلاني يرصد البشر؛ خلافاً لذلك، سيكون ثمة قليل من الأمل في تفسير الخصوصية والغنى والتعقيد في الحالة المحرزة على قاعدة المعلومات المحدودة جداً من البيئة. يتم التسليم بالافتراضات المماثلة بدون مناقشة في دراسة النمو والتطور عموماً. فالمقاربة الطبيعانية لا تقيم أي تمييز في الحالة الفريدة للسيرورات العقلية.

بقدر ما هو معروف، حتى الخاصيات الأكثر بدائية للحالات البدئية والمكتسبة لا توجد بين المتعضيات الأخرى أو، في الواقع، في العالم البيولوجي، بغض النظر عن نقاط احتكاكها مع المادة اللاعضوية. ولا توجد أكثر من صلات ضعيفة جداً بأي شيء

مكتشف في علوم الدماغ. لذلك نواجه مشاكل التوحيد الشائعة في تاريخ العلم، ولا نعرف كيف - أو ما إذا - سيتم حلها. سأضع جانباً هنا أي تفسير آخر لنتائج الاستعلام الطبيعاني. وأعود إلى مسائل الطبيعانية والثنائوية بشكل عام أكثر.

ضروب الطبيعانية

إن الطبيعانية الميثودولوجية [المنهجية] يجب عدم خلطها مع الضروب الأخرى. لتوضيح ما أعنيه وما لا أعنيه، لنتأمل عرضاً حديثاً مفيداً لمفهوم الطبيعانية من قبل بالدوين (Baldwin 1993: 171). يفتتح عرضه بقوله أن "الثيمة البارزة للفلسفة الراهنة هي ثيمة "طبعنة" naturalization الفلسفة. فقد كتب دانييل دينت Daniel Dennetl أن أحد أسعد النزعات في الفلسفة في العشرين سنة الأخيرة إنما كانت طبعنتها" (p. 171). إن كون هذه النزعة بارزة هو صحيح بلا شك، أما كونها سعيدة فيبدو لي مفتوحاً للتساؤل. بأي حال، إنها شكل مختلف عن شكل الطبيعانية الذي أدافع عنه هنا.

يجد بالدوين نوعين مختلفين من الطبيعانية يعملان في الفلسفة الراهنة، يدعوهما **الميتافيزيقي والابستمي** epistemic. الأولى هي "ما يضعها دينت في ذهنه عندما يمجد "طبعنة الفلسفة"": "فكرة الرأي القائل، كما يقول دينت، بأن التفسيرات الفلسفية لعقولنا ومعرفتنا ولغتنا يجب في النهاية أن تكون متواصلة، ومتناغمة مع

العلــوم الطبيعيــة". خلافــاً للأفلاطونيــة الفريغيــة Fregean Platonism التي ليست متواصلة مع الفرضيات التي "تقدمها العلوم الطبيعية"، كما يزعم.

تشتق الطبيعانية الابستمية المعاصرة من "الابستمولوجيا المطبعنة" لـويلارد كـواين Willard Quine الـتي تشـترط أن دراسـة المعرفـة والاعتقاد يجب دمجها ضمن فرع ضيق من علم النفس السلوكي الذي لا يتمتع بأية أهمية علمية معروفة، (وهي) نقلة غريبة في حد ذاتها، أثارت تحدياً قليلاً بشكل مـثير للاسـتغراب. إن طبعـة أوسـع، كمـا يلاحظ بالدوين، تدرس "العلاقات الطبيعية" بين الأوضاع الخارجيـة والحالات العقلية بدون قيود تعسفية. يمكن النظر إلى الطبعة الأوسـع بوصفها ثمرة لعلم النفس العقلاني للقـرن السـابع عشـر، الـذي كـان يؤمن، على حد قول لورد هربرت، بأن ثمة "مبادئ أو مفـاهيم عامـة مستزرعة في العقـل" "نجلبهـا إلى الأشـياء مـن ذواتنـا... [بوصـفها] منحة مباشرة من الطبيعة، قاعدة للغريزة الطبيعية" ـــ وهـي "مفـاهيم عامة" و"حقائق فكرية" تكون "مطبوعة على الروح عن طريق ايعازات [إملاءات] الطبيعة ذاتها" التي، رغم أن الأشياء تحفزها إلا "أنها لا تحملها" (Herbert 1624/1937: 133). يستشهد بالدوين بتوماس ريـد Thomas Reid بوصـفه مصـدراً لنـوع مـن "الابسـتمولوجيا المطبعنة"، معبراً عن وجهة نظر مشابهة لكنها "متحررة مـن التـزام هيوم Hume [أو أي واحد سابق له] بنظريـة الأفكـار" (Baldwin 1993: 181)، أي، متحررة مـن المحـاولات السـابقة لايضـاح مـا يدعوها ريد "الأحكام الأصلية والطبيعيـة" الـتي "منحتهـا الطبيعـة للفهـم البشـري" كـ"جـزء مـن تكويننـا" والـتي تشـكل "الفطـرة

common sense للجنس البشري" (Reid 1785: 600-1) بما أنه لا يوجد شيء يحل محل الخطوط العامة للنظرية التي يتم التخلي عنها، فمن الصعب أن نفهم كيف تسير هذه "الطبعنة" خارج نطاق الطبعات الأقدم. بالمقابل، فإن أعمال الديكارتيين وأفلاطونيي كامبردج هي أكثر تقدماً بشكل ملحوظ في جوانب عديدة، برأيي. ففي وقت لاحق، افترض تشارلز ساندرز بيرس Charles Sanders pierce (1975: 253) أن الفكر البشري يهتدي بمبدأ "القياس الاحتمالي" الذي "يقيد الفرضيّات المسلم بها" والذي يكون فطرياً فينا، مزوداً العقل البشري بـ "تكيف طبيعي مع تصور النظريات الصحيحة من نوع ما" (p. 238) نتيجة الاصطفاء الطبيعي، كما اقترح (بشيء من المعقولية). ثمة تفرعات أخرى عديدة، بما فيها "الابستمولوجيا التطورية" الحديثة (من أجل بعض المناقشة، انظر تشومسكي 1966: الفصل الرابع؛ 1968/ 72، 1975: الفصل الأول).

إن مشروع الطبيعانية الابستمية لا خلاف حوله، بغض النظر عن المصطلح المضلل بطريقة حديثة على وجه الخصوص. كانت الطبيعانية الابستمية للقرنين السابع عشر والثامن عشر علماً، محاولة لبناء نظرية تجريبية للعقل؛ فقد قارن هيوم مشروعه بمشروع اسحق نيوتن. إن الطبيعانية الابستمية، بالمقابل، تُقدم كـ "موقف فلسفي"، شيء مختلف ظاهرياً. لا يمكننا ببساطة أن نرد إلى عهود أبكر قراءة التفريق بين العلم والفلسفة الذي تطور لاحقاً. لن نستعمل مصطلح "الطبيعانية البصرية" للإحالة إلى الدراسة التجريبية لنمو الجهاز البصري وقيامه بوظائفه (وكذلك موضوعاً

لعلم النفس العقلاني الأقدم)، ما يقتضي ضمناً أنه كان ثمة بديل متماسك للحقل نفسه من المشاكل. يبدو لي أن مصطلح "طبيعانية ابستمية" مضلل إلى حد كبير بالطريقة نفسها، إن لم نتكلم عن الطبعات الخاصة المشتقة من "الابستمولوجيا المطبعنة" لكواين.

بالنسبة للطبيعاني الميثودولوجي، فإن الطبيعانية الإبستمية التقليدية هي علم معياري normal (انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب)، مهما كان تقييمنا للتطبيقات الخاصة. فالاستعلام في الحالة البدئية لملكة اللغة، على سبيل المثال، هو محاولة لاكتشاف "المبادئ والأفكار العامة المستزرعة في العقل" التي تكون "منحة مباشرة من الطبيعة"، أي، موهبتنا الطبيعية البيولوجية. كما في أماكن أخرى، يبدأ الاستعلام عن طريق الصيغ البديهية. لنأخذ العبارة العامية: جونز يعرف (يتكلم، يفهم، يمتلك) الانكليزية "Jones knows (speaks, understands, has) English" التي تركز الانتباه على أن حالة العالم، بما في ذلك حالة دماغ جونز، حالة معرفية، تشكل الأساس لمعرفة جونز بأشياء خاصة كثيرة: معرفته كيف يفسر الإشارات اللغوية، أو أن بعض التعابير تعني ما تعنيه، وهلم جرا. يقود الاستعلام في هذا الأمر إلى فرضيات تجريبية حول الموهبة الطبيعية البيولوجية، والتفاعلات مع البيئة، وطبيعة الحالات المحرَزَة، وتفاعلاتها مع أنظمة العقل الأخرى (النطقي، الإدراكي، المفاهيمي، القصدي، الخ). تدعى النظريات الناتجة عن نمو اللغة في بعض الأحيان نظريات "جهاز اكتساب اللغة" (LAD) Language Acquisition Device، التي تحدث انتقالاً من الحالة البدئية لملكة اللغة إلى حالات لاحقة، محوّلة الخبرة إلى الحالة

المحرزة؛ تدعى نظرية الحالة البدئية في بعض الأحيان "النحو الكلي" (UG) Universal Grammar الذي يكيّف مفهوماً تقليدياً مع سياق مختلف نوعاً ما. (سأتجاهل فيما يلي الفروق بين LAD وUG) بمصطلحاتي، هذه دراسة للعقل؛ لكن الآخرين يخالفونني الرأي، لأسباب سأعود إليها.

تبدو الطبيعانية الميتافيزيقية أكثر أشكالية بكثير من الطبيعانية الابستمية. أحد الأسئلة التي يثيرها بالدوين هو "ما هي العلوم "الطبيعية""، الجواب الممكن هو: كل ما يتم إنجازه في متابعة الاستعلام الطبيعاني. لكن هذا لا يبدو هو المقصود؛ دعونا نضع السؤال جانباً للحظة. فالمشكلة المرتبطة بالموضوع هي شرح ماهي "التفسيرات الفلسفية لعقولنا، معرفتنا، لغتنا" وكيف تختلف عن "التفسيرات العلمية"، خصوصاً إذا كانت "متواصلة مع العلوم الطبيعية" (Baldwin 1993: 172) هل يعني المذهب أن نظرية العقل ينبغي أن تكون "متواصلة" و"متناغمة" مع فيزياء اليوم؟ هذا غير مقبول بالتأكيد؛ إن فيزياء الغد قد لا تحقق هذا الشرط. مع الصورة المثالية البيرسية (نسبة إلى بيرس Peirce) لما سيكون عليه العلم "في الحد الأقصى؟" ليس هذا مفيداً جداً، حتى لو كان ذا معنى. ربما ستدمج فيزياء الغد طبعة ما من تفسيرات اليوم (سواء سميت "فلسفية" أم لا)، حتى لو لم تكن الأخيرة متواصلة مع فيزياء اليوم.

إذا كان الأمر كذلك، فلن يكون هذا جديداً في تاريخ العلوم. فالهدف الدائم هو توحيد مختلف النظريات حول العالم، لكن السيرورة اتخذت مساراً مختلفاً جداً. ليس الاختزال الواسع النطاق

هو النمط المعتاد؛ إذ ينبغي ألا يُضلل المرء بهذه الأمثلة الدراماتيكية كاختزال كثيراً من البيولوجيا إلى الكيمياء الحيوية في منتصف القرن العشرين. في كثير من الأحيان، كان يتعين مراجعة العلم الأكثر "أساسية"، بشكل جذري أحياناً، لكي يتم التوحيد. افترض أن فيلسوفاً من القرن التاسع عشر ألح على أن "التفسيرات الكيميائية للجزيئات والتفاعلات، وخواص العناصر، وحالات المادة، الخ، يجب أن تكون في النهاية متواصلة مع، ومتناغمة مع، العلوم الطبيعية" ما يعني الفيزياء كما كانت تفهم آنئذٍ. [لكنها] لم تكن كذلك، لأن فيزياء اليوم كانت غير وافية. في الثلاثينات 1930، كانت الفيزياء قد تغيرت تغيراً جذرياً، والتفسيرات (التي عُدلت هي نفسها) كانت "متواصلة" و"متناغمة" مع الفيزياء الكوانتية الجديدة. افترض أن عالماً من القرن السابع عشر قد فرض المطلب نفسه على الميكانيك السماوي Celestial mechanics بالإحالة إلى "الفلسفة الميكانيكية" السائدة، ورفض نظرية نيوتن الغامضة (كما فعل لايبنيتز وهويغنز) لأنها لم تكن متوافقة مع "قوانين الميكانيك" (see Dijksterhuis 1986: 479f) لقد تعين أن يكون رد الفعل، مع أنه مفهوم، (وكان) مغلوطاً بالتأكيد: كان على الفيزياء الأساسية أن تتغير تغيراً جذرياً لكي يسير التوحيد.

ليست لدينا أية فكرة إلى أين ستؤدي هذه السيرورة، أو حتى ما هو المدى الذي يمكن للذكاء البشري أن يبلغه في إحراز مثل هذا الفهم للعالم الطبيعي، إننا، رغم كل شيء، متعضيات بيولوجية، ولسنا ملائكة. إن الملاحظة الأخيرة، التي لا خلاف حولها مرة أخرى، توحي بطريقة أخرى للإجابة على سؤال ما هي "العلوم

الطبيعية". من بين مظاهر العقل هناك المظاهر التي تدخل في الاستعلام الطبيعاني؛ دعونا نسميها "ملكة تشكيل العلم" science-forming faculty (SFF). فالبشر، المزودون بملكة تشكيل العلم، يواجهون "أوضاعاً إشكالية" ـ مكونة من بعض الحالات المعرفية (حالات الاعتقاد، الفهم، أو سوء الفهم)، الأسئلة التي تطرح، وهلم جرا (أساساً ما يدعوه سيلفيان برومبرغر Sylvian Bromberger المعضلة p "p- predicament"؛ انظر مقالاته المجمعّة في Bromberger 1992b). في أغلب الأحيان لا تؤدي ملكة تشكيل اللغة إلا إلى طريق مسدود. في بعض الأحيان تقدم فكرة حول كيف يمكن الإجابة على الأسئلة أو إعادة صياغتها، أو تعديل الحالة المعرفية، أفكاراً يمكن من ثم تقييمها بطرق توفرها SFF (الاختبار التجريبي، التساوق مع أقسام العلم الأخرى، محكات قابلية الفهم والفصاحة... الخ). ومثل الأنظمة البيولوجية الأخرى، يكون لملكة تشكيل اللغة مداها الممكن وحدودها؛ إذ يمكننا أن نفرق بين المشاكل التي تقع من حيث المبدأ ضمن مجالها، والألغاز mysteries التي لا تقع ضمنه. هذا التمييز مقصور على البشر؛ فالجرذان وسكان المريخ لهم مشاكل مختلفة وألغاز مختلفة، وفي حالة الجرذان نعرف قدراً لا بأس به عنها. والتمييز أيضاً لا داعي لأن يكون صارماً، مع أننا نتوقع وجوده بالتأكيد، عند أي متعض وأية ملكة معرفية. إن العلوم الطبيعية الناجحة، إذاً، تقع ضمن تقاطع مدى ملكة تشكيل العلم SFF وطبيعة العالم؛ إنها تعالج المظاهر (المتفرقة والمحدودة) للعالم التي يمكننا فهمها واستيعابها عن طريق الاستعلام الطبيعاني، من حيث المبدأ. فالتقاطع هو نتاج

تصادفي للطبيعة البشرية، على العكس من التأملات المطروحة منذ بيرس، لا يوجد شيء في نظرية التطور، أو أي مصدر آخر قابل للفهم، يوحي بأنه ينبغي أن يتضمن إجابات على الأسئلة الخطيرة التي نطرحها، أو حتى أن علينا أن نكون قادرين على صياغته الأسئلة بشكل ملائم في مجالات محيرة.

من غير المعروف، على وجه الخصوص، ما إذا كانت مظاهر نظرية العقل ـ مثل الأسئلة التي تدور حول الوعي ـ هي مشاكل أم ألغاز بالنسبة للبشر، مع أننا يمكن من حيث المبدأ أن نكتشف الجواب، ويمكننا حتى أن نكتشف أنها ألغاز؛ إذ لا يوجد تناقض في الاعتقاد بأن ملكة تشكيل العلم SFF يمكن أن تسمح لنا بتعلم شيء ما حول حدودها (انظر تشومسكي 1968 الفصل الثالث؛ 1975: الفصل الرابع. حول الحدود الممكنة والارتباط بالاستعلام الفلسفي، انظر بشكل خاص (MC Ginn 1991, 1993).

إن سؤال "ما هي العلوم الطبيعية"، إذاً، يمكن الإجابة عليه بشكل أكثر تحديداً، بالسؤال عما أنجزته؛ أو بشكل عام أكثر، بالاستعلام في ملكة بعينها من ملكات العقل (البشري)، بخواصها النوعية. مع ذلك، ثمة شيء ما آخر يبدو أنه هو المطلوب؛ إنه لا يزال غير واضح.

من المفيد أن ننظر بدقة أكثر إلى أصول العلم الحديث. باختصار إن التقدم في القرن السابع عشر قد أرسى القاعدة لأجل "الفلسفة الميكانيكية"، مزيلاً التخيلات حول أشكال الأجسام الطائرة عبر الهواء والتي تنغرس في الأدمغة، والقوى والقدرات الغامضة، "الصفات الخفية" للتعاطف والكراهية وهلم جرا، التي سمحت

بسخافات مثل التأثير عن بعد عبر الفضاء. لاحظ الديكارتيون أن بعض ظواهر الطبيعة (من أبرزها الاستعمال المعياري للغة) يبدو أنه لا يقع ضمن الفلسفة المكيانيكية. فافترضوا مبدأ جديداً لتعليلها. بالنظر إلى رؤيتهم الميتافيزيقية metaphysics، فقد افترضوا جوهراً ثانياً (res cogitans، العقل)، لأسباب أخرى أيضاً. إذا وضعنا التطبيق جانباً، فإن هذه النقلة لم تكن خالية من المعقولية، بل إنها في الواقع، لا تختلف عن تعليل نيوتن عندما اكتشف نواقص الفلسفة الميكانيكية. أدى إفتراض شيء يقع وراء الفلسفة الميكانيكية إلى نشوء مهمتين: تطوير النظرية وحل مشكلة التوحيد؛ في الحالة الديكارتية، "مشكلة العقل ـ الجسد". كل هذا علم معياري؛ إنه خاطئ، لكن هذا هو المعيار أيضاً.

عندما بدا أن الفلسفة الميكانيكية منتصرة، قام نيوتن بدحضها، إذ أعاد إدخال نوعاً من علة وصفة "خفيتين"، ما أثار فزع العلماء الرواد لذاك العصر، وفزع نيوتن نفسه. إن نظرية العقل الديكارتية (كما كانت قائمة) لم تتأثر باكتشافاته، لكن نظرية الجسد ثبت أنها غير قابلة للدفاع عنها. للتعبير عن ذلك بشكل مختلف، أزال نيوتن مشكلة "الشبح في الآلة" عن طريق تخليص الآلة من الأرواح؛ فلم يتأثر الشبح. لقد تركنا أيضاً نستنتج أن الحدس البديهي ـ أي "الفيزياء الشعبية" Folk pysics ــ التي كانت الأساس للفلسفة الميكانيكية. لا يُتوقع منه أن ينجو من التحول إلى الاستعلام العقلاني في طبيعة الأشياء. لقد اختفت مشكلة العقل ـ الجسد، ولا يمكن بعثها، إذا كان ذلك ممكناً بالمرة، إلا بإنتاج مفهوم جديد للجسد (مادي، فيزيائي، الخ) ليحل محل المفهوم الذي تم التخلي

عنه؛ وهو مشروع ربما لا يكون معقولاً كما يبدو. في غياب ذلك، فإن عبارة العالم "المادي" ("الفيزيائي"، الخ). تقدم ببساطة طريقة متعددة التأويلات للإحالة إلى ما نفهمه فهماً تقريبياً ونأمل في توحيده بطريقة ما.

إن الاستنتاج الطبيعي، الذي توصل إليه لامتري La Mettrie بعدئذٍ بوقت قصير، وفيما بعد جوزف بريستليJoseph priestly، هو أن التفكير والفعل البشريين هما خاصيتان للمادة المنظمة مثل الجذب والنبذ، والشحنة الكهربائية، وهلم جرا. (La mettrie 1747, see also cohen 1941; Yolton 1983; wellman 1992) إننا نسعى، بتبني هذا الرأي، إلى تحديد خواص هذه الأشياء في العالم وتعليل الظاهرات الفعلية في ضوء هذه الخواص، لنظهر كيف تنشأ في الفرد والنوع، ولنربط هذه الاستنتاجات بأي شيء آخر نعرفه حول المادة المنظمة (الطبعة الجديدة من مشكلة التوحيد). أما فيما يتعلق بالمشكلة الأخيرة فلا يوجد تقدم للحديث عنه. ولا يوجد تقدم حقيقي في تفسير خواص الاستعمال المعياري للغة، والظاهرات الأخرى. التي دفعت الديكارتيين إلى افتراض وجود مادة ثانية (مع أن حدود الإوالية لم تعد موضوعاً مهماً). فقد يتبين أنها ألغاز بالنسبة للبشر. لقد حصل تقدم في فهم إواليات العقل من وجهة النظر الأكثر تجريداً للنحو الكلي UG، وجهاز اكتساب اللغة LAD، الحالات المحرزَة، وتفاعلاتها مع الأنظمة المعرفية الأخرى؛ وفي دراسة بعض هذه الأنظمة (كالتطور المفاهيمي، على سبيل المثال). بناءً على الافتراضات الطبيعانية فإن

هذه هي أجزاء من العلوم الطبيعية ـ سواءٌ كان ذلك جيداً أو سيئاً، صحيحاً أم خطأً.

تسعى العلوم الطبيعية لفهم العالم في مظاهره الكيميائية، الكهربائية، العقلية، الخ. فهل يشمل العالم القوى النيوتنية الخفية المؤثرة على الأجسام المفصولة بفضاء خال [خلاء]، أو حقول كهربائية ومغناطيسية تكون، رغم كونها موضوعات رياضية، "مادة" stuff فيزيائية واقعية بسبب الطريقة التي تدفع بها بعضها بعضاً عبر الفضاء" (Penrose 1989: 185- 6). أم هل إن الفضاء المنحني الذي "كان يبدو أنه يجرف كل البنية المحددة عن أي شيء يمكن أن ندعوه صلابة solidity" أو ربما، "في القاع السحيق لا شيء سوى شذرات من المعلومات (wheeler 1994: 294f). هل يشمل مفاهيم هربرت الشائعة ومبادئه كجزء من "الغريزة الطبيعية"، والأفكار والخواطر والمفاهيم والمبادئ الحوسبية والحالات الهيومية (نسبة إلى هيوم) وهلم جرا؟ إن الاستعلام الطبيعاني يبحث عن إجابات على هذه الأسئلة، بشكل منتقد للذات قدر المستطاع، متملصاً من الافتراضات التعسفية عندما يكون بالإمكان كشفها، رغم إدراكه أن القيود البيولوجية على الفكر البشري لا يمكن قهرها، في حين أن القيود الثقافية قد لا يكون من السهل حلها.

دعونا نعود إلى الزعم القائل بأن نظرية العقل، TM، التي تتقدم بمفاهيم مثل "الفهم الدقيق للمعاني الفريغية" grasping Fregean senses ليست متناغمة أو متماشية مع الفرضيات "المقدمة من قبل العلوم الطبيعية". إذا كان المرء يقصد العلوم الطبيعية في الوقت

الحاضر، مستبعداً TM، عندئذٍ تكون الملاحظة صحيحة مع أنها غير مثيرة للاهتمام. فالأسئلة الصحيحة يتعين أن تكون لها علاقة بحالة TM على أسس طبيعانية، وبمشكلة التوحيد (إذا كان لـ TM بعض المصداقية). إذا كان الزعم يعني أن مشكلة التوحيد تقع خارج نطاق القدرة البشرية، وهو قد يكون صحيحاً، لكنه لا يؤثر على المكانة العلمية لـ TM. لا حاجة بنا لأن ندرس التأملات حول العلم "الحقيقي"، ربما خارج متناول الذكاء البشري. ما الذي تتطلبه الطبيعانية الميتافيزيقية غير ذلك؟ هذا غير واضح.

هل سنفهم الطبيعانية الميتافيزيقية على أنها المطالبة بوحدة الطبيعة؟ إذا كانت كذلك، فيمكن اعتبارها بمثابة فكرة هادية، وليست عقيدة جامدة. إن "تسعين بالمئة من مادة الكون"، كما يقول لنا الفيزيائيون، "هو الآن ما يدعى بالمادة العاتمة dark matter ـ عاتمة لأننا لا نراها، عاتمة لأننا لا نعرف ما هي"، في الواقع "ليست لدينا أوهى فكرة عما يتكون منه التسعون بالمئة من العالم" (Weisskopf 1989) افترض أن المادة العاتمة تبين أنها مختلفة اختلافاً حاسماً عن الـ 10 بالمئة من العالم الذي نمتلك حوله بعض الأفكار. هذه الإمكانية لا يمكن تجاهلها من حيث المبدأ؛ إذ ثمة أشياء أكثر غرابة تم قبولها في العالم الحديث. ولا يمكن استبعادها في حالة نظريات العقل. مع أنه لا يوجد مبرر للتفكير بالفرضية، فإن طبعة ما من الديكارتية (ذات المفهوم الأكثر غنى للجسد) يمكن من حيث المبدأ أن يتبين أنها صحيحة، منسجمة مع الموقف الطبيعاني.

المادية ونقادها

ستكون الطبيعانية الميتافيزيقية موقفاً متماسكاً إذا أخبرنا المدافعون عنها ما يُعَدُّ "فيزيائياً" أو "مادياً". إلى أن يتم ذلك، لا يمكننا أن نفهم هذا المذهب، ناهيك عن المفاهيم المشتقة مثل "المادية الإزالوية" eliminative materialism وما شابه ذلك. من الناحية العملية، تبدو طبعات هذه الأخيرة أكثر قليلاً من تلميحات إلى أين تكمن الإجابات، وهي، بحد ذاتها، ليس لها أهمية خاصة.

يبدو أن نقاد هذه المذاهب يواجهون بالمشكلة نفسها: ما الذي ينتقدونه؟ أبرز هؤلاء النقاد هو توماس ناغل، الذي يقدم وصفاً شفافاً للآراء السائدة ونقده لها، الموجَّه بشكل خاص إلى المسائل التي تهمني هنا (Nagel, 1993). أعتقد أن القضايا مصاغة بشكل مغلوط، وإن تكن بطريقة مثيرة للاهتمام، والاستنتاجات مشكوك فيها لهذا السبب وغيره من الأسباب، بما في ذلك الاستنتاجات عن LAD ونظرية العقل، التي يختتم بها.

يعلن ناغل أن "مشكلة العقل ـ الجسد" لم تطرح في شكلها الحديث إلا في القرن السابع عشر، مع ظهور التصور العلمي للعالم المادي الذي نتثقف عليه جميعاً الآن" (97 :1993) (التصور النيوتني). لكن ذلك جعل القصة معكوسة. إن مشكلة العقل ـ الجسد قد فُهمت بلغة الفلسفة الميكانيكية التي قوَّضها نيوتن، ولم تُطرح بشكل متسق منذئذٍ. إذا كان كذلك، فلا يمكن التقدم بلغة

ناغل بدون التفسير الجديد لطبيعة الجسد (المادية، الفيزيائية، الخ) والعقل.

يقود هذا المنظور للقضايا وأصولها إلى تفسير مضلل للمساهمات الراهنة أيضاً. هكذا يلخص ناغل الطروحة الراديكالية "لجون سيرل John Searle [القائلة] إن "الوعي هو خاصية فيزيائية للدماغ" "غير قابلة للاختزال إلى أية خاصية فيزيائية أخرى، [وهو] موقف، إذا تم شرحه بشكل صحيح (وهو ما يعتبره ناغل أمراً غير ممكن) "سيكون إضافة كبيرة إلى الأجوبة الممكنة على مشكلة العقل ـ الجسد" (103 : 1993). هذه الطروحة هي الصميم الميتافيزيقي لاقتراح سيرل: فعلى حد قوله إن "الوعي هو خاصية ذات مستوى أكثر رقياً أو خاصية ناشئة للدماغ": إنه "من المرتبة البيولوجية الطبيعية إلى حد كبير مثل التركيب الضوئي أو الهضم، أو الانقسام الفتيلي [الخيطي]".

هذه الطروحة، سواء كانت صحيحة أم لا، ليست راديكالية؛ بالأحرى إنها ـ أو كانت ـ رد الفعل الطبيعي على دحض نيوتن للفلسفة الميكانيكية وبالتالي مشكلة العقل ـ الجسد، على الأقل في شكلها الديكارتي. كما نوهنا، فإن الرأي القائل بأن الفكر والفعل (بما في ذلك الوعي) هما خاصيتان للمادة المنظمة، غير قابلتين للاختزال إلى خاصيات أخرى بأكثر من قابلية الخاصيات الكهرطيسية للاختزال إلى علم الميكانيك، هذا الرأي تقدم به علماء القرن الثامن عشر ـ ليس، مع ذلك، كجواب ممكن على مشكلة العقل ـ الجسد التي لم، ولا، تمتلك صياغة متسقة. أما فيما يتعلق

بالأهمية الميتافيزيقية للطروحة، فإنها بنفس أهمية العلاقة بين علم الميكانيك الكلاسيكي والنظرية الكهرطيسية.

يدعي ناغل فهماً مسبقاً للعقل والجسد، العقلي الجسدي، ويقدم بعض الإشارة إلى ما يقصده. إنه، إذ يعبر عن رأي متعارف عليه، يعتبر أن "جوهر العقل" هو الوعي: "كل الظواهر العقلية هي [ظواهر] واعية إما فعلياً أو احتمالياً" (97: 1993). هذه الصيغة، سواء كانت مقصودة كافتراض اصطلاحي أم كافتراض أساسي، تتطلب شرحاً لفكرة "الوعي احتمالياً" potentially، إن ناغل يتبنى اقتراح سيرل (1992) حول الموضوع، لكن يبدو أن الفرضية تواجه مصاعب خطيرة.

لنفترض أننا اعتبرنا الوعي سمة مميزة للعقلي. فماذا عن الجسد؟ وهو ما يماهيه ناغل بما هو "قابل للوصف عن طريق العلم الفيزيائي" (مستبعداً الوعي، ليس واضحاً ما إذا كان ذلك افتراضاً أم اكتشافاً). من هنا فهو يفهم المادية (التي يقول إذنها مقبولة من قبل معظم الفلاسفة المعاصرين) بأنها الاعتقاد بأن "كل ما هو موجود وكل ما يحدث في العالم يجب أن يكون قابلاً للوصف عن طريق العلم الفيزيائي" - [وهو] رأي يعتبره متماسكاً لكنه زائف. إن المرء، بتبني هذا الرأي، إنما يجرب نوعاً من الاختزال للعقلي إلى الجسدي - حيث الجسدي، بالتعريف، هو الذي يمكن وصفه بلغة لا عقلية" (أي، لغة لا تشمل الوعي الاحتمالي). إن ما هو مطلوب لإكمال صورة العالم المادية هو مخطط من الشكل. الظاهرات العقلية - الأفكار، المشاعر، الأحاسيس، الرغبات، الإدراكات الحسية، الخ - ليست سوى..." حيث يُملأ الفراغ بوصف يكون إما فيزيائياً

صريحاً أو يستعمل مصطلحات لا يمكن أن تطبق إلا على ما هو فيزيائي تماماً" أو ربما يقدم "شروطاً للتأكد assertability على "أسس قابلة للرصد خارجياً".

إن مختلف المحاولات للقيام بهذه المهمة المستحيلة ظاهرياً، يتابع ناغل، "والحجج المقدمة لإظهار فشلها، إنما تشكل تاريخ فلسفة العقل أثناء الخمسين سنة المنصرمة". ما هو متروك بدون حل، وهو غير قابل للحل بشكل مفترض، هي مشكلة العقل - الجسد، التي هي مشكلة "إيجاد مكان في العالم لعقولنا نفسها، بخبراتها الإدراكية، وأفكارها، وخواطرها ورغباتها، وصورتها للنظرية العلمية، وغيرها الكثير مما لا يوصف عن طريق الفيزياء".

إن الاعتقاد بأن الأسئلة متماسكة وهامة إنما هو اعتقاد مشترك على نطاق واسع. لهذا، في عرض تثقيفي لقرن من فلسفة العقل، يناقش تايلر برغ Tyler Burg ظهور "الطبيعانية" ("المادية"، "الجسدانية" في الستينيات بوصفها "إحدى الأورثوذوكسيات [الأصوليات] القليلة في الفلسفة الأميركية" (32 :1992). هذا هو الرأي [القائل] بأنه لا توجد خاصيات، الخ) عقلية زيادة على الكيانات الجسدية العادية، القابلة للتعريف في العلوم الفيزيائية، أو الكيانات التي تعِدها الفطرة فيزيائية". إنه يصف "الإزالوية" eliminationism، [بوصفها] جانباً كبيراً من الجهد المبذول "لجعل الفلسفة علمية"، كما "الرأي القائل بأن الحديث المادي والكيانات العقلية سيفقدان في نهاية المطاف مكانتهما في مساعينا لوصف وتفسير العالم" (33 :Burge 1992)، ربما تكون طروحة

خاطئة، لكنها هامة بالتأكيد. مع ذلك فإن هذا ليس واضحاً بما يكفي.

لندرس مفهومي ناغل: "قابل للوصف عن طريق العلم الفيزيائي" و"يوصف عن طريق الفيزياء". ماذا يعنيان؟ يقدم ناغل مثال السيولة liquidity، مع علاقتها "الشفافة" بسلوك الجزيئات. منذ قرن كانت الجزيئات تعتبر من قبل الفيزيائيين بمثابة تخيلات مريحة، وحالات للمادة، كما عُرف لاحقاً، ليست "قابلة للوصف" عن طريق الفيزياء القائمة آنذاك. صحيح، أن فرعاً من العلم لم يكن آنذاك متحداً مع الفيزياء وكان بمقدوره أن يقدم كثيراً من التنوير استناداً إلى بناء النظرية، إلى جانب أشياء كثيرة؛ لكن الشيء نفسه يصح اليوم على بعض حقل العقلي (بمفهومي). فلماذا هذه التفسيرات أقل "فيزيائية" مما كانت الكيمياء منذ قرن؟ أو أقل فيزيائية من قوى نيوتن الخفية، صعوداً إلى الطروحات النظرية الملغزة والمضادة للحدس اليوم؟ ربما سيتم ذات يوم توحيد التفسيرات الطبيعانية للظواهر العقلية مع الفيزياء، التي قد يتعين مراجعتها مرة أخرى، وفي هذه الحالة ستصبح العلاقات أيضاً "شفافة".

فيما يتعلق بطروحة الإزالوية في صياغة برغ Burge (النمطية مرة أخرى)، فيمكن أن نسأل لماذا لا تتمتع بأية أهمية. استبدل "عقلي" بـ "جسدي" في الطروحة. مما لا خلاف حوله، أن "الحديث الجسداني والكيانات الجسدية" فقدت مكانتها في مساعينا لوصف وتفسير العالم" منذ زمن طويل، إذا كنا نقصد بـ "الجسداني" و"الجسدي" المفهومين العامين اللذين يدخلان خطابنا المشترك وتفكيرنا. لماذا يتعين علينا أن نتوقع أي شيء مختلف من

"الحديث العقلاني والكيانات العقلية"؟ افترض أنني أقول "الصخرة سقطت من السماء، تدحرجت أسفل التلة، وضربت الأرض". لا يمكن ترجمة البيان إلى نظريات ثم تطويرها لوصف وتفسير العالم، ولا توجد أية علاقة أضعف ذات أهمية؛ فالمصطلحات تنتمي إلى أكوان فكرية مختلفة. لكن لا أحد يعتبر هذا أنه يؤلف مشكلة جسد - جسد. ولا العلوم الطبيعية تطمح إلى تمييز هذا الوصف عن بيان أن الصخرة سقطت من صدع قد يكون الحدث نفسه منظوراً إليه من منظور مختلف (مع كون التلة غير متميزة عن الأرض المحيطة بها). لا يتوقع الطبيعانيون الميثودولوجيون أن يجدوا نظائر لمثل هذه الأحكام العامة ضمن النظريات التفسيرية التي يستنبطونها بشكل خجول، ولا [يميزونها] عن "جون أخذ مظلته لأنه ظن أن السماء على وشك أن تمطر" أو "جون يتألم John is in pain" أو "جون يتكلم الانكليزية" مع أنهم يأملون، في كل الحالات، أن الاستعلام الطبيعاني قد يثمر فهماً وتبصراً في حقول مفتوحة على الاستعلام عن طريق خطاب يعكس منظورات فطرية.

ثمة أسئلة مشابهة تبرز على نطاق واسع تماماً. لنأخذ "شذوذية العقلي" anomalism لدونالد ديفيدسون، الرأي القائل بأنه، في حين توجد علاقات سببية بين الأحداث العقلية والجسدية، لا توجد أية قوانين سيكولوجية تربط بينها في مخطط تفسيري ملائم. على حد تعبير ديفيدسون، لا ينبغي على المرء أن يقارن البديهيات حول ما سيفعله الناس عموماً في ظل شروط معينة "بقانون يحدد كم ستكون سرعة الجسم الذي سيسقط في الفراغ" لأنه "في الحالة الأخيرة، وليس في الأولى، يمكننا أن نتنبأ مسبقاً بما إذا كان الشرط

يتحقق، ونحن نعرف ما هو العذر الذي نقدمه إذا لم يتحقق" (23: Davidson 1980) [وهو] موقف من مشكلة العقل ـ الجسد يصفه برغ بأنه "عميق لكنه مثير للجدل" مع أنه موضح بشكل غير كافٍ. (من أجل مناقشة متعاطفة، انظر Envine). لا تبدو الحجة دامغة كلياً. للسبب نفسه ينبغي علينا أيضاً ألا نقارن البديهيات حول الكرات المتدحرجة أسفل التلة أو عاصفة تتكون في الغرب بقانون الأجسام الساقطة، لكننا لسنا معنيين بانعدام "القوانين الجسدية ـ الفيزيائية المتعلقة بالخطاب العادي حول الأحداث في العالم والنظريات التفسيرية للطبيعة. يجادل بأن علم النفس الشعبي folk psychology مختلف عن "الميكانيك الشعبي" أو "الكيمياء الشعبية" بسبب صفته الافتراضية [القبلية] a priori وعلاقته الحميمية بمفاهيم العقلانية والأسباب، والمقاصد، ومنظور الشخص الأول وهلم جرا. إن الحقول مختلفة بالتأكيد، لكن من غير الواضح أنها تختلف في "الشذوذ" anomalism بالمعنى الذي تطرحه المناقشة. بقدر ما يمكن للاستعلام العلمي أن يقرر قناعة المرء بأن الشمس تغرب أو أن بعض الأشياء غير قابلة للاختراق (في حين يتخلى عن هذه القناعات في نواحي الحياة الأخرى)، يبدو من حيث المبدأ أنه توجد تأثيرات مماثلة على قناعات المرء حول طبيعة المعتقدات (لنقل، فيما يتعلق بدور العقلانية). إن كثيراً مما يؤمن به الناس حول المعتقدات هو استدلالي aposteriori (تأمل السجالات حول الكليانية holism والسليقية innateness) ولدينا معتقدات افتراضية حول الكرات المتدحرجة أسفل التلال وتشكّل العواصف. يبدو أن الميكانيك الشعبي (الخ) ليس أكثر خضوعاً من علم النفس

الشـعبي لصـياغة قـوانين جسـرية bridge laws. كمـا يجـادل ديفيدسون، فإن علامات الحدث العقلي ليست علامات مـن أنـواع الحدث الجسدي (بموجب الوصف العام). يصح الشيء نفسه علـى علامات الحدث الجسدي والأشياء الجسدية كمـا تفسـرها الفطـرة؛ بمحـض الصـدفة الخارقـة فقـط فـإن اللغـة البشـرية سـوف تمتلـك مصطلحات النوع الطبيعي إذا كانت الأنواع الطبيعية هي أنواع مـن الطبيعة[2].

لتغيير المصطلحات قليلاً، دعونا نتكلم عن "الأحـداث الموصـوفة بشكل عقلاني" (m- events) و"الأحداث الموصوفة بشكل جسـداني" (p-events)، بالرجوع إلى التعليلات accounts باللغـة العاديـة، مـــع الاحتفـــاظ بالمصـــطلحات mental (عقلـــي)، chemical (كيميائي) optical (بصري) الخ لأجل أحداث يفترضها الاسـتعلام الطبيعاني في المجالات العقلية، الكيميائية، البصرية،... الخ مع كون هذه كلها "أحداثاً جسدية". [وهو] مصطلح زائد عـن الحاجـة لأجل الأحداث؛ الشيء نفسه بالنسبة للأشياء، وهلم جـرا. عندئـذٍ نتوقع أن نجد علاقات سببية بين الأحداث الموصوفة بشكل عقلاني والأحداث الجسـدية، لكـن لا توجـد قـوانين تربطهـا ضـمن العلـم التفسيري؛ والشـيء نفسـه يصـح علـى الأحـداث الموصـوفة بشـكل جســداني. إن المعتقــدات، والرغبــات، والإدراكــات الحســية، والصخور المتدحرجة نحو الأرض، والعواصف المتشكلة، الخ ليسـت خاضعة للقوانين العلمية، ولا توجد قوانين جسرية تربطها بالعلوم. مما لا خلاف حوله، أن العلم لا يحاول الإحاطة بمضمون الخطـاب العادي، ناهيك عن الأفعال الأكثر إبداعية للمخيلة. بالاقتباس مـن

ناغل، لا يمكننا أن "نجد مكاناً في عالم" الفيزياء لأجل الظواهر الجسدية، كما نصفها في الحديث الجسداني (الظواهر ـ p)، لذلك ليس مفاجئاً أن الشيء نفسه يصح على الظواهر العقلية ـ m كما يسلط عليها الضوء في الحديث العقلي.

ربما يتعين على المرء أن يؤكد مرة أخرى أن مدى الاستعلام الطبيعاني قد يكون محدوداً تماماً، لا يقترب من مسائل القلق الإنساني الجدي، مهما برهن اهتمامه الفكري أنه بعيد المدى. هذا بالتأكيد هو الوضع الحالي، وقد يبقى كذلك. إن الإزالوية، يعلق ناغل بشكل ساخر، ترفض "النظرية البدائية" التي كانت من "اختصاص أناس بسطاء أمثال فلوبير، بروست، هنري جيمس". فالإزالوية لا تبدو لي موقفاً متماسكاً، لكن الطبيعانية سوف تسعى بصعوبة إلى ضم هذا الاختصاص، ليس بأكثر مما تدمج قضايا تافهة مثل الصخور المتساقطة أسفل التلال والعواصف المتكونة، على العكس من ذلك، إنها تحرر المستكشف من بعض المطالب التي لا علاقة لها بالموضوع (انظر الهامش 1).

لاحظ أن حقيقة الحديث الجسدي ومنزلة الكيانات التي يفترضها ليستا موضع تساؤل هنا. فهذان موضوعان مختلفان. ولم يثر أي سؤال حول دراسة المفاهيم الفطرية كفرع من الاستعلام الطبيعاني (العلم الإثني ethno science). من المثير للاهتمام أن نتعلم كيف تظهر مفاهيم اللغة في ثقافة نافاجو Navajo (لأجل وصف منّور، انظر ويذرسبون 1977) أو في شوارع نيويورك، أو حتى في الثقافة المخترعة بالشكل الأكثر وعياً للفلسفة الأكاديمية. الشيء نفسه يصح على مفاهيم الأجسام الفيزيائية والتفاعل،

والفضاء والحياة وأصولها، وهلم جرا. لكن هذه المساعي يجب أن تؤخذ على محمل الجد؛ فهي ليست متابعات عرضية، ويجب عدم خلطها مع الاستعلام الطبيعاني في طبيعة ما ينكب عليه العلم الشعبي بطرقه الخاصة، مستعملاً ملكات عقل مختلفة بشكل ممكن. إن العلم الإثني هو فرع من العلم يدرس البشر، يسعى لفهم أنماط تفسيرهم للعالم، وتنوع هذه المنظومات، وأصولها. تدرس الفروع المستقلة من العلوم طبيعة ما يكتشفه البشر ويفسرونه بطرقهم الخاصة، سواءً كانت الظاهرات بصرية أم كهربائية أم ميكانيكية أم عقلية. في أثناء ذلك نستمر في استخدام مفاهيمنا، نختار أحياناً بشكل واعٍ أن نشذبها ونعدلها، في محاولة للتعامل مع مشاكل الحياة العادية. هذه المتابعات متميزة.

يسأل العلم الإثني كيف يفسر الناس ويقيّمون ما يصادفونه حولهم. إنه يعنى بتفسيرات لأشياء تتوق لبلوغ مكانتها الطبيعية وتفسيرات حركة الأجرام السماوية مقابل النجوم الثابتة؛ تفسير العناصر الأساسية، التراب والهواء والنار والماء وكيف تتفاعل لتخلق ظواهر الطبيعة، بتفسيرات القوى الحيوية التي توجه التطور والتمايز البيولوجيين؛ تفسيرات المعتقدات، الرغبات، المخاوف، والعناصر الأخرى التي تدخل في تفسيرات الأحداث الغائية؛ وهلم جرا. ليس من قبيل الإدعاء التجريبي التافه أنه في بعض التراثات الثقافية يفسر الناس الحركة بلغة الاحتكاك، أو، وفقاً لمعايير ديفيدسون، يصفون المعتقدات والرغبات بلغة قرائن العقلانية والمعيارية في المنظور الكلياني، في محاولاتهم لتقييم الأفعال. هذه مزاعم قوية، تتطلب أدلة. قد يتبين أن المعتقدات والرغبات تعزى

إلى المخلوقات (ربما البشر) على أسس مختلفة تماماً كانعكاس للأنماط الغريزية للتفسير التي تقررها الموهبة السليقية (الفطرة common- sense)، وأن هذه الأوصاف يتم خلقها بشكل منهجي حتى عندما تعد العوامل المرصودة أنها تفعل فعلها بطرق لاعقلانية بكل معنى الكلمة، أو تدفعها الغريزة في سياقات لا تبرز فيها مسألة العقلانية.

مهما يمكن للعالم الإثني أن يكتشف حول طبيعة "الموقف القصدي intentional" بمفهوم دانييل دنت Daniel Dennett، ينفتح اتجاهان آخران لأجل الاستعلام العلمي. واحد حول البشر: ما هي أصول أنماط الفهم لديهم؛ بشكل خاص، ما هو الدور الذي تلعبه الموهبة الطبيعية الفطرية في تطوير كوزمولوجيا (علم الكون)، أو الحكم بأن شخصاً آخر يمد يده إلى كتاب أو يقرأ كتاباً، أو يسرع للحاق بالباص. الاتجاه الثاني يدرس الموضوعات التي يسعى الناس لفهمها بطرق العلم الشعبي التي تقوم على الغريزة وتحددها الثقافة. مثل ما هي الحقيقة حول الكوزمولوجيا، تشكل القارات، تنوع الحشرات، تخطيط المرء لأفعاله، وهلم جرا. إن الاجوبة، بقدر ما هي متاحة للذكاء البشري، ستكون مؤطرة بمصطلحات ملائمة للمشاكل قيد الدرس، مع اهتمام قليل بالجهاز الفكري للعلوم الشعبية، وبدون توقع أن تلقى الصياغات constructs والمبادئ التي يتم تطويرها تعبيراً مباشراً في ضوء فروع العلم الأكثر "أساسية"، حتى لو تم حل مشكلة التوحيد. قد تكون النتيجة النهائية شرح السبب في أن التفسيرات العلمية ـ الشعبية تسري بقدر ما تقريباً، سواء كانت تعنى بالنباتات والأزهار، أو بلاعب

شطرنج أستاذ أو طفل يبني برجاً من المكعبات. (انظر بورغ 1922، من أجل بعض التعليقات على عزو الحالات العقلية، في هذا السياق، انظر Chomsky 1969).

بالعودة إلى نقد المادية ـ لنقل وفقاً لاتجاهات ناغل ـ يبدو أنه يواجه عدة مشاكل. فالمفهوم المفترض مسبقاً: "جسدي" physical أو "مادي" material ليس له معنى واضح؛ ولن يكون لمفهوم "عقلي" mental، ما لم يكن بالإمكان إعطاء معنى ما لمفهوم الوعي "الكامن" potential، وحتى عندئذ، من غير الواضح ماذا ستكون الأهمية التي ربما تكون لهذه المقولة الخاصة، باعتبارها متميزة عن كثير من المقولات الأخرى. ليس من شأن العلوم أن تعبر عن مضمون الخطاب العادي حول أي شيء، جسدياً كان أم عقلياً. إذ يبدو أنه لا يوجد مذهب متماسك للمادية والطبيعانية الميتافيزيقية، ولا وجود لقضية الإزالوية، ولا لمشكلة العقل ـ الجسد.

تتراكم المشاكل عندما ننظر إلى كيفية الانكباب على المسائل التجريبية الخصوصية. يدرس ناغل واحدة منها: افتراض أن ثمة "جهاز اكتساب اللغة" LAD، يسمح للطفل بتعلم نحو اللغة على أساس عينات من الكلام الذي يواجهه" (109 : 1993). إنه يعد هذا جزءاً محترماً من العلم، صحيحاً أم خاطئاً. لكن ليس صحيحاً، كما يجادل، وصف LAD بأنه إوالية سيكولوجية، كما أفعل: يجب النظر إليه بوصفه "ببساطة إوالية جسدية ـ لأنه عاجز عن خلق فكراً واعياً ذاتياً يتألف مضمونه من تلك القواعد نفسها" (109). بوضع هذا التصور لـ "جوهر العقل" ودقة وصف LAD جانباً (الذي ما كنت لأقدمه بهذه الطريقة)، نلاحظ أن توكيد ناغل

يبدو تجريبياً [امبريقياً] حول "مقدرة capability" جهاز جسدي ما. مرة أخرى، لدينا المسألة الحاسمة "للوعي الكامن"، التي يتم تقديمها الآن كفرضية تجريبية. سنعود إلى ذلك.

ماذا سيكون رد الفعل على نظرية LAD (أو UG) من قبل مادي إزالي "معترف به"، مثل كواين، يعرّفه بورغ بأنه مؤسس هذا المذهب؟ يقدم كواين "الطروحة الطبيعانية" القائلة بأن "العالم هو كما يقول العلم الطبيعي، طالما أن العلم الطبيعي صحيح" (9: Quine 1992)؛ لكن هذا ليس منوّراً حتى يتم إخبارنا ما هو "العلم الطبيعي". لقد اقترحت عدة إجابات ممكنة، لكن كواين يبدو أنه يضمر شيئاً آخر في ذهنه. إنه يعتبر العلم الطبيعي مثل "نظريات الكواركات وما شابه". "لكن ما هو المشابه بشكل كافٍ" ليكون جزءاً من العلم؟ إن العصبونات متاحة بالتأكيد، جنباً إلى جنب مع بعض السيرورات السيكولوجية: هكذا فإن اللغة، كما يجزم كواين، "تُربط بدخلنا input العصبي عن طريق الإواليات العصبية للتداعي association أو التشريط conditioning ". إن الدليل التجريبي دامغ على أن الارتباط والتشريط لهما علاقة واهية باكتساب أو استعمال اللغة، لكن هذا يبدو أنه لا يهم؛ يتساءل المرء عن السبب في ذلك. مهما يكن الجواب، فإننا نجد أمثلة على ما يفضله كواين (الكواركات، المدخلات العصبية، التشريط) وما يرفضه (أجهزة LAD، أي الإواليات الفاعلة، كما هو معروف حتى الآن). لكنه لم يقدم لنا أية مبررات لقراراته هذه، أو أي شيء يتعدى أمثلة قليلة توحي بمداها.

إن "الطروحة الطبيعانية" المقترحة تكشف عن الاعتباطية نفسها في حقول أخرى. لهذا يكرر كـواين هنـا الـرأي الـذي يؤيـده غالبـاً القائـل بـأن تشـيئ reification الأجسـاد يـأتي في مراحـل مـن اكتساب المرء للغة"، حيث تكون "المرحلـة الأخـيرة" هـي التعـرف على الهوية مع مرور الزمن. إذا كانت هذه فرضية تجريبيـة، فـإن المـرء بحاجـة لأن يعـرف كيـف يمكـن تقـديمها بهـذه الثقـة. إنـه بالتأكيد ليس واضحاً، أو حتى مفهوماً بشكل خاص. لا حاجة بنـا لأن نلتزم بالأدلة الحكائية anecdotal، إذ أن دراسات الأطفال في السنوات الماضية تقدم سبباً هاماً للاعتقاد بأن مثل هـذا "التشـييء" يظهر في الأشهر القليلة الأولى من العمر، قبل وقـت طويـل مـن أي تمظهر للغـة. (مـن أجـل مراجعـة عامـة، انظـر: Spelke 1990، حول عمل أحدث عهداً، انظـر Baillargean 1993، انظـر أيضـاً الهامش 3 من هذا الفصل).

– بما أن نظريات LAD الـتي يشـير إليهـا ناغـل تنبـذ العقائـد الجامدة حول التداعي والتشريط، وتفـترض إواليـات ليسـت (علـى الأقـل في الوقـت الـراهن، وربمـا أبـداً) قابلـة للتعـبير عنهـا بلغـة الكواركات، أو العصـبونات، فإنهـا بشـكل مفـترض لا تقـع ضـمن العلم، بمفهوم كواين. هذا يشبه إلى حد كبير الكيمياء منذ قـرن، أو الميكانيـك السـماوي في زمـن نيـوتن لأسـباب مماثلـة. ربمـا كـان الاستقصاء التجريبي "للتشييء" أيضاً يهمل محكات كواين، للسبب نفسه[3]. يبدو أننا نواجه مثالاً متطرفاً على الثنائوية الميثودولوجية، علاوة على الصفة المبهمة لمفهومي "المادية" و"الإزالوية".

الوصول إلى الوعي Access to Consciousness

دعونا نعود الآن إلى توصيف العقلي في ضوء الوصول إلى الوعي، الذي يؤدي إلى تمييز العقل ـ الجسد، كما يعتقد الكثيرون. بتبني هذا التوصيف، يستنتج ناغل أن LAD (والحالة المحرزة، لغة أنا، وبالتالي اللغة) ليس سوى إوالية جسدية [فيزيائية] وليس إوالية سيكولوجية، "لأنه عاجز عن خلق التفكير الواعي لذاته الذي يتألف مضمونه من تلك القواعد نفسها" (109 : 1993). افترض أن أحد خيارات التنوع variation ضمن اللغة له علاقة باتجاه ترتيب الجملة يسار ـ يمين، مع كون اللغة الإنكليزية من الناحية التركيبية "موجهة من اليسار" [إلى اليمين "الرأس أولاً"، " in- the room" و"See- the book"...الخ. واللغة اليابانية "موجهة من اليمين "الرأس آخراً" (الصورة المعكوسة، في كل مكان). مع ذلك، فإن جوني لا يدرك، ولا يمكنه أن يخبرنا، أنه يضع متحول الرأس "head parameter " كـ يسار ـ يمين على أساس الدليل المستمد من" see the book, etc، مع أنه ربما يكون هذا هو بالضبط ما يحدث. على نحو مشابه، فإن ماري لا تدرك إدراكاً واعياً أنها تستعمل المبدأ (c) من نظرية الربط binding theory عندما تفسر المثال (1) بشكل مختلف عن المثال (2)؛ مستبعدة خيار الاعتماد الإحالي referential dependence لـ he على Bill في المثال (1) لكنها تجيزه في المثال (2). هكذا فإنها لا تفسر المثال (1) بمثابة (أ) بل يمكن أن تفسر المثال (2) بمثابة (2) (he = Bill) في الحالتين:

(1) ـ (يعتقد أن بيل شخص ظريف)

He thinks Bill is a nice guy. (1)

(2) (المرأة التي تزوجها تعتقد أن بيل شخص ظريف)

(2) The woman he married thinks Bill is a nice guy.

(1́) (يعتقد بيل أنه شخص ظريف)

(1́) Bill thinks he is a nice guy

(2́) (المرأة التي تزوجها بيل تعتقد أنه شخص ظريف

(2́) The woman Bill married thinks he is a nice guy.

علاوة على ذلك، فإن عدم الإدراك هذا يقارب "الوعي الكامن" وهي فكرة يجب توضيحها، مع ذلك. ربما يعني ذلك أنه لا يوجد مخلوق بملكة لغة ماري، بهذه "الإواليات الجسدية"، يمكن أن يمتلك الوعي الذي تفتقر إليه ماري، [وهي] حقيقة تجريبية هامة. بالنتيجة، إن نظريات LAD ونظريات اللغة لا تتجاوز الخط الفاصل للعقل ـ الجسد؛ إنها ليست حول العقل، لكنها إواليات سيكولوجية.

لنأخذ مثالاً من حقل مختلف: ماري ليست مدركة بشكل واعٍ لكونها تستعمل "مبدأ جساءة rigidity يفسر الصور البصرية كجسم صلب rigid في حالة حركة عندما ترى ما تعتبره مكعباً يدور في الفراغ. وجوني الذي يبلغ من العمر ثلاثة أشهر لا يمكنه أن يخبرنا، وربما لا يعي، أن المعتقدات حول ثبات الجسم (التشيؤ reification) ومساره هي التي تدفعه إلى توقع ظهور شيء في شكل بعينه وفي مدة زمنية ومكان، بعد المرور خلف حاجز (انظر Spelke Baillargean 1990). وفقاً لذلك، لا يمكننا أن نتكلم عن الحالات

والخواص المنسوبة إلى ماري وجوني بوصفها إواليات سيكولوجية للرؤية ـ على الأقل، إذا كان الوعي الكامن معدوماً أيضاً في هذه الحالات.

ثمة فكرة مشابهة تقدم بها مايكل دومت Michael Dummet، وإن يكن ذلك بمصطلحات مختلفة. فهو يعتبر نظريات LAD واللغة المكتسبة بمثابة "فرضيات سيكولوجية"، مع أنها لا تقدم "شرحاً فلسفياً"، لأنها لا تخبرنا ما هو "الشكل الذي تُوزع delivered به [كتلة المعرفة]؛ فالإدراك الواعي، مع ذلك، سيحملنا عبر ذاك الخط الفاصل (Dummet 1991 :97). بشكل مفترض سلفاً، يصح الشيء نفسه بخصوص ثبات الجسم "object constancy" وما شابه. هنا التمييز ليس بين العقل والجسد، بل بين العلم والفلسفة. بالنسبة للعلوم، تخبرنا النظريات (إذا وضعنا الدقة جانباً) كل شيء له علاقة حول الشكل الذي توزع به كتلة المعرفة، غير أنه فيما يتعلق بنظرية المعنى، (و، بشكل مفترض، اللغة والفكر عموماً، وربما الرؤية، التشيؤ، الخ)، فإن المطلوب هو نوع إضافي من الشرح، "شرح فلسفي" يتجاوز العلم.

في الحالتين، لدينا فارق جوهري ـ ربما يكون فارقاً ميتافيزيقياً يستند على إمكانية الوصول إلى الوعي. ويحذو تفسير ناغل حذو تفسير سيرل في الكتاب الذي يستعرضه (انظر Burge 1992). يمكننا أن نرد الحجة في شكلها المعاصر إلى تمييز كواين المؤثر بين الـ"المواءمة fitting" و"الاهتداء guiding". إن كواين يعترض على المذهب التقليدي (الذي أعيد تفسيره ضمن الألسنية المعاصرة) [القائل] بأن المتكلمين "يهتدون" ربما "بمفهوم للبنية" غير واعٍ لدى

تشكيل وتفسير "التعابير الحرة" المبتكرة حديثاً (19: 1924 Jespersen) هذا "مذهب غامض"، كما يرى كواين، ربما "حماقة" خالصة (447: Quine 1972). وربما لا يمكننا أن نتكلم عن الاهتداء إلا عندما تطبق القواعد بشكل واعٍ لـ "إحداث" السلوك، وخلافاً لذلك يمكننا فقط أن نقول أن السلوك "يوائم" أو "يخضع" لنظام ما من القواعد، تماماً مثلما أن الكوكب يخضع لقانون سقوط الأجسام، ولا يجب علينا أن نعزو "الواقع السيكولوجي" إلى تصور بعينه لطبيعة المتعضي "يخضع" للقواعد.

مرة أخرى، يتبنى كواين شكلاً متطرفاً من الثنائوية. في حالة الأجسام الساقطة، يُسمح لنا ـ في الواقع، يُفرض علينا ـ بأن نعزو "الواقع الجسدي" إلى تصور بعينه لطبيعتها وإلى المبادئ المفترضة. بصراحة، لا يمكننا أن نعلل الحالة التي تحرزها ملكة اللغة والطرق التي تدخل بها في السلوك ببساطة بناءً على افتراض أن الدماغ يمتلك كتلة ويخضع لقانون سقوط الأجسام. فالمطلوب هو مزيد من البنية. إن المقاربة الطبيعانية تسير بالضبط كما في حالة الكواكب والنمل، في هذه الحالة، بحثاً عن نظرية للحالة البدئية والحالة المحرزَة والعلاقة بينهما، وعلاقة الحالة المحرزة بالأداء والأحكام، إذ تعزو "الواقع" إلى ما هو مفترض بأفضل نظرية يمكننا استنباطها. فمستوى الفهم هو أدنى بكثير فيما يخص المتعضيات الأكثر تعقيداً، لكن هذا لا علاقة له بالموضوع هنا.

يُعتقد أن الخط الفاصل العقيدي doctrinal هو الذي يفصل الحالتين: فما هو مطلوب في حالة واحدة (الأجسام الساقطة) يكون ممنوعاً في الحالة الأخرى (البشر "فوق العنق"). مرة أخرى، إن

الوعي يخلق الاختلاف، بالتوازي مع "إحداث السلوك"، وهو مفهوم له مشاكله الخاصة التي لا يُستهان بها. لدينا مبرر واهٍ للاعتقاد بان السلوك السوي "يُحدث إحداثاً"، على الأقل بأي معنى معروف لهذا المصطلح. ولا يفترضُ الطبيعاني الميثودولوجي بشكل دوغمائي خلاف ذلك.

يبدو أن تعليل كواين ينطبق بالطريقة نفسها على المثال البصري. فجوني وماري لا "يهتديان" بمبدأي صلابة وثبات الشيء وهلم جرا. سلوكهما "يوائم" فقط هذه المبادئ، مثلما أن كوكب المريخ يخضع لقانون سقوط الأجسام. إن نظرية حالات الدماغ التي تدمج هذين المبدأين لتعليل سلوك ماري وجونز، كيفما يمكن أن تستوفي المعايير الطبيعانية، إنما هي نظرية قاصرة منهجياً، وهي في أفضل أحوالها غامضة، وفي أسوئها حمقاء (كما ذكرنا، إن وجهة نظر كواين حول هذه المسألة من الصعب تحديدها. انظر الهامش 3)

هذه الأفكار تتبدى بأشكال أخرى كثيرة ليس من السهل تخمينها. لهذا، لا يقدم أي سبب معقول لهذه القيود، ولا أية إشارة إلى أنها أكثر من متطلبات اصطلاحية ليست لها أهمية خاصة. إن الطبعة الأكثر تطوراً هي التي يتبناها ناغل عن سيرل. دعونا نلقي نظرة مقتضبة على ذلك.

ولا تبدو الثنائوية غير المفسَّرة لتمييز كواين قد أثارت كثيراً من الاهتمام، بل يرى الكثيرون النتائج المترتبة على الصياغة المحددة بوصفها صياغة مناقضة للحدس. لنأخذ ظاهرة الإبصار الأعمى: إن أليس المصابة بأذية مخية دائمة، تميز بشكل يعول عليه بين صورتين بصريتين (مثل رسم بيت على نار، وآخر ليس كذلك)،

لكنها تلح على أنهما متماثلان، مفتقرة إلى أي إدراك لما يدخل في سلوكها التفضيلي. بلغة كواين، لا يمكننا أن نتكلم عن الاهتداء هنا، بل فقط عن المواءمة fitting (هكذا يبدو؛ انظر هامش رقم 3 9. Quine 1992). في طبعات أخرى، لا يمكننا أن نعزو إلى أليس "تمثيلات عقلية"، مع أنه كان بإمكاننا ذلك بالنسبة لجون، الذي يكون مدركاً للاختلاف ويخبرنا عنه، مثلما فعلت أليس قبل إصابتها. في حالة أليس لدينا فقط "إواليات جسدية"، في حالة جون لدينا "إواليات سيكولوجية" وليس "شرحاً فلسفياً" كما في حالة جون. ولا تبدو أية واحدة من هذه النتائج المترتبة مغرية.

يأمل سيرل في تجنبها بإدخال مفهوم إمكانية الوصول إلى الوعي في المبدأ - ما يسميه ناغل، في مراجعته، الإمكانية الكامنة للوعي[4]. يتطلب "مبدأ الوصل" (CP) connection principle لدى ناغل إمكانية الوصول في المبدأ لأجل نعت الحالات والسيرورات العقلية. في حالة "الإبصار الأعمى" blindsight، يعتقد سيرل أن أليس تمتلك إمكانية الوصول في المبدأ إلى التمثيل، أو القاعدة، أو أياً يكن. فالبصيرة العمياء هي حالة "انسداد" blockage خالص، وليست حالة "عدم إمكانية الوصول في المبدأ"، لذلك يمكننا أن نتكلم عن السيرورات العقلية في حالة أليس، كما في حالة جون. ولن يكون للاستنتاج معنى إلا عندما يشرح مصطلح "في المبدأ".

افترض أن جين مماثلة لأليس (في وجوه ذات صلة، المؤهل من هنا فصاعداً يكون مهملاً) إلا في تاريخها: حالتها العصبية لم تكن نتيجة لإصابتها بعد الولادة بل نتيجة لإصابة أثناء الحمل أدت إلى

هذه الحالة. من المفترض سلفاً أنها أيضاً تمتلك "إمكانية الوصول في المبدأ"، إذ أن مبدأ الوصل CP ما يزال باقياً (وإلا، فإن النقاش برمته عديم الفائدة)، ذلك أن توقيت الإصابة يمكن بالكاد أن يكون ذا صلة بالموضوع). افترض أن هذه الإصابة أثناء الحمل أثرت على المورثات [الجينات] بطريقة تسبب الإبصار الأعمى؛ مرة أخرى، كما هو مفترض سلفاً، يظل CP باقياً، أو أن النتائج لا تكون أقل مناقضة للحدس. لنتابع، افترض أن سوزان مماثلة لـ جين في التركيب الوراثي، مع أنها لم تعان من العمى من خلال إصابة، كما حدث لأليس وجين. مرة أخرى، إن سوزان، إذاً، تعاني فقط من "انسداد". افترض أن الخاصية الوراثية لسوزان يتم تناقلها [إلى ذريتها] ما يؤدي في النهاية إلى ظهور نويع subspecie جديد. فيكون لدينا عندئذٍ النوع جون والنوع سوزان المتشابهان تماماً في إواليتيهما الإدراكيتين الحسيتين. إن أفراد النوع سوزان يكونون غير مدركين للتمثيلات العقلية والقواعد التي ترشدهم ولا يمكنهم الإخبار عنها. لكن النويعين لا يمكن تمييزهما بغير ذلك؛ وثمة حتى بعض التماهي عبر النوعين للإواليات البصرية، كما في حالة أليس وجين بعد الإصابة. بما أن مبدأ الوصل يصح على سوزان، فإنه يصح بشكل مفترض على "النوع سوزان"؛ خلافاً لذلك، مرة أخرى، تكون لدينا افتراضات اصطلاحية لا طائل تحتها تماماً.

دعونا الآن نأخذ حالة اللغة. لنفترض أننا اكتشفنا أن تاريخنا التطوري يوازي تاريخ "النوع سوزان". أي، إن أسلافنا كانوا فعلاً من "نوع جون"، مدركين تماماً كيف أنهم ثبّتوا المتحول الرأسي head parameter وحددوا التبعية الإحالية وهلم جرا، وقادرين

على وصف ذلك كله بشكل واضح لعلماء مريخيين يرصدونهم، لكن طفرة حصلت (أو ربما إصابة سببت تغيراً وراثياً، كما في حالة جين) وتكاثرت، مؤدية إلينا، النوع سوزان، المحروم من هذه القدرة. افترض أننا حتى اكتشفنا أننا لم نختبر الرواة الملائمين بعد. إن النويعين يتمازجان ويتصرفان بشكل مماثل تماماً؛ بدون البحث في الإدراك، لا يمكن لواحد منا ولا أي عالم، أن يجد أي اختلاف بين الأفراد. إن CP قد ظلت باقية بالنسبة للنوع جون الأسبق، وبالنسبة لبقاياه بيننا، وبالتالي لأجلنا أيضاً، ما لم نختره أن نتخذ قرارات اصطلاحية تكشف، كما من قبل، أن المسعى كله لا فائدة منه.

لكن هذه النتيجة خاطئة تماماً. لقد كان الهدف الوحيد من هذا النقاش هو إظهار أن الاستعلام الطبيعاني في اللغة والعقل لا يثمر "واقعاً سيكولوجياً" أو "إواليات عقلية" أو "شروحات فلسفية" أو "تمثلات عقلية" أو "استرشاداً بالقواعد". بشكل حاسم، يجب أن يقرر مبدأ الوصل CP أننا لا نمتلك إمكانية الوصول إلى الإواليات وعملها في المبدأ. فنحن لا نعاني من مجرد "انسداد"؛ بالأحرى، إن إواليات دماغنا "عاجزة عن إحداث التفكير الواعي الذاتي الذي يتكون مضمونه من تلك القواعد نفسها" (Nagel 1993 : 109)، لأن كل هذا يقع خارج الوعي "الكامن".

لإنقاذ للقصة، يبدو أنه يجب علينا أن نلح على أن "النوع جون" لا يمكن أن يوجد في حالة اللغة (مع أنه يمكن أن يوجد، ويوجد، في حالة العمى، أي البشر): أي أن من المستحيل أن يوجد متعضي يشبهنا تماماً سوى أنه واعٍ تماماً لمضمون القواعد التي

يتبعها عندما يتعلم (ويستعمل) اللغة. أي أنها، في النهاية، تبدو مثل فرضية تجريبية وليست افتراضاً اصطلاحياً. فعلى أي أساس نؤكدها؟ أو إذا لم يكن الزعم تجريبياً بل مفاهيمياً، فما هي الأسس التي يقوم عليها؟ وسواءً قبلنا به أم لا - سواء كطروحة تجريبية أو كطروحة مفاهيمية - فما هي الأهمية الممكنة التي يكتسبها؟ كيف يختلف عن الإعلان حول "جوهر الكيميائي" (الكهربائي، البصري، الخ)؟

تبرز أسئلة مماثلة في حالة الإدراك الحسي للأشياء التي نوقشت سابقاً، ويمكن التوسع في الصعوبات، ما يؤدي إلى تناقض آخر مع ذلك. لا يبرز أي من هذه الأسئلة في الاستعلام الطبيعاني، الذي لا مكان فيه لمفاهيم مثل "إمكانية الوصول في المبدأ" أو "الوعي بشكل كامن" أو مبدأ الوصل CP، ولا مفهوم "التفسير الفلسفي" وراء التفسير ولا أصناف ممتازة من الأدلة (مثل الإدراك، أو الدليل "السيكولوجي" في مقابل الدليل "اللغوي")، لا ثنائية عقل - جسد، ولا ثنائوية منهجية (أو غيرها من الثنائويات).

ويذكرنا السعي إلى الحفاظ على هذه الثنائوية بالمحاولات لإنقاذ فكرة أن المعرفة هي نوع من القدرة، على الرغم من حقيقة أن القدرة يمكن أن تتحسن أو تتردى - أو حتى يمكن أن تضيع كلياً - في حين تبقى المعرفة بدون تغيير، كما يظهر، على سبيل المثال، فقدان المقدرة على الكلام (أو السباحة، الخ) بعد الإصابة والشفاء بدون أن يكون هناك دخل input ذي صلة بالموضوع حالما تزول آثار الإصابة. الاستنتاج الطبيعي هو أن المعرفة (كيف..، وأن..، أو الخ) تتضمن عنصراً معرفياً مهما، ويجب عدم الخلط بين القدرة

على استخدام المعرفة والمعرفة نفسها. تفادياً لهذه النتيجة، يتم بناء مفهوم تقني جديد له خاصيات المعرفة ـ يدعى "المقـدرة" ability ـ لكنه متميز عن المفهوم العادي، [وهـي] نقلـة شـاذة بشـكل خـاص عندما يتم اللجوء إليها في دفاع مزعوم عن وجهة نظـر فتغنشـتاينية (انظر الهامش رقم (4) لأجل المراجع والمناقشة).

تنويعات أخرى للثنائوية

يتخذ الكثير من النقاش اتباع القواعد في الأدب نموذجـاً لـه مـن القواعد الحسابية أو قواعد المرور، أو تلك القواعـد المعطـاة في كتـب النحو، أو قواعد أخرى ذات صفة معيارية. السمة الحاسمـة لاتبـاع القواعد، إذاً، هي أن الخطأ لابد أن يكـون ممكنـاً بمعنـى الخـروج على المعيار. مهما تكن أهمية هذه المناقشة، فإنها ليسـت في صـلب الموضوع هنا. إن قواعد اللغـة ـ علـى سـبيل المثـال، مبـادئ النحـو الكلي UG، أو تلك المبادئ التي ترشد أحكام مـاري حـول المثـالين (1) و(2) السابقي الذكر (...) ـ ليست معيارية بهذا المعنى. إذ أن أحكام ماري ومظاهر السلوك الأخرى يمكن أن تكون "على خطـأ"، لعدد من الأسباب؛ على سـبيل المثـال، عـدم الانتبـاه، أو صـعوبة الإعراب (كما في جمل "ممر الحديقة" أو التعابير التي تنطوي علـى قدرات إدراكية حسية). يمكن لماري أيضاً أن تقرر مخالفة قواعدها، ربما لأسباب وجيهة تماماً، لنقل لأجل التأثير الأدبي. إن الأحكـام والسلوك ربما تكـون أيضـاً غـير متفقـة مـع المعـايير بطـرق كـثيرة:

المعايير المفترضة في مختلف البنى التسلطية (authoritarian، الممارسة الشائعة في المجتمعات من النوع الدائم التغير التي يمكن أن يرتبط بها الأفراد، عن طريق الاختيار أو الضغط الخارجي، و هلم جرا. تبرز أسئلة عديدة تتصل بالحقائق والسياسات المتبعة، السياسة، الخ، لكن لا يبدو أن ثمة سؤال عن المبدأ، باستثناء الأسئلة التي تختزل إلى حجج متشككة ليس لها أهمية خاصة في هذا السياق (لأجل مزيد من المناقشة انظر chomsky 1986).

هل يتعين علينا أن نتكلم عن "اتباع القواعد" في حالة الأحكام اللغوية لماري وسلوكها؟ السؤال ليس مثيراً للاهتمام جداً، للأسباب التي سبق ذكرها؛ إذ لا أحد يتوقع من الخطاب العادي أن ينجو من التحول إلى نظرية تفسيرية. ومع ذلك ـ وهذا للتوثيق ـ، فإن التكلم عن ماري كأنها تتبع القواعد في هذه الحالة سيكون أقرب إلى الاستعمال اللغوي العام منه إلى الاصطلاح الفلسفي المتعارف عليه الذي يتطلب صلة بالوعي. في الحقيقة، يبقى قريباً تماماً من الاستعمال العادي إلا في جانب واحد. فنحن نستعمل بشكل نموذجي مصطلح "اتباع القواعد" في حالة الانحراف deviation عن معايير الجماعة، وليس التقيد بها، كما في الاستعمال التقني للخطاب الفلسفي. هكذا، إذا قال جوني:

"I brang my lunch home" (جلبت غدائي إلى المنزل)

سيكون الاستعمال المعياري هو أنه يتبع القاعدة من أجل "sing"، الخ بشكل مغلوط، في أن مجازات السلطة authority figures أو بعض المقاييس الأخرى تتطلب [استعمال "brought". بالشكل نفسه، لو استعمل كلمة "puppy" [جرو]

للإشارة إلى القطة الصغيرة، متبعاً القاعدة التي تقول أن صغار الحيوانات المنزلية المدللة هي جراء puppyies. قد يدلي شخص نبيه بتعليقات مشابهة حول قواعد اللفظ التي يتبعها. لو ما ت كل البالغين وبقي جوني وجماعته، فسوف يستمرون في اتباع قواعدهم الخاصة والفردية. سوى أن هذه القواعد ستكون الآن قواعد لغة بشرية معيارية تختلف اختلافاً كاملاً عن الانكليزية الفصحى من هذه النواحي (وغيرها). في تلك الحالة، مع ذلك، لن نقول بشكل معياري أن جوني يتبع القاعدة، لأن المصطلح نادراً ما يستخدم لأجل التقيد بالمعايير والمقاييس. لذلك فإن علماء اللغة فقط سيقولون أن ماري تتبع المبدأ (C) من نظرية الربط في المثالين (1) و(2)، أو تتبع القواعد الدقيقة والمعقدة للإحالة إلى الأشياء عندما تتحدث حول بيتها.

عندما ننسب اتباع القواعد بالطريقة المألوفة ـ لنقل، إلى جوني في الحالة الآنفة الذكر ـ فإننا لا نقصد أن نوحي بأن متبعي القواعد يكونون (أو يمكن أن يكونوا) مدركين لاتباع القواعد أو يختارون أن يفعلوا ذلك. إن الذين يتكلمون عن "حقيقة أن المعنى اللغوي يشمل "اتباع للقواعد" متعمد إنما يستعملون مصطلح "اتباع القواعد" ــ بالمعنى التقني للخطاب الفلسفي وليس بالطريقة الاصطلاحية (Baldwin 1993: 187, citing p. pettit). أعتقد أن الشيء نفسه يصح بالنسبة للمصطلحات الأخرى للخطاب الفلسفي، بما في ذلك "المعرفة"، و"المضمون" و"الدلالة" من بين مصطلحات أخرى. من أجل بعض المناقشة، انظر المنشورات التي تم الاستشهاد بها قبلاً، والفصل الثاني من هذا الكتاب.

ضمن النظرية الطبيعانية للغة أنا ـ الذاتانية والفردانية ـ يمكن التوصل إلى استنتاجات حول ما ينبغي على المرء أن يفعله، لكن فقط في قواعد الزامية افتراضية غير ذات أهمية (إذا أردت أن تقفيّ كلمة ما مع "tower" [برج] للدلالة على "النرجس البري فاستعمل كلمة"flower" وليس "book"). هذه المعيارية، التبعة النظامية للمعرفة، تسود في الإطار الطبيعاني، لكن ليس من النوع الذي يبرز عندما نسأل ما إذا كان على جونز أن يبدل استعماله لكلمة "arthriris" [التهاب المفاصل] ليتطابق مع استعمال الطبيب، وهو سؤال من نوع مختلف جداً، ليس له إجابة محددة بعيداً عن تخصيص منطقة أو أخرى في فضاء شديد التعقيد من المصالح والهموم البشرية.

ثمة مسألة ذات صلة بالموضوع، هي مفهوم اللغة بوصفها "خاصية مشتركية" community property من نوع ما، كما عندما نقول إن هانز وماريا يتكلمان الألمانية حتى رغم أنهما لا يفهمان أحدهما الآخر، وهانز لا يتكلم الهولندية رغم أنه يفهم جيداً الهولندية المحكية عبر الحدود. أو عندما نقول إن بيير وابنه جان، المتكلمين للفرنسية كلغة وحيدة، اللذين انتقلا إلى نيويورك، يتعلمان الانكليزية الأمر الذي سينجح في فعله جان مع أن بيير يفعل ذلك جزئياً. أو أن جوني، "بأخطائه" حول "brang" و"puppy" ولفظ اسمه، لا يتكلم أية لغة على الإطلاق (فجوة غريبة في الاستعمال المعياري)، مع أنه سيتكلم الانكليزي ذات يوم ويمتلك "معرفة جزئية" بها اليوم، وستكون لغة الأنا الخاصة به الحالية لغة معيارية إذا تأبدت كما وصفها. إن طيفاً واسعاً من هذه

الاستعمالات ليس إشكالياً في الحياة العادية، لكنه ذو أهمية ضئيلة بالنسبة للسعي إلى فهم ما هي اللغة وكيف تستعمل. إنها ليست مسألة مثلنة idealization؛ إذ لا توجد مثلنات محسوسة، أكثر مما نشيئ reify المناطق areas في توضيح ما هو مقصود بإعلان أن جون يسكن قرب ماري لكنه بعيد عن بيل. في بعض الأحيان تكون هذه الاستعمالات مشفرة codified في "اللغات القومية"، وفي بعض الأحيان حتى تُفرض بالقوة. إن المحاولات لربط مفاهيم "اللغة المشتركة" بالثقافات ببساطة تجعل الأمور أكثر سوءاً. فالشخص سيكون بشكل نموذجي جزءاً من مشتركات وثقافات كثيرة، مع بعض ترابطات ضعيفة فقط ضمن أشكال التداعي. فقد يشارك جونز في ثقافة مشتركة - ذات قيم ومعتقدات وفهم، الخ.. مشتركة - مع متكلم أحادي اللغة للغة ما لا يعرف كلمة واحدة منها، ربما إلى درجة أكبر مما يشترك مع توأمه المماثل له، الذي ترعرع معه والذي يكون حديثه فعلاً غير قابل للتمييز عن كلامه. لا شيء من هذا له علاقة بالتواصل الناجح. لسنا بحاجة لأن نفترض ألفاظاً أو معاني مشتركة لتعليل ذلك، بأكثر مما نفترض أشكالاً مشتركة لتعليل البشر الذين يبدون متشابهين.

مرة أخرى، يمكن للمرء أن يصف الأوضاع المستجدة التي لا حصر لها، ودراستها مشروعة ومفيدة. هذه الدراسة، إذا تمت متابعتها بجدية، تفترض مسبقاً ما يتم تعلمه من الاستعلام الطبيعاني في ملكة اللغة. مع ذلك، فإن المحاولات لإقامة نظريات اللفظ أو المعنى (بالألفاظ المشتركة والمعاني المشتركة) بناءً على خواص المشتركات المزعومة لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الالتباس. هذه

المحاولات تفسر مرة أخرى النوع من الثنائوية الذي لا يؤخذ على محمل الجد أبداً خارج حقل العقلي.

يبرز شكل آخر من الثنائوية في أثناء مناقشة اكتساب اللغة، يصوره سجال مثير للفضول حول "السليقية" innatism أو فرضية السليقة innateness hypothesis. وهو سجال من طرف واحد، إذ لا أحد يدافع عن الفرضية، بما في ذلك أولئك الذين تنسب إليهم (ومنهم أنا، على وجه الخصوص). السبب هو أنه لا توجد فرضية كهذه. فهناك بعض المقترحات المحددة حول الحالة البدئية لملكة اللغة (LAD، UG). وهذه ليست موضع تساؤل من قبل النقاد. بالأحرى، إنهم يعتبرون المشروع خاطئاً بشكل ما، (يقوم) ظاهرياً على افتراض ثنائوي ما. إن الأسئلة المماثلة لا تثار عندما تُصاغ المقترحات حول مظاهر أخرى للنمو، ولم يتم تقديم أي مبرر للسبب في كونها ملائمة هنا. لقد تم تقديم طروحات بديلة ذات طبيعة عامة جداً: على سبيل المثال، إن "إواليات التعلم العام" تكفي، بدون الحاجة إلى افتراض خواص محددة لملكة اللغة. هذه الطروحات لا يمكن مناقشتها إلى أن يتم إخبارنا ما هي هذه الإواليات. فالمقترحات المحددة التي تم تقديمها بالكاد تستأهل التأمل على أسس طبيعانية، لذلك يجب تنشيطها عن طريق متطلبات أخرى، ثنائوية بطبيعتها.

إن النزعة السلوكية (السلوكوية) behaviourism لدى كواين هي تنويع لهذا الشكل من الثنائوية[5]. فهو يجادل بأن "المقاربة السلوكوية إلزامية" (Quine 1990 :37) لأجل دراسة اللغة؛ لأننا، في اكتساب اللغة، "نعتمد حصراً على السلوك الظاهري في

الأوضاع القابلة للرصد" (p. 38). انطلاقاً من حجة مماثلة، تكون المقاربة التغذيوية nutritionist إلزامية في تشكل الجنين، لأن المتعضي، في الانتقال من الحالة الجنينية إلى حالة النضج، يعتمد حصراً على التغذية المقدمة له من الخارج؛ فكما يجب على علماء اللغة أن يكونوا سلوكويين، كذلك يجب على البيولوجيين أن يكونوا تغذيويين، يحصرون أنفسهم برصد المدخلات الغذائية. إن المغالطة في الحجة الأخيرة واضحة؛ والمغالطة نفسها تضعف الحجة الأولى. فالافتراضات الثنائوية الراديكالية هي وحدها التي تسمح حتى بمناقشة المسألة. ربما تكون الدراسة الفعلية للغة مُعَابة من الناحية المفاهيمية، لكن، لكي نثبت ذلك، لا يكفي أن نطالب عالم اللغة بأن يتخلى عن الاستعلام الطبيعاني ـ كما يفعل كواين وزملاؤه ـ وأن نتبنى افتراضات اعتباطية بغض النظر عن سابقاتها التاريخية، التي لا صلة لها بالموضوع بشكل واضح.

إن ما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بذلك هو النموذج الإرشادي للترجمة الجذرية لدى كواين. في الدراسة الطبيعانية للتفاعل بين المتعضيات (الخلايا، الحشرات، الطيور، الدلافين...)، نحاول أن نكتشف ما هي الحالات الداخلية التي تجعل التفاعل ممكناً، متوصلين إلى التفسيرات المفترضة للإشارات. لدى دراسة اللغة البشرية، يكون هذا الطريق مسدوداً. فدراسة التفاعل يجب أن تبقى ضمن الحدود المشترطة: أن يسمح للعالم المستقصي بأن يسجل الأصوات بطريقة محددة، وأن يختار بعض سمات الوضع، وأن يختبر ما يتفق مع الاستعلام وما يختلف معه "هل هذا س؟"، ثم يقوم بالاستنتاج الأولي، لكن لا شيء زيادة على ذلك. تقدم التلميحات المختلفة

بخصوص السمات المسموح بها، اختيار س، الخ. يزعم كواين أكثر من ذلك أن هذا أيضاً هو الوضع المعرفي للطفل الذي يكتسب اللغة وللشخص المنخرط في اتصال متبادل. لكن الحالات الثلاث مختلفة تماماً بطبيعتها: فالطفل يأتي مزوداً بالحالة البدئية لملكة اللغة (UG ، LAD)، والشخص المنخرط في اتصال متبادل يكون مزوداً بخاصيات الحالة المحرَزَة؛ أما عالم اللغة، فيكون مزوداً بملكة تشكيل العلم وبنتائج الاستعلام السابق في اللغة. ومع ذلك، ليس من المهم إيضاح ذلك، لأن ثمة مشكلة أكثر أهمية: الثنائوية الراديكالية للمقاربة برمتها. لا يمكن قبول شيء كهذا، أو ما هو قريب منه في دراسة المتعضيات الأخرى، أو المظاهر البشرية التي لا تندرج تحت المقولة الوصفية التقليدية لمفهوم "عقلي".

من هذا النموذج الإرشادي، الذي تم تبنيه ومناقشته على نطاق واسع، تم التوصل إلى استنتاجات بعيدة المدى حول اللغة والفكر. إنه يبدو تمريناً ذهنياً تافهاً إذا كان المقصود منه أن يلقي الضوء على طبيعة التواصل أو اكتساب أو دراسة اللغة والتفكير. على الأقل، لم يقدم له أي تبرير مقنع، على حد علمي، ولا أي شرح للسبب في وجوب تبني المقاربة (أو حتى النظر فيها) في هذه الحالة الفريدة. إذا كان الهدف هو صقل فهم مفاهيم الاعتقاد والقصد والمعنى وما شابه، فإن المحكات لأجل التقييم تكون أكثر غموضاً لكن من الصعب أن نفهم السبب في أنه ينبغي أن تكون للشروط المحددة الموضوعة الأفضلية في هذا الاستعلام المفاهيمي.

يشكل النموذج الإرشادي أساساً لحركات ثنائوية أخرى. إن ديفيدسون، إذ يكيفه وفقاً لاهتماماته الخاصة، يجادل بأن هدف

الدراسة الوصفية للمعنى هو بناء نظرية تكون "نموذجاً للكفايـة اللغويـة للمفسر"، لكن هذا "لا يضيف شيئاً إلى هذه الطروحة بالقول إنـه إذا لم تصف النظرية بشكل صحيح كفايـة المفسـر فـإن بعـض الإواليـات في المفسر يجب أن تنطبق علـى النظريـة". (Davidson 1986B :438) إنـه، مثـل كـواين، يشـترط مـا يـتعين عـده بمثابـة دليـل ذي صـلة بالموضوع: "ما هو مفتوح للرصد ليس إلا اسـتعمال الجمـل في السـياق" ولا شيء أكثر. فالنظريات يمكن أن تقدم "مرجعاً وأفكـاراً دلاليـة ذات صلة بها"، لكـن "لا يمكـن أن يكـون هنـاك شـك حـول صـواب هـذه المفـاهيم النظريـة خـارج السـؤال عمـا إذا كانـت تقـدم تفسـيراً مقنعـاً لاسـتعمال الجمـل" (Davidson 1990 :300). ولقـد طـور دومـت وآخـرون مواقـف مماثلـة. (انظـر: Davidson 1986b; 1990a, on Dummet's version see Chomsky 1986).

مرة أخرى، إن الأفكار المماثلة ينبغي ألا تؤخذ على محمل الجد في دراسة الأنظمة الأخرى. إذا تمسكنا بنموذج الترجمة الراديكاليـة أو بتقييد تعسفي آخر فقط يكون الدليل محصوراً باسـتعمال الجمـل من قبل المتكلم (أو مشترك مختار). بمقاربة الموضوع كما يُقـارب في العلوم، سنبحث عن كل أصناف الأدلة. على سبيل المثال، الـدليل المأخوذ من اليابانية سوف يستعمل (وهو يسـتعمل عمومـاً) لدراسـة الإنكليزية؛ بشكل عقلاني تماماً، [يـتم ذلـك بنـاءً علـى الافـتراض التجريبي المسنود جيداً القائل بـأن اللغـات هـي تعـديلات للحالـة البدئية نفسها. بشكل مماثـل، يمكـن إيجـاد الـدليل مـن دراسـات اكتساب اللغة والإدراك الحسي، وانحباس النطق aphasia، ولغـة الإشارة والنشاط الكهربائي للدماغ، ومن يدري غير ذلك. علاوة على

ذلك، من المفيد جداً أن نشترط إواليات لدى المفسر "تنطبق على النظرية"، نظراً لأن هذه النقلة تحديداً هي ما يُخضع النظرية لتشكيلة واسعة من الأدلة خارج اشتراطات الترجمة الراديكالية. إن وصية ديفيدسون ببساطة تحظر الاستعلام الطبيعاني في طبيعة المفسر. إذ تعد المساعي للتحقق من الوصف المشترط وتحسينه مساعي غير مشروعة، أو ربما خارج الموضوع لسبب ما. ويصح الشيء نفسه على كثير من التنويعات الأخرى.

في إعادة البناء التاريخية لأصول الـ "نظرية النظرية"، يلاحظ ستيفن ستيتش Stephen stich أنه مع "انحدار الثنائوية الديكارتية"، بدأ الفلاسفة يبحثون عن طريقة لتحديد موقع العقلي ضمن الجسدي، مماهين الأحداث العقلية بفئة من الأحداث في العالم الجسدي" (stich 1983: 14). هذا البحث أمكن أن يأخذ اتجاهين، كما يلاحظ: السعي إلى "تعريف القاموس العقلي بلغة عصبولوجية" (p : 14) أو تحليل المفاهيم العقلية بلغة السلوك، الذي يقود إلى السلوكوية الفلسفية. لقد غلب هذا الاتجاه الأخير، كما يجادل. والنوع الذي راجعته هنا هو جانب على درجة كبيرة من قوة التأثير، وبلا سمات لا يمكن إصلاحها، على حد فهمي. أما الاتجاه الآخر فقد جرى بحثه أيضاً، لكنه أيضاً مشوب بثنائوية غير مبررة.

قبل العودة إلى ذلك، أقدم بضع تعليقات حول هذه الطريقة لتأطير القضايا. أولاً، إن الأسباب الكامنة وراء انهيار الثنائوية الديكارتية يساء تفسيرها بطريقة ما: فكما لاحظنا، كانت نظرية الجسد هي التي تم دحضها، مع عدم وجود مشكلة عقل ـ جسد

قابلة للفهم، أو عدم وجود مفهوم للـ "جسدي"، ..الخ. في هذا المجال، ليس لدينا سوى المقاربة الطبيعانية: إنشاء نظرية تفسيرية بأية مصطلحات تكون ملائمة، ومواجهة مشكلة التوحيد. ثانياً، مجرد أمل، في الوقت الحالي، أن تكون "المصطلحات العصبولوجية" وثيقة الصلة بموضوع مشكلة التوحيد. أخيراً، لا يوجد مبرر لمحاولة تعريف "القاموس العقلي" للخطاب العادي في إطار طبيعاني، مثلما أن أحداً لم يفكر في ذلك لأجل "القاموس الجسدي"، على الأقل في العصر الحديث. يتوصل ستيتش إلى استنتاج مماثل، لكن ليس واضحاً لماذا يتطلب ذلك حجة، إذا وضعنا التحيز الثنائوي جانباً.

يثمر الاستعلام الطبيعاني في العقل نظريات حول الدماغ وحالاته وخواصه: ومنها نظرية النمو الكلي UG، على سبيل المثال. لا أحد يعرف كيف يبدأ بربط هذه النظريات بخواص الذرات أو الخلايا أو العصبونات، أو بنى الدماغ الأخرى المعروفة. إن التنافر بين نظريات العقل وما تم تعلمه حول الفيزيولوجيا العصبية "يخلق أزمة بالنسبة للذين يعتقدون أن الجهاز العصبي دقيق ويكون من أسلاك"hardwired" ومثل الحاسوب"، كما يستنتج عالم الأحياء جيرالد إدلمان (27f :1992)؛ وبالنسبة للنظريات الترابطية connectionist ونظريات الشبكة العصبونية أيضاً. تقدم التواريخ الفردية المنوعة للجهاز العصبي و"التغير البنيوي الفردي الهائل" للدماغ الضربة القاضية [رصاصة الرحمة] (في الواقع ضربات عديدة)"! (Edelman 1992: postscript) على المحاولات لإنشاء نظريات حوسبية أو نظريات شبكية عصبونية للعقل. ظاهرياً، يعتبر

إدلمان هذا صحيحاً بغض النظر عن مدى نجاح هذه الدراسات، الآن أو في أي وقت، بمعايير العلم (الشرح، التبصر، الخ).

بمنطق مماثل، كان بمقدور المرء أن يجادل منذ وقت غير طويل أنه توجد أزمة رهيبة في دراسة المادة والمتعضيات بلغة الألوان، والتكافؤ والحالة الصلبة، وعدد من الخواص الأخرى؛ وقبلئذ، في استقصاء الكهرباء والمغناطيسية، والحركة الكوكبية والحركات السماوية، الخ. من الناحية الافتراضية، كان كل العلم في أزمة بسبب الفجوة الهائلة بين ما تم تعلمه حول هذه الموضوعات ومبادئ الفلسفة الميكانيكية (أو حتى الفيزياء الأحدث عهداً بكثير). إن الأزمة التي يتصورها إدلمان حقيقية لكنها في غير محلها.

فيما يتعلق بالتغير الهائل في بنية الأدمغة والخبرة، فلا ينبئنا إلا بالقليل. منذ سنوات قليلة، كان يبدو أن اللغات تختلف عن بعضها البعض اختلافاً جذرياً مثلما تختلف البنى العصبية بالنسبة للكثير من المتخصصين اليوم، فاعتبرت انعكاسات للخبرة المتنوعة بشكل لا نهائي. إن أي نظام معقد سيبدو خليطاً يائسة من الفوضى قبل أن يصبح مفهوماً، وقبل أن تكتشف مبادئ تنظيمه ووظيفته. يجادل إدلمان بأن إدخال اعتبارات المعنى سيتغلب بشكل ما على المشاكل المزعومة للمقاربات "الشكلانية". إنه يخطئ فهم هذه المقاربات بشكل خطير - هكذا تشير تعليقاته القليلة - لكن الأهم هي الرؤية المغلوطة لعلم الدلالات semantics. إن الخواص الدلالية البسيطة تطرح كل المشاكل التي يتصورها إدلمان في النظريات والبنى التركيبية فهي محكومة بقواعد، مرسومة الحدود بشكل حاد، وثابتة في الاستقلال النسبي للخبرة والجوانب المعروفة للبنية

العصبية؛ من هنا فهي أيضاً تحدث "الأزمة" الناجمة عن الفجوة بين الخصيصة الخوارزمية، الرقمية الظاهرة للغة وبين التغيرية الملحوظة والتدفق المستمر للخبرة الفردية والبنية العصبونية. إننا نواجه مشكلة نموذجية للتوحيد في العلوم يمكن، كما حدث غالباً في الماضي، أن تتطلب إعادة صياغة العلم الأكثر "أساسية" بشكل أساسي إذا كان يتعين دمجه مع النظرية التفسيرية الناجحة على مستويات أخرى.

لقد تم اقتراح علاجات شتى لمعالجة "الأزمة". أحد هذه العلاجات هو القائل بأن "العقلي هو الفيزيولوجي العصبي على مستوى أعلى". قد يتبين أن ذلك صحيح، لكنه الآن لا يعدو أن يكون فرضية حول الفيزيولوجي العصبي، وليس توصيفاً للعقلي؛ إنه الحذاء في القدم الخطأ، في ضوء ما هو مفهوم. أما الاقتراح الآخر فهو الطبعة "المادية الإزالوية" التي تعتقد أن علينا أن نركز على الفيزيولوجيا العصبية، الذي ليس له من المعنى إلا بقدر ما كان للاقتراح الذي كان يقول منذ بعض الوقت إن الكيمياء ينبغي التخلي عنها لصالح دراسة الجسيمات الصلبة في الحركة، أو أن على علماء الأجنة embryology أن يتبعوا المنهج نفسه. ثمة أدبيات هامة تسأل عما يقتضيه ذلك ضمناً لو كان بمقدور نماذج الشبكة العصبية (الترابطية connectionist) أن تفسر الظاهرات التي شرحها بلغة الأنظمة الحوسبية ـ التمثيلية. هذه المناقشة قد تبدو طبيعانية في النزعة، لكن هذا واضح بصعوبة. إن قليلاً من البيولوجيين سوف ينخدعون بالاقتراح القائل بأن الأنظمة اللامبنية (عديمة البنية) ذات الخواص المجهولة قد تجعل في يوم ما من الممكن تفسير نشوء المتعضيات بدون اللجوء إلى التراكيب المعقدة في ضوء تركيز

المواد الكيميائية، والبرنامج الداخلي للخلية، وإنتاج البروتينات، وهلم جرا.

في بعض المجالات، وخصوصاً اللغة ـ تكون النظريات الناجحة عموماً من النوع الحوسبي ـ التمثيلي، [وهي] حقيقة تسبب ارتباكاً كبيراً. لإزالة هذا الارتباك، يُستعان بالنمذجة الحاسوبية غالباً لإظهار أن لدينا حالات شاقة، عنيدة من [هذا] النوع: إن علم النفس إذاً يدرس مشاكل البرمجيات software. هذا توجه مشكوك فيه؛ فالنتاجات الصنعية للإنسان تطرح أسئلة لا تبرز في حالة الأشياء الطبيعية. فكون شيء ما مفتاحاً أم طاولة أم حاسوباً يعتمد على قصد المصمم، والاستعمال المتعارف عليه ونمط التفسير، وهلم جرا. تبرز الاعتبارات نفسها عندما نسأل ما إذا كان الجهاز يخطئ القيام بوظائفه، يتبع قاعدة، الخ. لا يوجد نوع طبيعي أو حالة معيارية. هذه المسائل لا تبرز في دراسة الجزيئات العضوية، أو دراسة أجنحة الدجاج، أو ملكة اللغة، أو الأشياء الطبيعية الأخرى. إن الاعتقاد بأنه كان ثمة مشكلة يتعين حلها، خارج المشاكل العادية، إنما يعكس ثنائوية غير مبررة، فالعلاج المقترح أسوأ من المرض.

هذه الملاحظات بالكاد تلامس سطح العناصر الثنائوية في الكثير من التفكير الأكثر سفسطة وتأثيراً حول اللغة والعقل. هذه [العناصر] ينبغي إما تسويغها أو التخلي عنها. إن انتقاد المقاربات الطبيعانية أيضاً يبدو لي مشوباً بالعيوب. ثمة، كما اعتقد، سبب وجيه لتفحص مذاهب تم افتراضها بشكل عرضي أكثر مما ينبغي تفحصاً دقيقاً، وإذا لم تصمد أمام هذا التحليل، فيبدو إلزامياً للغاية أن نسأل عن السبب.

الفصل الخامس

اللغة بوصفها موضوعاً طبيعياً

أود أن أناقش مقاربة للعقل تعتبر اللغة والظاهرات المماثلة بمثابة عناصر من العالم الطبيعي، يجب دراستها عن طريق الأساليب العادية للاستعلام التجريبي. سأستخدم مصطلحي "عقل" و"عقلي" هنا بدون أي معنى ميتافيزيقي. هكذا أفهم "عقلي" على أنه على قدم المساواة مع "كيميائي"، "بصري"، أو "كهربائي". إن بعض الظاهرات والأحداث والسيرورات والحالات تدعى بشكل عام "كيميائية".. (الخ)، لكن لا يوجد مميز ميتافيزيقي يُستوحى من ذلك. تُستعمل المصطلحات لاختيار بعض مظاهر العالم كبؤرة للاستعلام. فنحن لا نسعى إلى تحديد "المحك الحقيقي للكيميائي"، أو "علامة الكهربائي"، أو "حدود البصري". سأستخدم "عقلي" بالطريقة نفسها، بشيء ما يشبه التغطية العادية، لكن بدون معاني ضمنية أعمق. أقصد بـ "عقل" بالضبط المظاهر العقلية للعالم، بدون اهتمام بشحذ الحدود أو إيجاد محك أكثر من الاهتمام بالحالات الأخرى.

سأستخدم مصطلحي "لغوي" و"لغة" إلى حد كبير بالطريقة نفسها. إننا نركز الانتباه على مظاهر العالم التي تندرج تحت هذا العنوان غير التقني، ونحاول فهمها بشكل أفضل، في أثناء قيامنا

بذلك قد نطور ـ ونفعل ذلك ظاهرياً ـ مفهوماً يشبه تقريباً المفهوم غير التقني لـ "اللغة"، ونفترض أن هذه الموضوعات هي من بين الأشياء في العالم، جنباً إلى جنب مع الجزيئات المعقدة والحقول الكهربائية والجهاز البصري البشري، وهلم جرا.

إن المقاربة الطبيعانية للمظاهر اللغوية والعقلية للعالم تسعى إلى بناء نظريات تفسيرية قابلة للفهم، تعتبر "واقعياً" ما نُقاد إلى طرحه في هذا البحث، وتأمل في التوحيد النهائي مع العلوم الطبيعية "النواة": التوحيد، وليس الاختزال بالضرورة. فالاختزال الواسع النطاق نادر في تاريخ العلوم. على العموم كان على العلم الأكثر "أساسية" أن يخضع لمراجعة جذرية لكي يبدأ التوحيد. وحالة الكيمياء والفيزياء هي مثال حديث. إن تعليل بولينغ Pauling للرابطة الكيميائي لم يوحّد الحقلين [الكيمياء والفيزياء] إلا بعد أن جعلت ثورة الكم quantum في الفيزياء هذه الخطوات ممكنة. أما توحيد الكثير من البيولوجيا مع الكيمياء بعدئذ بسنوات قليلة فيمكن اعتباره بمثابة اختزال حقيقي، لكن هذا ليس شائعاً، وليست له أية دلالة ابستمولوجية خاصة أو أية أهمية أخرى: "توسيع" الفيزياء لتشمل ما كان معروفاً حول التكافؤ، الجدول الدوري، الأوزان الكيميائية، وهلم جرا، هو شكل من التوحيد لا يقل شرعية. في الحالة الراهنة، إن نظريات اللغة والعقل التي تبدو مبرهنة على النحو الأفضل على أسس طبيعانية تنسب إلى العقل / الدماغ خواص حوسبية computational من نوع مفهوم جيداً، مع أنها ليست معروفة بما يكفي لشرح كيف يمكن لبنية مكونة من

الخلايا أن تمتلك هذه الخواص. هذا يطرح مشكلة من مشكلات التوحيد، لكن من النوع المألوف.

ونحن لا نعرف كيف يمكن أن يسير التوحيد النهائي في هذه الحالة، أو إذا كنا قد عثرنا على المقولات الصحيحة التي ينبغي، أو حتى إذا كانت المسألة تندرج ضمن مجالنا المعرفي. إننا ببساطة لا نملك مبرراً لافتراض أن الخواص العقلية يتعين اختزالها إلى "خواص الشبكة العصبية"، كما تقول إحدى المزاعم النمطية (انظر باتريشيا تشرتشلاند 1994). إن الادعاءات المماثلة قد تبين غالباً أنها خاطئة في حقول أخرى وليس لها أية أهمية علمية خاصة في هذه الحالة. إذا فهمت الطروحة حول الشبكات العصبية كفرضية بحث، فحسناً؛ لننظر ونرى. أما إذا كان المقصود أكثر من ذلك، تبرز أسئلة خطيرة نوعاً ما.

أما فيما يتعلق بمسألة المجال المعرفي، إذا كان البشر جزءاً من العالم الطبيعي، وليسوا كائنات فوق طبيعية، عندئذٍ فإن الذكاء البشري يكون له مداه وحدوده التي يحددها التصميم البدئي. لهذا يمكننا أن نتنبأ بأن بعض المسائل لن تقع ضمن مجالهم المعرفي، تماماً كما تكون الجرذان غير قادرة على اجتياز المتاهات ذات الخواص العددية، لافتقارها إلى المفاهيم الملائمة. هذه المسائل، يمكن أن ندعوها "ألغازاً عند البشر"، تماماً مثلما أن بعض المسائل تطرح "ألغازاً عند الجرذان"، من بين هذه الألغاز قد تبرز الأسئلة، وأسئلة أخرى لا نعرف كيف نصيغها بشكل ملائم أو لا نعرف كيف نصيغها بالمرة. هذه البدهيات لا تعني وصم البشر "بضعف الذكاء". فنحن لا ندين الجنين البشري بوصفه "ضعيفاً" لأن

تعليماته الوراثية غنية بما يكفي لتمكينه من أن يصبح إنساناً، وبالتالي لسد المسارات الأخرى للتطور. فكل شخص سوف يصفق استحساناً إذا "تحولت مرتبة الأسئلة من ألغاز لا يمكننا سوى أن نتأملها بخشية، إلى مشاكل عويصة نبدأ بفك رموزها" (باتريشيا تشرتشلاند 1994)[1]. إن إثبات التحول بالنسبة للمسائل ذات الشأن التقليدي ليس أمراً تافهاً، وقد يسأل المرء ما إذا كانت الآفاق لا تزال بعيدة كما كانت من قبل، ربما لأسباب متجذرة في الموهبة الطبيعية البيولوجية البشرية.

يجادل دانييل دينت Daniel Dennett بأن مفهوم "المحدودية المعرفية"، في حين أنه "ملائم من الناحية العقائدية" فهو "غير مستقر من الناحية الخطابية"، لأن تشومسكي و[جيري] فودور قد ناديا بقدرة الدماغ البشري على الإعراب، وبالتالي الفهم المفترض، للامحدودية الرسمية للجمل النحوية للغة الطبيعية"، بما في ذلك تلك الجمل "التي تعبر أفضل تعبير عن حلول مشاكل الإرادة الحرة أو الوعي"، التي يزعم بشكل مغلوط أنني أعلنتها "خارج الحدود" (Dennett 1991:10). ومع ذلك، حتى لو كان بالإمكان صياغة الحلول بلغة بشرية ـ الأمر الذي يتعين البرهنة عليه، وليس ادعاؤه ـ فإن الحجة مغلوطة. أولاً، كما هو معروف جيداً، إن تعابير اللغة الطبيعية غالباً ما تكون غير قابلة للإعراب (ليس فقط بسبب الطول، أو التعقيد بمعنى ما مستقل عن طبيعة ملكة اللغة). ثانياً، حتى لو تم إعرابها وأعطيت تفسيراً، فقد تكون غير قابلة للفهم بشكل مطلق؛ ومن السهل جداً إيراد أمثلة على ذلك.

يقدم تـاريخ العلـوم المتقدمـة بعـض التبصـرات في السـعي نحـو التوحيد. لنأخذ نقطـة انطـلاق "الفلسـفة الميكانيكيـة" الـتي بلغـت أوجها في القرن السابع عشر: فكرة أن العالم آلـة مـن النـوع الـذي يمكن بناؤه من قبل صانع ماهر. هذا التصـور للعـالم لـه جـذوره في الفهم الفطـري، الـذي اسـتمد منـه الفرضـية الجذريـة القائلـة بـأن الأجسام [الأشياء] لا يمكن أن تتفاعل إلا عبر التماس المباشـر. كمـا هو معروف، فقد جادل رينيه ديكارت بـأن بعـض مظـاهر العـالم ـ بشكل حاسم، الاستعمال المعياري للغة ـ يقع خارج حدود النظريـة الآليـة mechanism. ولتعليـل ذلـك، افـترض (ديكـارت) مبـدأ جديداً؛ في إطاره، ثمة مادة ثانية جوهرهـا الفكـر. بـرزت "مشـكلة التوحيـد" كسـؤال حـول تفاعـل الجسـد والعقـل. هـذه الثنائويـة الميتافيزيقية كانت طبيعانية في الجوهر، تستخدم الأدلـة التجريبيـة لأجل الطروحات الواقعية حول العالم ـ إنهـا خاطئـة، لكنهـا إذاً، تلك هي القاعدة ـ.

سرعان ما انهارت النظرية الديكارتية. عندما أظهر اسحق نيوتن أن الحركة الأرضية والكوكبية تقع خارج حدود الفلسفة الميكانيكيـة ـ خارج ما كان مفهوماً على أنه الجسـد، أو المـادة. فمـا بقـي كـان صورة للعـالم "مضـادة للماديـة" antimaterialist و"كانـت تعتمـد بشكل كبير على القوى الروحية" على حد تعبير مارغريت جاكوب (M. Jacob 1988 :97) لقد أدان العلماء الرواد بشدة توسل نيوتن للجاذبية إذ يشير إ. ج. دييكسترهويس E. J. Dijksterhuis إلى أن "رواد الفلسفة الآليوية الحقيقية اعتبروا نظرية الجاذبيـة (لنسـتعمل كلمات بويل Boyle وهويغنز Huygens) بمثابة ردة إلى التصورات

القروسطية التي كان يعتقد أنها قد تلاشت، وكنوع من الخيانة لمشروعية العلم الطبيعي" (Dijksterhuis 1986 :479). لقد كانت "القوة الغامضة" لنيوتن عودة إلى العصور المظلمة التي "انعتق منها العلماء"، و"الفيزياء السكولاستيكية [المدرسية] للكيفيات والقدرات" و"المبادئ التفسيرية الأرواحية" animistic، وما شابه من المبادئ، التي أقرّت بالتفاعل بدون احتكاك مباشر". لقد كان كما لو أن نيوتن قد أثبت أن الشمس تولّد في الكواكب خاصية تجعلها ترسم قطوعاً ناقصة ellipses". ويدين لايبنتيز وهويغنز، في مراسلاتهما، نيوتن بسبب التخلي عن المبادئ الميكانيكية "الراسخة والانحراف إلى "التعاطفات والكراهيات" الصوفية، "الخاصيات اللامادية والعصية على التفسير". يبدو أن نيوتن قد توصل إلى تسوية. إذ أن سياق تعليقه الشهير "أنا لا أصيغ فرضيات" كان تعبيراً عن القلق من عدم قدرته على "تحديد سبب هذه القدرة" للجاذبية، يحيد لذلك عن "الأسباب الميكانيكية". لذلك كان عليه أن يقنع نفسه باستنتاج "أن الجاذبية موجودة فعلاً"، وأن قوانينها تفسر "كل حركات الأجرام السماوية، وحركات بحرنا" - مع أنه اعتبر المبدأ الذي افترضه "سخيفاً". كان نيوتن، حتى آخر حياته، يبحث عن "روح مرهفة تتخلل وتكمن خفية في كل الأجسام الكبيرة" من شأنها أن تعلل التفاعل والتجاذب والتنافر الكهربائيين، وأثر الضوء، الإحساس، والطريقة التي "تتحرك بها أعضاء الأجسام الحيوانية - بإيعاز من الإرادة". (كان) ثمة جهود مماثلة استمرت لقرون من الزمن.

هذه الهموم، في أصول العلم الحديث، تمتلك شيئاً من نكهة النقاش المعاصر "لمشكلة العقل ـ الجسد". إنها أيضاً تثير أسئلة حول ما هو موضع الرهان. يلاحظ توماس ناغل أن "المحاولات المختلفة لإنجاز هذه المهمة المستحيلة ظاهرياً [لاختزال العقل إلى مادة] والمجادلات لإظهار أنها قد فشلت، تشكل تاريخ فلسفة العقل أثناء الخمسين سنة الماضية". وتتمثل المهمة اليائسة في "إكمال صورة العالم المادي" بترجمة تفسيرات "الظاهرات العقلية" في ضوء "وصف يكون جسدياً بشكل صريح أو يستعمل فقط مصطلحات يمكن أن تنطبق على ما هو جسدي كلياً" أو ربما يفرض شروط الجزم assertability" على "أسس قابلة للرصد خارجياً" (Nagel 1993 :99). في مراجعة شاملة لقرن من فلسفة العقل (انظر أيضاً الفصل الرابع من هذا الكتاب)، يناقش تايلر بورغ Tyler Burge ظهور الطبيعانية ("المادية"، "الجسدانية") في الستينات 1960 بوصفها "إحدى الأورثوذكسيات القليلة في الفلسفة الأميركية" (1992: 32). إن الرأي القائل بأنه لا توجد حالات (خواص، الخ) عقلية "فوق وزيادة على الكيانات الجسدية العادية، الكيانات القابلة للتعريف في العلوم الجسدية أو الكيانات التي تعتبرها الفطرة "جسدية" (1992: 31؛ انظر أيضاً الفصل الرابع من هذا الكتاب).

هذه المناقشات تفترض، خلافاً لنيوتن ومعاصريه، أن نيوتن بقي ضمن "صورة العالم المادية" materialistic"، وهذه لا تصح إلا إذا فهمنا "صورة العالم المادية" أنها ما يبنيه العلم، كيفما كان يحيد عن "الأسباب الميكانيكية". لنعبر عن ذلك بشكل مختلف، فإن

المناقشات تفترض مسبقاً بعض الفهم المسبق لما هو جسدي أو مادي، ما هي الكيانات الجسدية. هذه المصطلحات كان لها معنى ما ضمن الفلسفة الميكانيكية، لكن ما الذي تعنيه في عالم قائم على "القوة الغامضة" عند نيوتن أو على بعض الأفكار الأكثر غموضاً لحقول القوة والفضاء المنحني، والأوتار اللانهائية ذات البعد الواحد في فضاء ذي عشرة أبعاد. أو أي شيء يمكن أن يخترعه العلم غداً؟ إننا، إذ نفتقر إلى مفهوم لـ "المادة" أو "الجسد" أو "الجسدي" لا نمتلك طريقة متسقة لصياغة القضايا المتصلة بـ "مشكلة العقل - الجسد". إذ كانت هذه مشاكل حقيقية للعلم في أيام الفلسفة الميكانيكية. منذ زوالها، تفترض العلوم لكل ما تجده مكاناً في النظرية التفسيرية المعقولة، مهما كان ذلك مخالفاً للفطرة. لا يمكن إثارة مثل هذه المخاوف تحديداً حول حقل العقلي أو المظاهر الأخرى للعالم إلا بناءً على فرضيات ثنائوية غير مبررة.

إن العداء للمادية لدى النيوتنيين سرعان ما أصبح راسخاً. ففي منتصف القرن الثامن عشر، كانت الكتابات المادية لديدرو Diderot كما يبدو عاملاً مؤثراً في الرفض الشديد لعضويته في الجمعية الملكية Royal Society. كتب هيوم hume أن "نيوتن يبدو كأنه يكشف النقاب عن بعض ألغاز الطبيعة"، لكنه "أظهر في الوقت نفسه عيوب الفلسفة الميكانية؛ وبموجب ذلك فقد رد الأسرار الأساسية [للطبيعة] إلى ذاك الغموض الذي كانت تعمل فيه وستبقى دوماً".

(انظر هيوم 1841، المجلد 6: 343 ورد لدى غاي 1977: 130).

في بعض الأحيان تم إنكار أن هذه الأسرار يمكن أن تبقى غامضة. كان اسحق بيكمان Isaac Beekman، الذي يعرفه جاكوب بأنه "أول فيلسوف ميكانيكي للثورة العلمية" (52: 1988 M. Jacob)، واثقاً من أن "الله قد بنى عالم الطبيعة هكذا بحيث يمكن لفهمنا أن يخترق كلياً كل الأشياء على الأرض" (3- 52: M. Jacob 1988). ثمة طروحات مشابهة يتم تقديمها اليوم بقدر مماثل من الثقة، بالأخص من قبل أناس يصفون أنفسهم بأنهم طبيعانيون علميون عنيدون ويستشهدون بشكل نموذجي بصيغة بيكمان، مستبدلين "الله" بـ "الاصطفاء الطبيعي" - حتى بتبرير أقل، لأن الإله في الآلة deux ex machina يكون معرّفاً بشكل أفضل في هذه الحالة، لذلك من السهل أن نفهم لماذا تفشل الحجج.

رغم أن النزعة المضادة للمادية لدى نيوتن أصبحت بديهة علمية، فإن وساوسه لم تهدأ فعلاً. كان أحد التعبيرات عنها هو الاعتقاد بأن الطبيعة غير قابلة للمعرفة. أما التنويع الآخر فيؤمن بأن الطرح النظري فيجب أن يُفسر تفسيراً عملانياً operationalist فقط. فقد كان لافوازييه Lavoisier يؤمن بأن "عدد وطبيعة العناصر" مشكلة غير قابلة للحل، فهي قابلة لعدد لانهائي من الحلول من المحتمل ألا ينسجم أي منها مع الطبيعة؛ "يبدو من غير المحتمل إلى درجة قصوى أننا لا نعرف شيئاً على الإطلاق حول الذرات غير القابلة للتجزئة التي تتألف منها المادة" (Lavoisier, cited in Brock 1992 :129) ولن نعرف أبداً، كما كان يعتقد. لقد وصف لودفيغ بولتزمان Ludwig Boltzmann نظريته الجزيئية حول الغازات بأنها ليست سوى تشبيه جزئي

analogy ملائم. كان جول بوانكاري Jules poincaré يعتقد أننا لا نملك مبررا للاختيار بين النظريات الأثيرية الميكانيكية أو النظريات الكهرطيسية للضوء وأننا نقبل النظريات الجزيئية للغازات لأننا على إطلاع على لعبة البليارد (165: 1992 Brock). كانت ذرات الكيميائي تُعَدُّ "كيانات نظرية، ميتافيزيقية"، على حد تعبير وليام بروك، تفسر عملانياً، وتقدم "أساساً مفاهيمياً" لتحديد الأوزان العنصرية [الأولية] النسبية وتحديد الصيغ الجزيئية" (p. 171). وهذه الوسائل الأداتية تم تمييزها عن "الذريوية الفيزيائية المثيرة للجدل إلى حد كبير، التي أطلقت مزاعم بخصوص الطبيعة الميكانيكية الجوهرية لكل المواد". لم يتحقق التوحيد إلا بتغيرات جذرية في الذريوية atomism الفيزيائية: نموذج بور Bohr، نظرية الكم، واكتشافات بولينغ (انظر Chomsky 1986: 251-2, citing Heilbron). لقد تغلب التوحيد نهائياً على ما كان قد بدا أنه هوة لا يمكن ردمها، قبل بلانك pre- planck: "كانت مادة الكيميائي واضحة المعالم وغير مترابطة، وكانت الطاقة المستمرة للفيزيائي، عالماً سديمياً ورياضياً من الطاقة والأمواج الكهرطيسية.." (489: Brock 1993).

في منتصف القرن التاسع عشر، اعتبرت الصيغ المحللة للجزيئات المعقدة "مجرد رموز تصنيفية تلخص المسار المرصود للتفاعل"؛ "كانت الطبيعة الجوهرية للتكتلات الجزيئية غير قابلة للحل" كما كان يعتقد، و"التراتيب الحقيقية للذرات ضمن الجزيء"، إن كان ذلك حتى يعني أي شيء، فهو "لا يجب قراءته" في الصيغ (254: Brock 1992). كان كيكولي Kekulé الذي مهدت

كيمياؤه البنيوية الطريق إلى التوحيد النهائي، يشك في أن "الدساتير المطلقة للجزيئات العضوية لا يمكن تقديمها" (p. 252)؛ كان على نماذجه وتحليله للتكافؤ valency أن تكون ذات تفسير أداتي فقط. فحتى سبعينات القرن التاسع عشر (1870) رفض كيكولي فكرة أن "الصيغ المعقولة.. كانت تمثل فعلاً التراتيب الحقيقية لذرات الجزيء". في وقت متأخر من عام 1886، لم يكن مسموحاً للمدارس الفرنسية أن تدرس النظرية الذرية لأنها كانت "مجرد فرضية"، بقرار من وزير التربية، الكيميائي الشهير برتولو Bertholot.

بعد أربعين عاماً من ذلك، سخر عالم بارز من السخافة المفاهيمية لاقتراح ج. ن. لويس G. N. Lewis القائل بأن القشرات الذرية قابلة للاختراق بشكل متبادل بحيث أن الإلكترون "يمكن أن يشكل جزءاً من قشرة ذرتين مختلفتين".. فيما بعد صار "مبدأ أساسياً لميكانيك الكم الجديد"، كما يلاحظ بروك (476: 1992). كان ذلك مرادفاً للقول بأن الزوج والزوجة، بامتلاكهما مجموعاً قدره دولارين في حساب مشترك وامتلاك كل واحد منهما ستة دولارات في حسابين مصرفيين مستقلين، يكونان قد امتلكا ثمانية دولارات لكل فرد منهما"، كما نص أحد الاعتراضات (Brock 1992: 477 citing Kasimir Fajans)؛ كما لو أن الالكترونات "تصطف دائرياً على صناديق سلع جافة في كل زاوية، مستعدة للتصافح مع.. الالكترونات في الذرات الأخرى"، [كما] علق محاضر متميز بسخرية في معهد فارادي (Brock 1992: 477 citing R. A. Mullikan) إن ثيودور ريتشاردز Theodre Richards أول كيميائي أمريكي يفوز بجائزة نوبل، رفض الحديث حول الطبيعة الحقيقية للروابط

الكيميائية بوصفها "ثرثرة" ميتافيزيقية. لم يكن هذا أكثر من "طريقة فجة جداً لتمثيل بعض الحقائق المعروفة حول التفاعلات الكيميائية. إنه نموذج للتمثيل" فحسب (Brock: 466, citing Theodore Richards). إن رفض تلك الشكية من قبل لويس وآخرين قد مهد الطريق إلى التوحيد النهائي.

ليس من الصعب أن نجد نظائر معاصرة في مناقشة مشكلة العقل ـ الجسد، مهما يفترض بها أن تعنيه فحسب. ثمة، كما أعتقد، قدر كبير لنتعلمه من تاريخ العلوم منذ أن تخلت عن الأسس الفطرية، دائماً بشيء من القلق حول ما الذي تفعله بالضبط. يتعين علينا الآن أن نكون قادرين على أن نقبل أن ليس بمقدورنا أن نفعل أكثر من البحث عن "أفضل النظريات"، بدون أي معيار مستقل للتقييم بعيداً عن المساهمة في الفهم، والأمل في التوحيد، على حد بدون أي مذهب مسبق حول كيف، وما إذا، كان بالإمكان إنجاز ذلك. كما تعبير مايكل فريدمان M. Friedman، فإن "فلاسفة التراث الحديث"، منذ ديكارت، "لا يفهمون على النحو الأفضل باعتبارهم يحاولون الوقوف خارج العلم الجديد لكي يظهروا، من زاوية غامضة خارج العلم نفسه، أن معرفتنا العلمية "تعكس" بشكل ما واقعاً قائماً بشكل مستقل. بالأحرى، [إنهم] ينطلقون من حقيقة المعرفة العلمية الحديثة بوصفها نقطة ثابتة، إذا جاز القول. إن مشكلتهم ليست تبرير هذه المعرفة من منطلق "أرقى" بقدر ما هي الإفصاح عن التصورات الفلسفية الجديدة التي يفرضها علينا قسراً العلم الجديد (Friedman 1993: 48). بكلمات كانط، فإن الرياضيات وعلم الطبيعة ليسا بحاجة إلى استعلام فلسفي لذاتهما،

"بل من أجل علم آخر: علم ما وراء الطبيعة" metaphysics (Kant 1783: section 40)

بناءً على هذه الرؤية، فإن العلوم الطبيعية ـ سواءً كان الموضوع هو حركة الكواكب، أو نمو المتعضي، أو اللغة والعقل ـ هي "الفلسفة الأولى". هذه الفكرة شائعة الآن بخصوص الفيزياء؛ إنه لفيلسوف نادر الوجود الذي يهزأ من مبادئها الغريبة والمضادة للحدس كنقيض للتفكير السليم وبالتالي يتعذر الدفاع عنها. لكن هذا المنطلق يعد عموماً غير قابل للتطبيق على العلم المعرفي، واللسانيات بوجه خاص. فهناك حد [فاصل] في مكان ما في الوسط. ضمن ذاك الحد يكون العلم ذاتي التبرير؛ إذ يسعى المحلل النقدي إلى التعلم حول المحكات لأجل العقلانية والتبرير من خلال دراسة النجاح العلمي. وراء ذاك الحد، يتغير كل شيء؛ فالناقد يطبق محكات مستقلة لكي يصدر حكماً على النظريات المقدّمة والكيانات التي تشترطها. هذا لا يبدو أكثر من نوع من "الثنائوية المنهجية" أكثر ضرراً بكثير من الثنائوية الميتافيزيقية التقليدية، التي كانت فرضية علمية، طبيعانية الروح. بالتخلي عن هذا الموقف الثنائوي، نتابع الاستعلام إلى حيث يؤدي.

ينبغي علينا أيضاً أن تكون قادرين الآن على تبني موقفاً إزاء مشكلة العقل ـ الجسد التي استنبطت في أعقاب دحض نيوتن للمادية والفلسفة الميكانيكية: على سبيل المثال، موقف جوزف بريستلي Joseph priestley، الذي استنتج أن "ليس كل شيء يختزل إلى مادة، بل بالأحرى لا وجود لنوع المادة الذي تقوم عليه رؤية الجوهرين Two – substance" و"مع المفهوم المتبدل للمادة

فإن الطرق الأكثر تقليدية لطرح سؤال طبيعة الفكر وعلاقاته بالدماغ ليست ملائمة. يتعين علينا أن نفكر بنظام بيولوجي منظم معقد ذي خواص كان المذهب التقليدي قد دعاها "عقلية" و"جسدية". (John Yolton 1983 : 114).

بكلمات بريستلي الخاصة، فإن المادة "تتملكها قوى الجذب والنبذ" التي تفعل فعلها على "مسافة حقيقية وقابلة للتعيين عموماً عما يمكن أن ندعوه الجسد ذاته"، خواص هي "أساسية على نحو مطلق للطبيعة ذاتها" (Yolton 1983 : 111). هكذا نتغلب على الاعتقاد الساذج بأن الأجسام (ناهيك عن الذرات) تمتلك صلابة وتماسكاً متأصلين، ما يستبعد الحجج المستندة على "العبارات المبتذلة" و"الإدراكات المبتذلة" كما في البحث عن ياء النسبة المشار إليها في عبارة "جسدي". ومع الاكتشافات النيوتنية، فإن المادة "ينبغي أن تبرز في تقديرنا، باعتبارها تحقق اقتراباً أكثر إلى طبيعة الكائنات الروحانية واللامادية، فتكون "وصمة الصلابة أو الجمود أو الخمول" قد أزيلت (ص. 113). فالمادة ليست أكثر تضارباً مع الإحساس والتفكير مما هي مع الجذب والنبذ. "إن قدرات الإحساس أو الإدراك والتفكير هي خواص لـ "نسق منظم محدد من المادة"؛ فالخواص التي "تسمى اصطلاحاً عقلية" هي "النتيجة (سواءً كانت ضرورية أم لا) لبنية عضوية مثل بنية الدماغ". من المنطقي أن نؤمن بأن "قدرات الإحساس والتفكير هي النتيجة الضرورية لتنظيم بعينه، مثلما أن الصوت هو النتيجة الضرورية لهزة بعينها من الهواء". إن التفكير لدى البشر "هو خاصية للجهاز العصبي، أو بالأحرى للدماغ". لقد تم التوصل إلى استنتاجات

مماثلة من قبل لامتري La mettrie قبلئذ بجيل، وإن كان ذلك على أسس مختلفة.

بشكل أكثر حذراً، يمكننا القول إنه في الظروف الملائمة فإن البشر هم الذين يفكرون وليس أدمغتهم، التي لا تفكر، مع أن أدمغتهم تقدم إواليات التفكير. يمكنني أن أقوم بعملية قسمة طويلة عن طريق إجراء تعلمته في المدرسة. لكن دماغي لا يقوم بعملية القسمة حتى لو كان ينفذ الإجراء. بشكل مماثل، فإنني، نفسي، لا أقوم بعملية القسمة الطويلة إذا كنت أنفذ بشكل آلي التعليمات التي يتم تفسيرها بأنها الخوارزم algorithm ذاته الذي استعمله، استجابة للمدخلات inputs في شيفرة ما في "حجرة حسابية" "arithmetic room" على طريقة سيرل Searle. لا شيء يترتب على تنفيذ دماغي للخوارزم في هذه الحالة أو في حالة الترجمة والفهم. فالبشر في أوضاع معينة يفهمون اللغة؛ إن دماغي لا يعود يفهم الإنكليزية أكثر مما تقوم قدماي بالمشي. إنها قفزة كبيرة من الصفات القصدية الفطرية المنسوبة للبشر، إلى هذه الصفات المنسوبة لأجزاء من البشر أو أشياء أخرى. هذه النقلة تم القيام بها بسهولة للغاية مؤدية إلى سجال واسع ويبدو بلا هدف حول أسئلة مزعومة من قبيل ما إذا كانت الآلات بإمكانها أن تفكر: على سبيل المثال، "كيف يمكن للمرء أن يدافع تجريبياً عن الزعم القائل بأن جسماً مفترضاً (غريباً) يلعب الشطرنج (Haugeland 1979)، أو يقرر ما إذا كان بإمكان نتاج صنعي ما أو خوارزم أن يترجم الصينية، أو يتناول شيئاً، أو يرتكب جريمة قتل، أو يؤمن بأن السماء ستمطر. يعود كثير من هذه السجالات إلى الورقة الكلاسيكية التي تقدم بها آلان تورينغ Alan

Turing واقترح فيها اختبار تورينغ لأجل ذكاء الآلة، لكنها تخفق في الانتباه إلى ملاحظة أن "السؤال الأصلي، "هل يمكن للآلات أن تفكر" أعتقد أنه عديم المعنى بحيث لا يستحق المناقشة" (تورينغ 1950: 442): إنها ليست مسألة حقيقية، بل مسألة تقرير ما إذا كان يتعين تبني استعمال مجازي معين، كما عندما نقول (بالإنكليزية) إن الطائرات تطير لكن المذنبات لا تفعل ذلك ـ وفيما يتعلق بمكوكات الفضاء، فإن الاختيار يختلف. بشكل مماثل، فإن الغواصات تبحر لكنها لا تسبح. لا يمكن أن يوجد سجال معقول حول هذه الموضوعات، أو حول ذكاء الآلة، مع وجود الأشكال المنوعة المألوفة العديدة.

ربما كان يجدر بنا أن نقارن السجال المعاصر مع مناقشة القرنين السابع عشر والثامن عشر لموضوعات مشابهة. ففي ذاك الوقت أيضاً، كان كثير من الناس مخدوعين بقدرات النتاجات الصنعية، واختلفوا حول ما إذا كان بإمكان البشر ببساطة أن يكونوا أجهزة ذات تعقيد أكبر وتصميم مختلف ـ لكن السجال كان طبيعانياً بطبيعته، له صلة بخواص ليست مدرجة تحت الفلسفة الميكانيكية، كما كان يبدو. إن ديكارت وأتباعه، وأبرزهم جيرو دوكوردموا Géraud de Cordemoy، بالتركيز على استعمال اللغة، قد وضعوا الخطوط العامة للاختبارات التجريبية لأجل "العقول الأخرى"، معتقدين أنه إذا مر جسم ما بأقسى التجارب التي يمكنني أن أستنبطها لاختبار ما إذا كان يعبر عن ويفسر الأفكار الجديدة مثلما أفعل أنا، فسيكون من "غير المعقول" أن نشك في كونه يمتلك عقلاً مثل عقلي. هذا علم عادي، مكافئ لاختبار ورق عباد الشمس للكشف عن الحموضة. تمت متابعة

مشروع محاكاة الآلة بشكل نشيط، لكن بوصفه طريقة لاكتشاف شيئاً ما حول العالم. لم يكن المخترع الكبير جاك دو فوكانسون Jacques de Vaucanson يسعى إلى خداع جمهوره إلى حد الاعتقاد بأن بطته الميكانيكية تهضم الطعام، بل بالأحرى لكي يتعلموا شيئاً ما حول الكائنات الحية عن طريق بناء النماذج، كما هو متعارف عليه في العلوم. إن السجال المعاصر يتعارض بشكل غير مؤات مع التقاليد [العلمية] القديمة، كما يبدو (Jonathan Marshall 1989; See also: chomsky 1993a) لأجل مزيد من التعليقات والنقاش الموسع انظر Chomsky 1966)

وتصح اعتبارات مشابهة بخصوص المصطلحات القصدية المستعملة بشكل شائع في وصف ما يحدث في العالم. لذلك نقول إن الكويكب يتجه صوب الأرض والصاروخ ينطلق نحو القمر، والزهرة تنتحي نحو الضوء، والنحلة تطير إلى الزهرة، والشمبانزي يمتط من أجل جوزة الهند، وجون يسير إلى مقعده. وربما تمتلك نظرية طبيعانية مستقبلية شيئاً ما لتقوله حول الاستعمال المعياري [للغة] وحول الحالات التي تسعى إلى الانكباب عليها، [بوصفهما] موضوعين مختلفين تماماً. فأي من الاستعلامين لن يكون ملزماً بـ "العبارات والإدراكات المبتذلة"، تماماً كما أننا لا نتوقع من نظرية الرؤية أن تعالج رؤية كلنتون للسوق العالمية، أو نتوقع من نظرية اللغة أن تعالج حقيقة أن الصينية هي لغة بكين وهونغ كونغ، مع أن لغة الرومانس* Romance ليست لغة بوخارست وريو دو جانيرو ـ نتيجة لعوامل مثل استقرار الامبراطوريات وماشابه.

سيكون من المضلل أن نقول إننا نتخلى عن النظريات theories [القائلة بأن] الكويكب يتجه صوب الأرض، والشمس تغرب والسماء تظلم، والموجة ضربت الشاطئ ثم ارتدت، أن الريح قد هدأت والأمواج تلاشت، أن البشر يتكلمون الصينية وليس الرومانسية، وهلم جرا، مستبدلين إياها بنظريات أفضل. بالأحرى، إن البحث عن الفهم النظري يتبع مساراته الخاصة به، مؤدياً إلى صورة مختلفة كلياً للعالم، [صورة] لا تصون ولا تمحو طرقنا العادية في التحدث والتفكير. هذه [المسارات] يمكن أن نتوصل إلى تقييمها وتعديلها وإغنائها بطرق كثيرة، مع أن العلم نادراً ما يكون دليلاً في المجالات المهمة للبشر. والاستعلام الطبيعاني هو مشروع إنساني خاص ينشد نوعاً خاصاً من الفهم، قابلاً للإحراز بالنسبة للبشر في بعض الحقول القليلة عندما يمكن تبسيط المشاكل بشكل كافٍ. في هذه الأثناء، فإننا نحيا حيواتنا، نواجه بقدر مانستطيع مشاكل من أنواع مختلفة اختلافاً جذرياً، غنية بطبيعتها إلى درجة لا تسمح لنا بان نأمل في امتلاك القدرة على تبين مبادئ تفسيرية من أي عمق، إن وجدت هذه المبادئ. (من أجل استنتاجات مشابهة نوعاً ما على أسس مختلفة، انظر:

(Baker (1988) and Charles Chastain's comments)

ولا يبدو الرأي الأساسي لبريستلي وشخصيات القرن الثامن عشر الآخرين موضع خلاف: فالفكر واللغة هما خاصيتان للمادة المنظمة - وهي في هذه الحالة، غالباً، الدماغ، وليس الكلية أو القدم. من غير الواضح لماذا يتعين إحياء هذا الاستنتاج بعد قرون بوصفه افتراضاً مغامراً وتجديدياً - "الجزم الجريء بأن الظاهرات العقلية هي

طبيعية بالكامل وتسببها النشاطات الفيزيولوجية للدماغ"، (Patricia churchland 1994) فرضية "أن قدرات العقل البشري هي في الحقيقة قدرات الدماغ البشري" (Panl Churchland 1994)؛ أو أن "الوعي هو مستوى أرقى أو خاصية ناشئة للدماغ"، "مثل كثير من الأنظمة البيولوجية الطبيعية كالتركيب الضوئي، أو الهضم، أو الانقسام الخيطي"، [حسب] صيغة جون سيرل الأخيرة (90 :1992)، التي يصفها ناغل (1993) بأنها اللب الميتافيزيقي لـ "طروحة راديكالية" من شأنها "أن تكون إضافة كبرى إلى الأجوبة المكنة على مشكلة العقل ـ الجسد" إذا تم توضيحها بشكل ملائم (كما يعتبره غير محتمل). في كل عام أو عامين يظهر كتاب من تأليف عالم متميز "باستنتاج محير" أو "فرضية مذهلة" [مفادها] أن التفكير لدى البشر هو "خاصية للجهاز العصبي أو بالأحرى للدماغ"، "النتيجة الضرورية لتنظيم معين" للمادة، كما عبر بريستلي عن المسألة منذ زمن طويل، بلغة تبدو قريبة من البديهية وغير مثقفة كما تميل البديهيات إلى أن تكون، نظراً لأن علوم الدماغ، رغم التقدم الكبير، بعيدة عن تضييق الفجوة إلى المشاكل التي يطرحها التفكير واللغة، أو حتى إلى ما هو مفهوم تقريباً حول هذه الموضوعات.

هنا، نواجه المشاكل النموذجية للتوحيد. فـ "اختلاف الخرائط العصبية ليس متميزاً أو ثنائي القيمة بل، بالأحرى، مستمراً ومفصلاً تفصيلاً دقيقاً جداً وواسعاً" كما يقول جيرالد إدلمان (28: Edelman 1992)، مستنتجاً أن النظريات الحوسبية أو الارتباطية connectionist للعقل لابد أن تكون خاطئة بسبب صفتها

المتميزة، هذا ليس أكثر معقولية من الاستنتاج القائل، منذ قرن، إن الكيمياء لابد أنها خاطئة لأنه لم يكن بالإمكان توحيدها مع ما نعرفها اليوم أنها كانت فيزياء مفقرَة جداً أكثر مما ينبغي؛ على وجه الخصوص، لأن "مادة الكيميائي كانت متمايزة ومتقطعة، أما الطاقة عند الفيزيائي فكانت مستمرة"[2] (Edelman 1992 :27). إن التفاوت حقيقي بما يكفي، لكنه ليس، كما يراه إدلمان، "أزمة" بالنسبة للعلم المعرفي؛ إنه، بالأحرى، مشكلة توحيد، لا يمكن أن نقول عنها شيئاً مؤكداً

لا توجد مشكلة من حيث المبدأ في استنباط أنظمة تحول المدخلات المتواصلة إلى مخرجات متقطعة محددة جداً؛ إن صيغة "كل شيء أو لا شيء" للتفاعل العصبي هي مثال على ذلك. ثمة ايضاح آخر يتم تقديمه في دراسة حديثة يستعمل نموذج كومبيوتر ترموديناميكي لإظهار أن الانتظام الكبير في موقع ذي سمة دقيقة جداً، كالتغير من ست إلى أربع طبقات، يمكن أن ينجم عن انقطاع طفيف في المدخلات إلى التجنيب الجيني "gemiculate أثناء التطور"، وهو اضطراب صغير" يؤثر بشكل واضح على التنظيم الكلي لـ...البنية الكبيرة"، واحد من أمثلة كثيرة، كما يلاحظ المؤلف. (Stryker 1994: 1244). مهما تكن المرتبة التجريبية لمقترحات بعينها، فإن مشاكل التوحيد للنظريات المتميزة (الحوسبية أو الربطية) والخليوية لم يتبين أنها مختلفة في النوع عن النظريات الأخرى التي ظهرت خلال مسيرة العلم.

إن الوضع الراهن هو أننا نمتلك نظريات جيدة ومتقدمة لبعض مظاهر اللغة والعقل، لكن ليس لدينا سوى أفكار بدائية حول علاقة

أي من ذلك بالدماغ. لندرس مثالاً عيانياً. ضمن النظريات الحوسبية لملكة اللغة لدى العقل، يوجد الآن فهم جيد تماماً للفروق بين أنواع "الانحراف" deviance - الابتعاد عن مبدأ عام أو آخر من المبادئ الحوسبية اللغة. لقد وجدت الأعمال الحديثة حول النشاط الكهربائي للدماغ ارتباطات بعدد من هذه الفئات من الانحراف، ونوعاً متميزاً من الاستجابة الكهربائية الفيزيولوجية للمخالفات التركيبية في مقابل الانتهاكات الدلالية ;Neville etal 1991 (Hagoart et la 1993, Hagoart and Brown 1994) مع ذلك، تبقى هذه النتائج شيئاً مثيراً للفضول، لأنه لا توجد نظرية ملائمة للنشاط الكهربائي للدماغ - أي لا يوجد سبب معروف لماذا يتعين على المرء أن يجد هذه النتائج، وليس غيرها. أما النظريات الحوسبية، بالمقابل، فتكون مؤسسة بشكل أكثر صلابة من وجهة نظر الطبيعانية العلمية؛ إن تحليل الانحراف، بوجه خاص، إنما يقع ضمن قالب تفسيري ذي مدى كبير.

إن المقاربة الطبيعانية للغة والعقل سوف تسعى لتحسين كل مقاربة على حدة، أملاً في توحيد ذي دلالة أكثر. من الشائع أن نفترض وجود شيء ما إشكالي بشكل عميق في النظرية التي تؤسس بشكل أكثر رسوخاً على أسس طبيعانية، وهي "النظرية العقلية"، وأن نقلق بشأن مشكلتي "الإزالوية" أو "الجسدانية" اللتين يتعين مع ذلك أن تصاغا بشكل متماسك. علاوة على ذلك، فإن هذه النزعة الثنائوية لا تهيمن فحسب على النقاش والسجال، بل تُعد في الواقع مسلمة مفترضة مسبقاً، [وهي] ظاهرة مثيرة للفضول [من ظواهر] تاريخ الفكر تستحق استقصاء أدق.

بوضع هذه النزعات جانباً، يمكننا أن نسأل: كيف يسير الاستعلام الطبيعاني؟ ونحن نبدأ بما نعتبرها موضوعات طبيعية، لنقل جونز. ونهتم أساساً بمظاهر معينة من جونز هي المظاهر اللغوية. نجد أن بعض عناصر دماغ جونز مكرسة للغة. دعونا نسميها **ملكة اللغة** Language faculty. أما أجزاء الجسم الأخرى فيمكن أيضاً أن تكون ذات تصميم محدد مرتبط باللغة، وعناصر ملكة اللغة قد تكون متضمنة في المظاهر الأخرى للحياة، كما نتوقع من أي عضو بيولوجي. إننا نضع هذه المسائل جانباً في البداية، التزاماً بملكة اللغة في الدماغ، وهو أمر أساسي بشكل واضح. ثمة أدلة قوية على أن ملكة اللغة تمتلك على الأقل مقومين مختلفين هما: "نظام معرفي" cognitive system يخزن المعلومات بطريقة ما، وأنظمة أداء تستخدم هذه المعلومات لأجل النطق، والإدراك الحسي و"التحدث حول العالم، وطرح الأسئلة، قص النكات [التنكيت] وهلم جرا. تمتلك ملكة اللغة نظاماً متلقياً للمدخلات ونظاماً لإنتاج المخرجات، لكن ثمة ما هو أكثر من ذلك؛ إذ لا أحد يتكلم فقط اليابانية ويفهم فقط السواحلية. إن أنظمة الأداء هذه تمتلك إمكانية الوصول إلى كتلة مشتركة من المعلومات، تربطها وتزودها بتعليمات من نوع ما. يمكن إضعاف أنظمة الأداء بشكل انتقائي، ربما بشكل حاد للغاية، في حين يبقى النظام المعرفي سليماً، وقد تم اكتشاف المزيد من التفككات [الانفصامات] التي تكشف عن النوع من البنية القالبية المتوقعة في أي نظام بيولوجي معقد.

لاحظ أن "القالبية" modularity هنا لا تفهم بالمعنى المستخدم في أعمال جيري فودور Jerry Fodor المثيرة للاهتمام، الذي يرتبط بنظامي الدخل والخرج؛ فالنظام المعرفي لملكة اللغة يتم بلوغه عن طريق هذه الأنظمة، لكنه مختلف عنها. قد يكون من الصحيح أيضاً أن "الإواليات السيكولوجية" "مؤلفة من ملكات منفصلة ومستقلة مثل إدراك الوجوه واللغة" (Mehler and Dupoux 1994)، لكن هذه "الأعضاء العقلية" لا تبدو أنها تصلح ضمن إطار القالبية "modularity" كما تفسر بشكل أضيق. بشكل مشابه، فإن الأفكار المؤثرة لديفيد مار David Marr حول مستويات التحليل لا تنطبق هنا على الإطلاق، خلافاً لكثير من النقاش، لأنه أيضاً يدرس أنظمة الدخل ـ الخرج؛ في هذه الحالة، تحويل التنبيهات الشبكية إلى نوع ما من الصورة الداخلية.

تمتلك ملكة اللغة لدى جونز "حالة بدئية"، تثبتها الموهبة الطبيعية الوراثية. ويُفترض عموماً أن أنظمة الأداء تحددها كلياً الحالة البدئية ـ بحيث أن أية تغيرات في الحالة تكون موجهة داخلياً أو تكون نتيجة لعوامل دخيلة كالإصابة، وليس التعرض للغة أو أخرى. هذا أبسط افتراض، ولم يتبين أنه زائف، مع أنه قد يكون كذلك؛ إننا، إذ نتبناه، ننسب الاختلافات المرتبطة باللغة في الإدراك الحسي (لنقل، عجزنا عن إدراك اختلافات النطق كما يدركها متكلم الهندية) إلى اختلافات في المظاهر الصوتية phonetic للنظام المعرفي، بدون الكثير من الإيمان بالافتراض، مع أن ثمة دليل يؤيده: هكذا، في ظل الشروط التجريبية، يكشف متكلمو الانكليزية تباينات اللغة الهندية التي لا "يسمعونها" في سياق لغوي. إن

أنظمة الأداء يمكن أن تكون مخصصة لأجل اللغة. فحتى الأطفال الصغار جداً يبدو أن لديهم شيئاً يشبه النظام الصوتي البالغ في مكانه، ربما يكون شكلاً محسناً خاصاً لفئة فقارية vertebrate أوسع. يقترح مهلر ودوبوكس Mehler and Dupoux فرضية العمل القائلة بأن "المواليد الجدد يكونون حساسين لكل التباينات contrasts التي يمكن أن تظهر في كل اللغات الطبيعية، وبالطريقة نفسها التي يكونها البالغون" (Mehler and Dupoux) بـ "التعلّم عن طريق النسيان" (ص168) تحت التعرض المبكر، بحيث أنه قبل أن يبلغ الطفل من العمر عاماً واحداً، يكون النظام المعرفي قد اختار مخزوناً معيناً من بين الاحتمالات المتاحة.

بناءً على هذه الافتراضات التبسيطية حول التطور، ننظر بالضبط إلى الجهاز المعرفي لملكة اللغة، حالتها البدائية، وحالاتها اللاحقة. من الواضح أن ثمة تغيرات للحالة تعكس الخبرة: فالإنكليزية ليست السواحلية، أو ليست هي تماماً. إن العالم المريخي العقلاني من المحتمل أن يجد هذا التنوع variation سطحياً نوعاً ما، مستنتجاً أن ثمة لغة بشرية واحدة ذات أشكال منوعة صغيرة. لكن النظام المعرفي لملكة لغة جونز "يتغير" استجابة للخبرة اللغوية، وهو ما يؤدي إلى تغير الحالة إلى أن يحقق درجة كبيرة من الاستقرار، ربما في مرحلة مبكرة تعود إلى عمر ست إلى ثمان سنوات وهو ما يعني، إذا كان صحيحاً، أن التغيرات اللاحقة (اللامعجمية) التي تم ايجادها، حتى حوالي سن البلوغ، هي تغيرات موجهة.

دعونا بشكل مؤقت نسمي حالة النظام المعرفي لملكة لغة جونز، "لغة" ـ أو لنستعمل مصطلحاً تقنياً "لغة الأنا"، حيث تستعمل

"أنا" للايحاء "بالذاتي"، "الفردي"، نظراً لأن هذه مقاربة ذاتانية internalist فردانية حصراً للغة، تشبه في هذا الجانب دراسات الجهاز البصري[3]. إذا كان النظام المعرفي لملكة لغة جونز في الحالة L، سنقول أن جونز يمتلك لغة أنا L. فلغة الأنا شيء يشبه "طريقة للكلام"، وهو مفهوم تقليدي للغة.

على كل، رغم بعض الشبه بالتعابير الفصيحة فإن المصطلحات هنا مختلفةً، كما نتوقع حتى في أولى مراحل الاستعلام الطبيعاني. إن لغات العالم تصف هذه المسائل بطرق مختلفة؛ ففي الانكليزية، نقول إن جونز يعرف knows لغته، اللغات الأخرى تقول إنه يتكلمها، أو يتكلم بها، وهلم جرا. كذلك تختلف الاصطلاحات المستخدمة لأجل شيء ما مثل اللغة، مع أنني لا علم لي بوجود دراسة جدية عبر الثقافات cross - cultural. هذه الموضوعات ذات أهمية لأجل علم دلالات اللغات الطبيعية والفروع الأخرى للاستعلام الطبيعاني التي تسعى إلى تحديد كيف أن الأنظمة المعرفية، بما فيها اللغة، تنتج ما يدعى أحياناً باسم "العلم الشعبي" folk science. إننا نتكلم عن الأزهار التي تتجه نحو الشمس، والسماء الآخذة بالظلمة، والتفاحات المتساقطة على الأرض، والبشر الذين لهم معتقدات ويتكلمون لغات، وهلم جرا؛ إن طرقنا في التفكير والفهم ـ وأفكارنا الحدسية حول كيف يتكون العالم ـ يمكن أن ترتبط ويمكن ألا ترتبط مباشرة بمثل هذه التعابير. تُشتق عناصر العلم الشعبي من موهبتنا الطبيعية البيولوجية، التي تتخذ أشكالاً معينة في ظل شروط ثقافية متغيرة. ثمة أدلة على أن الأطفال ينسبون المعتقدات والخطط إلى الآخرين قبل أن يمتلكوا

المصطلحات لوصف ذلك؛ والشيء نفسه يمكن أن يصح على البالغين عموماً، مع أن معظم اللغات، كما يقال، لا تمتلك مصطلحات مقابلة لكلمة "belief" الانكليزية. هذه استعلامات جدية، يجب عدم تناولها بشكل عرضي؛ إذ أن حدوسنا حولها تقدم بعض الأدلة، لكن لا شيء أكثر من ذلك. الأهم من ذلك، مهما يمكن تعلمه حول العلم الشعبي لن تكون له علاقة بمتابعة الاستعلام الطبيعاني في الموضوعات التي ينكب عليها العلم الشعبي بطريقته الخاصة، استنتاج يُعد بديهية في دراسة ما يدعى "العالم الفيزيائي" لكنه يُعد مثيراً للجدل أو خاطئاً (على أسس مشكوك فيها، كما أظن) في دراسة المظاهر العقلية للعالم.

حتى الآن، التزمت بجونز، دماغه، ملكة لغته وبعض مكوناتها؛ وهذه كلها موضوعات طبيعية. بالعودة إلى سميث، نكتشف أن الحالة البدئية لملكة لغته مماثلة بشكل افتراضي؛ نظراً لخبرة جونز، لم يمتلك لغة جونز. هذا يبدو صحيحاً عبر النوع [البشري]، ما يعني أن الحالة البدئية هي خاصية [مرتبطة] بالنوع specie property، إلى حد بعيد جداً. إذا كان الأمر كذلك، فإن ملكة اللغة البشرية ولغات الأنا، التي هي تمظهرات لها، توصف كموضوعات طبيعية.

وإذا كان جونز يمتلك اللغة L، فإنه يعرف أشياء كثيرة؛ على سبيل المثال، أن house و mouse لهما نفس القافية، وأن brown house تتألف من كلمتين [ترتبطان] بالعلاقة الشكلية للسجع assonance، وتستعمل للإحالة إلى بنية مصممة وتُستعمل لأغراض محددة وله سطح خارجي بني. ونود أن نكتشف كيف

يعرف جونز هذه الأشياء، وهذه هي الطريقة التي يبدو أن معرفة جونز تعمل بها.

تتكون لغة الأنا من إجراء حوسبي ومعجم. أما المعجم فهو مجموعة من المفردات، كل واحدة هي مركبٌ من الخواص (تدعى "سمات" features)، مثل خاصية "الصوت الشفتاني الوقفي bilabial stop" أو النتاج الصنعي "artifact". يقوم الإجراء الحسابي باختيار المفردات من المعجم ويشكل التعبير، مجموعة أكثر تعقيداً من هذه السمات. ثمة سبب للاعتقاد بأن النظام الحسابي ثابت، من الناحية الافتراضية. ثمة بعض التغير في الأجزاء المرتبطة بالإدراك الحسي والنطق؛ مما لا يثير الدهشة، أن المعطيات هنا متاحة للطفل الذي يكتسب اللغة - [وهي] سيرورة من الأفضل وصفها بأنها "نمو" بدلاً من وصفها بأنها "تعلم"، برأيي. إذا وضعنا ذلك جانباً، يبدو أن تنوع اللغة يقع في المعجم. وأحد المظاهر هو "الاعتباطية السوسورية" saussurean arbitrariness، الصلات الاعتباطية بين المفاهيم والأصوات: أي إن البرنامج الوراثي [الجيني] لا يحدد ما إذا كانت tree (شجرة) المفهوم، ترتبط بالأصوات المكونة لكلمة "tree" (في الإنكليزية) أو Baum (في الألمانية). إن ربط المفهوم والصوت يمكن اكتسابه [بناءً] على الحد الأدنى من الأدلة mimimal evidence؛ لذلك فإن التنوع هنا ليس مفاجئاً. ومع ذلك، فإن الأصوات الممكنة محدودة بشكل ضيق، والمفاهيم يمكن أن تكون ثابتة بشكل افتراضي. من الصعب أن نتصور خلافاً لذلك، نظراً لسرعة الاكتساب المعجمي، الذي يبلغ حوالي كلمة واحدة كل ساعة من أعمار سنتين إلى ثمان

سنوات، بمفردات معجمية يتم اكتسابها بشكل نموذجي في التعرّض الواحد، في ظروف على درجة عالية من الغموض، لكنها مفهومة بتعقيد دقيق واستثنائي يتجاوز إلى حد كبير ما هو مدوّن في القاموس الأكثر شمولاً، الذي يقدم، مثل النحو التقليدي الأكثر شمولاً، مجرد إلماحات تكفي لأجل الناس الذين يعرفون الإجابات مسبقاً، بشكل سليقي إلى حد كبير.

خارج هذه العوامل، فإن التنوع يمكن أن يكون محدوداً بالمظاهر الشكلية للغة ـ حالة الأسماء، تصريف الأفعال، وهلم جرا. حتى هنا، فإن التنوع قد يكون محدوداً. ظاهرياً، يبدو أن الإنكليزية تختلف اختلافاً حاداً عن الألمانية أو اللاتينية أو اليونانية أو السنسكريتية في غناها بالتصريف، لا بل إن الصينية أكثر غنىً حتى. لكن ثمة دليل على أن اللغات تمتلك بالأساس نفس الأنظمة التصريفية التي تختلف فقط في الطريقة التي يتم بها الوصول إلى العناصر الشكلية عن طريق الجزء من الإجراء الحوسبي الذي يقدم التعليمات إلى الأعضاء النطقية والإدراكية الحسية. فالحوسبة العقلية تبدو مماثلة من نواح أخرى، محدثة تأثيرات على البنية الصرفية تكون قابلة للملاحظة، حتى لو لم تكن التصريفات نفسها مسموعة في الكلام. قد يكون ذلك هو الأساس لتنوع اللغة، إلى حد كبير. فالتغيرات الصغيرة في الطريقة التي يمكن أن يقوم بها الجهاز بوظيفته، بالطبع، تنتج ما يبدو أنه تنوع ظاهري كبير.

وللإجراء الحوسبي خاصيات قد تكون فريدة، في جزء كبير منها. إنه أيضاً "صارم"، فهو لا يمتلك أية إمكانية وصول إلى كثير من خاصيات الأنظمة المعرفية الأخرى. على سبيل المثال، يبدو أنه

لا يمتلك "عـدادات" counters. إنـه يعـين خاصـية التجـاور adjacency؛ لذلك فإن كل مقطع آخر يمكن أن تكون لـه خاصـية (كالتشديد). لكنه لا يستطيع استخدام المفهـوم three (ثلاثـة). لا توجد أنظمة فونولوجية معروفة يحـدث فيهـا شـيء مـا كـل ثالـث مقطع، على سبيل المثال؛ ويبدو أن الإعراب syntax يتبع خاصية "تبعيـة البنيـة" structure dependence، وغـير قـادر علـى الاستفادة من الخصائص الخطية linear والحسابية arithmetical التي يكون من الأسهل بكثير أن تطبق خارج ملكة اللغة.

إن العمل التجريبي الحديث الذي قام به نيل سميث وزملاؤه له صلة بهـذه المسألة (Smith et al 1993: 279-347). فقـد درسـوا شخصاً ـ يدعى "كريستوفر" ـ يبدو أنه يمتلك ملكة لغة سليمة لكنه يعاني من نواقص معرفية شديدة، وهذا مثال علـى نـوع مـن قالبيـة modularity العمارة العقلية التي يتم إيجادها بشكل متكـرر. كـان كريستوفر متمكناً من حوالي 16 لغة، ويمكنـه أن يترجـم عنهـا إلى اللغة الإنكليزية. شملت التجارب كريستوفر ومجموعة مقياسـية. تم تعليمهم اللغة البربرية ونظاماً مبتكراً مصمماً لمخالفـة مبـادئ اللغـة. كما هو متوقع فقد تعلم كريستوفر اللغة البربرية بسهولة لكنه، نظراً لافتقاره إلى القدرات المعرفية الأخـرى، لم يسـتطع أن يفعـل سـوى القليل مع النظام المبتكر. أما المجموعة المقياسية فقد أحرزت بعض التقدم على الجهاز المخترع، بمعاملته ظاهرياً بوصفه لغزاً. لكن كان ثمـة بعـض القواعـد البسـيطة ظاهريـاً إلى درجـة قصـوى الـتي لم يكتشفوها: على سبيل المثال، إن القاعدة التي تضع علامة توكيدية على الكلمة الثالثة من الجملة. يبدو أن "صرامة" ملكة اللغة كانـت

كافية لمنع اكتشاف القاعدة البسيطة المستقلة عن البنية، ضمن سياق لغوي.

تدخل الأعداد في استخدامنا للغة بالطبع، إذ يمكننا أن نفهم ونحدد هوية السونيتات، على سبيل المثال. إنه يتضمن أيضاً الاستنتاج، مع أنه يبدو أن الإجراء الحوسبي هو أكثر صرامة من أن يستعمل هذه الموارد أيضاً. فملكة اللغة غنية جداً ومفقرة جداً، كما هو متوقع من أي نظام بيولوجي: إنها قادرة على تحقيق مستوى عال من الإنجاز في مجالات محددة، وعاجزة بالمقابل عن معالجة المشاكل التي تقع خارجها. كما لاحظنا قبلاً، يجب أن نتوقع أن يصح ذلك على كل ملكاتنا، بما في ذلك ما تدعى "ملكة تشكيل العلم"، وهي المجموعات الخاصة من المؤهلات والقدرات التي نستعملها في إجراء الاستعلام الطبيعاني.

إن ملكة اللغة، رغم كونها عالية التخصص، ليست مقيدة بقوالب "modulaties حسية محددة، خلافاً لما كان يُعتقد منذ وقت قصير. لهذا، فإن لغة الإشارة الخاصة بالصم تشبه كثيراً اللغة المحكية من الناحية البنيوية، ومسار الاكتساب مشابه جداً. يبدو أن للقصور الحسي الكبير تأثير محدود على اكتساب اللغة. فالأطفال العميان يكتسبون اللغة كما يكتسبها المبصرون، حتى مفردات الألوان والكلمات الخاصة بالخبرة البصرية مثل "يرى"، "ينظر". ثمة أناس أنجزوا [مستوى] قريباً من الكفاية اللغوية المعيارية بدون أي مُدَخل حسي أبعد مما يمكن كسبه بوضع اليد على وجه شخص آخر وحنجرته. يبدو أن الإواليات التحليلية لملكة اللغة تُحرّض إلى حد كبير بالطرق نفسها سواءً كان المدخل سمعياً،

أو بصرياً، أو حتى لمسياً[4]، ويبدو أنها متوضعة في نفس المناطق الدماغية، بشكل يثير الدهشة إلى حد ما.

وهذه الأمثلة على المدخل المفقر تدل على غنى الموهبة الطبيعية السليقية، مع أن اكتساب اللغة المعياري يكون لافتاً للنظر بما فيه الكفاية، كما تظهر حتى إمكانية الوصول المعجمي، ليس فقط بسبب سرعته وتعقيد النتيجة. لهذا" فإن الأطفال الصغار جداً يمكنهم أن يحددوا معنى كلمة هراء non sense من المعلومات الإعرابية في جملة أعقد بكثير من أي جملة يمكنهم تأليفها (1990 Gleitman). ومن الفرضيات المقبولة اليوم أن مبادئ اللغة ثابتة وفطرية، وأن التغير ينحصر في الطريقة المشار إليها. فكل لغة، إذاً، تتحدد (افتراضياً) باختيار القيم لأجل البارامترات المعجمية: فباستطاعتنا بمجموعة واحدة من الاختيارات، أن نشتق الهنغارية؛ وبمجموعة أخرى، نشتق لغة اليوروبا Yoruba. إن مقاربة المبادئ والبارامترات هذه تقدم طريقة لحل توتر أساسي برز في بداية النحو التوليدي تحديداً. حالما بذلت المحاولات الأولى لتقديم أوصافاً فعلية للغات منذ أربعين عاماً، تبين أن تعقيد البنية يتجاوز أي شيء تم تخيله، وأن الأوصاف التقليدية للشكل والمعنى لم تمس سوى السطح في حين أن الأوصاف البنيوية كانت خارج الموضوع تقريباً. علاوة على ذلك، فإن التنوع الظاهري للغات يزداد بشكل هائل حالما ينكب المرء على حقائق تُعزى ضمناً إلى "ذكاء القارئ" غير الخاضع للتحليل. لإحراز "الكفاية الوصفية"، كان يبدو من الضروري تقديم تفسيرات معقدة جداً، خاصة بلغات بعينها، في الواقع بتراكيب بعينها في لغات بعينها: القواعد المعقدة لأجل أشباه

الجمل الموصولة relative clauses في الإنكليزية، مثلاً. مع ذلك، فقد كان من الواضح أن شيئاً من هذا القبيل لا يمكن أن يكون صحيحاً. فشروط اكتساب اللغة تكشف أن السيرورة لابد أن تكون موجهة من الداخل إلى حد كبير، كما في المظاهر الأخرى للنمو، وهو ما يعني أن كافة اللغات يجب أن تكون قريبة من التماثل، ثابتة إلى حد كبير بفعل الحالة البدئية. إن الجهد البحثي الكبير منذ أن استرشد بهذا التوتر، يتبع المقاربة الطبيعية، أي أنه يستخلص من "الخليط المشوش من التعقيد الوصفي بعض المبادئ العامة الناظمة للحوسبة computation التي سمحت بتقديم قواعد لغة بعينها بأشكال بسيطة، بتنوع محدود.

وأدت الجهود [المبذولة] لحل التوتر بهذه الطريقة في النهاية إلى مقاربة المبادئ - البارامترات التي سبق تلخيصها. إنها فرضية جريئة أكثر مما هي نظرية محددة، مع أن أجزاء الصورة يجري استكمالها والأفكار النظرية الجديدة تؤدي إلى اتساع هائل في المواد التجريبية ذات الصلة في لغات متنوعة من الناحية النموذجية.

هذه الأفكار تشكل انحرافاً جذرياً عن تراث غني عمره 2500 عاماً. إذا كانت صحيحة، فإنها تظهر ليس فقط أن اللغات مسبوكة إلى حد كبير جداً وفق القالب نفسه، مع إجراء حوسبي شبه ثابت وتنوع معجمي محدود فقط، بل تظهر أيضاً أنه لا توجد قواعد أو تراكيب لا تُشبّه بأي شيء مثل المفهوم التقليدي، تم نقلها إلى النحو التوليدي المبكر: لا قواعد لأجل تشكيل أشباه الجمل الموصولة relative clauses في الإنكليزية، على سبيل المثال، بالأحرى، إن التراكيب التقليدية - عبارات الفعل، شبه الجملة

الوصلية، المبني للمجهول، الخ.. هي اختلافات تصنيفية، تنجم خاصياتها عن تفاعل مبادئ أكثر عمومية بكثير.

تميز مقاربة المبادئ ـ البارامترات بين مفهومين عامين كانا يقعان معاً تحت مفهوم لغة الأنا: ثمة فرق مفاهيمي واضح بين حالة ملكة اللغة من جهة، وتشخيص instantiation الحالة البدئية ببارامترات ثابتة، من جهة أخرى. بعيداً عن المعجزات، فإن الأشياء المعرَّفة هكذا سوف تختلف دائماً من الناحية التجريبية. إن الحالة الحقيقية لملكة لغة المرء هي نتيجة لتفاعل عوامل كبيرة عديدة، على أسس داخلية نظرية theory-internal، إذاً، نعتبر لغة الأنا بمثابة تشخيص instantiation للحالة البدئية، تتخذ مثالاً من الحالات الحقيقية لملكة اللغة. كما في أمكنة أخرى في الاستعلام الطبيعاني، فإن مصطلح "المثلنة [اتخاذ المثال] مضلل نوعاً ما: إنه الإجراء الذي نتبعه في محاولة لاكتشاف الواقع، المبادئ الواقعية للطبيعة. ففي دراسة الجوانب العقلية للعالم فقط يعتبر هذا غير مشروع، وهذا مثال آخر على الثنائوية الضارة التي ينبغي التغلب عليها.

لقد فتح التقدم الذي تم إحرازه على هذه المسارات أسئلة جديدة، أبرزها، سؤال إلى أي درجة يمكن اختزال المبادئ نفسها إلى الخواص الأكثر عمقاً وطبيعية للحوسبة. أي، إلى أي حد تكون اللغة "كاملة"، اعتماداً على شروط الأمثلية optimality الطبيعية والعلاقات البسيطة جداً؟ ترى إحدى النظريات أنه بعيداً عن السمات الصوتية phonetic التي يتم الوصول إليها عن طريق الأنظمة النطقية ـ الإدراكية، فإن خواص تعبير ما التي تدخل في

استعمال اللغة تشتق بشكل كامل من المعجم: فالحوسبة تنظم هذه بطرق محدودة جداً، لكنها لا تضيف أية سمات أخرى؛ هذا تبسيط ملحوظ لمسلمات سابقة، تتطلب، إذا كانت صحيحة، إعادة تفكير ملحوظ بـ "السطح البيني" interface بين ملكة اللغة والأنظمة الأخرى للعقل. ثمة نظريات حديثة أخرى، اقترحها في الأساس ريتشارد كاين (1994) Richard Kayne، وهي أنه لا يوجد تنوع بارامتري في الترتيب الزمني. فالترتيب هو انعكاس لخواص بنيوية يتم تحديدها في سياق الحوسبة: كل اللغات من الشكل الأساسي فاعل - فعل - مفعول به، بناء على هذه الافتراضات. أما العمل الحديث الآخر فيسعى إلى إظهار أن التعابير الممكنة التي ستكون قابلة للتفسير في السطح البيني، إن شُكلت، تعترضها حقيقة أن الحسابات الأخرى ذات الموارد المعجمية نفسها هي أكثر اقتصادية. حول هذه المسائل، انظر تشومسكي (1993b) وتشومسكي (1995b) والمصادر المذكورة هناك.

– بناء على هذه المسلمات، نتوقع أن تكون اللغات "قابلة للتعلم"، لأن ثمة القليل لتعلمه، لكنه في جزء منه "غير قابل للاستعمال"، لسبب واحد، لأن شروط الاقتصاد العام يمكن أن تخلق مستويات عالية من التعقيد الحوسبي. إن كون اللغات "قابلة للتعلم" كان اكتشافاً تجريبياً مفاجئاً؛ إذ لا يوجد سبب بيولوجي عام أو أي سبب آخر يفسر أن اللغة المتاحة عن طريق ملكة اللغة ينبغي أن تكون سهلة المنال بشكل كامل، كما ستكون إذا تم تحديد اللغات بإطار من البارامترات البسيطة. إن استنتاج أن اللغة غير قابلة للاستعمال جزئياً، مهما يكن، ليس مفاجئاً البتة. فقد كان

معروفاً على مدى طويل أن أنظمة الأداء غالباً ما "تفشل"، ما يعني أنها تقدم تحليلاً يختلف عن ذات [التحليل] الذي يحدده النظام المعرفي (لغة الأنا). لقد تمت دراسة فئات عديدة من التعابير التي تطرح مشاكل بنيوية لأجل التفسير: الاحتواء المتعدد multiple embedding، ما تدعى باسم "جمل مسار الحديقة"، وغيرها. حتى المفاهيم البسيطة يمكن أن تطرح مشاكل تفسير عويصة: ومنها الكلمات التي تتضمن المكممات quantifiers أو النفي، على سبيل المثال. إن تعابير مثل I missed (not) seeing you last summer [فاتني أن (لا) أراك الصيف الماضي] (ما يعني أنني توقعت أن أراك لكنني لم أرك) تسبب تشوشاً لا حدود له. في بعض الأحيان يكون التشوش حتى مشفراً (مرمزاً) كما في مصطلح " near miss"، الذي يعني nearly a hit (كادت أن تكون إصابة) وليس nearly a miss (كادت أن تكون عدم إصابة) (مناظر لـ " near accident") (كاد أن يكون حادثاً).

إن الاعتقاد بأن الإعراب "سهل وسريع" في إحدى الصيغ المألوفة وإن تصميم نظرية اللغة يجب أن يستوعب هذه الحقيقة - هو اعتقاد خاطئ؛ فهذه ليست حقيقة. مع ذلك، فإن المشكلة هي إظهار أن تلك الأقسام من اللغة التي تكون قابلة للاستعمال إنما تحددها بشكل دقيق نظرية الحوسبة والأداء، إنها ليست مسألة صغيرة.

تقودنا الأسئلة من هذا النوع إلى تخوم الاستعلام الراهن. هذه أسئلة ذات مرتبة جديدة من العمق، وبالتالي ذات أهمية، في دراسة اللغة والعقل.

تتصل الأسئلة الأخرى بالخواص السطحية البينية مثل: كيف تستفيد أنظمة الأداء من التعابير التي تولدها لغة الأنا؟ إن بعض سمات هذه التعابير تقدم مجرد إرشادات للأنظمة النطقية والإدراكية؛ لذلك فإن أحد عناصر التعبير اللغوي هو شكله الصوتي phonetic form. يفترض عموماً أن هذه التعليمات مشتركة بين النطق والإدراك الحسي، الأمر الذي لا يكون جلياً على الإطلاق، وبالتالي فهو مثير للاهتمام إذا كان صحيحاً. وتوفر الخواص الأخرى للتعبير التعليمات لأجل الأنظمة المفاهيمية ـ القصدية فقط؛ ويدعى هذا العنصر من عناصر التعبير عادة الشكل المنطقي logical form، لكنه بالمعنى التقني يختلف عن الاستعمالات الأخرى؛ دعونا نسميه LF تجنباً لسوء الفهم. مرة أخرى، يُفترض أنه لا توجد سوى مجموعة كبيرة واحدة من هذه التعليمات، وأنها مفصولة عن الشكل الصوتي. وتبلغ هذه المسلمات حداً أبعد من اللامعقولية حتى وبالتالي، إذا صح ذلك، فهي اكتشافات مثيرة للاهتمام جداً.

بناء على هذه الافتراضات، يحول الإجراء الحوسبي عدداً كبيراً من الاختيارات المعجمية إلى إثنين من الموضوعات الرمزية، الشكل الصوتي والشكل المنطقي، وهو يفعل ذلك بطريقة مثلى، من وجهة نظر معينة. إن عناصر هذين الموضوعين الرمزيين يمكن أن نطلق عليها اسم سمات "صوتية" و"دلالية" على التوالي، لكن يجب أن نضع في ذهننا أن كل ذلك هو تركيب syntax خالص وذاتاني تماماً. إنها دراسة التمثيلات والحوسبات العقلية، بشكل يشبه كثيراً التقصي في كيف أن صورة مكعب يدور في الفضاء تتحدد من

التنبيهات الشبكية، أو عن طريق التخيل. قد نأخذ السمات الدلالية للتعبير E على أنها "معناه" والسمات الصوتية p على أنها "صوته"؛ E تعني s بما يشبه معنى الإنكليزية المقابلة، وE تصدر الصوت p بمعنى مماثل، s وp تقدمان المعلومة ذات الصلة لأجل أنظمة الاداء.

إن عبارة مثل **I painted my house brown**، يتم التوصل إليها عن طريق أنظمة الأداء التي تفسرها، على الجانب المتلقي، وتنطقها في حين تستعملها بشكل نموذجي لأجل فعل كلام أو آخر، على الجانب المنتج [المرسل]. كيف يتم ذلك؟ لقد قمت بدراسة المظاهر النطقية الإدراكية بشكل مكثف، لكن هذه المسائل لا تزال تفهم بشكل ضعيف. ففي السطح البيني المفاهيمي - القصدي تكون المشاكل أكثر غموضاً، وقد تقع تماماً خارج الاستعلام الطبيعاني البشري في مجالات حاسمة.

ربما يكون أضعف افتراض معقول حول السطح البيني للشكل المنطقي هو أن الخواص الدلالية للتعبير تركز الاهتمام على مظاهر مختارة من العالم كما تراها الأنظمة المعرفية الأخرى، وتقدم منظورات معقدة وعالية التخصص لرؤيتها منها، تشمل بشكل قاطع المصالح والاهتمامات البشرية حتى في أبسط الحالات. في حالة العبارة: "I painted my house brown"، تفرض السمات الدلالية تحليلاً في ضوء الخواص النوعية للتصميم المقصود والاستعمال، خارجاً مُسمًّى، وفي الواقع تعقيداً أكثر بكثير. كما ورد في الفصل الثاني، إذا طليت منزلي باللون البني، فيكون له ظاهر بني؛ مع ذلك، يمكنني أن أطلي منزلي باللون البني من الداخل.

يمتلك البعد الخارجي ـ الداخلي خياراً محدداً وخياراً غير محـدد، فإذا لم تتم الإشارة إلى أي منهما، يكون الخارجي هو المقصود. هذه خاصيَة نمطيـة للمعجـم؛ فـإذا قلـت إن **Jones climbed the mountain** جـونز تسلق الجبـل، فأنـا أعـني أنـه (عمومـاً) كـان صاعداً، لكنني يمكن أن أقول إنـه تسـلق نـازلاً الجبـل، مسـتعملاً الخيار المحدَّد. إذا كنت داخل منزلي، يمكنني أن أنظفـه، مـؤثراً على الداخل فقط، لكـنني لا أسـتطيع رؤيتـه، مـا لم يكـن السـطح الخـارجي مرئيـاً (عـبر نافـذة، علـى سـبيل المثـال). ولا يمكـنني بالتأكيد أن أكون قرب منزلي إذا كنت بداخلـه، حتـى رغـم كونـه سـطحاً، في الحالـة غـير المحـدَّدة. بشـكل مماثـل، فـإن المكعـب الهندسي هو مجرد سطح، لكن إذا كنا نسـتعمل اللغـة الطبيعيـة، فإن نقطة بـداخل المكعـب لا يمكـن أن تكـون بقربـه. وتتصـح هـذه الخواص بشـكل عـام تمامـاً: علـى العلـب، الأكـواخ، الطـائرات، الجبال، وهلم جرا. إذا نظرت من خلال نفق في جبل ورأيت كهفـاً مضاءً بداخله، فأنا لا أرى الجبل؛ إلا إذا رأيت سطحه الخـارجي (لنقل، من داخـل الكهـف، بـالنظر مـن خـلال النفـق إلى مـرآة في الخارج تعكس السطح). الشيء نفسه ينطبق على الأشياء المستحيلة. فإذا أخبرتك أنني طليت مكعباً كرويـاً بـاللون الـبني، فإنـك تأخـذ خارجه (ظاهره) على أنه بني اللون في الحالة غـير المحـددة، وإذا كنت بداخله، فإنك تعرف أنني لست بقربه. وهلم جرا ـ [وصولاً] إلى التعقيد الذي تم التقليل من قيمته. وهذا ما يطرح مشـاكل "فقـر المنبه" إلى درجة قصوى بحيث أن معرفة اللغة من هذه النـواحي لا يمكن سوى أن نفترض أنها تتحدد فطرياً إلى حـد كـبير، وبالتـالي

فهي موحدة بشكل افتراضي بين اللغات، إلى حد كبير كما نفترض بدون مناقشة أو فهم فيما يتعلق بالمظاهر الأخرى للنمو والتطور.

وبشكل نموذجي تماماً، تقدم الكلمات منظورات متضاربة. فالمدينة محسوسة ومجردة، حية ولا حية: إن لوس أنجلس ربما تفكر في قدرها بشكل متجهم، تخاف التدمير عن طريق زلزال آخر أو بقرار إداري. ولندن ليست مكاناً. بالأحرى، إنها في at مكان، مع أن الأشياء ليست هي التي في ذاك المكان، ويمكن تغييرها جذرياً أو تحريكها، مع ترك لندن سليمة. يمكن تدمير لندن وإعادة بناءها، ربما بعد آلاف السنوات، مع ذلك تظل لندن؛ يمكن إعادة بناء قرطاج اليوم، تماماً مثلما أن توم جونز، مع أنه ملموس بشكل خالص، يمكن تقمصه كحشرة أو تحويله من قبل ساحرة إلى ضفدع، بانتظار قبلة الأميرة، لكنه يبقى توم جونز على الدوام - إنها مفاهيم متاحة للأطفال الصغار بدون إرشاد أو خبرة ذات صلة.

إن الصفة المجردة للندن حاسمة لتفردها. فإذا اختزلت لندن إلى تراب، فإنها، أي لندن - يمكن إعادة بناءها في مكان آخر وتكون المدينة نفسها، لندن. إذا اختزل منزلي إلى تراب، فيمكن إعادة بنائه في مكان آخر، لكنه لن يكون المنزل نفسه. إذا اختزل محرك سيارتي إلى تراب، فلا يمكن إعادة بناءه، مع أنه لو تعطل بشكل جزئي فقط لكان ذلك ممكناً. تنطوي الضمائر الشخصية pronouns على تبعية الإحالة، لكن ليس بالضرورة إلى الشيء نفسه، وينطوي كل من تبعية الإحالة والمفهوم الأضيق للتماثل على أدوار في فضاء شديد التعقيد من المصالح والهموم البشرية. يمكن أن تكون الأحكام دقيقة، تنطوي على عوامل لم تُبحث إلا بشكل سطحي جداً.

وهناك الكثير من الأمثلة الواقعية التي تشرح هذه الخواص لمصطلحات اللغة الطبيعية. ليست لدينا مشكلة في فهم تقرير في الصحافة اليومية حول مدينة تشلسي المنحوسة التي "تتحضر للانتقال"، (يُنظر إليها ككائن حي)، مع بعض القاطنين الذين عارضوا ذلك لأن "نقل المدينة سيجردها من الروح". في حين أن الآخرين يعارضون بقولهم إنه "ما لم تنتقل تشلسي فإن الفيضانات سوف تقتلها في النهاية". توجد مدينة تدعى "أورشليم" و"القدس" (تماماً مثلما توجد London و"Londres"). ما هي هذه المدينة؟ إن موقعها هو مادة خلاف كبير، حتى أنها مادة لقرارات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. فالحكومة التي تدعي أنها عاصمتها كانت تخطط لنقل "القدس" في حين تترك "أورشليم" في مكانها. لقد شرح رئيس إدارة التنمية قائلاً "إننا بحاجة إلى إيجاد عاصمة للفلسطينيين، إذ يتعين علينا أن نجد موقعاً لأجل القدس - في مكان ما شمال شرق أورشليم. هذا الاقتراح مفهوم تماماً، وهذا هو السبب في كونه مصدر كثير من القلق للناس المعنيين بالقدس. تطرح المناقشة ألغازاً من النوع المألوف في الأدبيات الفلسفية، وحتى أكثر من ذلك لو تم تنفيذ الاقتراح - إذا افترضنا أن كلمات مثل "London" أو "Jerusalem" تدل على أشياء في العالم بلغة عامة ما، وحاولنا أن نصقل المعاني والأفكار لأجل شروط لا تصح في ظلها الفرضيات المسبقة للاستعمال المعياري، [التي] تفشل في مراعاة بعض النصائح الجيدة لفيتغنشتاين.

حتى منزلة الشيء (القابل للتسمية)، وهي التي ربما تكون المفهوم الأكثر بدائية لدينا، تعتمد بشكل قاطع على مسائل معقدة

مثل أفعال الإرادة البشرية، وهي، مرة أخرى، أي شيء يُفهم بدون خبرة متصلة به، تقررها الخواص الجوهرية لملكة اللغة والملكات الأخرى. إن مجموعة من العصي على الأرض يمكن أن تكون شيئا (لا مترابطاً) لنقل سياجاً، حاجزاً، عملاً فنياً. لكن العصي نفسها في الأرض لا تكون شيئاً إذا خلّفها هناك حريق غابة. حول هذه المسائل، وأهميتها بالنسبة للنظرية الكواينية ونظريات التعلّم الأخرى انظر: Chomsky (1975: 43ff. 203)

ليس لمسألة تواصل الزمكان space – time أي علاقة خاصة بهذه القضايا، خلافاً لما يُزعم أحياناً (انظر: Putnam 1993). فانقطاع الأشياء ليس موضع تساؤل مطلقاً؛ فالولايات المتحدة منقطعة في المكان، مع أنها أصبحت شيئاً قابلاً للتسمية (تتحول مع مرور الزمن من الاستعمال الجمعي إلى الاستعمال المفردي). إن الكلام أو العرض المسرحي يمكن أن يكونا غير منقطعين في الزمن. كما لاحظنا سابقاً، فإن الموضوعات المنقطعة تفهم مباشرة بوصفها أشياء قابلة للتسمية، ضمن قالب مناسب من المصالح البشرية. فمسألة ما إذا كانت المدينة تفهم ضمن "العلم الشعبي" بوصفها موضوعاً رباعي الأبعاد منقطع (بشكل ممكن) هي مسألة حقيقة. فافتراض أنها موجودة، أو أن النظرية الدلالية يجب أن تقول إنها موجودة، يتطلب تفسيرات لا طبيعية لمصطلحات مثل "ينقل (تشلسي)"، "(تشلسي) السابقة"، الخ، [وهي] قضايا يتم تجاوزها بسهولة مع تركيز ضيق على الموضوع ـ الإحالة object- reference. يبقى أن تُكتشف وتُشرح الخواص والمنظورات المتضمنة في تفرد المدن والبيوت وما شابه، المستقلة عن مسألة التواصل.

تكشف المواد عن الأنواع نفسها من التصميم العقلي الخاص. خذ مصطلح "ماء" بالمعنى الذي اقترحه هيلاري بوتنام: بوصفه متمادداً مع "H2O يعطي أو يأخذ بعض الشوائب" coextensive (Putnam 1992, Putnam 1975). حتى في مثل هذا الاستعمال اللغوي، باستشهاده المشكوك فيه بالعلم الطبيعي، نجد أن كون شيء ما ماءً إنما يعتمد على مصالح وهموم بشرية خاصة، مرة أخرى بطرق تفهم بدون خبرة ذات صلة بها؛ فمصطلح "شوائب" impurities يغطي بعض المناطق الصعبة. لنفترض فنجاناً (1) مملوءاً من الحنفية. إنه فنجان ماء، لكن إذا غمر فيه كيس من الشاي، فإنه لا يعود كما هو. إنه الآن فنجان شاي، شيء مختلف. لنفترض الفنجان (2) مملوءاً من حنفية موصولة إلى خزان نقع فيه الشاي (لنقل، كنوع جديد من جهاز التصفية). إن ما يوجد في الفنجان (2) هو الماء، وليس الشاي، حتى لو لم يكن بمقدور الكيميائي أن يميزه عن المحتويات الحالية للفنجان (1). إن الفنجانين يحتويان الشيء نفسه من وجهة نظر معينة، وشيئين مختلفين من وجهة نظر أخرى، لكن في الحالتين لا يحتوي الفنجان (2) سوى على الماء والفنجان (1) على الشاي فقط. الشاي في الفنجان (2) هو "شائب" بمفهوم بوتنام، في الفنجان (1) ليس كذلك، وليس لدينا ماء على الإطلاق (إلا بمعنى أن الحليب هو في معظمه ماء، أو كون شخص ماء بقدر ما يتعلق الأمر بذلك). إذا كان فنجان (3) يحتوي H2O أعلى مما يرد من الحنفية أو يسحب من نهر. لاحظ أن هذه حالة بسيطة بشكل خاص، خلافاً لنظائرها الكلاسيكية "التراب" و"الهواء" و"النار" من بين حالات أخرى.

وتتزايد التعقيدات عند الشروع بما وراء الحالات الأبسط، إذ يمكنني أن أطلي الباب المؤدي إلى المطبخ باللون البني، لذلك يكون ملموساً ببساطة؛ لكنني أستطيع أن أعبر الباب إلى المطبخ، (ما يعني) التبادل بين الشكل والأرض. ويمكن للطفل أن ينهي محتوى الزجاجة ثم يكسرها، مما يؤدي إلى التبادل بين المحتويات والإناء بدلالة مقصودة ثابتة. ثمة عمل مثير للاهتمام من تأليف جيمس بوستجوفسكي James Pustejovsky يدرس الانتظامات regularities في هذه المنظومات، استنتاجاً من أفكار يوليوس مورافشيك Julius Moravcsik، وهي أرسطوية في الأصل. (انظرمقالته ومقالات أخرى في: Pustejovsky 1993; 1994, see also moravcsik Chomsky 1975) عندما ننتقل إلى كلمات ذات خواص علاقية أكثر تعقيداً، والبنى التي تظهر فيها، نجد أن التفسير يهتدي بتفصيل دقيق بالنظام المعرفي بطرق نتوقع أن تتغير قليلاً لأنها بعيدة للغاية عن الخبرة الممكنة.

وقد صاغ عالم الأعصاب رودولفو للليناس Rodolpho Llinas المسألة بأفضل وجه عندما وصف الإدراك الحسي بأنه "حلم يقولبه المدخل الحسي"، [مع] كون العقل "حالة حوسبية computational للدماغ يولدها التفاعل بين العالم الخارجي ومجموعة داخلية من أطر الإحالة reference frames (351: Llinas 1987). إن الأطر الداخلية التي تشكل الأحلام هي، مع ذلك، أكثر تعقيداً وإدهاشاً مما يظن غالباً، حتى على مستوى المعجم؛ فهي تظل هكذا أكثر عندما نعود إلى العبارات التي تشكلها الإجراءات الحوسبية.

بإيضاح خواص التعابير، نتعلم قدراً أكبر حول التعليمات في السطح البيني Lf ("الدلالي") التي تفسر بطريقة ما من أجل التفكير والتحدث حول العالم، جنباً إلى جنباً مع الكثير غيرها. لا تزال الأسئلة الهامة والغامضة تكمن وراء ذلك: بأية أوجه، على سبيل المثال، تنتمي هذه الخواص إلى ملكة اللغة بوصفها متميزة عن ملكات العقل الأخرى التي تتصل بها؟ هذه الأسئلة تظل ضمن مجال ما يعرفه الناس، وليس ما يفعلونه. ستظل الأجوبة عليها تتركنا قاصرين عن فهم كيف تُستعمل موارد الأنظمة المعرفية. من هذا الخليط المشوش من القضايا من الصعب فهم كيف نستخلص الكثير جداً مما يمكن أن يخضع للاستعلام الطبيعاني. لأجل بعض التعليقات حول ذلك، انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.

لاحظ أن خواص كلمات مثل "house"، و"door"، "London"، "water" وهلم جرا لا تدل على أن البشر ليس لديهم معتقدات متناقضة أو مربكة من نواحٍ أخرى. لا يوجد أي إغراء للتوصل إلى هذه الاستنتاجات، إذا أهملنا الافتراض القائل بأن الكلمات تختار الأشياء، بعيداً عن الاستعمالات الخاصة التي تحصرها بطرق عالية التعقيد.

هل ينبغي علينا أن نفترض أن التعابير تختار الأشياء، بشكل ذاتي؟ بشكل عام أكثر، هل ينبغي إكمال "أضعف الافتراضات" حول العلاقات البينية والطريقة التي تدخل بها في الفكر والفعل لكي تشمل العلاقات التي تربط بين بعض التعابير والأشياء الخارجية؟ هذا ما يُفترض عموماً، مع أنه يتعين علينا أن نحرص على تمييز شكلين مختلفين: (1) الأشياء في العالم، أو (2) الأشياء

في نوع ما من النماذج العقلية، وتمثيل الخطاب، وما شابه[5]. إذا كان الشكل الثاني، عندئذ تكون الدراسة ذاتانية، شكلاً من التركيب. أما إذا افترضت الشكل الأول، فتستمر في الزعم بوجود مستويين بينيين، الشكل الصوتي PF والشكل المنطقي LF.

افترض أننا اشترطنا أنه مقابل عنصر "a" في الشكل الصوتي يوجد موضوع خارجي a* يختاره "a" بوصفه قيمته الصوتية phonetic value؛ هكذا فإن العنصر [ba] في لغة الأنا لجونز يختار كياناً ما [ba]*، "مشتركاً" مع سميث إذا وجد نظير في لغة الأنا الخاصة به. يمكن وصف التواصل، عندئذٍ، في ضوء هذه الكيانات المشتركة (جزئياً)، التي تكون سهلة التركيب بما فيه الكفاية: افترض أن a هي المجموعة الوحيدة العنصر [a]، أو المجموعة [a،3]؛ أو إذا أراد المرء شيئاً أكثر واقعية، مُنْشأً constructما قائماً على حركات الجزيئات. ببطولة كافية يمكن للمرء أن يدافع عن رأي كهذا، مع أنه لا أحد يفعل ذلك، لأنه من الواضح أن هذا جهد لا طائل من ورائه.

ويمكن فعل الشيء نفسه في السطح البيني LF. افترض أن "a" يتم بناؤه عن طريق النظام الحوسبي من خيار معجمي واحد أو أكثر، حيث "a" هو تمثيل LF، أو موضوع تركيبي آخر مشتق منه (تعبير بلغة شكلية ما، نوع ما من النموذج العقلي، الخ). يمكننا عندئذٍ أن نفترض موضوعاً "a*" بوصفه "قيمته الدلالية semantic value"، الخارجية بالنسبة إلى لغة الأنا، التي ربما يتقاسمها جونز وسميث. مرة أخرى، إن "a*" يمكن أن تكون إنشاءً اعتباطياً ننسب إليه الخواص المرغوبة، أو نسبغ عليه لمسة من الواقعية بمجموعة من الطرق. يمكننا عندئذٍ أن نبني نظريات حقيقية،

ونطور تفسيراً للتواصل بلغة الكيانات المشتركة، غالباً من نوع غريب جداً، بالتأكيد. في حالة أي افتراض نظري يُدخل كيانات ومبادئ جديدة، فإن ما ينبغي إظهاره هو أن هذا الافتراض يكون مبرراً باللغة التجريبية المعتادة (مثل القدرة التفسيرية، الخ).

ويهتم قسم لا بأس به من فلسفة اللغة المعاصرة بتحليل العلاقات المزعومة بين التعبيرات والأشياء، وهو يسبر غالباً الحدوس حول بعض المفاهيم التقنية مثل "denote"، "refer"، "true of" الخ، التي يقال إنها تربط بين التعبير وشيء ما آخر. لكن لا يمكن أن توجد حدوس حول هذه المفاهيم، كما لا يمكن أن يوجد أي [منها] حول "السرعة الزاوية" أو "البروتين". هذه مصطلحات تقنية لخطاب فلسفي ذي معنى مفترض ليس له أي نظير في اللغة العادية؛ هذا هو السبب في أن فريغه frege كان عليه أن يقدم معنى تقنياً جديداً للمغزى "Bedeutung"، على سبيل المثال. إذا أعدنا إجراء تجارب التفكير بلغة عادية، يبدو أن الأحكام تنهار أو، بالأحرى، تصبح مرتبطة بالمصلحة interest-relative للغاية بحيث لا تعطي أي نتائج ذات معنى.

بدون متابعة هذه المسألة هنا، ليس واضحاً على الإطلاق أن نظرية اللغة الطبيعية واستعمالها تنطوي على علاقات تعيين المعنى "denotation" أو "true of"، الخ، في أي شيء يشبه مفهوم نظرية المعنى والتقنية.

يُزعم أحياناً أن هذه المفاهيم التقنية مطلوبة لتفسير التواصل أو لتأمل الصدق والكذب. إن الاعتقاد الأول لا أساس له (انظر، من ضمن آخرين، تشومسكي 1993a، الفصل الثاني أعلاه). الاعتقاد

الثاني أيضاً يبدو غير صحيح. تأمل ببساطة مصطلحات اللغة العادية التي بدأ بها هذا النقاش: "اللغة" و"العقل". تأمل بيانين حول اللغة والعقل:

(1) [اللغة] الصينية هي لغة بكين وهونغ كونغ وليس ملبورن.

(2) العقل هو مكانها الخاص، وهو بحد ذاته يمكن أن يجعل الجنة جحيماً والجحيم جنة.

الأول صحيح، لكن العبارة "الصينية Chinese" بالتأكيد ليست لها أي "دلالة" في العالم الواقعي، بالمعنى التقني، ولا حاجة بالمرء لأن يعتقد أنها تمتلك [هذه الدلالة] لكي ينسب [إليها] قيمة الصحة. لو اقتنعنا بحجة ميلتون (الفردوس المفقود)، فسوف نتفق على أن الجملة الثانية صحيحة، لكن بدون أن نلزم أنفسنا بالاعتقاد بأن الفاعل، الضمير، أو العبارات الانعكاسية (أو العبارات الإسمية الأخرى) يحيل إلى شيء ما في العالم أو في عالم عقلي غامض. على الأقل، لا يوجد أي دافع لا يقهر لنستسلم لمثل هذه الإغراءات، وذلك لأسباب تم تقديمها في نقد القرن الثامن عشر لنظرية الأفكار، وهي التي تم إغناؤها كثيراً في فلسفة اللغة الحديثة. هذه الخواص نمطية لكلمات اللغة الطبيعية، أكثر بكثير مما يُعتقد، كما أشك، لأسباب سبقت الإشارة إليها. ليس معنى هذا أن ننكر أن هذه البيانات يمكن صياغتها بمقاصد إحالية، لكنها تنتمي إلى طبيعة أعقد بكثير.

بأي حال، يبدو أن ليس ثمة صلة خاصة بين عزو الصدق أو الكذب ومفهوم ما للإحالة أو تعيين المعنى denotation في أي شيء يشبه مفهوم الخطاب التقني.

تأمل بالمقابل مصطلحاً آخر استعملته أنا: لغة الأنا I- Language، الذي يظهر في بيانات مثل:

(3)I- Language has a head parameter

هذا البيان زائف إذا كانت نظرية كاين (1994) Kayne صحيحة، وربما يكون صادقاً إذا لم تكن النظرية كذلك. ينتمي هذا البيان إلى نفس نوع الخطاب الذي تنتمي إليه البيانات حول H2O، والأحماض والأسس، تحديد البروتينات عن طريق الجينات، الخ. لا تنتمي الجمل فعلاً إلى اللغة الطبيعية؛ إنها تحتوي على مصطلحات تقنية، مثل لغة الأنا، تم إدخالها بطريقة مختلفة تماماً. مع تقدم الحقول المعرفية، فإنها تزداد ابتعاداً عن الأصول الفطرية والعادية التي يبدأ منها الاستعلام.

ومن المعقول أن نفترض، في أثناء هذا الاستعلام، أننا نسعى إلى بناء أنظمة يقصد فيها من الموضوعات الرمزية المتقنة البناء أن تختار أشياء معينة في العالم: الجزيئات، لغات الأنا، وهلم جرا. وهذه الأنظمة الرمزية يمكن أن تسمى "لغات"، لكن هذا مجرد مجاز metaphor. إنها من الناحية النموذجية لا تمتلك خواص اللغة الطبيعية، ويتم اكتسابها واستعمالها بطريقة مختلفة تماماً، وبالتأكيد فهي ليست تجسدات instantiations للحالة البدئية لملكة اللغة. يمكننا أن ننطق الموضوعات الرمزية لهذه الأنظمة بصوتيات phonetics لغتنا ونستعير تراكيب لغتنا لدى استعمالها، حتى عندما تحتوي على مصطلحات مبتكرة أو قائمة على اللغة التي لا نعرفها ("homo sapiens" و"eigenvector")، لكن كل هذا لا علاقة له بالموضوع. قد تفترق الأنظمة بطرق اعتباطية عن اللغة

الطبيعية باستعمال حساب التكامل والتفاضل calculus، أو الرموز الكيميائية والرسوم البيانية، أو مهما يكن.

هذه الأنظمة الرمزية يمكن أن تسير باتجاه المثال الفريغي Fregean. وفقاً لهذه المقاربة، توجد لغة مشتركة، عامة، ذات صيغ أو إشارات تعبر عن أفكار مشتركة. تمتلك اللغة تركيباً (إعراباً)، أي طائفة من الصيغ المتقنة التشكيل؛ إذ لا يوجد أي "جواب صحيح" على سؤال كيف يتم توليد هذه المجموعة. ولها أيضاً دلالات semantics تقوم على المفهوم التقني للمغزى Bedeutung، علاقة بين الرموز والأشياء. ربما تكون إحدى خواص ملكة تشكيل العلم الخاصة بالعقل البشري هي أنها تهدف إلى بناء الأنظمة الفريغية. إذا كان الأمر كذلك، فإن هذا لن يخبره شيئاً حول اللغة الطبيعية. إذ لا يوجد نظير لمفهوم لغة "مشتركة" أو "عمومية". فالتركيب يكون مختلفاً اختلافاً جذرياً. ثمة جواب حقيقي على سؤال ما هو "الإجراء التوليدي الصحيح"، فلغات الأنا هي وظائف ينظر إليها من خلال المفهوم. ويبدو أنه لا يوجد مفهوم لـ "صيغة متقنة التشكيل بالمعنى المستخدم، على سبيل المثال، من قبل كواين، في مناقشاته للالتباس الامتدادي (المفهومي) extensional وعدم التحديد في الترجمة، أو من قبل الكثير من اللسانيين وعلماء النفس والفلاسفة، وآخرين اهتموا بالقدرة التوليدية وحسمية decidability التشكيل المتقن، والاختزال إلى الأنحاء grammars المتحررة من السياق، والقوة الزائدة لبعض النظريات والمشاكل الأخرى التي لا يمكن حتى صياغتها لأجل اللغة الطبيعية، على حد علمنا. (حول

المفاهيم الخاطئة حول هذه المسائل وأصولها، انظر تشومسكي 1982، 1986.

فيما يتعلق بعلم الدلالات، بقدر ما نفهم استعمال اللغة، فإن الحجة لصالح علم دلالات قائم على الإحالة reference – based (بعيداً عن النسخة التركيبية "الذاتانية internalist) تبدو لي ضعيفة. من الممكن أن اللغة الطبيعية تمتلك فقط تركيباً syntax وسياقات pragmatics؛ إنها تمتلك "علم دلالات" فقط بمعنى دراسة كيف أن هذه الأداة، التي تكون بنيتها الشكلية وإمكانيات تعبيرها موضوعاً للاستعلام التركيبي، توضع فعلاً قيد الاستعمال لدى مشترك لغوي ما community"، لنستشهد بأقدم صياغة في النحو التوليدي منذ 40 عاماً، متأثرة بغيتغنشتاين وأوستن وآخرين (تشومسكي 1955 / 1975؛ 1957: 102– 3). في ضوء هذه الرؤية، تتكون اللغة الطبيعية من حوسبات ذاتانية internalist وأنظمة أداء تبلغها بالتوازي مع الكثير من المعلومات والمعتقدات الأخرى، منفذة تعليماتها بطرق معينة لتمكيننا من التحدث والتواصل، من بين أشياء أخرى. لن يكون هناك أي شرط لأجل ما يدعوها سكوت سومز Scott Soames "الحقيقة الدلالية المركزية حول اللغة، التي تستعمل لتمثيل العالم بالمعنى المقصود. (سومز (1989) يستشهد به ب سميث بوصفه القضية الجوهرية بالنسبة للفلاسفة أو اللغة).

ولم ألامس سوى السطح، أملاً في أن أنقل صورة عن كيف يمكن للمرء أن يدرس اللغة كموضوع طبيعي، حيث أدى هذا الاستعلام، وما هي أنواع المشاكل التي تكمن في الأفق. ربما يمكنني أن أختم

بكلمة حول حدوده، حتى لو تم توسيعها إلى مجال أوسع بشكل ملحوظ. لقد تم الإيحاء بإشارة إلى الحدود الممكنة؛ فالقضايا العامة للقصدية intentionality، بما في ذلك قضايا استعمال اللغة، لا يمكن الافتراض بشكل منطقي أنها تقع ضمن الاستعلام الطبيعاني، كما أعتقد. يمكن ايضاح المسألة بالعودة إلى الثنائوية الديكارتية الفرضية العلمية التي سعت، على وجه الخصوص، إلى فهم الحقيقة الظاهرة أن استعمال اللغة المعيارية يقع خارج حدود أية آلة ممكنة. ومع ذلك، يمكن إعادة بناء الحجج، رغم كونها الآن بدون مضامين ميتافيزيقية، كون مفهوم المادة قد تلاشى. إنها، وقد أعيدت صياغتها هكذا، يبدو أنها لا تزال تطرح لغزاً كاملاً. إنها، على سبيل المثال، لا تتأثر بالانتقال من النتاجات الصنعية artifacts المعقدة التي أسرت اهتمام الديكارتيين إلى حواسيب اليوم، وألقت علوم الدماغ قليلاً من الضوء عليها.

ربما، كما يعتقد البعض، تكون هذه المشاكل غير واقعية. وربما تكون واقعية لكننا لم نتلمس الطريق إلى مقاربتها. ومن الممكن أن "تلك الطريقة"، مهما تكن، تقع خارج قدراتنا المعرفية، وراء متناول ملكة تشكيل العلم. يجب ألا يفاجئنا هذا، إذا كان صحيحاً، على الأقل إذا كنا نرغب في اعتناق فكرة أن البشر هم جزء من العالم الطبيعي، ذوو مجال غني وحدود مماثلة من الغنى، ويواجهون مشاكل يأملون في حلها وألغازاً تقع خارج متناولهم، أي تلك "الأسرار المطلقة للطبيعة" التي "ستبقى دوماً" مكتَنَفَة "بالغموض" كما افترض هيوم، مردداً صدى بعض تأملات ديكارت الخاصة.

الفصل السادس

اللغة من منظور ذاتاني

أود أن أتوسع في بعض الملاحظات حول دراسة اللغة والعقل التي سبق تقديمها في هذا الكتاب، خصوصاً في الفصل الخامس. بداية، أريد أن أميز المقاربة الذاتانية من المقاربة الطبيعانية. إذ أعني بالأخيرة بالضبط محاولة دراسة البشر مثلما ندرس أي شيء آخر في العالم الطبيعي. أما الاستعلام الطبيعاني الذاتاني فيسعى إلى فهم الحالات الداخلية للمتعضي. إن الدراسة الطبيعانية ليست بالطبع مقيدة بمثل هذه القيود؛ فالاستعلام الذاتاني في كوكب أو في نملة لا يشفع أو يمنع دراسة النظام الشمسي أو مجتمع النمل. إن الدراسات اللاذاتانية للبشر يمكن أن تأخذ أشكالاً عديدة: [فتدرسهم] كأطوار في دورة (تحول) الأوكسجين إلى ثاني أوكسيد الكربون أو انتقال المورثات [الجينات]، أو كمزارعين أو ذواقين للمأكل والمشرب، أو كمشاركين في الجمعيات والجاليات، ببناها السلطوية وأنظمتها العقائدية، وممارساتها الثقافية، وهلم جرا. تعتبر الدراسات الذاتانية أمراً مسلماً به عموماً في دراسات أخرى ذات مجال أوسع، لكن ينبغي أن يكون واضحاً أن مشروعية نوع أو آخر من الاستعلام تطرح للنقاش.

لمزيد من الإيضاح، سألتزم هنا بالبحث عن الفهم النظري، النوع المحدد من الاستعلام الذي يسعى إلى تفسير بعض مظاهر العالم على قاعدة البنى والمبادئ التفسيرية الخفية عادة.. يمكن لشخص ملتزم بالاستعلام الطبيعاني أن يؤمن بشكل متساوق بأننا نتعلم من الاهتمام البشري حول كيف يفكر البشر ويشعرون ويتصرفون عن طريق دراسة التاريخ أو قراءة الروايات أكثر مما نتعلم من كل الاستعلام الطبيعاني. خارج بعض المجالات الضيقة، أثبت الاستعلام الطبيعاني أنه ضحل أو ميؤوس منه، وربما سيكون كذلك على الدوام؛ ربما لأسباب لها علاقة بطبيعتنا المعرفية.

سأطلق على مظهري العالم الذين يعنياني هنا اسم المظهرين العقلي واللغوي، مستعملاً المصطلحين بشكل حميد - على غرار "كيميائي" "كهربائي" أو "بصري" - لاختبار مركب من الظاهرات والأحداث والسيرورات وهلم جرا التي يبدو أنها تمتلك وحدة معينة واتساقاً. أعني بـ "العقل" المظاهر العقلية للعالم. إذ لا توجد في أي من هذه الحالات حاجة إلى الوضوح المسبق، ولا أي مبرر للاعتقاد بأن المقولات سوف تنجو من الاستعلام الطبيعاني حيث يمكنه أن يحرز بعض التقدم.

أعني "بالطبيعانية" "الطبيعانية المنهجية"، المقابلة لـ "الثنائوية المنهجية": المذهب [القائل] بأنه لدى البحث عن الفهم النظري، يتعين دراسة اللغة والعقل بطريقة ما غير الطرق التي نستقصي بها الأشياء الطبيعية من حيث المبدأ. هذا مبدأ قد يعتنقه القليلون، لكنه يهيمن على كثير من الممارسة البحثية، كما أعتقد. (من أجل

بعض النقاش الحديث، انظر تشومسكي 198a؛ والفصلين الثاني والثالث من هذا الكتاب).

يدرس أحد فروع الاستعلام الطبيعاني الفهم الفطري common-sense. هنا نهتم بكيف يفسر البشر ثبات الأجسام object constancy، طبيعة وأسباب الحركة، الفكر والفعل وهلم جرا ("العلم الشعبي"، بأحد معاني المصطلح). ربما كانت الطريقة الصحيحة لوصف ذلك هي في ضوء الاعتقادات حول مكونات العالم (دعونا نسميها "الكيانات") وتنظيمها وتفاعلها وأصولها. افترض هكذا. إن السؤال المفتوح هو ما إذا، إذا كان كذلك فكيف، كانت الموارد المفاهيمية للعلم الشعبي ترتبط بتلك الموارد المشمولة في الاستعلام التأملي والواعي لذاته الذي يوجد في كل ثقافة معروفة ("العلم المبكر") أو بالمشروع المحدد الذي نسميه "العلم الطبيعي". توخياً للراحة، دعونا نشير إلى دراسة كل هذه المسائل بوصفها "العلم الإثني" ethnoscience.

إن السؤال المفتوح أيضاً هو كيف أن الموارد المفاهيمية التي تدخل في هذه الأنظمة المعرفية ترتبط بالموارد الدلالية (بما فيها الموارد المعجمية) لملكة اللغة. هل يعزو البشر المعتقدات إذا كانوا يتكلمون لغات ليس فيها مثل هذا المصطلح، وهو حال الغالبية الكبرى، كما يبدو؟ هل يمكن لشخص يفتقر إلى المصطلحات savoir faire، freunde schaden، machismo، أن يدركها، أو يدرك أي مصطلح تعبر عنه الألفاظ التي لا حصر لها التي تتحدى المترجمين؟ فإذا قلنا أن أحد الأشياء التي تهمني هو الإنسان العادي averageman ونقاط ضعفه، أو أولويات المدمن، أو المسار الداخلي

الذي أضفته رايثيون Raytheon على آخر عقد للصواريخ، هل يستتبع ذلك أن أعتقد بأن العالم الحقيقي، أو أنموذج عقلي له عندي، مكون من كيانات مثل الإنسان العادي، ونقاط الضعف، وأولويات جو المدمن والمسارات الداخلية؟ عندما تنقل الصحافة أن مذنباً يتجه صوب المشتري وأن صيادي المحار يفرطون في الصيد في مياه نيو انغلند، فهل يعني هذا أن الكتّاب والقراء يظنون أن للمذنبات مقاصد وأن المحار هو سمك؟ هذه في الحقيقة أسئلة حول معمار العقل، مصاغة على نحو غير ملائم بدون شك، لأن ثمة القليل جداً مما هو مفهوم.

إذا كان الحدس يشكل دليلاً، فيبدو أن ثمة فجوة كبيرة بين الموارد الدلالية للغة المفسَّرة حرفياً والأفكار المعبّر عنها باستخدام هذه الموارد. فأنا سعيد بالحديث عن الشمس التي تغرب وراء الأفق، والمذنبات التي تتجه مباشرة نحو المشتري، والأمواج التي تلطم الشاطئ، وتنحسر وتتلاشى عندما تهمد الريح. لكنني لست مدركاً لوجود معتقدات لدي تنطبق حرفياً على المصطلحات الأرواحية animistic والقصدية التي أستعملها بحرية، أو التي تتناقض مع أي شيء أفهمه حول النسبية وحركات الجزيئات. ولا يبدو العالم، أو كوني العقلي، مسكونين بأي شيء يشبه ما أصفها بأنها أشياء تهمني. إن علماء النفس والإناسة (الأنثروبولوجيا) الذين يستكشفون علاقة اللغة ـ الفكر (على سبيل المثال، فرضية سابير ـ وورف Sapir – whorf) يجدون هذه المشاكل عويصة ومثيرة للتحدي؛ إذ تقدم الأجوبة في كثير من الأدبيات الفلسفية المعاصرة، لكن على أسس تبدو لي أقل إقناعاً.

في الحقيقة، يجري تقديم أجوبة مختلفة اختلافاً جذرياً. خذ اللغة كمثال. يكتب دونالد ديفيدسون أننا "نتكلم جميعاً بحرية للغاية حول اللغة، أو اللغات، بحيث نميل إلى نسيان أنه لا توجد أشياء كهذه في العالم؛ لا يوجد سوى أشخاص ونتاجاتهم المكتوبة والمسموعة المختلفة. هذه النقطة، الواضحة في حد ذاتها، هي، مع ذلك، سهلة النسيان" (Davidson 1990b). بالنسبة لمعظم فلاسفة اللغة، من الواضح بالقدر نفسه أنه توجد مثل هذه الأشياء في العالم كاللغات: بالفعل، "اللغات المشتركة، العمومية ـ الصينية، الألمانية، الخ ـ التي يعتقد البعض أننا نمتلك "فهماً جزئياً، ومغلوطاً جزئياً عنها (Dummett 1986: 468). إن هيلاري بوتنام، من بين آخرين، يأخذ الحقيقة المزعومة على أنها حقيقة واضحة وضوح نكران ديفيدسون لها، بالتوازي مع الحقائق الواضحة بالقدر نفسه حول الأشياء في العالم التي تنطبق على العبارات الإسمية بحرية نوعاً ما، هكذا يبدو، بحيث أن العالم يحتوي كل ما يمكننا أن نشير إليه بوصفه شيئاً يهمنا أو يزعجنا، بما في ذلك الدلالات denotata المفترضة للكلمات التي لا نعرفها (Davidson 1990b; Putnam 1992, 1998a)[1].

هناك موقف ثالث [يقول] إن الاستنتاجات حول هذه المسائل نادراً ما تكون واضحة: يجب العثور على الأجوبة عن كل حالة على حدة، والأسئلة تتطلب صياغة أكثر حذراً في المقام الأول. ويسعى العالِم الإثني إلى تحديد ما يعتبرها الناس مكونات العالم، كيفما كان بإمكانهم أن يتحدثوا حولها. ينشد الاستعلام المختلف

أفضل نظرية للغة واستعمالها، والحالات والسيرورات والبنى التي تدخل فيها.

تبرز هذه الأسئلة في أبسط الحالات: الأشياء القابلة للتسمية، المواد، المصنوعات اليدوية، الأفعال وهلم جرا. إنني أعتبر الشيء الذي أمامي مقعداً، لكن يمكن إقناعي بأنه سرير قاس لأجل قزم لكنني أسيء استعماله كمقعد؛ تلك هي مسألة قصد المصمم والاستعمال المألوف. من وجهة نظر معينة، أعتبره الشيء نفسه مهما كان الجواب؛ ومن وجهة نظر أخرى، أعتبره شيئاً مختلفاً. إن العوامل التي تدخل في هذه الخيارات متنوعة ومعقدة. فأنا أعتبر محتويات الكأس على المقعد شاياً، لكن إذا علمت أنه جاء من الحنفية بعد المرور عبر مصفاة [فلتر] شاي في الخزان، فإني أستنتج أنه ماء فعلاً، وليس شاياً (انظر أيضاً الفصل الخامس). مرة أخرى، إنه الشيء نفسه بالنسبة لي في الحالتين من وجهة نظر واحدة، وشيء مختلف من وجهة نظر أخرى. إن بعض العصي التي أمربها على الطريق ليست شيئاً على الإطلاق، ما لم يشرح لي أنها قد أنشئت خصيصاً كشيء، كنوع من الموضوع، سواءً من قبل البشر أو، ربما، من قبل القنادس. تعتمد ماهية الشيء، وإذا كان هكذا الشيء، على تشكيلات محددة من المصالح والمقاصد والأهداف والأفعال البشرية؛ وهي ملاحظة، بشكل من الأشكال، قديمة قدم أرسطو. قد يكون الأمر أنني في هذه الحالات لا أغير معتقداتي حول مكونات العالم عندما يتغير محدد الهوية ـ بحيث أنه في شكلي المختلف الخاص بي من "العلم الشعبي"، فإن الكيانات التي تشغل حاسوبي وتملأ الكأس، والتي أمر بها على الطريق، تبقى كما

كانت مستقلة عن التفسيرات، التي تضعها في علاقات غير متوقعة بالتصاميم والمقاصد والاستعمالات والأغراض.

عندما تتقدم دراسة ملكة اللغة والأنظمة المعرفية الأخرى، يمكن أن نتوصل إلى فهم بأية معايير تؤطر صورتي للعالم في ضوء الأشياء التي يتم اختيارها وإفرادها بخواص معجمي، أو حتى تتضمن كيانات وعلاقات يمكن وصفها عن طريق موارد ملكة اللغة. تبدو بعض الخواص الدلالية مرتبطة تحديداً باللغة، التي تتطور كجزء منها، مندمجة اندماجاً شديداً مع مظاهرها الأخرى، وحتى تكون ممثّلة بطرق طبيعية ضمن بناها المورفولوجية والتركيبية. إن مصطلحات اللغة يمكن أن تدل على مواقف في أنظمة الاعتقاد، التي تغني أكثر المنظورات المعقدة التي تنتجها لأجل رؤية العالم. إن بعض المصطلحات، خصوصاً تلك التي تفتقر إلى البنية العلاقية الداخلية، يمكن أن تفعل أكثر من ذلك قليلاً؛ بالأخص "مصطلحات النوع الطبيعي"، مع أن العبارة مضللة، لأن لها علاقة واهية، إن كانت لها علاقة بالمرة، بأنواع الطبيعة. يلاحظ أكيل بيلغرامي أن تحليل الموارد المعجمية في ضوء منظور العامل الألسني عن الأشياء "الذي يقاوم المفاهيم الملتبسة للدلالة المستقلة، يؤدي بشكل طبيعي إلى ربط دراسة المعنى "بأشياء كالمعتقدات تتوسط الأشياء في العالم التي نرتبط معها بعلاقات سببية" وبالمفهوم "المحلي بشكل جذري أو السياقي" للمضمون الذي يطوره في رفضه "طريقة التفكير الراهنة برمتها التي تصنف المضمون إلى واسع وضيق". تبدو هذه لي اتجاهات مثمرة يجب

متابعتها (انظر بيلغرامي 1993: 62؛ حول مصطلحات النوع الطبيعي، انظر برومبرغر 1992a).

ليست دراسة الموارد الدلالية لملكة اللغة علماً إثنياً، والمشروعان بالطبع، ينبغي تمييزهما عن الاستعلام الطبيعاني في مجال الموضوعات التي تنكب عليها اللغة الطبيعية والعلم الشعبي بطرقهما الخاصة. وهذه الملاحظة بديهية في حالة سقوط التفاح، والنباتات التي تنحو نحو الضوء، والصورايخ المتجهة نحو السماء؛ هنا لا أحد يتوقع من اللغة العادية أو العلم الشعبي أن يدخلا في محاولات للوصول إلى الفهم النظري للعالم، وراء منطلقيهما الحدسيين. في المقابل، يعتبر مشكلة خطيرة أن نقرر ما إذا كان "الحديث العقلاني والكيانات العقلية سيفقدان في نهاية المطاف مكانتهما في مساعينا لوصف وتفسير العالم" (Burge 1992 :33). إن الاعتقاد بأن الحديث العقلاني والكيانات سوف تفقد مكانتها هو إزالوية eliminationism أو "مادية إزالية"، يعرفها بورغ بأنها تيار كبير من السعي "لجعل الفلسفة علمية"؛ ربما كانت أطروحة خاطئة، لكنها هامة.

ليس من الواضح لماذا هي هامة. إذا استبدلنا "العقلي" "بالجسدي" في الطروحة فإنها تفقد أهميتها: ذلك أن "الحديث الجسداني والكيانات الجسدانية" فقدا مكانتهما منذ زمن طويل في مساعينا لوصف وتفسير العالم"، إذا كنا نعني بـ"الجسداني" و"الجسدي" مفهومي الخطاب الشائع أو العلم الشعبي، وبـ"المساعي لوصف وشرح العالم" نعني الاستعلام الطبيعاني. لماذا ينبغي أن نتوقع أي شيء مختلف من "الحديث العقلاني والكيانات

العقلية"؟ لماذا، على سبيل المثال، ينبغي أن نفترض أن علم النفس "يسعى لتنقية وتعميق وتعميم ومنهجة بعض الأحكام البديهية العامة المشكّلة حول النشاط العقلي للبشر" (Burge 1986a :8)[2]. رغم أن الكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا ليست لها اهتمامات متماثلة. إذ لا أحد يتوقع من الكلام العادي حول الأشياء التي تحدث في "العالم الجسدي / الفيزيائي" أن تكون له أية علاقة خاصة بالنظريات الطبيعانية؛ فالمصطلحان ينتميان إلى كونين فكريين مختلفين. هذه الحقائق لا تؤخذ لطرح مشكلة الجسد ـ الجسد، ولم يقترح أحد طروحة" شذوذية anomalism الجسدي" لمعالجة هذه الحقائق. الشيء نفسه، إذاً، يجب أن يصح على بيانات مثل John speaks Chinese [جون يتكلم الصينية] أو John took his umbrella because he expected rain [جون أخذ مظلته لأنه توقع هطول المطر] ـ مع أن المرء قد يأمل، في كل الحالات، أن العلم يمكن أن يثمر بعض الفهم والتبصر في حقول مفتوحة على الاستعلام عن طريق منظورات البحث البديهية.

يبدو أن ثمة أساساً هنا لأية مشكلة عقل ـ جسد ولا مبرر للشك في طروحة ديفيدسون [القائلة] بأنه لا توجد أية قوانين نفسجسدية psychophysical تربط الأحداث العقلية والجسدية في مخطط تفسيري ملائم، لأسباب مماثلة، لا توجد أية قوانين فيزيائية ـ جسدية physico-physical لربط الكلام العادي حول الأشياء بالعلوم الطبيعية، حتى لو كانت الأحداث الموصوفة تقع ضمن مجالها الوصفي الممكن. إن الفروق بين المظاهر العقلية والمظاهر الأخرى للعالم، بهذا الخصوص، تبدو غير مبررة، إلا في ناحية

واحدة: فهمنا النظري للغة والعقل والبشر عموماً هو فهم ضحل للغاية، بغض النظر عن الحقول المحددة، بحيث لا يمكننا سوى أن نستعمل مواردنا الحدسية في التفكير والتحدث حول هذه المسائل.

وليست [المسألة] هي أن الخطاب العادي يفشل في الكلام حول العالم، أو أن التفاصيل الدقيقة التي يصفها لا توجد، أو أن التعليلات تفتقر كثيراً إلى الدقة. بل، بالأحرى، إن المقولات المستعملة والمبادئ المطبقة ليست بحاجة لأن تكون لها حتى نظائر مفككة في الاستعلام الطبيعاني. ويصح هذا حتى على أجزاء الخطاب العادي التي تمتلك طابعاً شبه طبيعاني. فكيفية تحديد البشر لما إذا كان شيء ما ماءً أو شاياً ليس لها أهمية بالنسبة للكيمياء. إذ ليس من المهمات الضرورية للكيمياء الحيوية أن تقرر عند أية نقطة في الانتقال من الغازات البسيطة إلى الجراثيم نعثر على "جوهر الحياة" و، إذا كان مثل هذا التصنيف مفروضاً، فإن التوازي مع المفاهيم الفطرية لن يكون ذا أهمية أكثر مما هو بالنسبة لمفاهيم "السماء" the heaven، أو "الطاقة" energy أو "الصلب" soild. ليس مهماً للبيولوجيين ما إذا كان الاستعمال العادي [اللغة] يعتبر الفيروسات "حية"، وهم الذين يصنفونها (حية) عندما يختارون في ضوء الجينات [المورثات] والشروط التي تعمل في ظلها. لا يمكننا أن نحتكم إلى الاستعمال العادي للغة لنقرر ما إذا كان فرانسواز جاكوب محقاً في إخبارنا أنه "بالنسبة للبيولوجي، فإن الحياة لا تبدأ إلا بما يكون قادراً على تكوين برنامج وراثي" (1974: 304). مع أنه "بالنسبة للكيميائي، بالمقابل، من

التعسف بشكل ما أن نرسم حداً حيث لا يمكن أن يوجد سوى التواصل". بشكل مماثل، فإن مفهوم "الكائن البشري" human being، بخواصه المثيرة للفضول للاستمرار النفسي psychic، لا يدخل العلوم الطبيعية. وتحاول النظرية التطورية والفروع الأخرى لعلم الأحياء أن تفهم جون سميث ومكانته في الطبيعة؛ وإن لم يكن ذلك، تحت صفة "كائن بشري" أو "شخص" كما تفسران في اللغة والفكر العاديين. هذه المفاهيم مهمة لأجل علم دلالات اللغة الطبيعية والعلم الإثني، وليس لأجل فروع البيولوجيا البشرية التي تسعى إلى فهم طبيعة جون سميث وأفراد نوعه أو ما يميزهم عن القرود والنباتات (من أجل رؤية معاكسة، فيما يتعلق بهذه الأمثلة، انظر putnam 1992).

وتسير العلوم الخاصة أيضاً بطرقها الخاصة. لنستعير مثال جيري فودور عن نهر متعرج يحت ضفتيه، فعلوم الأرض لا تهتم تحت أية ظروف يعتبره البشر النهر نفسه إذا تم إعكاس الجريان أو إذا أعيد توجيهه في مسار مختلف، أو متى يعتبرون شيئاً يبرز من البحر جزيرة أو جبلاً له قاعدة مائية. الشيء نفسه ينبغي توقعه في حالة مفاهيم عامة مثل اللغة language والاعتقاد belief، ومصطلحات حقول دلالية متصلة بها في لغات وأطر ثقافية مختلفة.

ينظر إلى العلوم الطبيعية المستقلة عموماً على أنها إلى حد كبير نتاجات صنعية وأشياء متفق عليها رغبة في السهولة، لا نتوقع منها أن تنقش الطبيعة على مقاييسها؛ إن تعليق جاكوب نمطي. [هذه] الملاحظة لا خلاف حولها بالنسبة "للعلوم البحتة hard"، لكنه خضع للتحدي القوي في حالة اللغة. فقد كان ثمة الكثير من

السجال الساخن حول ما هو حقاً موضوع اللسانيات، وما هي فئات المعطيات التي يسمح لها أن تعتمد عليها. إذ يُقام تمييز بين الدليل اللغوي الملائم لأجل اللسانيات في مقابل الدليل السيكولوجي والأدلة الأخرى التي ليست كذلك. مثل هذه المناقشات، التي يمكن العثور عليها في كل الحقول المعرفية ذات الصلة هي غريبة على الاستعلام الطبيعاني. فالملاحظة التجريبية لا تأتي مع لافتة "أنا أصلح لـ س" مكتوبة على كمه، حيث س هي الكيمياء، أو اللسانيات أو أياً يكن. لا أحد يسأل ما إذا كانت دراسة جزيء معقد تنتمي إلى الكيمياء أو البيولوجيا ولا يتعين على أحد أن يسأل ما إذا كانت دراسة التعبيرات اللغوية وخواصها تنتمي إلى اللسانيات أو علم النفس أو علوم الدماغ.

ولا يمكننا أن نعرف مسبقاً ما هي أنواع الأدلة التي يمكن أن تكون ذات صلة بهذه المسائل. لهذا يوحي بعض البحث الحالي أن دراسات النشاط الكهربائي للدماغ يمكن أن تقدم أدلة تقوم عليها، [وهي] استحالة مفاهيمية وفقاً لجزء كبير من الأدبيات المختصة، التي تقدم أيضاً آراء غريبة أخرى: على سبيل المثال، إن دراسات الانزياح الإدراكي لنقرات المفاتيح clicks يمكن أن تقدم الدليل على حدود العبارات، في حين أن الملاحظات حول الضمائر anaphora في اللغة اليابانية، التي تقدم دليلاً أقوى بكثير على أسس طبيعانية، لا تشكل دليلا لصالح الطروحات الواقعية على الإطلاق بسبب شكل قاتل من عدم التحديد (انظر على سبيل المثال Quine، 1987). أو أننا يجب أن نلتزم بـ ـ أو حتى أن نهتم بـ ـ "رؤية الجدات" Grandma حول حقل اللسانيات، مع أن هذا

الموقف ليس مقبولاً في حال الكيمياء (Devitt and Sterelny 1989). أو أن دراسات المعالجة والاكتساب، والباثولوجيا والإصابة، والتنوع الوراثي، وهلم جرا لا يمكن، من حيث المبدأ، استعمالها كدليل على مكانة عناصر التمثيل اللغوي (soames 1989)، خلافاً لما آمن به طويلاً اللسانيون التطبيقيون؛ على سبيل المثال، إدوارد سابير ورومان جاكوبسون في الأعمال الكلاسيكية، أو الدراسات الحديثة حول آثار التداعي في المعالجة وتطبيقاتها فيما يتعلق بالعناصر غير المنطوقة. تعكس كل هذه التحولات شكلاً ما من الثنائوية، إصراراً على أننا يجب ألا نعامل مجال العقلي، أو على الأقل، اللساني، كما نعامل المظاهر الأخرى للعالم.

في بعض الأحيان كان الدفاع عن الثنائوية المنهجية صريحاً، أو هكذا يبدو. تأمل طروحة مايكل دومت القائلة بأن التفسيرات العلمية قاصرة عن التفسير الفلسفي لأسباب مفاهيمية. لنأخذ مثاله، افترض أن المقاربة الطبيعانية للغة نجحت نجاحاً يتجاوز أكثر أحلامنا جموحاً. افترض أنها تقدم تفسيراً دقيقاً لما يحدث عندما تضرب أمواج الصوت الأذن وتتم معالجتها، ودمجت بشكل كلي في نظرية علمية للفعل action، وتحل مشكلة التوحيد، دامجة نظريتي الخلايا والسيرورات الحوسبية. عندئذٍ سيكون لدينا نظرية ناجحة عما يعرفه جونز عندما يكون قد اكتسب لغة؛ ما يعرفه حول القافية، استتباع الاستعمال [اللغوي] الملائم للأوضاع، وهلم جرا. لكن ليس مهماً، يكتب دومت، كم ستنجح هذه الاكتشافات في "المساهمة بلا شيء في الفلسفة"، وهو ما يتطلب جواباً على سؤال مختلف: ليس كيف تخزن المعرفة أو تستعمل، بل "كيف تؤدى".

إن التفسير الطبيعاني سيكون "فرضية سيكولوجية"، وليس "تفسيراً فلسفياً" لأنه لا يخبرنا ما هو الشكل الذي تنقل به [كتلة المعرفة] (Dummett 1991;1993:XI). فيما يتعلق بالعلوم، يخبرنا التفسير [الطبيعاني] كل ما يمكن طرحه حول الشكل الذي تؤدى به المعرفة، لكن الفلسفة تستدعي نوعاً من الشرح غير معروف في الاستعلام الطبيعاني.

إن الفلسفة، المفهومة بالطريقة المذكورة أعلاه، يبدو أنها تستبعد كثيراً من جوهر الفلسفة التقليدية: هيوم Hume، على سبيل المثال، الذي كان مهتماً بـ"علم الطبيعة البشرية" وسعى إلى إيجاد "المنابع والمبادئ السرية، التي يُشغّل بها العقل البشري في عملياته" (1748/1975: 14section9)، بما في ذلك تلك "الأجزاء من معرفت [نا]" التي يتم اشتقاقها عن طريق "اليد الأصلية للطبيعة" (1748/1975:108 section 85)، [وهو] مشروع كان يقارنه بمشروع نيوتن. فلو حقق هيوم هذه الاهداف، لكان قد أثبت "الفرضيات السيكولوجية" بلغة دومت، لكنه لما كان قد ساهم بعد بأي شيء في الفلسفة. "فالشرح الفلسفي" يتطلب شيئاً أكثر من اكتشاف "المنابع والمبادئ السرية" للعقل وكيف تقوم بوظيفتها.

إذا فهمت دومت، فإن التفسير الفلسفي ينطوي بشكل حاسم على إمكانية الوصول إلى الوعي. تخيل عندئذٍ مخلوقاً مريخياً m يشبهنا تماماً سوى أن m يمكن أن يصبح مدركاً لكيف "يشغل عقله في عملياته". عندما نسأل m ما إذا كان يتبع قواعد الفونولوجيا (علم الصوت) في بناء القوافي، أو الشرط (B) من نظرية الربط Binding Theory لدى تحديد التبعية الإحالية referential

dependene، فإن M يرد ويقول (صادقاً)، "نعم، هذا هو بالضبط ما أفعله". بشكل افتراضي، هذا هو بالضبط ما تفعله أنت وما أفعله أنا. بالنسبة إلى m، سيكون لدينا "تفسير فلسفي"؛ سنفهم الشكل الذي تنتقل به المعرفة ويمكننا أن ننسب بها المعرفة بشكل دقيق إلى M. لكننا ما كنا عبرنا الجسر إلى "التفسير الفلسفي" ونسب المعرفة لأجل الإنسان الذي يعمل بالضبط كما يعمل m، ولو بدون إدراك. كما يعبر عن ذلك كواين وجون سيرل وآخرون، سوف يتاح لنا أن نقول إن m يتبع القواعد ويستهدي بها، في حين أن الإنسان لا يمكن وصفه بهذه المصطلحات، لتجنب التبعات المضادة للحدس المباشرة، يلح سيرل أكثر على مفهوم "إمكانية الوصول في المبدأ" الذي لا يزال غامضاً تماماً (انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب).

فهل هذه المقترحات جوهرية أم هي مجرد مقترحات اصطلاحية؟ إنها إصطلاحية كما يبدو لي، فأنا لا أرى أية قضية جوهرية تبرز للعيان. يمكن إضافة أن المقترحات تحيد بشكل جذري عن الاستعمال [اللغوي] العادي، مهما كانت قيمتها. في الاستعمال اللغوي غير الرسمي [العامي]، نقول إن حفيدتي تتبع القواعد الخاصة بصيغة الماضي النظامي وبعض الأفعال اللانظامية عندما تقول: "I rided my bike and brang it home" مع أن هذه القواعد ليست متاحة للوعي بالنسبة للأطفال أو البالغين بأكثر من تلك التي يعلن عدم أهليتها كواين وسيرل وآخرون. إن مفهوم سول كريبك Saul Kripke "الفيتغنشتايني" لا تباع القواعد في ضوء معايير الجماعة (المجتمع) هو بشكل افتراضي التتمة لاستعمال اللغة العادي، الذي يصف بشكل نموذجي السلوك الموجه بالقواعد

في حالات الحيدان عن هذه المعايير، كما في المثال الوارد أعلاه. بالمقابل، فإن اللساني وحده هو المرجح لأن يقول إن حفيدتي تتبع قواعد نظرية الربط Bindung theory، مذعنة للجماعة التي تنتمي إليها (في الحقيقة، المجتمع البشري، على أكثر الاحتمال).

لدى دراسة المظاهر الأخرى للعالم، نكون مقتنعين بحجج "النظرية الأفضل"، ولا توجد فئة مفضلة من الأدلة التي تقدم القرائن لأجل التصورات النظرية. في دراسة العقل واللغة، لا تكفي النظرية الطبيعانية: يجب علينا أن نبحث عن "التفسيرات الفلسفية"، وأن نحدد الاستعلام بلغة محك مفروض ما، ونشترط أن تكون الطروحات النظرية مرسّخة في فئات من الأدلة يختارها الفيلسوف. ونعتمد على مفاهيم عامة مثل "حرية الوصول في المبدأ" التي لا مكان لها في الاستعلام الطبيعاني. مهما كان معنى هذا كله، ثمة مطلب يتجاوز الطبيعانية، شكل من الثنائوية يتعين تفسيره وتبريره.

إن المطالب الفلسفية تسوغها أحياناً مشاكل الخطأ وسلطة الشخص الأول [المتكلم]. يستنتج باري سميث، مدافعاً عن موقف يشبه كثيراً الموقف الذي تم تقديمه هنا، أنها لا تزال قاصرة عن "التفسير المقنع فلسفياً"، لأسباب كهذه؛ يخفق في "إخبارنا ما الذي يُعد استعمالاً صحيحاً للكلمات، أي وفقاً لبعض الأنماط المعيارية للاستعمال"، وتفسير معرفتنا الموثوقة بالإعراب والمعنى في لغتنا الخاصة. هكذا فإن "العمل الفلسفي.. حيوي لإكمال المشروع الكلي"، العمل الذي يتخطى "علم النفس العلمي" (بما في ذلك اللسانيات الذاتانية) (B. Smith 1992 :134 -5).

هذه الاستنتاجات تبدو لـي غـير مـبررة. تأمـل مثـالاً نموذجيـاً. افترض أن بيتر، متكلم عادي للانكليزية، يقـول " John expects to like him". استنتج أنه يقصد الإحالـة إلى شخصـين مخـتلفين: جون وشخص آخر يميزه الضمير him. إذا كان بيتر يضمر التعـبير نفسه في السياق "احزر من Guess who"، بحيث أنه قال Guess who John expects to like him "احزر من الـذي يتوقـع جـون أن يحبه"، لا أعرف ما إذا كان يقصد أم لا الإحالة فقط إلى جـون. ففي "John expects to like him " ليسـت him معتمـدة إحاليـاً علـى John؛ أمـا في "Guess who John expect to like him" فيكون السؤال مفتوحاً. ثمة تفسير جيد لهذه الحقـائق بلغـة نظريـة لسانية ذاتانية، لندعوها T.

افترض أن T تنطبق على M المريخي وعلينا. يمكـن أن تخبرنـا M أنه يتوصل إلى هذه الاستنتاجات على قاعدة T الذي يمكنـه أن يتعرف عليها وحتى أن يفصح عنها؛ أما أنـا فـلا أسـتطيع ذلـك، رغم أنني أعمل بالضبط مثلما يعمل M. يميـل الـبعض، إذا أعطـوا إمكانية الوصول الواعية لـ M إلى القواعد التي يتبعهـا، إلى الشـعور بأننا نمتلك تفسيراً لكون M "موثوقاً بسهولة" في الحقائق الموصـوفة بطريقة غير تقنية؛ لكن التفسير الطبيعاني الذاتاني "تشكل لغزاً" أو "لغزاً محضاً من سلطة الشخص الأول في حالة بيتر. بافتقاده حريـة الوصـول الواعيـة لـ M، كيـف يمكـن لبـيتر أن "يفهـم تعـبيرات بعينهـا"، كـالتعبيرات قيـد البحـث، الـتي يكـون فيهـا "موثوقـاً" بسـهولة"، الـتي يطرحهـا كريسـبن رايـت Crispin Wright

(Wright 1989: 236?) إنـه يقـترح مشـروع رايـت بوصـفه تتمـة ضرورية.

افترض أننا صغنا المسألة بشكل مختلف. إن نوع التفسير الـذي يمكن تقديمه اليوم، بما في ذلك T، لا "يشـكل لغـزاً" مـن موثوقيـة الشخص الأول مع أنه "يترك" لغزاً، حول كل من M وبيتر. لأجل الإثنين، نمتلك تفسيراً يلـبي شـروط العلـوم (لنـدع مسـألتي الدقـة والصِحة جانباً)، لكننا نفتقر إلى أي تبصر في طبيعة الوعي، [وهـو] شيء ليس له علاقة بمسألة اتباع القواعد وموثوقية الشخص الأول، مع أنه مثير للاهتمام بحد ذاته.

يتبع بيتر قواعد T لأنها تلك هـي الطريقـة الـتي يتكـون بهـا، تماماً مثلما يرى غروب الشمس، والأمواج التي تلطـم الصـخور؛ إن موثوقية الشخص الأول الخاصة به إنما تستنزفها هذه الحقيقة. فيما يتعلق بما ندعوه "الخطأ" error، توجـد أنـواع ممكنـة كـثيرة. قـد يبتعـد بـيتر عـن مقيـاس خـارج مـا ـ لنقـل، بـأن يسـتعمل كلمـة "disinterested" وهو يقصد معنى "uninterested"، أو يستعمل لهجته الأصلية في محاضرة باللغة الفصحى. قد يختـار أن يخـالف القواعـد، ربمـا باسـتعمال كلمـة "chair" (كرسـي) بمعنـى table (طاولة) في شيفرة ـ وهو يعرف أنها تعـني كرسـي بلغتـه الخاصـة. بفعله ذلك، إنما يستفيد من ملكات العقل التي تتجاوز ملكة اللغة. قد يخطئ تفسير عبارة، من حيث أن نظامه الأدائي ينـتج تفسـيراً مختلفاً عن التفسير الذي تطرحه لغتـه الجوانيـة؛ وتوجـد أصـناف معروفة جيـداً لمثـل هـذه الحـالات، تمـت دراسـتها بشـكل مثمـر.

باستعراض الإمكانيات الأخرى، يبدو أننا لا نجد حدوداً ذات صلة لعلم النفس الذاتاني.

يستعمل آخرون مصطلحات مختلفة لأجل النقاط نفسها كما يبدو. هكذا يجادل توماس ناغل أن النظرية الطبيعانية الكاملة للغة، واستعمالها واكتسابها لن تصف "إوالية سيكولوجية" بل "إوالية فيزيائية" ببساطة - لأنها غير قادرة على خلق التفكير الواعي الذاتي الذي يتألف مضمونه من تلك القواعد نفسها" (1993: 109). إن التمييز الواضح، مرة أخرى، يكمن في إمكانية الوصول إلى الوعي في المبدأ. هذه الفكرة تبدو هي نفس فكرة دومت، لكن بمصطلحات مختلفة: "سيكولوجي" بدل "فلسفي". هنا مشكلة فهم "إمكانية الوصول في المبدأ" و"مضمون التفكير" يعقدها غموض مفهوم "إوالية فيزيائية" الذي كان له معنى ما في فيزياء ما قبل نيوتن، لكن لم يعد له معنى منذ ذلك الحين.

ما لم يقدم لنا مفهوم جديد لـ "الجسد" أو "المادي" أو "الفيزيائي"، لا نمتلك أي مفهوم للطبيعانية بعيداً عن الطبيعانية المنهجية. إن الاستعمال اللغوي الأكثر تقليدية يحيل إلى مذهب مختلف هو "الطبيعانية الميتافيزيقية"، التي يصفها بورغ Burge بإنها "إحدى الاورثوذكسيات القليلة في الفلسفة الأميركية" في السنوات الأخيرة (1992: 32)؛ بأشكال مختلفة أخرى، المادية، الجسدانية، الإزالوية، "طبعنة الفلسفة"، وهلم جرا. لا تكون هذه المذاهب قابلة للفهم إلا عندما يُحدد مجال الجسدي بشكل ما.

ويصوغ أحد المدافعين الرواد، دانييل دينيت، المذهب بهذه الطريقة: "طبعنة الفلسفة" التي يصفها بأنها إحدى أسعد

الاتجاهات منذ الستينات 1960" التي تؤمن بأن "التفسيرات الفلسفية لعقولنا، ومعرفتنا ولغتنا يجب في النهاية أن تكون متواصلة، أو متناغمة، مع العلوم الطبيعية". في مناقشة للطبيعانية المعاصرة، يستشهد ت. ر. بالدوين بهذه العبارة ليشرح طروحة "الطبيعانية الميتافيزيقية"(1993) مستشهداً بمقدمة دينيت Dennett لكتاب حول الموضوع كتبه روث ميليكان Ruth Milikan). إنه، مثل الصيغ الأخرى، يطرح بعض المشاكل. ما هي "التفسيرات الفلسفية" بوصفها مختلفة عن غيرها، خصوصاً بهذا المعنى "المطبعن" للفلسفة؟ وما هي العلوم الطبيعية؟ بالتأكيد إنها ما يُفهم اليوم، الذي قد لا يكون "متواصلاً ومتناغماً" مع فيزياء الغد. مثال بيرسي peircean ما، ربما؟ إن هذا لا يبدو واعداً. ما الذي يمكن للعقل البشري أن يحرزه في النهاية؟ هذا على الأقل موضوع محتمل للاستعلام، لكنه يتركنا في وضع أسوأ حتى في السياق الحالي. فإذا فُهمت "الطبيعانية الميتافيزيقية" بوصفها أملاً في التوحيد النهائي لدراسة العقلي مع الأجزاء الأخرى من العلم، فلا يمكن لأحد أن يخالفها، لكنها طروحة ذات أهمية ضئيلة، بدلاً من كونها "اتجاه سعيد في الفلسفة".

لنأخذ طبعة هذا المذهب التي عبر عنها كواين (الذي يعرفه بورغ بأنه مصدر الأورثوذكسية المعاصرة). في صياغته الأحدث عهداً، فإن "الطروحة الطبيعانية" هي أن "العالم هو كما يقول عنه العلم الطبيعي، بقدر ما يكون العلم الطبيعي على صواب". فما هو "العلم الطبيعي"؟ إن جواب كواين الإجمالي هو: "نظريات الكواركات وما شابه". ما الذي يُعد شبيهاً بما يكفي؟ توجد تلميحات إلى الأجوبة

لكنها تبدو اعتباطية تماماً، على الأقل بالمحكات الطبيعية العادية (Quine ،1992 لأجل مزيد من المناقشة، انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب).

افترض أننا نعرف مشكلة العقل ـ الجسد (أو ربما جوهرها) بأنها مشكلة تفسير كيف يرتبط الوعي بالبنى العصبية. إذا كانت كذلك، فتبدو أشبه كثيراً بالكثير من غيرها [من المشاكل] التي برزت خلال تاريخ العلم، وهي التي تبقى أحياناً بدون حل: مشكلة تفسير الحركة الأرضية والكوكبية في ضوء "الفلسفة الميكانيكية" وميكانيكها الاحتكاكي، التي برهن نيوتن أنها غير قابلة للحل، ويتم التغلب عليها بإدخال ما كانت تُفهم على أنها "قوى لا مادية"؛ مشكلة اختزال الكهرباء والمغناطيسية إلى علم الميكانيك، غير قابلة للحل ويتم التغلب عليها عن طريق الافتراض الأكثر غرابة حتى والقائل بأن الحقول هي أشياء فيزيائية حقيقية؛ مشكلة اختزال الكيمياء إلى عالم الجسيمات النفاذة في الحركة والطاقة والأمواج الكهرطيسية التي يتم التغلب عليها بإدخال فرضيات أكثر غرابة حتى حول طبيعة العالم الفيزيائي. في كل حالة من هذه الحالات على حدة، كان التوحيد يتحقق وتحل المشكلة ليس عن طريق الاختزال، بل عن طريق أشكال مختلفة تماماً من الاستيعاب. حتى اختزال البيولوجيا إلى الكيمياء الحيوية هو شكل من الوهم، نظراً لأنه أتي بعد سنوات قليلة فقط من توحيد الكيمياء والفيزياء الجديدة توحيداً جذرياً.

هذه الأمثلة تختلف عن مشكلة الوعي ـ الدماغ بطريقة هامة: فقد كان من الممكن بناء نظريات قابلة للفهم للظاهرات غير القابلة

للاختزال التي كانت بعيدة عن السطحية، في حين لا يبدو أننا في حالة الوعي نتقدم كثيراً أبعد من وصف وشرح الظاهرات (قد يعارض الفرويديون واليونغيون وغيرهم). يُنظر إلى المسألة بشكل أكثر حدة في حالة اللغة. فالاستعمال المعياري للغة ينطوي على "مظهر إبداعي" يقدم، بالنسبة للديكارتيين، أفضل دليل على وجود عقول أخرى. فلا الخواص الحوسبية لملكة اللغة ولا المظاهر الإبداعية لاستعمال اللغة يمكن ربطها بطرق مثيرة للاهتمام بأي شيء معروف حول الخلايا، لكن الموضوعين يختلفان في أنه، فيما يتعلق بالخواص الحوسبية، توجد نظريات تفسيرية مفهومة، في حين أنه فيما يتعلق بالمظاهر الإبداعية لاستعمال اللغة لا يوجد سوى الوصف والشرح. إذا كان كذلك، فإن القضية الحاسمة ليست الاختزالية الحقيقية أو الظاهرية، [وهي] ظاهرة في تاريخ العلم، بل حقيقة أننا يمكننا فقط أن نمعن النظر بارتباك إلى مظاهر العقل كالوعي والتعبير عن الفكر الذي يكون متساوقاً وملائماً لكنه غير مُسَبَّب uncaused، و[هي] سمة مميزة للمشاكل الجوهرية للفلسفة، كما جادل كولن ماك جين. (colin MCGinn 1993)

علاوة على ذلك، بعيداً عن حقيقة أن الاختزال الحرفي لا يكاد يعرف في مسار العلم نحو التوحيد، ثمة شك فيما إذا كان له معنى أصلاً حتى كمشروع. فقد كتب سيلفان شفيبر Slivan Schweber أن الأعمال الحديثة في فيزياء المادة المكثفة، التي أبتدعت ظاهرات مثل فرط الناقلية super conductivity التي هي "ابتكارات أصيلة في الكون" (Schweber 1996: 35) كانت أيضاً قد أثارت شكوكاً سابقة حول إمكانية الاختزال إلى "إدعاء مبرهن بشكل شبه دقيق"،

ما يؤدي إلى تصور "القوانين الناشئة" بمفهوم جديد (ص 36). مهما تكن صحة الاستنتاج، فمن الواضح على الأقل أن المذاهب الفلسفية ليس لديها ما تقوله حول ذلك، أقله حتى في مجالي العقل والدماغ، حيث يقل فهمنا لهما عن ذلك بشكل هائل.

وتتبع المقاربة الطبيعانية ببساطة المنهج ما بعد النيوتني، معترفة بأننا لا يمكننا أن نفعل أكثر من البحث عن أفضل تفسير نظري لظواهر الخبرة والتجربة، حيثما يقود البحث.

كما في فروع العلم الأخرى، نتوقع أن نترك مفاهيم الفهم الفطري وراءنا. خذ مثالاً ملموساً، حالة امرأة تدعى "لورا" التي درسها جيني يامادا. إن القدرات اللغوية للورا سليمة ظاهرياً، لكن كفايتها المعرفية والعملية pragmatic محدودة. فلديها معجم مفردات vocabulary كبير تستعمله بطرق ملائمة مع أنها تفتقر ظاهرياً إلى الكثير من الفهم. يقترح يامادا تشبيه الأطفال الصغار الذين يستخدمون مفردات الألوان في الأماكن الملائمة "لإكساء الخطاب"، لكن بدون فهم خواصها الدلالية. تعرف لورا متى ينبغي أن تصف نفسها، والآخرين، بأنها [حزينة أو سعيدة، لكنها ظاهرياً بدون المقدرة على الشعور بالحزن أو السعادة؛ إنها نوع من الشخص السلوكوي. فهل تعرف [لورا] أو تفهم أو تتكلم الانكليزية؟ السؤال لامعنى له. فالفرضيات المعتادة حول البشر لا تصح في حالة لورا؛ إن الفرضيات المسبقة للاستعمال اللغوي العادي غير محققة. يمكن للنظريات الطبيعانية للغة والعقل أن تقدم مفاهيم تنطبق على لورا، لكنها تنحرف عن اللغة العادية. هذه المفاهيم هي، بشكل عرضي، جزء من نظرية ذاتانية internalist في اللغة والعقل، النوع الوحيد

الذي بحوزتنا. لا يمكننا أن نسأل، على سبيل المثال، حول "المضمون العريض" لكلام لورا ما لم يتم توسيع المفهوم التقني إلى هذه الحالة (Yamada 1990).

خذ حالة مختلفة نوعاً ما: حفيدتي ذات الأربع سنوات من العمر. هل تتكلم الإنكليزية؟ إن ما نقوله في الخطاب العادي هو أن لديها معرفة جزئية باللغة التي سوف تكتسبها في نهاية المطاف إذا اتبعت الأحداثُ المسارَ المتوقع، مع أن ما تتكلمه الآن ليس لغة على الإطلاق. لكن لو مات كل البالغين، ونجا الأطفال في سنها بأعجوبة، فإن ما سوف يتكلمونه سيكون لغات بشرية معيارية تماماً، لغات غير موجودة اليوم. هذا المظهر الغائي teleological للمفهوم الفطري للغة هو من السمات المثيرة للفضول والمعقدة الكثيرة التي تجعل المفهوم غير ملائم لأجل السعي لفهم اللغة واستعمالها، تماماً مثلما أن البيولوجيا لا تهتم بالاستمرارية النفسية للأشخاص وعلوم الأرض لا تهتم بما يدعوه البشر نفس النهر أو الجبل أو الجزيرة. هذه بديهيات في حالة "الفيزيائي"، و"العقلي" أيضاً إذا تركنا الفرضيات الثنائوية جانباً.

يصح الشيء نفسه على عزو الاعتقاد. فمن المشاريع المعقولة بالنسبة للعلم الطبيعي أن يقرر ما إذا كان البشر (الأطفال الصغار على وجه الخصوص) يفسرون ما يحدث في العلم في ضوء مفاهيم عامة مثل الاعتقاد والرغبة، والسقوط من السماء نحو الأرض، والالتفات نحو الضوء، وهلم جرا؛ والشروط التي يستعملون في ظلها هذا الخطاب القصدي والهدفي objectual في مختلف اللغات (ربما تكون مسألة مختلفة كما لاحظنا). قد نسأل، بشكل مستقل تماماً،

ما إذا كان يتعين على نظرية حول البشر والنيازك والأزهار أن تتضمن مثل هذه المفاهيم العامة. الجواب الحالي هو "تحديداً لا" في حالة الأزهار والنيازك، وغير معروف في حالة البشر، لأننا لا نعرف الكثير على الإطلاق. دعونا ندرس نوعاً ثالثاً من المشكلة، لا يقع ضمن أي من الإطارين: مشكلة تحديد متى ينبغي علينا أن نعزو الاعتقاد، أو النهوض والالتفات والتسديد ـ عندما نكون مبررين في فعل ذلك؟ لكي نستشهد بصياغة حديثة، نسأل ما هو الشرط [الشروط] الضروري فلسفياً لكي يكون المرء معتقداً حقيقياً"؛ إن إمكانية الوصول إلى الوعي يتم استحضارها عادة عند هذه النقطة، ويعتقد عموماً أن اللاحسم (التردد) الكوايني ينشأ من أجل الاعتقاد، إنما ليس الحالات الأخرى، التي لا يثار من أجلها أي "مطلب فلسفي" على الإطلاق (Clark and Karmiloff-Smith 1993). إذ لا أحد يسعى إلى إيضاح الشروط الضرورية فلسفياً لكي يكون مذنب ما متجهاً بشكل صحيح صوب الأرض ـ إن فشله في إصابتها، إذا كنا محظوظين، وهو عزو قصدي آخر.

بشكل مماثل، إننا مدعوون إلى استكشاف المحكات لتحديد أين نرسم الخط [الفاصل] بين المذنبات المتجهة إلى الأرض وجونز الذي يمشي نحو المقعد، على أي جانب ينبغي علينا أن نضع البرنقلات الملتصقة بالأصداف والبقات الطائرة نحو الضوء؟ هذه الأسئلة لا تنتمي إلى العلم الإثني أو إلى دراسة المعجم، ولا إلى الاستعلام الطبيعاني في الأقسام الأخرى من العلم. مرة أخرى، يبدو ان البحث هو عن "التفسيرات الفلسفية"، مهما يمكن أن تكون.

تبرز الأسئلة نفسها حول السجالات [الدائرة] حول تمظهر "الذكاء" و"استعمال اللغة". في حالة جهازي الرؤية والحركة والأجهزة الأخرى يمكن للمرء أن يبحث عن التشاكلات homologies أو الصلات التطورية. لكن الخواص العقلية لا تتم مقاربتها بهذه الطرق. ثمة شيء مختلف يُراهن عليه في السجالات حول ما إذا كانت الآلات تفكر، أو تترجم الصينية، أو تلعب الشطرنج. إننا نسأل ما إذا كان بمقدور مريخي متخيل أو كومبيوتر مبرمَج أن يفهم الصينية، لكننا لا نسأل ما إذا كان بمقدور مخلوق خارج أرضي [فضائي] أو آلة تصوير، أن يرى، مثل البشر. ثمة أدبيات ضخمة [تدور] حول ما إذا كان شخص ينفذ بشكل آلي خوارزمية algorithm بمدخلات ومخرجات مشفرة يمكن أن يقال عنه بشكل صحيح إنه يترجم الانكليزية إلى الصينية، لكن لا شيء حول الأسئلة المماثلة التي يمكن إثارتها حول محاكاة الحوسبة computation والخوارزميات التي تحول التنبيه الشبكي إلى صورة بصرية أو تناول شيء ما. إنها تعد مهمة أساسية بالنسبة لنظرية المعنى theory of meaning أن تبني مفاهيم عامة تنطبق على أي مخلوق كيفما كان مكوناً، حقيقياً أم متخيلاً؛ لكن هذه ليست مهمة على الإطلاق بالنسبة لنظرية الرؤية أو الحركة. ومما يثير الفضول، أن هذه أيضاً لا تعد مهمة بالنسبة لنظرية الفونولوجيا، مع أن الأسئلة تمتلك الكثير من الحسنات هنا ـ لا شيء من ذلك، كما أعتقد بشكل مماثل، لا أحد يسأل ما الذي يعد بمثابة جهاز دوران أو جزيء، في عالم من الأشياء المختلفة أو القوانين المختلفة للطبيعة.

وليست هذه المناقشات ثنائوية في جوهرها فحسب، بل هي أيضاً، كما يبدو، بدون أي غرض أو هدف واضح: بالتوازي مع السجالات حول ما إذا كان مكوك الفضاء يطير أو إذا كانت الغواصات تبحر، لكنها لا تسبح؛ إنها أسئلة تقرير وليس حقيقة، في هذه الحالات، مع أنه من المفترض بها أن تكون أساسية، في حالة العقل، بناء على افتراضات يتعين مع ذلك شرحها ـ وأنها، بشكل عرضي تتجاهل إنذاراً صريحاً من قبل آلان تورينغ Alan Turing في المقالة الكلاسيكية التي ألهمت كثيراً من السجال العنيف على مدى السنوات المنصرمة.

عندما نعود إلى اللغة، تبرز قضايا الذاتانية internalism ـ الموضوعانية externalism. لكنها مرة أخرى تبرز فقط بالنسبة لنظرية المعنى، وليس بالنسبة للفونولوجيا، حيث يمكن طرحها بالطرق نفسها. لهذا فنحن مطالبون بأن نتأمل ما إذا كانت المعاني "في الرأس"، أم أنها محددة خارجياً. الجواب التقليدي اليوم هو أنها تحدد خارجياً عن طريق نوعين من العوامل: سمات العالم الخارجي ومعايير المشتركات.

أي مفهوم للمعنى يتم استقصاؤه؟ إن إعادة البناء العقلانية لممارسة الترجمة الفعلية هي الهدف الذي يتم اقتراحه أحياناً، لكن المقترحات لا تقيم بشكل جدي في ضوء هذه المصطلحات، وأهمية المشروع ليست واضحة أيضاً. ثمة هدف معلن آخر هو تحديد معنى الكلمة (ولكن ظاهرياً، ليس صوت الكلمة) بـ"لغة عمومية مشتركة" وهو مفهوم يبقى بحاجة إلى إعادة صياغة بلغة متماسكة[3]. بصراحة، إن الهدف ليس اكتشاف السمات الدلالية لكلمة "معنى"

meaning بالانكليزيــة أو تعــابير مماثلــة، إذا كــان بالإمكــان إيجادها، بلغات أخرى. هـل ينتمـي الاسـتعلام إلى العلـم الإثـني، استقصاء مواردنا المفاهيمية؟ إن الاستعلامات الـتي يـتم إجراؤهـا لا يبدو أنها مصممة جيداً لهذا الغرض. فالأسئلة أيضـاً لا علاقـة لهـا بالاستعلام الطبيعاني في طبيعة اللغـة واسـتعمالها، الـذي سـيتطور بطرقه الخاصة. ما هي الإمكانية الموجودة؟ الجواب ليس واضحاً.

في الحقيقـة، تحـدث بعـض الـنقلات المـثيرة للفضـول في هـذه النقطـة. تأمـل تجربـة الـتفكير بتـوأم الأرض Twin-Earth الـتي صـممها هـيلاري بوتنـام، الـتي قـدمت كـثيراً مـن التحفيـز لأجـل الافتراضات الموضوعانية. في إحدى الطبعات، يتعين علينا أن نسبر البديهيات حـول امتـداد extension أو إحالـة reference كلمـة "ماء" على توأم الأرض، حيـث يسـتعملها المتكلمـون المـاثلون لنـا للإحالة إلى XYZ، الذي ليس هو H2O. لكن يمكن ألا تكـون لـدينا حدوس حول المسألة، لأن مصطلحات "امتـداد"، "دلالـة"، "يصـح على"، "يدل على"، ومصطلحات أخرى مرتبطة بها هي ابتكـارات تقنية، تعني بالضـبط مـا يخبرنـا مبتكروهـا أنهـا تعنيـه: سـيكون معقولاً بدرجة متدنية أن نستكشف حدوسنا حول الكميـات الممتـدة Tensors أو "اللايقين"، بالمعنى التقني.

افترض أننـا طرحنـا تجربـة الـتفكير باسـتعمال اللغـة العاديـة. وافترض، على سبيل المثـال، أن تـوأم أوسـكار يـأتي إلى [كوكـب] الأرض، يكون عطشاً، ويسأل عن "ذاك"، مشيراً إما إلى كـأس مـن مشروب غازي sprite أو إلى ما يأتي من الحنفية ـ مزيج غريب من H2O والكلور، وأكره أن أفكر بغير ذلك، يختلف بشكل كـبير مـن

مكان إلى آخر (لكنه يدعى "ماء"). هل هو يرتكب خطأ في الحالتين؟ في حالة واحدة؟ أيهما؟ افترض أنه يشير إلى مادة من الحنيفة مرت من خلال مرشح [فلتر] شاي في الخزان (ولذلك فهو ماء بالنسبة لأوسكار)، وإلى المادة المماثلة كيميائياً التي غمر فيها كيس شاي (لذلك فهي ليست ماء بالنسبة لأوسكار، بل شاي). في أي من الحالتين (إن كان في أي منهما) يكون توأم أوسكار مخطئاً؟ بالعودة إلى "مضمون الاعتقاد"، إذا استمر توأم أوسكار بالسؤال عما يرد من الحنفية لإطفاء عطشه، مسمياً إياه "ماء" فهل يكون قد غير معتقداته حول الماء ـ بشكل لا عقلاني، بما أنه ليس لديه دليل على مثل هذا التغيير؟ أم هل إنه يتصرف بشكل عقلاني، محتفظاً بمعتقداته الأصلية حول الماء، التي تسمح للمادة على الأرض أن تكون ماء (في توأم الإنكليزية) بالدرجة الأولى؟ إذا كان الجواب الثاني، عندئذٍ تكون المعتقدات حول الماء مشتركة علىالأرض وعلىتوأم الأرض، تماماً مثلما هي على جانبي الكوكب، معتقدات قد تختلف حول المادة نفسها، المعتبرة ماءً أو شاياً عندما تتغير الظروف، حتى مع معرفة تامة ودقيقة بأن موضوعات المعتقدات المختلفة تمتلك بالضبط نفس التركيب. إنني أمتلك حدوسي الخاصة بي، التي ستكون وثيقة الصلة بدراسة المعجم والعلم الإثني، لكنها تقوض الاستنتاجات المقصودة لتجربة التفكير.

وهناك مشاكل أخرى عديدة. إن مشكلة توأم الأرض إنما يطرحها سحب الافتراضات المسبقة للخطاب التي يقوم عليها الاستعمال اللغوي المعياري. فهي قريبة من سؤال ما إذا كانت لورا تفهم الانكليزية. علاوة على ذلك إذا كانت الحجة تنطبق على

"الماء" عندئذٍ فلماذا لا تنطبق على "التراب" و"الهواء" و"النار" التي كانت لها منزلة مماثلة في أحد التراثات القديمة؟ ما هي "المادة ذاتها" في هذه الحالة؟ أو لنتأمل "السماء" heaven. إنني أستخدم المصطلح بصفته الإشارية indexical، للإحالة إلى ما أراه في ليلة صافية: شيئاً ما مختلفاً في بوسطن وتسمانيا. مع سحب الافتراضات المسبقة العادية، كما على توأم الأرض، قد أقرر (في بعض الظروف) أن أستعمل "ماء" بالطريقة نفسها. إن أبعاد الاختيار متغيرة جداً بحيث أنه من غير المفاجئ أن "معظم الآذان غير الملوثة سابقاً بالنظرية الفلسفية" لا تقدم أية أحكام قاطعة في الحالات النموذجية، كما لاحظ ستيفن ستيتش Stephen Stich. لن يكون هذا اعتراضاً حاسماً في سياق نظرية أغنى، لكنه إشارة تحذير يجب عدم تجاهلها عندما لا يكون لدينا سوى القليل وراء الأمثلة المزعومة. (Stich 1983، لأجل بعض التعليقات انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب).

إن رد بوتنام على هذه المشاكل يبدو لي غير مقنع. فهو يوافق على أن الكلمات لا تحيل، لذلك فإن الحدوس حول "إحالة الكلمات" يتعين إعادة صياغتها بطريقة مختلفة. إنه يتبنى الموقف البيرسي القائل بأن **الإحالة** reference [بمعنى "يصح على"] هي علاقة ثلاثية الأطراف (شخص X يحيل إلى شيء Y بالإشارة S)، حيث الـ Y ات هي "موضوعات حقيقية في العالم" (Putnam 1992: 382). علاوة على ذلك. أن توجد علاقة بين عوالمنا والأشياء في العالم هو [شيء] أساسي لوجودنا؛ فالفكر بدون علاقة بالأشياء في العالم هو فكر فارغ" (383: 1992)[4] لهذا فإن الكلمة

تحيل إلى (تصح على) شيء حقيقي في العالم عندما يستعمل النـاس الكلمـة للإحالـة. بمـا أن البشـر يسـتعملون "الصـينية" Chinese للإحالة إلى اللغـة المحكيـة في بكـين وهونـغ كونـغ، فهـي "شـيء حقيقي في العالم" والشيء نفسـه ينبغـي أن يصـح علـى "العقـول"، "الإنسان العادي"، "جو الـمدمن"، "تجـارة حـرة"، "السماء"، الخ مثلما يصح على الصفات والأفعال والتعابير العلاقية الأخـرى، كمـا يبدو.

وإذا وضعنا جانباً هذه الاستنتاجات التي تتجاوز الاسـتنتاجات التي توصل إليها وورف Whorf، تبرز عدة مشـاكل. أولاً، بقبـول هذه الصياغة تنهار الحجج الموضوعانية، بما في ذلـك تجربـة تـوأم الأرض، وحالة "تقسيم العمل اللغوي" وغيرها. عنـدما يطلـب تـوأم أوسكار، الذي يزور الأرض، فنجاناً من الماء، مشيراً إلى ما يوجد في الفنجان بوصفه "ماء"، عندئذ نسـتنتج، باتبـاع مراجعـة بوتنـام أن water (ماء) في توأم الإنكليزية تصح علـى H2O، بحيـث تكـون المعـاني في مكانهـا الأصـلي في الـرأس. وتفشـل الحجـج الأخـرى لأسباب مشابهة.

ثانيـاً، إن هـذه المراجعـة ليسـت مفيـدة، نظـراً لأن الطروحـة البيرسية تنطوي على مفهوم عام تقني مبتكر للإحالة reference، لذلك نعود إلى حيـث كنـا، مـع حـدوس لا يمكـن أن نمتلكهـا. في الاسـتعمال اللغـوي العـادي، لا تكـون "الإحالـة" علاقـة ثلاثيـة الأطراف من النوع البيرسي. بالأحرى، إن الشـخص X يشـير إلى Y بالتعبير E في ظل الظروف C، لذلك فإن العلاقـة هـي علـى الأقـل رباعية الأطراف، وY لا داعي لأن يكون شـيئاً حقيقيـاً في العـالم أو

لأن ينظر إليه بهذه الطريقة من قبل X. بشكل عام أكثر، يستعمل الشخص X التعبير E بخواصه الدلالية الجوهرية للحديث حول العالم من منظورات معقدة معينة، مركزاً الانتباه على مظاهر بعينها منه، في ظل ظروف C، مع "محلية المضمون" Locality of content التي تحدثها [هذه الظروف] (بمفهوم بيلغرامي Bilgrami). في الواقع، إن مكونات E قد لا تكون لها أية علاقة دلالية جوهرية على الإطلاق بما يحيل إليه جونر، كما عندما يقول إن العرض المسرحي في قاعة جوردان كان مميزاً، محيلاً إلى بوسطن Boston ورباعيته الوترية المفضلة.

كتب بوتنام أنه يرى أن "تشومسكي يعرف جيداً أن ثمة علاقة بين المتكلمين والكلمات والأشياء في العالم". وهذا صحيح في بعض الأحيان، بالتجرد من ظروف الاستعمال، تقريباً بالمعنى الذي تصح فيه العلاقة على البشر والأيدي والصخور، في أنني استطيع أن استعمل يدي لالتقاط صخرة. لكن هذا يتركنا على مسافة طويلة من برهان أي شيء يشبه الاستنتاجات التي يريد بوتنام أن يتوصل إليها.

من مفهوم اللغة الطبيعية والمفهوم الفطري للإحالة وما شابه، لا يمكننا أن نستخلص أي "علاقة ذات صلة بين كلماتنا والأشياء في العالم". عندما نبدأ باستكمال الصورة لنقارب الاستعمال اللغوي الفعلي والفكر فإن الاستنتاجات الموضوعانية لا تكون معززة بالحجة باستثناء أنه في فوضى الاستعمالات سيكون للبعض منها الخواص المرغوبة؛ في الظروف الخاصة، قد نفهم water (ماء) فعلاً بمعنى "السائل نفسه"، حيث إن "سائل" و"نفسه" هما نوعان من المفاهيم

التي يسعى العلم إلى اكتشافها، وتحقيق افتراضات موضوعانية أخرى. إن التفكير حول العالم هو بدون شك "أساسي لوجودنا"، لكن هذا لا يبدو طريقة جيدة لإحراز فهماً أفضل للمسألة.

يبدو الاستعلام الفلسفي مؤطراً بشكل غريب في نواحٍ أخرى أيضاً. لهذا فإن كلمة "water" هي مجموعة من الخواص الصوتية والدلالية والشكلية، التي يتم الوصول إليها عن طريق مختلف أنظمة الأداء الخاصة بالنطق والإدراك الحسي والحديث حول العالم وهلم جرا. إذا أنكرنا أن معناها هو في الرأس، فلماذا لا ننكر أيضاً أن مظاهرها الصوتية في الرأس أيضاً؟ لماذا لا يفترض أحد أن المضمون الصوتي phonetic content لكلمة "water" تحدده بعض حركات الجزيئات أو الاصطلاحات المتعلقة بـ "اللفظ الصحيح"؟ تعتبر هذه الأسئلة سخيفة أو عديمة الصلة بالموضوع. لماذا لا يكون الأمر كذلك في حالة المعنى؟

يوحي الأدب ببعض الإجابات. هكذا، فإن استنتاجات بوتنام حول "water" و"H2O" تحرضها جزئياً مشكلة المعقولية intelligibility في الخطاب العلمي. كما يستنتج، لا نريد أن نقول إن Bohr كان يتحدث هراء خالصاً عندما استخدم مصطلح "الكترون" في أيام نظرية ما قبل الكوانتية، وإلا لكانت أحكامه كلها زائفة. لتجنب مثل هذه الاستنتاجات العبثية، يجادل بوتنام بأن بور كان يحيل إلى ذرات والكترونات "حقيقية"، ربما يتمكن بعض الخبراء في النهاية من أن يحدثونا عنها (أو قد لا يتمكنون من ذلك). إذا كانت الإحالة يحددها المعنى، عندئذٍ لا تكون المعاني في الرأس، كما يفترض بتجارب توأم الأرض أن تبرهن.

مع ذلك، فإن الحجة ليست مقنعة، لأسباب خارجة عن تلك الأسباب التي سبق ذكرها. لقد أشار جاي أطلس Jay Atlas إلى أن المهندسين النوويين يميزون "الماء الخفيف" عن "الماء الثقيل"، سوى أن الأول هو H2O. فإذا اعتبرناهم بمثابة خبراء، فهل كنا نخطئ استعمال كلمة "water" طوال الوقت، الذي يعني الماء الخفيف حقاً؟ (من أجل مناقشة موسعة، انظر Atlas 1989). قبل آفوغادرو، كان الكيميائيون يستعملون مصطلحي "الذرة" و"الجزيئ" بشكل متبادل فيما بينهما. لجعل ما كانوا يقولونه مفهوماً، هل يتعين علينا أن نفترض أنهم كانوا يحيلون إلى ما تدعى الآن "ذرات" و"جزئيات" (أو ما تكونه فعلاً، الأمر الذي قد لا يعرفه أحد اليوم)؟ بعد أن أصبح نموذج بور للذرة متاحاً، اقتُرح أن تعتبر الأحماض والأسس (القلويات) بمثابة مستقبلات أو مانحات ممكنة للالكترونات، التي تضم أحماض البورون وكلوريدات الألمنيوم جنباً إلى جنب مع حمض الكبريت، مفتتحاً "عصراً جديداً كلياً من الكيمياء اللاعضوية الفيزيائية"، كما يلاحظ التاريخ المتعارف عليه للعلم (Brock 1992: 482). هل كان العلماء الأسبقون يحيلون فعلاً إلى البورون بوصفه حمضاً؟ هل يجب علينا أن نفترض ذلك لكي نجعل آراءهم مفهومة؟ لنأخذ مثالاً أبسط، أقرب إلى البيئة، هل يجب علينا أن نفترض أن الفونولوجيين البنيويين، منذ 40 عاماً، كانوا يحيلون إلى ما يدعوه الفونولوجيون التوليديون بالوحدات الفونولوجية، مع أنهم أنكروا ذلك بشدة - وهم محقون في ذلك؟ إن الفونولوجيا البنيوية معقولة بالتأكيد؛ بدون افتراض أنه توجد

كيانات من النوع الذي اشترطته، فإن كثيراً من النظرية يمكن إعادة تفسيره اليوم، مع الاحتفاظ بكثير من نتائجها.

إن ما هو مطلوب في كل هذه الحالات هو وجود درجة ما من البنية المشتركة: ولا توجد في أي منها أي طريقة مبدأية لتحديد القدر المشترك أو الواجب توفره من "التشابه في الاعتقاد". في بعض الأحيان يكون من المفيد أن نلاحظ التشابهات ونعيد صياغة الأفكار، وفي بعض الأحيان لا يكون كذلك. الشيء نفسه ينطبق على بور سابقاً ولاحقاً. إذ لا يُشترط أكثر من هذا للحفاظ على سلامة المشروع العلمي أو المفهوم المحترم للتقدم نحو الفهم النظري.

يعترض بوتنام بأن التشابه البنيوي وحده "مختلف جداً عن القول إن أياً من النظريتين تصف describe، مهما يكن ذلك بشكل ناقص، سلوك الظاهرات خارج العقلية extra- mental المراوغة التي نشير إليها بوصفها "الكترونات" ـ أو الضوء، الماء، الذرات، والجزيئات، الأحماض والأسس، الفونيمات، الخ. هذا صحيح، لكن لا علاقة له بالموضوع. في كل الحالات، بما في ذلك النظريات الحالية. يتعين علينا أن نضيف كل ما يميز النظريات حول العالم عن الخيال العلمي. إننا نعتبر هذه النظريات تصف الظاهرات فوق العقلية مهما يكن ذلك بشكل ناقص، سواءً كانت تتضمن أبولو والشمس، أو أخلاط غالينوس الأربعة أو ذرات ديموقريطس، أو أنابيب ديكارت ذات الأرواح الحيوانية، وانتهاءً بالمحاولات الجارية اليوم. مع ذلك، بأي حال من الأحوال، لا يوجد سبب مقنع لتبني نظرية الإحالة الحقيقية من النوع الذي تم تأسيسه على حجج موضوعانية externalist من هذه الطبيعة.

لندع هذه الاعتبارات جانباً، فليس للنقاشات حول الإحالة في العلوم تأثير محدد على اللغة البشرية والفهم الفطري ما لم نضف الافتراض الآخر القائل بأن كلمات مثل "الكترون"، "وقاعدة" و(eigenvector)، "فونيم" وهلم جرا تنتمي إلى اللغة الإنكليزية واللغات الطبيعية الأخرى، بشكل مفترض جنباً إلى جنب مع التعبيرات التي تظهر فيها، وربما أيضاً الصيغ والمخططات، الخ، لقد افترض بوتنام أن المعجم يكون متجانساً بهذا المعنى. هكذا يجادل دفاعاً عن كليانية holism المعنى بأن نظرية المعنى يجب أن تتعامل مع "الحالة الأصعب"؛ إذ يعطي مثال "العزم" momentum، الذي كان يعرف فيما مضى بطريقة تعتبر الآن أنها تعبر عن البهتان [الزيف]. كيفما كنا نفسر ذلك، فليس له تأثير على الاستعلام في اللغة ما لم نفترض أن "العزم" بمفهوم الفيزيائي يدخل المعجم عن طريق إوالية ملكة للغة نفسها التي تسمح للطفل بأن يلتقط كلمات مثل "house" و"rise"، ويمتلك خواص المدخلات entries المعجمية التي تحددها ملكة اللغة. هذا يبدو مشكوكاً فيه، وهذا أقل ما يمكن قوله.

وبوتنام محق في القول "إنني أوافق على أنه توجد علاقة كالإحالة"، بالمعنى التقني، أو على الأقل قد توجد، لكنه لم يفهم فكرتي: هي أن من المنطقي أن نفترض أن الاستعلام الطبيعاني يهدف إلى بناء الأنظمة الرمزية التي يكون فيها بعض التعبيرات مُعدّاً لتمييز الأشياء في العالم(6). مع ذلك لا يوجد مبرر للاعتقاد بأن هذه المساعي تخبرنا حول اللغة العادية والفهم الفطري. يبدو لي أن

بوتنام ينبغي عليه أن يتخذ الموقف الذي يتخذه، نظراً لنقده البليغ "للعلموية" scientism.

- بوضع المعنى جانباً، هل تحدد مضامين الفكر خارجياً [برانياً]؟ لا يمكننا أن نطرح بشكل معقول مثل هذه الأسئلة حول "المضمون"، سواءً كان واسعاً أم ضيقاً؛ فهذه، مرة أخرى، مفاهيم تقنية. لكن يمكننا أن نسأل ما إذا كنا ننسب الأفكار إلى البشر على أسس لا تتوافق مع حالاتهم الداخلية [الجوانية]. إن كوننا نفعل ذلك واضح بدون أمثلة دخيلة. فإذا أخبرني جونز أنه في حداد على الذين ماتوا في الخنادق في فردان Verdun منذ خمسين عاماً، فيمكنني أن أقول بشكل صحيح إنه يتحدث فعلاً (يفكر في) حول الحرب العالمية الأولى، وليس الحرب العالمية الثانية؛ أو، بدلاً من ذلك، إنه مخطئ بشأن الحرب العالمية الثانية، التي يتحدث حولها (أو يفكر فيها). في الحالة الأولى، أنسب إليه حالة ليست داخلية، إذ يقوم النسب على معتقداتي وليس على معتقداته. لا يوجد سؤال حقيقي عما إذا كان علم النفس يتعامل مع حالة جونز كما هي محددة في هذه الحالة. هذه، مرة أخرى، مسألة قرار؛ في هذه الحالة، إنها حول المصطلح التقني المبتكر "علم النفس". بشكل مشابه، إذا صورت آنا كارنينا تشبيهاً بشخص حقيقي، فربما كان تولستوي يفكر بها، ويتحدث، ويمتلك معتقدات ـ الخ. حولها، وكذلك بعض قرائه الحسني الإطلاع. وفيما يتعلق بسميث، الذي لا يعرف شيئاً حول ذلك، يمكنني أن أحدد طريقة أو أخرى، عندما تتغير الظروف. كيفما تبين ذلك، فإنه لا يخبرنا شيئاً حول الموضوع "الحقيقي" لعلم النفس، مع أن هذا قد يكون موضوعات معقولة

لأجل الاستعلام الذاتاني في كيف يتحدث البشر حول العالم، استعلام ينشد إلى اكتشاف الحالات الداخلية التي تقود الناس إلى وصف الآخرين بطرق مختلفة كما يفسرون الظروف بشكل مختلف.

في هذا السياق أيضاً، تبدو تجارب التفكير المصممة لدعم الاستنتاجات المضادة للذاتانية anti – internalist مستندة على افتراضات مشكوك فيها غالباً. خذ، على سبيل المثال، مثال الجراد ـ الصرصور للين رودر بيكر Lynne Rudder Baker المبسط قليلاً (Baker 1988). افترض أن جونز يتكلم اللغة الإنكليزية العادية، وسميث يتلكم ذلك أيضاً سوى أنه، في المجتمع الذي يتكلم لغته، فإن الصراصير تدعى جراداً. افترض أن ج يتعلم لغته من جونز، وس من سميث، وهما يتعلمان المصطلح locust (جراد) من الصور نفسها، الملتبسة بين الجراد والصراصير، بالإضافة إلى معلومات تخص بالصدفة كلاً من الجراد والجداجد". بما أن مقاصد المعلمين مختلفة، فإن ذلك "يبدو واضحاً"، كما يستنتج بيكر. أن ج "اكتسب الاعتقاد بأن الجراد هو مصدر خطر واكتسب [س] الاعتقاد بأن الصراصير هي مصدر خطر" (1987: 121) مع أن (ج) و(س) في الحالة الداخلية نفسها.

في ظل هذه المسلمات، فإن ج وس سوف يعممان الطريقة نفسها بحيث أنهما، إذا أعطيا جرادة لا لبس فيها، فإن كل واحد منهما على حدة سوف يدعوها "جرادة" رغم أن س سيرتكب خطأ لأن المعتقدات التي يعبر عنها هي حول الصراصير، وليس الجراد. افترض أن س انتقل إلى جزيرة يسكنها متكلمو لغة لا صلة لها بلغته، وتعلم أبناؤه لغته بدقة، بشكل غير محدد، وقد اختفت

سجلات لغته والكلمات النظيرة فيها كلها، بصورة نهائية؛ بشكل مشابه بالنسبة لـ ج. إن ذريتي ج وس تكونان الآن غير قابلتين للتمييز في لغتهما واستعمالهما اللغوي، ويكون التاريخ غير قابل للاسترجاع بحيث لا يمكنهما أن تتعلما غير ذلك. ومع ذلك، سيبدو بشكل مباشر أنهما تمتلكان معتقدات مختلفة، وأن ذرية س ترتكب أخطاءً كثيرة في استعمال كلمتها "جراد"، إذ أنها تتحدث دائماً حول الصراصير وتفكر بها. في الحقيقة، قد يكون الموضوع هو أننا من نوع الذرية س، حيث أن أسلافنا في مكان ما في غياهب ما قبل التاريخ قد اكتسبوا الكلمة التي أصبحت "جراد" في ظل شروط س، الذي قصد معلمهم أن يحيل إلى نوع مختلف ٧، لذلك فإن المعتقدات التي نعبر عنها باستعمال الكلمة جراد هي في الواقع حول X'S وتكون مغلوطة غالباً.

– لا شيء من هذا القبيل يبدو لي واضحاً مطلقاً، حتى الخطوة الأولى. لكن من غير الواضح أيضاً لماذا يكون ذلك مهماً. افترض أننا قبلنا حدوس بيكر. ما الذي سيخبرنا ذلك به حول اللغة والاعتقاد والفكر؟ في أقصى الأحوال، إننا في بعض الأحيان نعزو المعتقدات (الخ) إلى X بلغة معتقدات ومقاصد أشخاص آخرين؛ لكن ذلك واضح من الحالات البسيطة والعادية. مرة أخرى، إن الاستعلام بالطرق التي ننسب بها المعتقد عندما تتغير الظروف هو موضوع مشروع لعلم الدلالات الألسني والعلم الإثني، لكن دراسة كيف يحرز الناس الحالات المعرفية، وكيف يتفاعلون وهلم جرا... سوف تسير وفق مسارها المستقل.

- إن الحجة الموضوعانية المتعارف عليها هي أنه ما لم يحدد العالم الخارجي مضامين تفكير شخص ما، "سيكون لغزاً مطلقاً كيف تكون أفكار ذاك العنصر متاحة علناً لشخص آخر" (Bilgrani 1992: 4). بالنسبة لعلم النفس، هذا الافتراض غيرمطلوب. فلكي نعلل الطريقة التي يفهم بها سميث ما يقوله جونز لا حاجة بنا لأن نلجأ إلى كيانات في العالم الخارجي تماثل التمثيلات الصوتية في عقل سميث وجونز (قل، نوع من حركات الجزيئات المتصلة بالكيان التركيبي: "الصوت الشفتاني الوقفي" "bilabial stop")، والموضوعات الخارجية لم تعد مطلوبة في حالة المعاني والأفكار. إن الإمكانيات الأخرى متاحة بالتأكيد، ومن المحتمل أن تكون صحيحة. لهذا من الممكن أن يفترض سميث أن جونز مماثل له، يعدل بعض التعديلات m ثم يسعى إلى تحقيق m، [وهي] مهمة قد تكون سهلة أو صعبة أو مستحيلة. بقدر ما ينجح سميث، فإنه ينسب إلى جونز التعبير الذي يؤلفه عقله، بما في ذلك صوته [صوت التعبير] ومعناه، كون التواصل مسألة مثيرة للجدل أكثر أو أقل[7]. وباستعمال تشكيلة من المعلومات الأخرى، يسعى إلى التحقق من أفكار جونز، ربما بطريقة مشابهة.

بالتأكيد، هذا علم نفس، والقضايا يفترض أن تُثار فقط في علم النفس الشعبي، بالنسبة لبيلغرامي على الأقل. لكن الاستنتاجات لا تبدو أفضل تأسيساً هنا. ليس لدينا مبرر للاعتقاد أن ماري تفسر تفاعلات سميث وجونز بافتراض كيانات "متاحة علناً" تثبت الأفكار أو المعاني أو الأصوات. علاوة على ذلك، ليس واضحاً أن

الغموض في التواصل سيكون ذا صلة بعلم النفس الشعبي، الذي لا يحتاج إلى حل هذه المشاكل ولا يواجه مهمة حلها.

إن الأمثلة من نوع توأم الأرض تفيد كفرع من النظريات الخارجية [البرانية] التقليدية للفكر واللغة. أما الفرع الآخر فيشمل الإذعان للسلطة والخبراء، ومعايير المجتمع، وهلم جرا. إن المعاني لا تكون "في الرأس" لأنها مثبتة بمثل هذه الطرق، كما يجادل. مرة أخرى، قد نسأل إلى أين ينتمي مفهوم المعنى قيد الاستقصاء. إنه ببساطة ليس جزءاً من استعلام علمي في اللغة واستعمالها، أو في المدخل المعجمي لكلمتي "meaning" و"language" في الإنكليزية. هل هو علم إثني تأملي، أي دراسة لـ "التفسير السيكولوجي الفطري للسلوك البشري" كما يصف بيلغرامي (1992: 3) هذا المشروع في حين يرفض هذا النوع من الجدال (على حق، كما أعتقد)؟ ربما كان هو المقصود لكن إذا كان الأمر كذلك، فإن الاستنتاجات تبدو على درجة عالية من التغير، عندما تتغير الظروف، مع عدم تحقق أي شيء من الوضوح.

– مهما يكن [الموضوع] الذي يدور حوله الاستعلام، فإنه يعتمد بشكل حاسم على مفهوم عام لـ "اللغة المشتركة، العامة" لا يزال غامضاً. فإذا كان هذا هو المفهوم العام للخطاب العادي، فإنه عديم الفائدة لأي شكل من التفسير النظري. ففي الدراسة التجريبية للغة، تم التسليم لوقت طويل بأنه لا يوجد شيء في العالم يتم اختياره عن طريق مصطلحات مثل "chinese" أو "German"، أو حتى مصطلحات أضيق. ذلك أن تكلم اللغة نفسها يشبه كثيراً "العيش بقرب" أو "الظهور مثل"؛ ما يعني أنه لا توجد مقولات

يجب تثبيتها. إن حقيقة أن اللغة العادية لا تقدم أية طريقة للإحالة إلى ما تتكلمه حفيدتي هي ممتازة بالنسبة للحياة العادية، لكن الاستعلام التجريبي يتطلب مفهوماً مختلفاً. في ذاك الاستعلام، تكون ملكتها اللغوية في حالة معينة، تحدد (أو ربما تكون هي) "لغتها". إن المشتركات والثقافات، وأنماط الإذعان، وهلم جرا. تؤسس في الحياة البشرية بكل الوسائل، بدون أية علاقة خاصة بأي شيء نسميه "لغات" في الخطاب اللارسمي. لا يوجد جواب ذو معنى على سؤال ما إذا كان يتعين على برت Bert أن يحيل إلى الألم في فخذه بوصفه التهاباً مفصلياً arthritis؛ أو ما إذا كان يتعين عليه أن يستعمل كلمة "disinterested" [غير مبال] ليعني "unbiased" [غير متحيز]، كما يقول القاموس، أو "uninterested" [غير مهتم] كما يعتقد كل متكلم بشكل افتراضي؛ أو ما إذا كان عليه أن يلفظ الكلمات كما تلفظ في بوسطن ولندن[8].

لا توجد ببساطة طريقة لفهم هذا الفرع من النظرية الموضوعانية externalist للمعنى واللغة، بقدر ما يمكنني أن أرى ـ أو لأي عمل من الأعمال في نظرية المعنى وفلسفة اللغة اعتماداً على هذه المفاهيم العامة، [وهي] عبارة يقصد بها أن تلخص شيئاً واسعاً.

باختصار، رغم أن الطبيعانية لا تستتبع مقاربة ذاتانية internalist، فيبدو أنها لا تترك أي بديل واقعي. وفي الاستعلام التجريبي الفعلي، يتم اعتماد تلك المقاربة بشكل منتظم، حتى عندما ينكر ذلك، [وهي] مسألة ناقشتها في مكان آخر؛ وكما هو معروف، لتحديد ما يقوم به العلماء، يجب أن نستقصي ممارستهم، وليس ما يقولونه حول ذلك.

– كما لاحظنا قبلاً، لا تُثار قضية شرعية الاستعلامات التي تتجاوز الحدود الذاتانية internalist. فهذه يتعين أن تكون من أبسط البديهيات. وفقاً لذلك، أفاجأ دائماً بقراءة أنني وآخرين ننكر ذلك. هكذا يستهل نص حديث حول اللسانيات الاجتماعية بالزعم الجدير بالملاحظة وهو أن "اللسانيات الحديثة قد سلمت عموماً بأن الأنحاء grammars لا علاقة لها بالحيوات الاجتماعية لمتكلميها" (Romaine 1994:vii)، [وهي] فكرة تافهة، لا يدافع عنها أحد، ينسبها المؤلف إلى إلحاحي على أن "مسائل السلطة power... ليست ذاك النوع من القضايا التي يتعين على اللسانيات أن تنكب عليها" (ص. 1) ـ أي لا يتعين عليّ أن أخوض في نشاطات تشغل حيزاً كبيراً من وقتي وطاقتي، على سبيل المثال. يختم الكتاب باستنتاج أن "الاختلافات اللغوية تمثل وتعمم التفاوتات في السلطة المنزلة" (ص. 225) ـ فهناك، على سبيل المثال، لهجات الهيبة prestige dialects ـ [وهو] اكتشاف يعتقد أنه يدحض حجتي القائلة بأن دراسة هذه القضايا لا يضيئها ما هو مفهوم حالياً حول طبيعة اللغة.

– تكثر البيانات المشابهة في الأدب، التي يجري تقديمها غالباً بكثير من الانفعال والاستياء. ويبدو أنها تقوم على اعتقاد عبرت عنه بالفعل: وهو أن على البشر أن يقولوا الحقيقة. على وجه الخصوص، ينبغي عليهم ألا يدّعوا أنهم يمتلكون تبصراً خاصاً في مجالات الاهتمامات البشرية ما لم تكن مزاعمهم صحيحة، وإذا كانت كذلك، فينبغي عليهم ألا يكتموا تلك المعرفة الخاصة، وهو أمر من النادر أن يكون صعباً. إن اتخاذ موقف من هذه المسائل يفيد

فقط في التخويف والتهميش، معززاً "التفاوتات في السلطة والمنزلة". علاوة على ذلك، فإن جعل حدود الفهم واضحة جداً هو مسؤولية خطيرة في ثقافة تمنح فيها الخبرة المزعومة هيبة لا مبرر لها غالباً. إذا كان الاستعلام في مجالات الهم البشري الأساسي يمكن أن يستفيد من اكتشافات أصيلة حول اللغة أو الرؤية، أو غير ذلك، بكل معنى الكلمة، لكن ذلك يتعين برهانه، وليس ادعاؤه. أما بالنسبة للسانيات الاجتماعية، فهي استعلام مشروع تماماً، موضوعاني بالتعريف. إنها تستعير من الاستعلام الذاتاني لدى البشر، لكنها لا تقترح أي بديل له، على حد علمي. أما إلى أي مدى تسلط مكتشفاته الضوء على قضايا السلطة والمنزلة فهو سؤال مستقل.

– لنستشهد بحالة أخرى، فقد فسر بوتنام تعليقاتي (في الواقع، بديهياتي) حول اللغة العمومية المشتركة، على أنها تقتضي ضمناً أنه ما لم "يكن من الممكن تعريف الثقافات بشكل جواهراني"، فيتعين علينا أن "ننساها وأن نعود إلى العمل الجاد لنمذجة الحاسوب" (Putnam: 385) ـ الذي يبدو أنه يقصد به الاستعلام الطبيعاني في ملكة اللغة، الذي يمكن لنمذجة الكومبيوتر أن تقدم مساهمة ما فيه، مع أنه لم يكن أبداً هماً خاصاً من همومي. لكن المشاكل التي يواجهها التعويل اللانقدي على هذا المفهوم لا يتم التغلب عليها عن طريق توسيل "الثقافة" أو "النتاجات الصنعية الثقافية"؛ والاعتراف بالحقائق البسيطة حول الصينية، الانكليزية، الخ. وحول عدم صلة الثقافة بالمسائل قيد البحث ـ لا يوحي بأي شكل من الأشكال بالاستنتاج الذي يتوصل إليه. إن الثقافات

تخترق أي شيء يمكن أن يُدعى بشكل مقبول "لغات" بكل الطرق، كما أن "الدراسات الثقافية" تترك المشاكل من غير حل.

– إن إعلان بوتنام أن "اللغات والمعاني هي حقائق ثقافية" (توكيده ص 385) هو صحيح بمعنى واحد، وهو السبب في أنني (مثل أي شخص آخر) أصف الطريقة التي يفهم بها المصطلحات في الثقافات التي نتشاركها تقريباً في ضوء القوة والسلطة، وأنماط الخضوع، والصروح الأدبية، والرايات والتواريخ (الأسطورية غالباً)، وهلم جرا. تستعمل مصطلحات مثل "اللغة" بطرق مختلفة في مشتركات لغوية أخرى؛ وتفتقر مصطلحات مثل"meaning , belief" الخ. عموماً إلى أي نظير دقيق [في مشتركات لغوية أخرى]. لكن هذه "الحقائق الثقافية" لا تساهم في فهم كيفية اكتساب اللغة وفهمها واستعمالها، وكيفية تكوينها والتغيرات التي تطرأ عليها مع مرور الزمن، وكيف يرتبط ذلك بملكات العقل الأخرى وبالفعل البشري عموماً. فلا تستفيد الدراسة التجريبية للغة ذاتها، ولا "دراسات بوتنام الثقافية (التاريخ، الانتروبولوجيا، علم الاجتماع، أقسام من الفلسفة)" عندما تُتابع جدياً، من مفهوم "اللغة العمومية المشتركة" للاستعمال اللغوي العادي، بعيداً عن التعليق العامي؛ في سياقات مختلفة، يمكن للانثروبولوجي أن يتكلم عن الثقافة الصينية، أو الصينية ـ اليابانية، أو منطقة الثقافة الشرق آسيوية، عن ثقافة العلماء الذين يتكلمون لغات مختلفة كلياً، عن ثقافة قاطني الأحياء الفقيرة في نيويورك، القاهرة، وريو وهلم جرا، بمجموعة كبيرة معقدة تفتقر إلى علاقة مثيرة للاهتمام باللغات

المحكية، أو ما تدعى "اللغات" في الاستعمال اللغوي العادي أو في ثقافاتنا الأدبية وسواها.

– هذه اللغات تكون غالباً "نتاجات صنعية ثقافية" cultural artifacts بمعنى أضيق: لغات فصحى "مخترعة جزئياً يتكلمها القليلون ويمكن حتى أن تخالف مبادئ اللغة. في ضوء هذه النتاجات الصنعية يتم تحديد "المعايير" و"الاستعمال اللغوي الصحيح" في ثقافات عديدة، مسائل ذات أهمية ضئيلة "للدراسات الثقافية" ولو لمجرد أنها شفافة أكثر مما ينبغي. ثمة اهتمام ضئيل بدراسة سلوك الأكاديمية الفرنسية، على سبيل المثال.

– في الدراسات الثقافية، كما في الاستعمال اللغوي اللارسمي [العامي]، نقول، بشكل مفهوم تماماً، إن جون يتكلم اللغة نفسها التي يتكلمها بيل، ويبدو مثل بيل، ويسكن قرب بيل. لكننا، لذلك، لا نضلل إلى حد الاعتقاد بأن العالم مقسم إلى مناطق أو أماكن موضوعية، أو أنه يوجد شكل يتقاسمه جون وبيل؛ أو لغة مشتركة. المشكلة ليست نسيجاً مفتوحاً أو انعداماً لـ "الحدود الواضحة"، كما يعتقد بوتنام، بأكثر مما في حالة "area" [منطقة] أو "era" [حقبة]. وتكون "اللغات الفصحي" في الحقيقة محددة بشكل واضح تماماً (على سبيل المثال، من قبل الأكاديمية الفرنسية). في الاستعمالات اللغوية الأخرى أيضاً تكون حدود "اللغة" واضحة بشكل معقول، كما تسير هذه الأشياء، تحددها مسائل مثل الألوان على الخرائط وما شابه. لكن الاستعمال اللغوي العادي لا يقدم أي مفهوم "للغة العمومية المشتركة" يقترب حتى من استيفاء شروط الاستعلام الأمبريقي أو التأمل الفلسفي الجاد حول اللغة

واستعمالها، ولم يتم اقتراح أي مفهوم أكثر كفاءة. ولا توجد فجوة تفسيرية يتعين ملؤها بابتكار هذا المفهوم، على حد علمي.

الفكرة الأساسية للمقال الذي يعلق عليه بوتنام هي أن "أسئلة كثيرة، بما في ذلك تلك الأسئلة ذات الدلالة الإنسانية الكبرى التي قد يجادل بها المرء، لا تقع ضمن الاستعلام الطبيعاني؛ إذ أننا نقاربها بطرق أخرى" (انظر الفصل 2 من هذا الكتاب، ص 19). لا يوجد أي معنى ضمني هنا، او في مكان آخر، يقضي بأن علينا أن نلتزم بـ "العمل الجاد" لنمذجة الحاسوب، بل فقط أن علينا أن نلتزم "بالعمل الجاد" مهما كان الحقل.

والسؤال هو: هل توجد مشكلة مع المقاربات الذاتانية (أو الفردانية) للحقول الأخرى لعلم النفس؟ هكذا يزعم على نطاق واسع، لكن على أسس مشكوك فيها، كما أظن. خذ دراسة السمع. إن أحد الأسئلة القائمة منذ زمن طويل هو كيف تحدد القشرة الدماغية السمعية موقع الصوت. إذ لا يبدو أن ثمة "خريطة سمعية"، كما توجد خريطة بصرية أو حسية جسدية somatosensory. يوحي بعض الأعمال الحديثة أن القشرة الدماغية السمعية تسجل موقع الصوت ليس عن طريق الترتيب المكاني للعصبونات، بل عن طريق نمط زمني من إطلاق الإشارة firing بنوع من "شيفرة مورس" (Barinaga 1994). تُصاغ المناقشة بالمزيج المعتاد للخطاب التقني والعامي. إن من يقرأه قد يضلل فيظن أن نظرية الإدراك السمعي هي موضوعانية ما يحيل إحالة جوهرية إلى "حل المشاكل" التي يطرحها العالم الخارجي للأصوات. لكن ذلك وهم. فالجهاز السمعي لا "يحل المشاكل" بأي معنى تقني لهذا

المصطلح ولو عرف الباحثون كيف يفعلون ذلك، لكان من الممكن أن يختاروا محاكاة المستقبلات receptors بشكل مباشر بدلاً من استعمال مكبرات الصوت - إلى حد كبير كما فعلوا في نموذج الكومبيوتر الذي قدم، في الحقيقة، الدليل الرئيسي لأجل نظريتهم في تحديد موقع الصوت، التي كانت تصلح لأجل الدماغ في الراقود vat كما تصلح لأجل بومة تلتفت برأسها لتواجه فأرة في الدغل.

– تنطبق الاعتبارات نفسها على دراسة الإدراك الحسي البصري وفق خطوط رادها ديفيد مار (1982) David Marr، الذي نوقش كثيراً بهذا الخصوص. هذا العمل يُعنى في معظمه بالعمليات التي تنفذها الشبكية، أو بشكل تقريبي، ارتسام الصور الشبكية على القشرة الدماغية البصرية. إن مستويات مار الثلاثة الشهيرة للتحليل - المستوى الحوسبي، المستوى الخوارزمي، والمستوى التنفيذي - لها علاقة بطرق تفسير هذه الارتسامات. مرة أخرى، تنطبق النظرية على دماغ في راقود كما تنطبق على شخص يرى شيئاً يتحرك. لقد درست الحالة الأخيرة بالفعل، في عمل من تأليف مساعد مار المدعو شيمون أولمان (1997) Shimon Ullman. تستخدم دراساته لتحديد البنية من الحركة العروض التاكيستوسكوبية tachistoscopic التي تجعل المرء يرى مكعباً دواراً، مع أنه لا يوجد مثل هذا الشيء في البيئة؛ فالفعل "see" [يرى] هنا، يستعمل بمعناه العادي، وليس كفعل إنجاز [قيام بشيء]. لو استطاع أولمان أن ينبه الشبكية بشكل مباشر، لكان قد فعل ذلك هو، أو فعله العصب البصري. فالاستقصاء، يكتب أولمان "يُعنى بطبيعة التمثيلات الداخلية التي يستعملها الجهاز البصري وبالسيرورات التي تشتق بها". وهذا

التفسير هو ذاتاني خالص. فلا يوجد سؤال ذو معنى حول "مضمون" التمثيلات الداخلية لشخص يرى مكعباً تحت شروط التجارب، أو إذا نبهت الشبكية عن طريق مكعب دوار، أو عن طريق صورة فيديو لمعكب دوار؛ أو حول المضمون "لتمثيل" ضفدع لذبابة أو لنقطة متحركة في الدراسات التجريبية النموذجية لإبصار الضفادع. لا يوجد مفهوم عام مثل "مضمون" أو "تمثيل / تمثل" للأشكال ضمن النظرية، لذلك لا توجد إجابات لتقديمها حول طبيعتهما. الشيء نفسه يصح عندما يكتب مار أنه يدرس الإبصار بوصفه "ارتساماً من تمثيل إلى آخر، وفي حالة الإبصار البشري، يكون التمثيل الأولي لا مجال للشك فيه ـ فهو يتألف من تراتيب لقيم شدة الصورة كما تكشفها المستقبلات الضوئية photoreceptors في الشبكية" (Marr 1982: 31) ـ حيث لا يفهم التمثيل بشكل علاقي، كـ "تمثيل لـ".

– تتحدث الأبحاث التقنية المقدمة حول الخوارزميات [التي] "تتعطل" تحت بعض الشروط، وتعطي "الجواب الصحيح" في شروط أخرى ـ حيث يمكن أن يكون "الجواب الصحيح"، على سبيل المثال، المدرك الحسي الثلاثي الأبعاد القوي الذي يقدمه رسم تجسيمي نقطي عشوائي. قد تتكلم أيضاً عن "خطأ الإدراك" misperception في حالة الشخص أو الضفدع في التجارب، مع انه ربما لا يكون كذلك عندما يتم تشغيل مستقبل ضوئي على مصباح شارع بواسطة ضوء كشاف بدلاً من الشمس. وهي تتكلم عن الدماغ على أنه "يحل المشاكل" وبوصفه "متكيفاً" مع الأوضاع العادية التي "يمثل" فيها الجهاز البصري السمات الموضوعية للعالم

الخارجي. هذه الاستعمالات اللغوية العامية تخضع لمنطلق تايلر بورغ: "المقدمة القائلة بأن خبرتنا الإدراكية الحسية تمثل أو تدور حول الأجسام، والخواص والعلاقات التي تكون "موضوعية" (Burge 1986c: 125) وهي مقدمة تتخطى المقاربة الفردانية الذاتانية. لكن هذه الاستعمالات اللغوية هي على قدم المساواة مع عالم فلك يحذر من أن مذنباً يتجه مباشرة نحو الأرض، الأمر الذي لا ينطوي على أي فيزياء أرواحية، قصدية.

وتتحدث الدراسة الذاتانية للغة، أيضاً عن "تمثيلات / تمثلات" من أنواع مختلفة، بما في ذلك التمثيلات الصوتية والدلالية عند "السطح البيني" مع الأنظمة الأخرى. لكننا هنا أيضاً لسنا بحاجة إلى التفكير فيما هو مُتَمثّل / ممثل، [ونحن] نبحث عن بعض التصورات الموضوعية من الأصوات أو الأشياء. فالتمثيلات هي كيانات عقلية مفترضة، يتعين فهمها بأسلوب الصورة الذهنية لمكعب دوار، سواء كانت نتيجة للعرض التاكيستو سكوبي أو مكعباً دواراً حقيقياً، أو تنبيهاً للشبكية بطريقة ما أخرى؛ أو متخيلة، للغرض نفسه. إن التمثيلات الداخلية (الجوانية) للغة التي يتم بلوغها عن طريق أنظمة الأداء، تدخل في التفسير والفكر والفعل، لكن لا يوجد مبرر للبحث عن أية علاقة أخرى بالعالم، كما يمكن أن يوحي بذلك تراث فلسفي معروف جيداً وتشبيهات غير ملائمة من الاستعمال اللغوي العامي. لا يثير خطأ الإدراك أية مشاكل لهذه المقاربة، إنها مسألة كيف ينسب البشر تفسيرات إلى التفاعلات التي يرصدونها - إلى ردود فعل ضفدع أو شخص في تجربة، مستقبل ضوئي "مخدوع"، - وهو موضوع مناسب لأجل الاستعلام

الذاتاني في سيكولوجيا الشخص الذي يقرر ماذا سيسمي "خطأ الإدراك" misperception.

– بالنسبة لعلم النفس والعم الإثني، يبدو أن ثمة القليل من الرهان في هذه السجالات. افترض أن جونز عضو في جماعة عادية، وأن ج لا يمكن تمييزه عنه سوى أن خبرته الإجمالية تشتق من تصميم واقع افتراضي ما، أو هب أن ج هو توأم جونز في سيناريو توأم الأرض. لقد امتلكا خبرتين غير قابلتين للتمييز وسوف يتصرفان بالطريقة نفسها (بقدر ما يكون السلوك قابلاً للتنبؤ به في المطلق)؛ إنهما يمتلكان نفس الحالات الداخلية. افترض أن ج يحل محل جونز في المشترك، لا يعرفه سوى العالم الراصد. كل شخص، غير مدرك لأي تغيير، سوف يتصرف كما من قبل، بأن يعامل ج على أنه جونز؛ إن ج أيضاً سوف يستمر كما كان من قبل. سيصوغ العالم الذي يبحث عن أفضل نظرية من كل ذلك وصفاً فردانياً ضيقاً لجونز، و ج، والآخرين في المشترك. فالوصف لا يحذف شيئاً، بما في ذلك الطريقة التي يعزو بها أفراد المشترك الحالات العقلية (المعتقدات، المعاني، المضامين الإدراكية الحسية، الخ)، (هذا) إن فعلوا ذلك.

– افترض أن المشترك يحتوي على فيلسوف p يملك حدوساً موضوعانية كالحدوس التي أوردناها في المناقشة الحالية. ستعزو النظرية إلى p الحالة الداخلية المماثلة. وسوف تتنبأ الآن بشكل صحيح أن p، الذي يرى ج على أنه جونز، سوف ينسب إلى ج الحالات العقلية التي عزاها إلى جونز، وأنه إذا كان مدركاً للتبادل بين ج وجونز عندما يحدث، فإن p سوف يعزو حالات عقلية

مختلفة إلى ج. إنني، إذ لا أشاطر حدوس p، لا أعرف كيف أن p سوف يعزو حالات عقلية عندما يستمرج في العيش في المشترك، في عالم من الأشياء "الموضوعية" (هل إن ج قد أصبح الآن يشاطر معتقدات جونز؟). لكن مهما يكن الجواب، فإن النظرية ستصف الحالات الداخلية لـ p وفقاً لذلك. إذا كنت فرداً من الجماعة أيضاً، فإن النظرية سوف تخصني بحالة داخلية مختلفة، لا تقدم فيها أجوبة ثابتة حول عزو المعتقدات والمعاني إلى ج (ولا شيء مثير للاهتمام حول المضامين، الإدراكية وسواها، لأنني أعتبر الابتكارات التقنية تعني ما يقوله مصمموها)، كون الأحكام تتغير مع تغير الظروف.

ويتعامل هذا الوصف مع جونز وج وأفراد المشترك الآخرين وأناس آخرين يمتلكون حدوساً مختلفة حول عزو الحالات العقلية؛ إنه (وصف) ناقص بقدر ما تكون هذه الحدوس مجهولة حتى الآن لكن، خلافاً لذلك، لا شيء يبدو مفقوداً منه، ويمكن توسيعه فوراً إلى الاستعمال اللغوي للغات والثقافات الأخرى، تبعاً لاختلافها. إذ يمكن تحويله بسهولة كافية إلى نظرية لا فردانية، أكثر إرهاقاً ولا تضيف أي تبصر جديد. ولن تكون هذه الخطوة غير ملائمة للاستعلام الطبيعاني، ومن غير الواضح ما هو الهدف الآخر الذي يمكن أن تخدمه.

– إن الحديث حول الأعضاء أو المتعضيات "الحالّة للمشاكل" أو المتكيفة مع وظائفها، يتعين فهمه بشكل مماثل: كاختصار مجازي. إذ لا يوجد شك فيما إذا كان جناحا الفراشة مصممين لـ "حل مشاكل" الطيران، فقد نشأا كمنظمين للحرارة thermoregulators،

ولا يزالان يؤديان ذاك الغرض. ولو حدث أن اكتشفنا أنها وصلت إلى حالتها الحاضرة قبل أن تستخدم الطيران فستظل لها الآن وظيفة الطيران وستستخدم لذلك الغرض. كذلك إن الجهاز البشري ضعيف التكيف مع الإبصار في الظلام، لكنه ليس فاشلاً، لهذا السبب. وإن العمود الفقاري للفقاريات الضخمة مصمم بشكل سيء من وجهة نظر هندسية، كما يعرف معظم الناس من خبرتهم الشخصية؛ لكنه ليس نجاحاً ولا فشلاً. اللغات البشرية غير صالحة للاستعمال جزئياً، لكن أياً منها ليست أسوأ من غيرها لهذا السبب؛ فالبشر يستعملون الأجزاء التي تكون صالحة للاستعمال. لقد اكتشف مؤخراً أنه في حين أن الحشرات تبدو متكيفة بشكل عجيب مع انواع بعينها من النباتات المزهرة، فهي في الحقيقة قد حققت بشكل فعلي تنوعها وتركيبها الحاليين قبل ملايين السنوات من وجود النباتات الزهرية. عندما ظهرت، كان بانتظارها موسوعة من الحلول التي تنتظر المشاكل التي يتعين حلها"، كما يشير ريتشارد ليونتين Richard Lewontin (1990)، وهو يقصد [بذلك] التشديد على لا معنى لهذه المقولات الحدسية بالنسبة للبيولوجيا. وفقاً لذلك، إنها قراءة خاطئة للحديث العامي أن نستنتج أن نظرية مار في الرؤية تنسب "حالات قصدية تمثل خواصاً فيزيائية، موضوعية" لأنه لا توجد طريقة أخرى لمعاملة الجهاز البصري على أنه يحل المشكلة التي تراها النظرية منحلة" (Burge 1986a: 28-9) أما النظرية نفسها فليس لديها مكان لأجل المفاهيم التي تدخل في التقديم العامي، المقصود لأجل التحريض العام. إن عبارة "إن فكرة أننا نصنف علم ظاهراتنا الإدراكية الحسية بدون تحديد الخواص

الموضوعية التي تحدثه هي منفصلة بشكل مفرط عن النظريات التجريبية الفعلية كما هي منفصلة عن الفطرة" (p.38) هي فكرة صحيحة في بعض الظروف المتعلقة بالبديهة، لكنها مضللة فيما يتعلق بالنظريات التجريبية للإدراك الحسي، التي لا تعنى بكيفية عمل الأشياء، والتقارير الإدراكية الحسية والتصنيفات الحدسية إلا كدليل يستند على هذه المسألة[9]. انظر أيضاً لاباندیرا وسبکوسکي 1993، بورغ 1986a.

– لدى دراسة أي جهاز عضوي، يأخذ عالم الأحياء في الحسبان، بشكل طبيعي، التفاعلات البيئية والقانون الفيزيائي التي يحتمل أن تكون قد أثرت على الطفرات، والنجاح التكاثري ومسار التطور.

أما فيما يتعلق بالتحريض والإرشاد الحدسي، فيمكن للبيولوجي أن يتكلم عن الأجهزة باعتبارها "نشأت لتحل بعض المشاكل التي تفرضها عليها البيئة" حيث تطرح "أنواع مختلفة مشاكل مختلفة وتحلها بشكل مختلف" (Burge 1986a: 28) لكن هذا حديث عامي غير متخصص وإذا اكتشف أن مسار النشوء لم يكن كما كان يظن كما في حالة الحشرات والأزهار، فإن النظرية الحقيقية لجهاز المعالجة الحسية والأجهزة الأخرى لا يتم تعديلها، مع ما يصحب ذلك من أنواع مختلفة من العزو والتفريد individuation مختلف، والأوصاف المنقحة للمضمون القصدي والأخطاء والوظائف والأهداف والمشاكل المحلولة وهلم جرا. بشكل مماثل، افترض أنه تم اكتشاف أن أسلافنا قد تم تركيبهم في مختبر خارج الأرض، وأرسلوا إلى الأرض بواسطة سفينة فضائية منذ 30000 سنة، بحيث أن

الاصطفاء الطبيعي لم يلعب بشكل افتراضي أي دور في تشكل الكلية والجهاز البصري والكفاية الحسابية arithmetic، أو سواها. فلم تُعدّل الفقرات التقنية من كتب النصوص التي تدور حول فيزيولوجيا الكلية، ولا النظرية الحقيقية للوظائف المحوسبة computed من قبل الشبكية أو التي تدور حول المظاهر الأخرى للجهاز البصري البشري والأجهزة الأخرى.

ولا يكتسب نقد الذاتانية (الفردانية) مزيداً من القوة من ملاحظة أن السيرورات الداخلية، في البيئات العادية، تكون مترابطة بشكل يُعوّل عليه مع الخواص البعيدة (حدود الشيء، وهلم جرا). أما في البيئات الأخرى فتترابط مع خواص مختلفة، قد تكون خواص حدية أو تنبيهاً شبكياً مباشراً (أو داخلياً أعمق). يمكننا القول، إذا شئنا، إنه "حيث لا تستوفى القيود التي تمكّن بشكل عادي متعضياً من حساب وظيفة معرفية، فإنه سيفشل في تمثيل بيئته" (Eagan)، لكن هذا "الفشل" هو طريقتنا لوصف غاية بشرية ما نفرضها لأسباب لا علاقة لها بالاستعلام الطبيعاني إلى حد كبير كما في حالة فشل مذنب في صدم كوكب المشتري، كما كنا نأمل أن يفعل. ومما لا صلة له بالموضوع أن دراسة "التمثل" في البيئات العادية تسمح لنا بربط النظام قيد التحليل بالوظيفة المعرفية للرؤية الموصوفة بشكل عامي. إذ ليس من مهمة العلم أن يتوافق مع مقولات الحدس، أو أن يقرر ما إذا كانت لا تزال "رؤية" في بيئات شاذة أو إذا كانت أجزاء من الدماغ التي تُستعمل بشكل عادي لأغراض أخرى، تضطلع بتحليل ما للصور البصرية، كما تفعل أحياناً. وتبدأ دراسة الإدراك الحسي بشكل طبيعي بـ"المهام

المعرفية" المقدمة بشكل عامي، لكنها تهتم قليلاً بما إذا كان يتم اكتشاف شيء ما مشابه لها مع تقدمها.

-- إن المناقشة غير المتخصصة للسيرورات التطورية تستفيد من ألفاظ مثل "حل المشاكل"، لكن مرة أخرى لا يؤخذ هذا كثيراً على محمل الجد. فالقانون الفيزيائي يقدم قنوات ضيقة يمكن ضمنها للمتعضيات المعقدة أن تتغير، والاصطفاء الطبيعي هو بدون شك عامل في تحديد توزيع الصفات والخواص ضمن هذه التقييدات. إنه عامل وليس العامل [الوحيد]، على الأقل إذا اتبعنا الانتقادات القاسية المعقولة لداروين. فداروين، الذي انشغل كثيراً بسوء تفسير أفكاره، قد أنكر بشكل ثابت أنه "عزا تعديل الأنواع إلى الاصطفاء الطبيعي حصراً"، مشدداً في الطبعة الأخيرة من كتابه "أصل الأنواع على أنه" في الطبعة الأولى من هذا العمل، وفيما بعد، قدمتُ موقفاً هو الأكثر وضوحاً ـ أي، في خاتمة المقدمة ـ بالكلمات التالية: "إنني مقتنع: أن الاصطفاء الطبيعي كان الوسيلة الرئيسة وليس الحصرية للتعديل". لكن أحداً لم يكترث بذلك ما أعظم قوة سوء التمثيل المضطرد" (ورد لدى غولد 1982: 45). لقد لحظ داروين بشكل واضح مجالاً من الإمكانيات، بما في ذلك التعديلات اللاتكيفية والوظائف اللامصطفاة واللامحددة من قبل البنية.

– لا يمكننا أن نخمن بشكل معقول الثقل الذي سيتم إيلاؤه للاصطفاء الطبيعي كإوالية للتطور عندما يتم تعلم المزيد حول الأنظمة المعقدة، وعمل القانون الفيزيائي، والعوامل [الداخلة] في التنظيم الذاتي العفوي في المنظومات الحية كما في الأنظمة الفيزيائية الأخرى، وهلم جرا (انظر: Waldrop 1990; Bradley 1994)[10].

إن مكانة المقاربات الذاتانية لا تتأثر بمثل هـذه الاعتبـارات، سـواءً كنا نفكر بالنمل أو الكلية، أو اللغة والعقل.

– من الناحية الافتراضية، يبدو أن كل مظهر من مظاهر دراسـة اللغة والعقل ينطوي على افتراضات لا طبيعانيـة غـير مـبررة. (مـن أجل مناقشة أكثر توسعاً، انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب). إذا كانت هذه المناقشة على المسار الصحيح، فلا بد أن يرغـب المـرء في أن يسأل لماذا تبدو مثل هذه الأفكار مقنعة للغاية، قد يكون الجواب هو أن صورتنا البديهية للعـالم هـي صـورة ثنائويـة بشـكل عميـق، بشكل لا يمكـن مناقضـته، تمامـاً كمـا لا يمكننـا أن نتفـادى رؤيـة غروب الشمس، أو مشاطرة نيوتن الإيمان "بالفلسفة الميكانيكية التي قوضها هو نفسه، أو مراقبة الموجة التي "تهرب من مكان خلقها"، على حد تعبير ليوناردو، بشـكل مسـتقل عمـا قـد نعرفـه في زاويـة أخرى من عقولنا. إذا كان كذلك، وإذا كانت الثنائوية الميتافيزيقية قد تقوضت، فإن ما تبقى هو نوع من الثنائوية المنهجية، بقية غـير مشروعة من الفطـرة common sense يجـب ألا يسـمح لهـا بـأن تعيق الجهود لاكتساب الفهم في ما هو نوع المخلوقات الـتي ننتمـي إليه.

الفصل السابع

استكشافات ذاتانية

فيما أنا أكتب، تظلم السماء ويحـذر الراديـو مـن عاصـفة تتجـه نحو بوسطن، يتوقع أن تجلب مطراً غزيراً ورياحاً قويـة، وفيضـاناً للأنهار والمناطق الساحلية وتخريباً للأشجار والمنازل وانقطاعاً للتيار الكهربائي. إن البيان السابق، لندعوه s (وندعي أنـه محكـي) يـتم إعلانـه في وسـط خـارجي ويفهـم بطـرق مختلفـة مـن قبـل المـتكلم والسامعين؛ فمن الناحية اللارسمية، نقول إن له صوت ومعنـى. إن s يرتبط أيضاً بالحالات الداخلية للمتكلم والسامعين، الـتي تـدخل في الطرق التي يفسرونه بها. يعتمد التواصل على التشابه بـين هـذه الحالات. بهذه الطرق، تتعامل اللغة مع العالم.

لقد دُرست هذه الموضوعات لألاف السـنوات مـن وجهـات نظـر كـثيرة، إنهـا أيضـاً مسـائل ذات شـأن في الحيـاة العاديـة، وثمـة ممارسات ثقافية ولغوية متنوعة تعنى بها، تدعى أحيانـاً "الفطـرة" common sense أو "العلم الشعبي" folk science. ومن الواضح أن دراسـة الموضـوعات نفسـها ليسـت دراسـة هـذه الممارسـات [التطبيقات]. فعلوم الأرض ليست مقيدة بالأفكار والآراء المعبَّر عنها في s. والشيء نفسه ينطبق على "علم الطبيعة البشرية" لـدى هيـوم

Hume، الذي يسعى إلى اكتشاف "المنابع والمبادئ السرية" التي يُفعِّل بها العقل البشري في عملياته (14 :1748/1975، section 9).

في حين أن القضايا واضحة بما فيه الكفاية لأجل علوم الأرض، فإنها تكون أكثر تعقيداً عندما نعود إلى علم الطبيعة البشرية، الذي يعد من بين همومه استقصاء الفطرة (ما يمكن أن نسميه العلم الإثني). ومع ذلك، فإنه يسير وفق مساره الخاص. يمكن أن يبدأ الاستعلام بالمفاهيم العامة العادية "للغة" و"الصوت" و"المعنى" و"الريح" و"النهر"، الخ. لكن بدون أن نتوقع منها أن تكون دليلاً يعول عليه يتجاوز المستوى الظاهري.

إنني أفسر "علم الطبيعة البشرية" الهيومي على أنه [علم] فرداني وذاتاني. فهو بعيد جداً عن الإحاطة بدراسة كيف يقوم البشر بوظائفهم في العالمين الاجتماعي والفيزيائي. تفترض الاستعلامات الأوسع، ولو بشكل ضمني فقط، أفكاراً حول الحالات الداخلية التي تدخل في الفكر والفعل، وتستعمل عموماً تستطيع من الدراسة الذاتانية لأنظمة العقل / الدماغ. يجري التغيير المتبادل في اتجاهات أخرى أيضاً، كما في دراسة المتعضيات الأخرى. في حالة اللغة البشرية، فإن النظائر الأقرب ربما تكون موجودة في الحشرات (انظر Griffin 1994 Austed 1994). إن استقصاء خواص مثل "الإحالة المزاحة" displaced reference في تواصل النحل سوف ينكب على الطبيعة (الداخلية) للنحل وترتيباته الاجتماعية، وبيئته الفيزيائية، [وهي] استعلامات متبادلة الدعم.

– يتعين حل التناقضات الظاهرية عن طريق الوضوح في المشروع الخاضع للمتابعة. خذ، مثلاً، مناقشة المضمون الواسع والضيق، أو

تحديد التمثيلات العقلية، أو تفرد الفكر والاعتقاد. إذا كان الاستعلام يقع ضمن العلم الإثني فإننا نسأل كيف يفكر البشر ويتحدثون حول هذه المسائل - معترفين، مع ذلك، بأن السؤال لا يمكن طرحه مباشرة فيما يتعلق "بالمضمون" و"التمثيل العقلي" المستخدمين هنا بمفهومين تقنيين؛ إن "الفكر thought" و"الاعتقاد belief" هما كلمتان من اللغة الإنكليزية ليس لهما نظائر قريبة حتى في اللغات المشابهة، مهما كانت الدلالة التي يمكن أن تأخذاها (من أجل تعليق، انظر: Rhum 1993)؛ وأن التفسيرات الفطرية لما يفعله البشر يجب عدم تفسيرها كشكل من الشرح النظري. هنا نجد أنفسنا في تشوش غير مستكشف إلى حد كبير. في علم الطبيعة البشرية تبرز أسئلة مختلفة. إننا نتفحص الإطار النظري الذي تصاغ فيه مفاهيم عامة مثل content (مضمون) وthought (فكر) ونقيِّم كفايته الوصفية وقوته التفسيرية. وليس مفاجئاً أن المفاهيم العامة الفطرية ليست ذات فائدة كبيرة، وأن عائداتها تظل هزيلة.

لذلك، يتعين على المرء أن يكون حذراً حيال وضع الكثير من الثقل على كيف "يحتكم العلم المعرفي إلى معنى التمثيلات العقلية" ليعبر عن التعميمات حول السيرورات المعرفية والفعل، و"ليساعد في شرح هذه التعميمات". بشكل مماثل، فإن الانتقال من "علم الدلالات اللساني" linguosemantics إلى "علم الدلالات النفسي" psycho semantics على قاعدة ان "الأنواع الطبيعية السيكولوجية" من المحتمل أن "تحقق [بشكل أفضل] أهداف التفسير

السيكولوجي" (Lormand 1996: 52.53) هو انتقال مهم فقط طالما أن الشرح السيكولوجي يتوصل إليه - إنه يصل إلى مدى بعيد تماماً في بعض الحقول (على سبيل المثال، الإدراك الحسي البصري)، لكنه قلما يذهب بعيداً في دراسة السلوك.

- يستعمل مصطلح "العلم المعرفي cognitive science" أحياناً لأجل الدراسة التجريبية للقدرات المعرفية (الرؤية، اللغة، التعليل، الخ، مقومات علم الطبيعة البشرية التي قد لا تشكل حقلاً معرفياً موحداً)؛ بالمعنى الأخير، قد يكون من المعقول أن نؤمن بأن "الابتكار 'لنهجي الأساسي لكانط، نهج الجدال المتعالي trans cendental، أصبح نهجاً غالباً، وربما النهج الأكبر، للعلم المعرفي" (Brook ' :1994) وليس المعنى الأول. في كل حالة على حدة، فإن قانون ي فودور، "القانون الأول لعدم وجود العلم المعرفي" (fodor 1987: 107) هو قانون ذو صلة، وإن يكن لأسباب مختلفة.

- تأتي التعميمات السيكولوجية أيضاً بأشكال متعددة. تأمل، على سبيل المثال، الاكتشافات حول "ما يعرفه الأطفال": الكافية لتمييز لغة الأم عن لغة مختلفة بعد الولادة بأيام قليلة؛ وتفرد الأجسام الفيزيائية في ضوء القدر المشترك والخواص المعقدة الأخرى بعد أشهر ليست كثيرة؛ وغير ذلك الكثير (انظر Mehler and Dupoux 1994; spelke 1990). ويحاول علم الطبيعة البشرية تفسير هذه الإنجازات بلغة الحالات الجوانية، مميزاً بين العوامل الفطرية والبيئية، وصائغاً نظرية تفسيرية عند أي مستوى ملائم. هنا لدينا برامج بحث هامة تتعلق بمتعضى بيولوجي بعينه. لندعو هذه الفئة من التعميمات "بالتعميم السيكولوجي" PG1.

– تأمل التعميم السيكولوجي PG2: إذا كان بيتر يريد "X"، فهو يعتقد أن الحصول على X يتطلب القيام بـ Y، وهو قادر على Y بسهولة، عندئذٍ فإنه بشكل نموذجي سيقوم بـ Y. يختلف PG2 عن PG1 بطرق كثيرة. إنه يدّعي أنه يفسر السلوك؛ أما تعميمات PG2 فلا تفعل ذلك. إن المضمون التجريبي لـ PG1 من السهل كشفه؛ أما المضمون التجريبي لـ PG2 فليس كذلك، (الذي) ينطبق على أي متعضي نختار أن نصفه بمثل هذه المصطلحات. إن PG2، خلافاً لـ PG1، يتم تقييمه عن طريق التأمل، وليس الاستعلام التجريبي، ولا يفتح أي برامج بحث ـ باستثناء، ربما، في الاستعلام العادي لمصطلحات ومفاهيم العقلانية. ينـدرج PG1 ضمن علم الطبيعة البشرية، لكن هذا أقل وضوحاً بالنسبة لـ PG2. إن فكرة أن "العلم المعرفي" يحاول أن يعبر عن ويشرح PG2 هي فكرة غامضة وفقاً لذلك، مثلما هي الجهود لتأسيس مثل هذه "القوانين القصدية intentional" واستكشاف تطبيقها في الإواليات الحوسبية وغيرها.

– تندرج دراسة PG1 مع الفروع الأخرى للعلم. "هب أن الرابطة الكيميائية يتم تلقيها كمبدأ أول، الأمر الذي لا يمكننا أن نشرحه بأكثر مما كان بمقدور نيوتن أن يشرح الجاذبية"، على حد قول الكيميائي البريطاني في القرن التاسع عشر جوزف بلاك Joseph Black، "ودعونا نؤجل تفسير قوانين الرابطة affinity، حتى نكون قد أسسنا رصيداً من المبادئ يماثل ما أسسه هو فيما يتعلق بقوانين الجاذبية" (ورد لدى Schofield 1970: 226). لقد تم تأجيل التوحد مع الفيزياء الأساسية حتى القرن العشرين، في

حين سارعت الكيمياء إلى تأسيس رصيد غني من المبـادئ، لم تُـبْنَ "انتصاراتـها على أساس اختزالوي بل بالأحرى تم تحقيقها بمعـزل عن علم الفيزياء الحديث النشوء" (Thackeray 1970: 279). ثمة منهج مماثل معقول بخصـوص التعمـيم السـيكولوجي PG1[1]. مـع ذلك فإن التعميم السيكولوجي PG2 يـوحي بطـرق قليلـة للإنطـلاق نحو تكوين رصيد من المذهب ومنه إلى التوحيد النهائي.

الواقع العقلي والجسدي

عندما أنجزت الكيمياء "رصيداً من المبادئ" كافياً، أمكـن للمـرء أن يختار أن يطلـق علـى منشـآتها صـفة فيزيـائي (مـع أن بعـض العلماء البارزين لم يفعل ذلك)؛ وأكثر من ذلك حتى بعد أن كانـت الفيزياء قد تغيرت بما يكفي للسماح بالتوحيد، منحرفة بشكل أكثر جذرية عـن المفـاهيم العامـة الفطريـة للفيزيـائي إلى درجـة "تحريـر نفسها" من "الصور الحدسية" و"التخلي كلياً عـن إمكانيـة تصـورها بصرياً visualizability" على حد تعبير هايزنبرغ (ورد لدى هـولتن Halton 1996). إن الدروس [المستخلصة] تنسـحب علـى المظـاهر العقلية للعالم، بما في ذلك التمثيلات العقليـة والسـيرورات العقليـة التي يمكن افتراضها عن طريق علم الطبيعة البشرية.

– لقد أثارت الثنائوية الديكارتية أسـئلة هامـة: فقـد تم اقـتراح مفهوماً آليـاً "للفيزيـائي" وتم تقـديم حجـج تثبـت أن هـذا المفهـوم نـاقص. وقـد اختفـت تلـك الأسـئلة مـع انهيـار النزعـة الآليويـة

mechanism — وإن لم تندثر المشاكل التي كانت سبباً في إثارتها و"عودنا أنفسنا على المفهوم العام المجرد للقوى، أو بالأحرى على مفهوم عام يتأرجح في غموض ملغوز بين التجريد والفهم الملموس" كما لخص فريدريش لانغه (Friedrich Lange (1925: 308، في دراسته الرصينة الكلاسيكية، "نقطة التحول" هذه في تاريخ المادية، التي تجرد المذهب من كثير من الأهمية. قبلئذٍ بقرن، اتخذ هيوم الموقف الأكثر تشاؤماً القائل بأن نيوتن بإظهاره "نقائص الفلسفة الآلية" قد أعاد الأسرار المطلقة [للطبيعة] إلى ذاك الغموض الذي كانت فيه وستبقى فيه إلى الأبد" (Hume 1841 vol.b. 341). إن المساعي للإمساك بمقوم الغموض الذي يدعى العقلي mental قادت البعض إلى استنتاج أن "تنظيم الجهاز العصبي ذاته "هو الذي يمارس بحرية في حالة صحية كل خواص" العقل (La mettrie، cited in Wellman 1992: 147).

لكن المشاكل التي أزعجت الديكارتيين لم يتم الانكباب عليها أبداً، ولم يتم تطوير أي "رصيد مهم من المبادئ". (للمناقشة، انظر تشومسكي (1966، 1986) والمنشورات اللاحقة، بما في ذلك تشومسكي (1995a)؛ حول جهود نيوتن مع المشكلة الأساسية، انظر: Dobbos and Jacob 1995)

وبغض النظر عن الإطار اللاهوتي، لم يوجد، منذ نيوتن، بديل معقول لافتراض جون لوك أن الله من الممكن أن يكون قد اختار أن "يضيف إلى المادة ملكة التفكير" تماماً مثلما "ألحق بالحركة أثاراً لا يمكننا بأي شكل من الأشكال أن نتصور حركة قادرة على إحداثها"

(1975: الكتاب IV، الفصل 3، الفقرة 6، ص 541). كما توسع جوزف بريستلي لاحقاً، مستخلصاً الاستنتاج الواضح للنقاش حول المادة المفكرة" (Yolton 1983: chl، VI، p.113)، فإننا نعتبر أن تلك الخواص "المصطلح على تسميتها عقلية هي "نتيجة لبنية عضوية كبنية الدماغ"، مضافة إلى خواص أخرى، لا حاجة لأي منها لأن تكون قابلة للفهم بالمعنى الذي كان ينشده العلم المبكر. ذلك في حين اتخذت المادية الأوروبية مساراً مختلفاً، فقد كان في صميمها "يكمن الزعم، القائم على قراءة معينة لفيزياء نيوتن، بأن الحركة متأصلة في المادة، وأن كل الطبيعة حية، وأن الروح والجسد شيء واحد، وكل شيء مادي، وكله ينتمي إلى هذا العالم برمته" (M. Jacob 1991: 200; Chomsky 1995a)

– مع التخلي عن مفهوم الفيزيائي the physical، الذي لم يوجد له بديل أبداً، لا يمكننا المضي أبعد من أن نسأل ما إذا كانت المظاهر العقلية للعالم، أو غيرها، "يمكن استيعابها ضمن إطار التغير الفيزيائي، كما يُتصور حالياً"، كوننا:

> "متأكدين تماماً من أنه سيكون ثمة تفسير فيزيائي للظواهر قيد البحث، إذا كان بالإمكان تفسيرها على الإطلاق، لسبب اصطلاحي غير ذي أهمية، وهو أن مفهوم "التفسير الفيزيائي" لن يمتد بدون شك إلى دمج كل ما تم اكتشافه في هذا الحقل، تماماً كما استطاع أن يضم كيانات وسيرورات عديدة أخرى كانت مضادة للفطرة في الأجيال السابقة" Chomsky 1968:98).

– تحاول دراسة اللغة أن تطور رصيداً من المبادئ وعينها على التوحيد النهائي. إن بناها ومبادئها يمكن أن "تسمى عقلية" بشكل

صحيح وأن يفترض أنها "النتيجة للبنية العضوية" ـ أما كيف ذلك فلا يزال بحاجة إلى اكتشاف. ثمة القليل لقوله حول هذه المظاهر التي تتعامل بها اللغةُ مع العالمَ.

ملكة اللغة The faculty of Language

ثمة مبرر للاعتقاد بأن البشر يمتلكون "عضواً متخصصاً مكرساً لاستعمال وتفسير اللغة، دعونا نسميه "ملكة اللغة" (FL). يمكننا أن نعتبر ملكة اللغة مشتركة بين الأنواع [البشرية]، تلبس حالات تختلف بطرق محدودة باختلاف التجربة. وتسهم هذه الحالات، المتفاعلة مع الأجهزة الأخرى (المعرفي، الحسي الحركي) في تحديد صوت ومعنى التعبيرات. إن دراسة هذه الموضوعات قد لا تسلط الضوء على المفاهيم الفطرية للصوت والمعنى، وتماثل المعنى، والتكرار، الخ؛ ولا يوجد شك واضح فيما إذا كانت [هذه المفاهيم الفطرية] تعد بمثابة نظريات للصوت والمعنى، كما في حال الحركة، والأنهار، والحياة، وهلم جرا.

توخياً للدقة، تأمل عبارات المثال (1):

(1) a- John was (too) clever to catch.

b- John was (too) clever to be caught.

c- John was (too) easy to catch.

d- John was (too) easy to be caught.

لو أحرزت ملكة اللغة لبيتر الحالة الملائمة، لعرف أنه بتضمين "too"، تكون (1a) و(1b) صحيحتين لو كان جون ذكياً للغاية بحيث لا يمكن للمرء أن يمسكه (جون) وأنه، بحذف "too" تكون (1a) "شاذة"، ما يتطلب نمطاً لا نموذجياً من التفسير (في حين تفسر (1b) بشكل مختلف). إنه يعرف أكثر أن (1c) صحيحة لو كان من السهل (جداً) الإمساك بجون (الذي لم يكن سهلاً)؛ وأنه مع أو بدون too تفشل القياسات الواضحة بالنسبة لـ (1b)، الشاذة أيضاً. إن دراسة FL تسعى إلى الإطاحة بهذه الملاحظات في ظل التعميمات الأوسع لمقولة "التعميم السيكولوجي" PG1 واكتشاف المبادئ والبنى التي تشكل الأساس لها. إن عناصر الحالات الجوانية هذه، رغم أنها لا تفسر سلوك بيتر، ينبغي أن تساهم في تفسير كيف يفكر ويتصرف، بقدر ما يوجد تفسير ممكن. ثمة نظرية ناجحة بشكل معقول تنكب على هذه الحقائق [بناء] على افتراض أن ملكة اللغة FL هي نظام حوسبي ذو مبادئ ثابتة إلى حد كبير. إننا، إذ نتبناها بشكل مؤقت، نعزو إلى بيتر الحالات والتمثيلات والسيرورات العقلية المقابلة (التي لا يمتلك أية إمكانية وصول واعي إليها)(3).

– لنفترض أن ملكة لغة بيتر في الحالة L. يمكننا عندئذٍ أن نقول إن بيتر يمتلك (يتكلم، يفهم،...) اللغة L. ويستعمل مصطلح "لغة LANGUAGE" بالمعنى التقني. لندعو L "لغة أنا" - "أنا" للايحاء بالجواني والفردي، وكذلك القصدي، بمعنى أن L هي إجراء محدد يولد تعبيرات كثيرة لا نهاية لها لـ L. أحد هذه التعبيرات عن لغة أنا لدى بيتر، لندعوه RAP، يدخل في تحديد كيف يمكن لبيتر أن

يفسر إعلان الراديو الوارد في البيان الوارد أعلاه. إن RAP يشبه التعبيرات التي تولدها عقول المذيع والمستمعين الآخرين، إذا كانوا يفهمون الإعلان كما يفهمه بيتر تقريباً. إن القسم من علم الطبيعة البشرية الذي يعنى بملكة اللغة، والحالات التي تلتبسها، والتعبيرات التي تولدها لغات الأنا هذه، يمكن أن ندعوه "لسانيات الأنا I- linguistics.

ويبدو مفهوم لغة الأنا أنه قريب كما لسانيات الأنا من مختلف المفاهيم الفطرية للغة. مع أنها ليست إشكالية بالنسبة للحياة العادية، فإنها معقدة وغامضة. أحد أوصاف الاستعمال الانكليزي العادي للغة، الجيد مثل أي استعمال أعرفه، هو أنه يعتبر اللغة "موضوعاً (قصدياً) لاعتقاد (مشترك)، يدرس بشكل استكشافي ملائم ضمن سوسيولوجيا (علم اجتماع) اللغة" (Pateman 1987: 73)؛ مع أن المفهوم ليس أكثر رجحاناً لأن يكون مفيداً لأجل سوسيولوجيا اللغة ظاهرياً مما هي عبارات الخبر S لأجل علوم الأرض: مثل مصطلح "المنطقة الساحلية coastal area". الذي يمتلك شيئاً يشبه منزلة "اللغة" سوى أنه أقل خضوعاً لشكل معين ومتغير، ومرتبط بالمصالح بشكل متعدد الأبعاد. تستعمل الأنظمة العادية غالباً كاختزالات shorthand، كما لدى مناقشة اللغة الصينية في مقابل اللغة الإيطالية (لأنه لا يوجد في أي منهما الكثير في طريقة الاعتقاد المشترك). نقول أيضاً إن بيتر يتكلم أو لا يتكلم نفس اللغة التي أتكلمها، أو يعيش في نفس المكان. لكن العالم لا

يتكون من هذه المناطق أو اللغات بأي معنى يهم علوم الأرض أو لسانيات الأنا.

حتى الكلام عن بيتر بوصفه يمتلك لغة الأنا L هو تبسيط شديد؛ إن حالة ملكة لغة أي شخص هي خليط ما من أنظمة ربما تقدم فهماً نظرياً أكثر مما تقدم الظواهر المعقدة الأخرى للعالم الطبيعي. يقال إن بيتر متعدد اللغات multilingual عندما تهمنا الاختلافات بين لغاته لسبب أو لآخر؛ من وجهة نظر أخرى، كل شخص هو متعدد اللغات بأشكال متعددة.

– في الاستعمال اللغوي الانكليزي، يدعى امتلاك اللغة "معرفة باللغة"، [وهي] حقيقة أدت إلى محاولات لفرض تصورات مختلفة لطبيعة المعرفة، وتحديد إلى أي كيان ينتمي بيتر في علاقة معرفية عندما يمتلك لغة L. لأسباب نوقشت في مكان آخر، أرى أن المسائل قد أسيء تصورها، مع أن مسائل أخرى تستحق المتابعة. لهذا، عندما يمتلك بيتر لغة L، فهو يعرف أشياء كثيرة: منها على سبيل المثال، أن "chase" تتساجع مع "Lace" وتستلزم "follow". إن توضيح ذلك كله هو عمل ذو معنى وهام وثمة توضيحات أخرى حول طبيعة X عموماً، والمضمون المعرفي للمعرفة الكيفية، وعلاقة المعرفة بالمقدرة، وهلم جرا. (لأجل بعض المناقشة، انظر Chomsky 1975; 1986).

– تتكون تعبيرات اللغة L من مفردات معجمية، لكل واحد منها مجموعة من الخواص؛ وتمثل كلمات الجملة S البسيطة. إننا نتكلم بشكل عام عن صوت ومعنى كلمة، والطريقة التي تُلفظ بها، وما الذي تعنيه. تُحيل أقرب إعادة سبك بلغة الأنا إلى خواص المفردة

المعجمية LI المتضمنة في الصوت والمعنى؛ سمتيها الصوتية والدلالية (اللتان ندعوهما صوت الأنا ومعنى الأنا على التوالي). تتكون LI من هاتين السمتين، بالتوازي مع السمات الشكلية (ليست واضحة بالضرورة) المتضمّنة في العمليات الحوسبية التي تشكّل البنى الكبرى، وقد تكون لها بنية داخلية أكثر تعقيداً. لا توجد طبقة تحتية substratum منفصلة، أي الكلمة، تتأصل فيها الخواص، وأي تغير في السمة ينتج مفردة معجمية LI مختلفة. بوضع القضايا الكثيرة المثيرة للاهتمام جانباً، دعونا نفترض أن اللغة تتضمن معجماً هو مجموعة من المفردات المعجمية، وأن المعجم يتم بلوغه عن طريق الإجراءات الحوسبية التي تشكل التعبيرات expressions[4].

وقد أثار معنى الكلمات قدراً كبيراً من الاهتمام والجدال؛ بل إن هناك من ينكر أي وجود لمعنى الأنا ("التمثيل الدلالي"، "المضمون الضيق") عموماً في الوقت الحالي. نادراً ما أثيرت أسئلة مماثلة حول صوت الأنا. فالحقول [المعرفية] الاختبارية تبدو لي أنها تدرسهما إلى حد كبير بالطريقة نفسها: على وجه الخصوص، تفترض أن كليهما ينطويان على سمات شمولية ثابتة تتألف منها المفردات المعجمية (ومن هنا فهي ليست كليانية holistic بشكل جذري). سأفترض بشكل تجريبي أن اشتراط صوت الأنا، ومعنى الأنا هو اشتراط مشروع. لأعود إلى مناقشة أسباب إنكار ذلك.

تحرز ملكة اللغة FL الحالة L تحت تأثير قدر ضئيل، إن وجد، من الإرشاد أو التدريب أو القرار، مروراً بمراحل مميزة واستقرار

جزئي في فترات ثابتة. لنقتبس عبارة هيوم، فإن تشغيل [إعمال] العقل يسير "عن طريق انتقال طبيعي، يسبق التأمل، ولا يمكن أن يمنعه التأمل" (Book Ipart III، 1948: 1970/ 13 section 147). في هذه الجوانب أيضاً تبدو ملكة اللغة FL مشابهة للأعضاء الجسدية الأخرى. يستمر المعجم في التغير بطرق معينة، ويكون عرضة لدرجة من الاختيار الواعي (كما هي الأقسام الأخرى من اللغة، بشكل هامشي). لهذا يحوي معجم لغتي كلمة "dour"، التي تتقافى مع الكلمة الأخيرة من الجملة s، "power". إن لغة بيتر قد تكون ذات كلمة مختلفة لها المعنى نفسه لكنها تتقافى مع "poor". قد أتخلى عن استعمالي اللغوي وأتبنى استعمال بيتر، أو أتبنى معنى مختلفاً نوعاً ما في حين أبقي صوت الأنا ثابتاً. بقرار واعٍ أو بدون وعي. هذه الأحداث تندرج ضمن ما يدعوها تايلر بورغ تلك الشبكة المزقة الهائلة من الاعتماد المتبادل interdependence، التي تؤسسها أنماط الاستئناس برأي الخبراء التي تعيدنا إلى أناس كانوا يسعون إلى التوافق مع الآخرين (1986b: 702، 703)، والتي تشكل، بالتوازي مع مختلف علاقات السلطة، والتراتبات الاجتماعية، والعوامل الشخصية، وغيرها الكثير، "معياراً لأجل الفهم اللغوي التقليدي"، كما يفسر بشكل عام. إن مسألة ما إذا كانت هذه العوامل "تقدم أيضاً معنى لغوياً، كما يقترح بورغ، تبدو لي مسألة مصطلحات، وليست حقيقة. كذلك، من غير الواضح لي كيف يمكن للمرء أن يتعلم حول هذا المركب المتنافر دون أن يحصر دراسته بالأجزاء التي تلائم استعلاماً أكثر دقة. بأي حال، إن لسانيات الأنا لا تعدو أن تقول

إنني، في الحالة قيد الدرس، قد أضفت مفردة جديدة إلى معجمي، ربما بالتخلي عن استعمال مفردة معجم أقدم منها؛ وبشكل عام أكثر، لا تسعى إلا إلى عزل بعض العوامل، الحاسمة كما يبدو، التي تدخل في التعقيد المرعب للشؤون البشرية.

ويعتقد غالباً أن "الأحكام العفوية للبشر، أو حدوسهم كما يسميها الفلاسفة"، تشكل مادة الموضوع لأجل اللسانيات ولأجل نظرية الإحالة التي تهدف إلى منهجة systemize "الحدوس النحوية" والحدوس الإحالية"[5]. ويمكن للمرء أن يعرّف المشاريع كما يشاء، لكن من الصعب أن نفهم مكمن الأهمية في منهجة فئة ما من الأحكام، أو بيانات [معطيات] مختارة أخرى.

لنأخذ دراسة الإحالة، بمظهريها: دراسة كيف يستعمل البشر اللغة للحديث عن الأشياء ودراسة أفكارهم حول هذه المسائل. فيما يتعلق بهذه المساعي، فإن الأحكام يمكن أن تقدم الدليل، الذي ربما يكون موثوقاً أو مفيداً، وربما لا. إن الاستقصاء الجدي لأي من الموضوعين يمكن أن يستكشف تشابهات عابرة للثقافات، أو اعتبارات فقر المنبهات، أو الخبرة النفسية اللغوية، أو مسوح الدماغ، أو أي شيء آخر يمكن استنباطه. فليس المسعى هو دراسة الأحكام، مع أننا يمكن أن نفكر بها بوصفها دراسات للحدوس بمعنى مختلف: أي دراسة لحقيقة ماهيتها فعلاً، [وهو] موضوع تفيد الأحكام الحدسية في أفضل الأحوال كمصدر للمعلومات له. (ينظر ستيتش (1996) إلى المسألة بشكل مختلف نوعاً ما).

- إن الأحكام الحدسية intuitive judgments هي بيانات data، ليس أكثر؛ قد تصبح دليلاً ضمن إطار نظرية تفسيرية. فالأحكام المنقولة بخصوص (1) قد استعملت كأدلة لدعم الاستنتاج القائل بأن تتمة الصفة هي شبه جملة بثلاث فئات خالية: الفاعل صفر، المشغّل الخالي 0، وأثر المشغّل 0، وهي مفاهيم تشرح ضمن النظرية وتبرز بشكل مستقل إذا كان لتفسير المثال (1) أي قوة. حول هذه المسائل لا يمتلك المتكلمون أية أحكام حدسية، أكثر مما يمتلكون من الأحكام حول العضلات الشادة tensors أو فكرة "اللايقين".

- يتعين دراسة الأحكام الحدسية القسرية بغض النظر عن التوقعات العادية بانتباه خاص. افترض أننا سألنا بيتر ما إذا كان المريخي يتكلم اللغة التي يتكلمها هو إذا كان يشترك معه بأحكامه المتعلقة بالمثال (1) والتعبيرات الأخرى لكنه يستعمل مبادئ مختلفة أو أن له كيمياء حيوية مختلفة؛ أو ما إذا كان بمقدور نسخة بيتر المبتدعة في هذه اللحظة أن تتحدث حول الأنهار أو الماء. تصبح الأحكام غامضة، تتلاشى نحو التفاهة عندما تُعريّ تجارب الفكر معتقدات الخلفية المفترضة سلفاً في الاستعمال العادي للغة، منتقلة إلى عوالم توأم الأرض ورجال المستنقعات swampmen والعوالم الغريبة الأخرى (انظر Stich 1983: 62; Fodor 1994: Appendix B)[6].

- افترض أننا اعتمدنا سيناريو "العوالم الغريبة" لاستقصاء ما يندرج تحت تصورات بيتر: هل إن مفهومه للماء Water يتضمن توأم الأرض XYZ على سبيل المثال؟ فهل كنا سنقول ـ أو على حق بأن نقول ـ أن الماء على توأم الأرض هو XYZ، خلافاً لهنا؟ أم أن

توأم الأرض ليس فيه ماء، بل فقط XYZ؟ أو أياً منهما، عندما تُغير شروط تجربة التفكير؟ أو ربما لا شيء مترابط منطقياً؟ إن الأجوبة يمكن أن تقدم الدليل إلى تفسير ما للحالات والممارسات اللغوية لبيتر وطرق التفكير، ويمكن أن تؤثر على السؤال الأولي حول المفاهيم إذا برز المفهوم العام بوصفه ذا أهمية في التفسير النظري. إن الأحكام، بمعزل عن غيرها، تخبرنا القليل حتى لو كانت ثابتة مع تغير شروط تجربة التفكير، وهو ما لايبدو أنه هو الحال.

- إن دراسة علم الدلالات الشعبي Folk semantics ينبغي ألا تسارع إلى افتراض أن ممارسات وأعراف تراث ثقافي ما هي دليل جيد إلى الفهم الفطري، سواء أكان فهم المستقصي أو أي شخص آخر[7]. في أضعف الإيمان، ينبغي عليها أن تحاول اكتشاف التناظرات مع ملكة اللغة FL ولغة الأنا في هذا المجال، سعياً إلى تحديد هوية المكون السليقي.

- افترض أن بيتر يقول إن "جو المدمن" قد صوّت لصالح الأجر الكافي للمعيشة LIVING WAGE لأنه قلق حول صحة طفله، فهل نحن مخوّلون بأن نستنتج أن بيتر يؤمن بأن العالم مكون من كيانات مثل: جوالمدمن وأجور المعيشة والصحة، ومن علاقات مثل "التصويت لصالح كذا" و(القلق) تربط فيما بين هذه الكيانات؟ هل سيكون الاستنتاج الموازي مشروعاً عندما يقول بيتر أن توم زار بوسطن؟ وإذا قال بيتر إن المصرف قد انتقل إلى الجهة المقابلة من الشارع بعد أن دمره حريق، فهل يعتقد أن بين الأشياء في العالم توجد بعض الأشياء التي يمكن تدميرها لكنها لا تزال موجودة في

الجوار، لذلك يمكن أن تنتقل ؟ يمكن طرح أسئلة مماثلة حول مصطلحات الجملة S. إن العلم الإثني يُعنى بالتصورات العلمية ـ الشعبية لهذه المسائل. يحاول علم الطبيعة البشرية اكتشاف ما يحدث فعلاً، وأن يحل ألغاز "تشريح العقل"، على حد تعبير هيوم، والطرق التي تكون بها بناه وسيروراته مشمولة ضمناً في الفكر والعقل. وهذان الاستعلامان مختلفان، مع أنهما يمكن أن يستعملا معطيات [بيانات] مماثلة (ربما أحكاماً حدسية مماثلة).

– بشكل مماثل، إن الاستعلامات في معنى المعنى أو معنى الصوت قد تكون معنية باكتشاف:

1) السمات الدلالية (معنى الأنا) للمفردتتين العجميتين معنى meaniag وصوت sound في شكل ما من الإنكليزية؟

2) الأفكار التي يحملها الناس حول المجال العام للمعنى والصوت؛ أو

3) أفضل نظرية في اللغة واستعمالها.

إن (1) هو سؤال حول بعض الكلمات الإنكليزية (ذات الخصوصية إلى حد ما)؟ يندرج (2) ضمن العلم الإثني؛ ويندرج (3) ضمن علم الطبيعة البشرية. إن (1) و(2) يطرحان مسائل خطيرة تماماً. هكذا، بمتابعة (1)، نجد أن الأسماء لا معنى لها: إن سؤال ماذا يعني "ستالين"؟ ليس له أي معنى إلا إذا كان المرء يسأل حول أصل الكلمة وتاريخها Etymology. نجد أيضاً أن عبارة "ماذا يعني التعبير E ؟" تشترك بالخواص مع عبارة "كم يزن جون؟" و"بم يشعر جون؟" بدلاً من "ماذا أكل جون" أو "قال" أو "قصد"، ما يوحي بأن ما تعنيه E يمكن أن تكون له صفة ظرفية [حالية]

adverbial ما. إن دراسة (1) و (2) تمتلك أهمية ضئيلة واضحة بالنسبة لـ (3). ينطبق الكثير من ذلك على دراسة الفكر والاعتقاد والتصورات، الخ.

تفسير المستويات البينية

ـ دعونا نعود إلى الأسئلة التي تقع ضمن (3) أعلاه: أي الأسئلة حول ملكة اللغة FL والحالات التي تتخذها، وكيف تدمج مع المكونات الأخرى للعقل "الدماغ في استعمال اللغة".

إحدى المسلمات النموذجية المعقولة، المكيّفة للأفكار التقليدية، هي أن التعبير (E) للغة (L) هي مزدوجة "phon، sem" حيث phon(E) هي المعلومة المتعلقة بصوت E و SEM(E) هي المعلومة المتعلقة بمعناه. إن PHON وSEM يتم تشكيلهما عن طريق العمليات الحوسبية الجارية على المفردات المعجمية. افترض أن E كلمة بمفردها. إن phon (E) يكون متميزاً بشكل عام عن صوت الأنا الخاص بها I-sound بفضل العمليات الفونولوجية، لكن SEM(E) يمكن أن تكون مطابقة لمعنى الأنا لـ E، اعتماداً على الحقائق حول التحليل المعجمي وما شابه. إن phon(E) و SEM(E) هما عنصران في "المستوى الصوتي" و"المستويات الدلالية" على التوالي أي إنهما تمثيلان صوتي ودلالي. للمصطلحين معنياهما التقنيان المعينان؛ إذ لا يوجد شيء "ممثَّل" بمفهوم النظريات التمثيلية للأفكار، على سبيل المثال[8]. هذان المستويان هما "السطح

البيني" interface بين ملكة اللغة FL والأنظمة الأخرى، اللذان يوفران المعلومات التي يستخدمها الجهاز الحسي ـ الحركي والأنظمة الأخرى لاستعمال اللغة.

ـ لقد أنجز قدر كبير من الأبحاث التي تلقي الضوء على هذه التمثيلات وكيفية بنائها عن طريق عمليات لغة الأنا .(بخصوص الجانب الدلالي، انظر alia inter، لارسون وسيفال (1995)، وبوستيجوفسكي (1995)، والمصادر المذكورة). هذه الأبحاث يمكن اعتبارها "تركيباً" syntax بالمعنى التقني؛ فهي تعالج خواص وتراتيب الموضوعات الرمزية. من جهة الصوت، يدعى العمل أحياناً باسم علم الصوتيات phonetics، لكن مع إدراك أن دراسة السمات الصوتية، والبنى المقطعية والعروضية، وهلم جرا، تساهم فقط في الاستقصاء العام لكيفية استعمال المعلومات المتاحة عن طريق لغة الأنا من قبل الأجهزة الحسية الحركية، وكيفية ارتباط التركيبة برمتها بالأحداث الخارجية. هذه هي موضوعات علم الصوتيات السمعية acoustic وعلم الصوتيات النطقية articulatary اللذان يتجاوزان تماماً لغة الأنا. إن الممارسة نفسها ستكون ملائمة، كما أظن، فيما يتعلق بالعمل الذي يدعى غالباً "علم دلالات اللغة الطبيعية" و"علم الدلالات المعجمية". إذ يمكن اعتباره جزءاً من التركيب، إنما الموجَّه إلى سطح بيني مختلف ومظاهر مختلفة من استعمال اللغة. بقدر ما تكون علاقة السجع التي تسري بين "chase" و"lace" قائمة على خواص صوت الأنا، وعلاقة الاستتباع (الاستلزام) التي تسري بين "chase" و"follow" قائمة

على خواص معنى الأنا، فإنهما تندرجان تحت "التركيب" بالمعنى التقليدي.

من الناحية الافتراضية، كان العمل في التركيب بالمعنى الأضيق مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بأسئلة التفسير الدلالي (والصوتي بالطبع) وتحرضه هذه الأسئلة. لقد أسيء فهم هذه الحقيقة غالباً لأن كثيراً من الباحثين اختاروا أن يسموا هذا العمل "تركيباً"، محتفظين بمصطلح "علم الدلالات" لأجل علاقات التعبيرات بأشياء غير لغوية extra- linguistic[9]. كان أقدم عمل في اللسانيات الحديثة (النحو التوليدي) يُعنى بمعاني تعبيرات كتلك الواردة في المثال (1) على الصفحة 263، معيداً إحياء بعض اهتمامات النحو التقليدي. يمكننا أن نميز بشكل مفيد بين مظاهر لغة الأنا الأكثر ارتباطاً بالصوت أو المعنى، لكن علم الصوتيات وعلم الدلالات بمعنى كيف تتعامل اللغة مع العالمَ، يقعان وراء ذلك.

وتبرز أسئلة أكثر خطورة حول الصورة العامة في كل نقطة، من العمارة المفترضة للعقل إلى تفاصيل التطبيق. إحدى فئات الأسئلة لها علاقة بموقع السطح البيني. فعلى الجانب الصوتي، يجب تحديد ما إذا كانت الأجهزة الحسية الحركية هي جزئياً خاصة باللغة language specific وبالتالي ضمن ملكة اللغة FL، لذلك فإن مستوى السطح البيني يجب أن يكون "وراء" ما يعتبر عادة تمثيلاً صوتياً؛ وثمة خلاف كبير حول المسألة. أما على الجانب الدلالي، فإن الأسئلة ترتبط بالعلاقات بين ملكة اللغة FL والأجهزة

المعرفية الأخرى. على المستويين، لا يمكن للمرء أن يقدم سوى تخمينات معقولة، تعتبر بمثابة مقاربة أولية.

– لقد درست أسئلة علاقة اللغة ـ العالم في السطح البيني الصوتي بشكل كثيف بتقانة معقدة، لكن المشاكل صعبة، ويبقى فهمها محدوداً. فالأسئلة حول استعمال التمثيلات الدلالية هي أكثر غموضاً بكثير. ولا يعرف سوى القليل حول الأنظمة خارج اللغة؛ إذ أن الكثير من الأدلة حولها يرتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة بحيث أنه من الصعب تحديد متى يؤثر ذلك على اللغة، ومتى يؤثر على الأنظمة الأخرى (بقدر ما تكون مختلفة). إضافة إلى ذلك، فإن الاستقصاء المباشر من النوع الممكن للأجهزة الحسية الحركية هو في مراحله الأولى. ومع ذلك، ثمة قدر هائل من المعطيات حول كيف تُستعمل التعبيرات وكيف تفهم في ظروف بعينها، بما فيه الكفاية بحيث أن علم دلالات اللغة الطبيعية هو أحد الحقول الأكثر حيوية لدراسة اللغة، مع أن مسائل استعمال اللغة لا تزال عصية على الفهم.

المفردات المعجمية Lexical items

لقد عَدَدت التعبير بمثابة مزدوجة (PHON، SEM) مكونة من مفردات معجمية LI، كل واحدة منها تشكل مركباً من الخواص، بما في ذلك صوت الأنا ومعنى الأنا. يُفسر PHON وSEM عن طريق الأنظمة الخارجية للغة. وفي هذه المستويات البينية قد لا توجد

وحدة ثانوية مقابلة للمفردة المعجمية LI. فيما يخص السطح البيني الصوتي، فإن القضية لا خلاف حولها. يفترض قدر لا بأس به من الأبحاث في التركيب / الدلالات أن المفردات المعجمية يمكن تحليلها وإعادة تركيبها في أثناء حوسبة SEM. على سبيل المثال، فإن مفردات مثل Who أو nobody يمكن أن تنتج تراكيب تتألف من "عامل ـ محدد ـ متحول" operator- restrictor – variable على المستوى SEM، شيئاً من قبيل: [(John saw X) (QUx، x a person)]. ويمكن أن توجد طرق أخرى تُعدل بها الخواص الدلالية للمفردات المعجمية أو يعاد توزيعها. مع ذلك، يمكننا فيما يتعلق بالكلمات البسيطة أن نفترض عموماً أن SEM = معنى الأنا (ربما تعبيراً عن جهلنا).

– فيما يتعلق بالمكون الدلالي للمفردات المعجمية، فإن البدائل لهذه الصورة شائعة. كما تميل بعض الدراسات الموجهة بشكل أكثر تجريبية والمناقشات المفاهيمية لطبيعة المعنى والإحالة إلى تناول هذه المسائل بطرق مختلفاً نوعاً ما. فالمناقشات المفاهيمية تعتبر بشكل نموذجي الكلمات والتعبيرات الأخرى بمثابة وحدات صوتية (أو إملائية)، أو منفصلة عن الصوت أو المعنى؛ وفقاً لذلك، فإن الكلمة يمكن ان تغير معناها، وربما حتى كلاً من صوتها ومعناها، وتظل الكلمة نفسها. ليس واضحاً أن هذه الاصطلاحات ذات معنى، إذ يتعين شرحها وتسويغها، على الأقل. إن أبسط طروحة هي أن التعبير E لا وجود له بمعزل عن خواصه في المستويين البينيين (E) PHON و (E) SEM (إن وجدا).

وربما يكون مساعداً مفيداً على الكشف، كما أظن، أن نتقصى التناظرات بين جانبي الصوت والمعنى إلى المدى الذي تصل إليه بشكل معقول. على وجه الخصوص، قد نسأل ما إذا كان بالإمكان إلقاء بعض الضوء على قضايا علم الدلالات بالنظر إلى التناظرات الصوتية، التي تبدو غالباً أقل إثارة للخلاف.

– تأمل اللغة العقلية "mentalese" بديلاً للصورة المرسومة حتى الآن. بدلاً من اعتبار المفردة المعجمية LI تتضمن صوت الأنا ومعنى الأنا، دعونا نفترض أن أحدهما مفقود، أو ربما كليهما. وفقاً لذلك، فإن SEM أو PHON أو كليهما يكون مفقوداً في المستويات البينية. إن تعلّم اللغة هو اكتساب القواعد التي تحول LI إلى نظام آخر للعقل، أي اللغة العقلية Mentalese، الذي يُفسر لينتج (مظهري) الصوت والمعنى. إذا كان صوت الأنا مفقوداً، عندئذٍ فإن LI تُحوّل إلى ص ـ اللغة العقلية P-Mentalese. إذا كان معنى الأنا مفقوداً عندئذٍ فإن LI تحول إلى د ـ اللغة العقلية S-Mentalese. أو كليهما. إن اللغة ذاتها ليس لها فونولوجيا (علم صوت) / (علم صوتيات)*، أو علم دلالات، أو أي منهما. هذه هي خواص اللغة العقلية mentalese.

على الجانب الصوتي، لا توجد هذه الافتراضات، على حد علمي. أما على الجانب الدلالي، فهي شائعة. ما هو مضمونها الجوهري، على أي من الجانبين؟ توخياً للدقة، تأمل، مرة

* نذكر هنا بالفرق بين علم الصوت phonology الذي هو أحد فروع الفيزياء وعلم الصوتيات phonetics الذي هو أحد فروع اللسانيات (المترجم).

أخـرى، الكلمـات المعطـاة في المثـال (2) أو كلمـات "persuade" (يقنع)، "force" (يجبر)، "remind" (يذكّر) بدلاً من x في المثال (3):

follow، lace، (2) chase

(3) John x-ed Mary to take her medicine.

[جون (أقنع/ أجبر/ ذكّر) ماري بأن تتناول دواءها]

افترض أن المفردات المعجمية المقابلة تفتقـر إلى صـوت الأنـا وأن بيتر قـد تعلـم كيـف يحولهـا إلى أقـاليم مـن p- Mentalese ذات تفسير صوتي. إن بيتر يعرف الكثير حول الأقاليم وتفسيراتها. فهـو يعـرف أن "chase" تتسـاجع مـع "lace"، وإن "persuade" و"force" تبـدأأن بتضـيق (زم) الشـفتين، وإن يكـن بطـريقتين مختلفـتين، أمـا "remind" لا تفعـل ذلـك،.. الخ. إن المقاربـات النموذجية تنسب هذه الخواص إلى ملكة اللغة، معتبرة إياها ممثّلـة في phon. يضـيف البـديل p- Mentalese طبقـة جديـدة مـن التعقيد، ويطرح مشاكل جديدة، على سبيل المثال: ما هو مكون الـ LI الذي يشير إلى إقليم P- Mentalese الـذي يُحـوّل إليـه، إن لم يكن صوت الأنا (كما يفترض تقليـدياً)؟ في أيـة مرحلـة في حوسـبة تعبير ما يحدث التحول إلى p- mentalese؟ لأسباب وجيهـة، لم تطرح هذه الأسئلة، ويمكننا أن نـهمل الموضوع.

– تأمل النظير الدلالي. نفترض الآن أن المفـردات المعجميـة LIs تمتلك فقط صوت أنا وخواص شكلية لا مفسّرة، وأن بيتر تعلّم كيف يحولها إلى أقاليم من S-Mentalese تمتلك تفسيراً دلالياً (للإطلاع

على عدة صور من هذه الآراء، انظر فودور 1990: الفصل 7، مراجعة لكتاب شيفر 1987). إن بيتر يعرف الكثير حول هذه الأقاليم/ التفسيرات أيضاً. لهذا، فلو طارد توم بيل عندئذ يكون توم قد لحق ببيل بقصد معين، وليس العكس؛ لو كان "persuade" = X في المثال (3)، لكانت جهود جون قد لاقت نجاحاً جزئياً (نوت ماري أن تأخذ دواءها، لكنها قد لا تكون فعلت ذلك)؛ إذا كانت X = "FORCE"، يكون جون قد نجح، لكن بشكل مختلف (ماري أخذت دواءها، مهما كانت نواياها)؛ وإذا كان "remind" = x، فمن الممكن أن يكون جون قد فشل (من الممكن أن ماري لم تكن تولي اهتماماً، لكنه لو نجح، عندئذ فإن ماري صارت تتذكر أن تأخذ دواءها. وتعزو المقاربات المبكرة هذه الخواص ذات الصلة إلى ملكة اللغة، معتبرة إياها تظهر في SEM بفضل العمليات على المفردات المعجمية والتراكيب التي تظهر فيها. إن البديل -S mentalese يضيف طبقة إضافية من التعقيد ويطرح مشاكل جديدة مشابهة لمشاكل النظير الصوتي. إذا اعتبرنا المفردات المعجمية لا تمتلك صوت أنا ولا معنى أنا، يبرز النوعان من المشاكل.

قد يضلل المرء بأمثلة بسيطة مثل "snow is white" [الثلج أبيض]" أو عبارات وصفية كـ: "the sky is dark" [السماء مظلمة]، الخ. لكن المشاكل تتضاعف مع أقل توسيع للنموذج الإرشادي [البارادايغم]. تأمل عبارة "the rain looks heavy" (المطر يبدو غزيراً)، "the wind feel strong" [الريح تعطي شعوراً بأنها قوية]...، و، بشكل عام، المثال (4):

(4) X (is, looks, tastes, sounds, feels, smells...) y.

حتى هذه الجمل البسيطة تطرح مشاكل الترجمة، حتى بالنسبة للغات البسيطة جداً. فكيف يتعين ترجمتها إلى اللغة العقلية الكلية؟ mentalese[10].

– إن الأجوبة على هذه الأسئلة قد تنتج تبعات تجريببية ضمن النظريات الأكثر تمفصلاً للغة واللغة العقلية mentalese، ربما كان ذلك يبرر التعقيد الإضافي، أما هذه الافتراضات، إذا أخذت لوحدها، فيمكن تقييمها بصعوبة.

– افترض أننا طورنا نظريات دلالية denotational للتفسير، إما لأجل التعبيرات الألسنية مباشرة أو لأجل ترجماتها في اللغة العقلية mentalese. فيما يتعلق بالصوت، فإن الافتراض النموذجي هو أنه لدى إنتاج أو إدراك التعبير E، الأنظمة الحسية الحركية تمتلك إمكانية الوصول إلى (E) PHON. بدلاً من ذلك، دعونا نفترض الآن أن المفردة المعجمية LI لا تمتلك صوت أنا بل تدل صوتياً P-denotes على شيء ما يكون خارجياً بالنسبة إلى الشخص؛ لندعوه القيمة الصوتية ponetic value (pv) للمفردة المعجمية LI (بالتبديل، القيمة الصوتية لصورتها الصوتية في اللغة العقلية الـ P-Mentalese)، وافترض أن بعض الحوسبة على القيم الصوتية pvs ينتج المكون اللغوي [الألسني] لصوت E، (E) PV. إن القيمة الصوتية PV يمكن أن تكون شيئاً ما حول الضجات noises المرتبطة بالألفاظ (أو الألفاظ المكنة) لـ E عندما تتغير الظروف (ربما أيضاً عندما يتغير المتكلمون، بقدر ما يكونون

متشابهين بشكل كافٍ)؛ أو ربما تكون تركيباً من حركات الجزيئات، يمكن تطوير الاقتراح باعتبار أن PV تتحدد بالعوامل الاجتماعية والفيزيائية من مختلف الأنواع. يمكن للمرء أن يمضي في تفسير الاتصال، الترجمة، الاكتساب، والسيرورات الأخرى بهذه الطرق. هكذا يكون بيتر قادراً على التواصل مع توم لأن القيمة الصوتية الـ PV نفسها تدل عليها تعبيراتهما التي يتقاسمانها (لكنهما يعرفانها جزئياً فقط).

ويترك هذا الافتراض كل المشاكل كما هي، مضيفاً طائفة من المشاكل الجديدة. لا نفهم شيئاً مما كنا نفهمه من قبل حول علاقة E بتمظهراتها الخارجية. أما تعليل التواصل والسيرورات الأخرى فلا قيمة له. إذ لا يوجد مبرر لافتراض أن مثل هذه القيم الصوتية PVS تبدو ذات أهمية في السيرورة التي يركب فيها عقل الشخص نسخة مما يقوله آخر. لهذه الأسباب، لا توجد أية مقترحات تتماشى مع هذه الخطوط.

تأمل النظير الدلالي[11]. نفترض الآن أن LI ليس لها "معنى أنا" بل إنها (أو صورتها الدلالية في "اللغة العقلية" S-mentalese، ربما تكون "فكرة" أو "مفهوم") تعين دلالياً "قيمة دلالية للمفردة المعجمية (LI) S-denotes a semantic value sv تكون خارجية بالنسبة إلى الشخص، أي تركيباً معيناً مما يتم التحدث حوله عندما تُنطق E (مع تغير المتكلمين والظروف)، ربما يتحدد جزئياً عن طريق الخواص الاجتماعية والفيزيائية. يمكن للمرء أن يقدم مرة أخرى وصفاً للتواصل والترجمة والاكتساب والسيرورات الأخرى بهذه الطرق. لهذا يكون بيتر قادراً على

التواصل مع جون لأن تعبيراتهما تعين دلالياً القيم الدلالية نفسها svs S-denote باللغة المشتركة التي يعرفانها جزئياً.

– لنأخذ الآن "القيم الدلالية" sv لأجل "جو المدمن"، و"أجور المعيشة"، و"المطاردة"، "الإقناع"، "النظر"، وكلمات في s، وهلم جرا (أو لأجل صورها الدلالية في "اللغة العقلية" s-mentalese) على أنها جو المدمن، أجور المعيشة، المطاردة، الإقناع، النظر، السماء، بوسطن، الأنهار، الأذى، الفقدان، القوة،.. في حين نضيف شيئاً ما حول "who"، "nobody" وهلم جرا. لتعليل الخواص الدلالية لـ E في " Chinese is the language of Beijing and Hong Kong" = E، نعتبر القيم الدلالية SVS هي الصينية، اللغة، بكين، الخ. سنسأل ما إذا كانت القيمة الدلالية للشيء الخارجي SV، ("مصير الأرض" The fate of the Earth) = "القيمة الدلالية" لـ (the Earth's Fate) في اللغة المشتركة (أو لأجل شخص ما يمكن أن يقال "إنه يعرفها" "to know it"). يمكننا الاستمرار في سبر الأحكام الحدسية، مهما كانت تعني ضمن هذه المجموعة شبه التقنية.

– حتى الآن، على الأقل، لم يُطورُ المشروع الأصلي، بل أعيدت صياغته فحسب مع كثير من المشاكل الجديدة. لم نتعلم شيئاً أكثر حول كيفية استعمال وتفسير التعبيرات. باعتماد اقتراحاً أو آخر، يبقى علينا أن نفسر خواص التعبيرات: عبارات الأمثلة 1 ـ 4، على سبيل المثال. إن الحالتين الصوتية والدلالية ليستا سواء، بالطبع؛ إنهما متشابهتان فحسب، ولكن بطرق قد تكون منّورة.

– افترض أننا اتبعنا منهجاً مختلفاً، بالقول إن خواص السجع، وأنماط الاستدلال، الخ لا تتصل باللغة (أو صورها في اللغة العقلية mentalese)، بل لها علاقة بمعتقداتنا حول "القيم" values: أي الموضوعات الخارجية، مهما تكن. على الجانب الصوتي، نقول إن اعتقاد بيتر أن القيمة الصوتية لـ (chase) تسجع مع القيمة الصوتية (lace) pv يمتلك منزلة مختلفة عن معتقداته الأخرى حول "القيم الصوتية" pvs (مثل قيم نسبة تواترها). بالشكل نفسه فيما يتعلق بالخواص الأخرى. هذا الاقتراح لم يُفكر فيه أبداً، ويمكننا مرة أخرى أن نهمل المسألة.

وربما يكون النظير لهذا على الجانب الدلالي الاعتقاد بأن خواص الأمثلة (1) ـ (4) تعلل بلغة معتقدات بيتر حول العالم؛ وربما في ضوء قوة الاعتقاد، بالمصطلحات الكواينية. هذه المقترحات مألوفة، وحتى قريبة من المعتقدات التقليدية. لتقييمها، علينا أن نكتشف المزيد حول كيف تثبت المعتقدات بهذه الطرق العالية التعقيد والموحدة بشكل صارخ ضمن وفيما بين اللغات، من بين المسائل الأخرى. إلى أن يتم الانكباب عليها، فإن المقترحات من الناحية الافتراضية لا أساس لها.

– في الوقت الحاضر، يبدو من المعقول أن نستنتج أن الوضع هو إلى حد كبير كما هو على الجانب الصوتي: أي أن الخواص الدلالية للكلمات والتراكيب تتحدد بالطرق التي تُكوَّن بها، بمساهمة فطرية غنية. والمشكلة هي اكتشاف خواص صوت الأنا ومعنى الأنا (سواء من أجل المفردات المعجمية LIS، أو نظائرها الـ د ـ اللغة العقلية S-Mentalese)، الطرق التي يمكن أن تُدمج

بها، والحوسبات التي تنتج تمثيلات بينية وكيف تفسر هذه عن طريق الأنظمة الخارجية للغة. وهناك، في المجالين، عدد كبير من المشكلات التي لم تحل، لكن قدراً كبيراً من التقدم الجوهري قد تحقق ذلك

- تأمل مقاربة أخرى مختلفة: يختزل فيها صوت ومعنى عبارة معينة جزئياً إلى علاقات من النوع الذي نوقش فيما يتعلق بالمثالين (2) و(3). من أجل Ll، يكون لدينا نمط (محدود) من العلاقات بالتعبيرات الأخرى، تتمثل بالعلاقات الصوتية Rp والعلاقات الدلاليةRs، وقد تضاف إليها خواص إحالية — P ودلالية — S -P S-denotational and. ويصح الشيء نفسه، فيما يتعلق بالتعبيرات الأكثر تعقيداً. فيما يتعلق بـ "chase"، تتألف العلاقات الصوتية Rp من الخواص: تتساجع مع "lase"، تبدأ بالطريقة نفسها كما "child"، تمتلك العدد نفسه من المقاطع كما في "pin" الخ. وRs تتألف من الارتباطات بـ "follow"، "intend".. الخ. والأدوار المفاهيمية والاستدلالية الأخرى.

- على الجانب الصوتي، تبدو النقلة مرة أخرى بلا جدوى. إن مقاربة تأليف السمات feature –composition النموذجية كافية للتعبير عن العلاقات الصوتية Rp بالتوازي مع الظاهرات الأخرى: مثل علاقة مكونات "chase" بالإيماءات والأصوات النطقية، خواصها التوزيعية (على سبيل المثال تفاعلات الأحرف الساكنة ـ أحرف العلة)، وهلم جرا. علاوة على ذلك، فإن العلاقات الصوتية لـ (chase) Rp تشترك بالخواص مع (w) Rp لأجل كلمات

أخرى w. يمكن التعبير عن حقائق كثيرة من هذا النوع تحت الرأي النموذجي (المتعارف عليه) وهو أن المفردة المعجمية مكوَّنة من خواصها، التي تدخل في تحديد علاقاتها الصوتية بالتعبيرات الأخرى وغيرها الكثير. لهذه الأسباب فإن المقترح لم يفكر فيه أبداً[12].

– على الجانب الدلالي، مرة أخرى، توجد مثل هذه المقترحات، وتبرز أسئلة مشابهة. هكذا فإن (persuade) RS تشترك بالخواص مع (raise) RS: أي خواص "سببية" "causative"، التي تمت دراستها بشكل موسع في لغات عديدة، مع نتائج هامة. إن نسخة معقولة من LI ينبغي أن تعبر عن هذه الحقائق. ينبغي أيضاً أن تلقي الضوء على الخواص التوزيعية التي لا يُعبر عنها (بشكل معقول) في ضوء الأدوار الاستدلالية والمفاهيمية؛ على سبيل المثال، حقيقة أن "deny"، "doubt"، "refuse" وهلم جرا ترد مع مفردات الحدية ("any"، "ever".. الخ) بطرق لا ترد بها "assert"، "believe"، "accept"، وفي هذه الجوانب تكون الأولى مماثلة لـ "not"، "few" (عكس "many"). تبحث المقاربات القياسية عن خواص معنى الأنا SEM التي يمكن في ضوئها التعبير عن طائفة واسعة من الحقائق وتفسيرها، بما في ذلك الاستدلالات وخواصها المشتركة والمتباينة.

– إن التفسيرين الدلالي والصوتي، المتصورين على هذا النحو، متشابهان إلى حد ما. فالعبارة E تتألف من تمثيلين بينيين (E) PHON و(E) SEM، محوسبين من مفردات معجمية. يوفر (E) PHON المعلومات التي تستخدمها الأجهزة الحسية الحركية لأجل

النطـق والإدراك الحسـي، والمعلومـات الـتي تسـتخدمها الأجهـزة المفاهيمية ـ القصدية لربط العالم بطرق مختلفة عندما يفكر مسـتعمل اللغة ويتحدث في ضوء المنظورات التي تتيحها موارد العقل.

ويمكن للاستعمال الإحالي referential للغـة أن ينكـب بطـرق شـتى علـى العناصـر المكونـة لمعنـى الأنـا وSEM. فيـثير التفـرد individuation عموماً بعض العوامـل مثـل التصـميم، والاسـتعمال المتعمّد والمألوف والدور المؤسسي، الخ. إذا كان شـيء مـا يبـدو لـي كأنه كتاب لكنني أعلم أنه مصمم لكي يكون مثقلة ورق، ويسـتعمل بشكل مميز بتلك الطريقة، فيمكنني أن أصل إلى القبول بأنه مثقلـة ورق، وليس كتاباً. افترض أن المكتبة لديها نسختان من رواية ميـد لمارتش Middlemarch، فيأخذ بيتر نسخة وتوم النسخة الأخرى. إذا تم التركيز على المكون المادي للوحدة المعجمية LI، فيكونـان قـد اسـتعارا كتـابين مخـتلفين؛ أمـا إذا ركزنـا علـى المكـون المجـرد للكتاب، فيكونان قد استعارا الكتاب نفسه. يمكننا أن نركز عليهما معـاً في الوقـت نفسـه، باسـتعمال كلمـات ذات صـفة مجـردة // ملموسة، كما في العبارات:

"the book that he is planning will weigh at least five pounds if he ever writes it"

[الكتاب الذي يخطط له سيزن خمس باونـدات علـى الأقـل إذا كتبه] أو

"his book is in every store in the country" [كتابـه في كل متجر في البلد].

بشكل مماثل، يمكننا أن نطلي الباب باللون الأبيض ونمشي من خلاله. أو تأمل كلمة "bank" (التي تعني "مصرف المدخرات" و"ضفة النهر"). إذ يمكننا أن نقول:

1- the bank burned down and then it moved across the street;

which had raised the interest ،2-the bank was destroyed by fire;،rate

3 –the bank lowered the interest rate to keep from being blown up.

1ـ "احترق المصرف ثم انتقل إلى مكان آخر في الجانب المقابل من الشارع".

2 ـ "دمر الحريق المصرف الذي رفع سعر الفائدة".

3 ـ "خفض المصرف سعر الفائدة خوفاً من أن يُفجّر".

– يكون الاعتماد الإحالي مصاناً عبر الخط الفاصل مجرد/ ملموس.

لهذا فإن (1) تعني أن البناء احترق ومن ثم انتقلت المؤسسة، وبشكل مماثل بالنسبة لـ (2) و(3). لكننا لا نستطيع القول إن:

4- the bank burned down and then it eroded;

which had raised the interest ،Or 5- the bank was eroding fast; or،rate

6- the bank raised the interest rate without eroding.

4 ـ احترق المصرف ثم تآكل؛

5 ـ كان المصرف الذي رفع سعر الفائدة يتآكل بسرعة ؛ أو
6 ـ رفع المصرف الفائدة من غير أن يتآكل.

إن الجملة (4) لا تعني أن المصرف قد احترق ومن ثم تآكلت ضفتا النهر. تكون الحقائق واضحة غالباً، لكنها ليست عديمة الأهمية. هكذا، فإن العناصر المعتمدة إحالياً حتى المحددة على النحو الأضيق، تراعي بعض التمييزات لكنها تتجاهل تمييزات أخرى (الضمائر، الأسماء الموصولة، الفئة الفارغة" وهي الفاعل لـ "being blown up" و"eroding"). في حالة "bank"، فإن الاستنتاج الطبيعي هو أنه توجد مفرداتان معجميتان LI يصدف أن تشتركا بنفس صوت الأنا (homonymy)، وأن إحداهما، "bank"، متعددة الدلالات، مثل "book": إنها تقدم طريقة للنظر إلى العالم تجمع الخواص المجردة والملموسة، وتسمح بالاعتماد الإحالي من خلال هذه المنظورات. (حول بعض المشاكل التقليدية، الغامضة غالباً والمعقدة، انظر ليونز 1977: الفقرة 4. 13). هذه الخواص يمكن تقصيها بطرق عديدة: اكتساب اللغة، العمومية بين اللغات، المفردات المتشابهة ضمن اللغة، الأشكال المبتكرة، والتعدية Zeugma، وهلم جرا. فإذا بقيت التشابهات والاختلافات المنهجية، تكون الاستنتاجات حول البنية المعجمية مؤيّدة. لا يوجد مبرر apriori لتوقع أن اللغة ستكون لها هذه الخواص. أما اللغة المريخية فيمكن أن تكون مختلفة.

ليس للسؤال، "إلام تحيل الكلمة x؟" معنى واضح، سواءً طرح عن بيتر، أو (بشكل أكثر غموضاً) عن "لغة مشتركة ما". على

العموم، إن الكلمة، حتى من أبسط نوع، لا تميز كياناً للعالم، أو لـ "فضاء اعتقادنا" ـ الأمر الذي ليس معناه أن ننكر، بالطبع، أنه توجد مصارف / ضفاف banks، أو أننا نتحدث حول شيء ما (حتى بعض الشيء) إذا كنا نناقش مصير الأرض The fate of the Earth (أو قدر الأرض) ونستنتج أنه قاتم؛ سوى أنه ينبغي علينا ألا نتوصل إلى استنتاجات غير مبررة من الاستعمال اللغوي الشائع.

تمتد الملاحظات إلى أبسط العناصر المحيلة والمعتمدة إحالياً (كالضمائر، وsame، "build" re، الخ)، أو إلى أسماء الأعلام التي تمتلك خواص دلالية ـ مفاهيمية غنية مشتقة في جزء كبير منها من طبيعتنا، مع تفصيلات مستمدة من الخبرة. فيسمى شيء ما بأنه شخص أو نهر أو مدينة، مع تعقيد الفهم الذي يوازي هذه المقولات. وليس للغة أية أسماء أعلام ملائمة بشكل منطقي، مجردة من هذه الخواص؛ يجب على المرء أن يكون حذراً مما دعاه بيتر ستروسون "خرافة أسماء الأعلام المنطقية" (strawson 1952 : 216) في اللغة الطبيعية، والخرافات المتصلة بها فيما يتعلق بأسماء الإشارة indexicals والضمائر. يمكننا أن نفكر بالتسمية كنوع من "صنع العالم" world – making، في شيء ما يشبه مفهوم نلسون غودمان (1978)، لكن العوالم التي نصنعها تكون غنية ومعقدة بسبب طبيعتنا المعقدة المشتركة. حتى الجهود الواعية للعلوم والفنون تسترشد بهذه الخواص ـ لحسن الحظ، أو لما كان بمقدورها أن تنجز شيئاً. (من أجل المزيد من المناقشة، انظر تشومسكي 1975; 1995a).

- إن مقاربة التفسير الدلالي بمثل هذه المصطلحات هي ذات نكهة تقليدية. فقد كان علم النفس العقلاني في القرن السابع عشر يعتقد أن "القدرات المعرفية" الفطرية التي تمكن البشر من "فهم أو الحكم على ما تتلقاه الحواس"، والتي هي وحدها التي تمنح العقل "فرصة لممارسة نشاطه" لبناء "أفكار قابلة للفهم وتصورات للأشياء من داخل ذاته" بوصفها "القواعد" و"الأنماط" و"النماذج" و"التوقعات" التي تؤمن علاقات السبب والنتيجة، الكل والجزء، التناظر والتناسب، الاستعمال المعهود (لأجل كل "الأشياء الاصطناعية" أو "الأشياء الطبيعية المركبة")، ووحدة الموضوعات وخواص الغشتالت Gestalt الأخرى، وهي بشكل عام الفكرة الشاملة للكل"[13]. كان هوبز Hobbes يعتقد أن "من الجلي أن "الأسماء هي علامات ليس (على الأشياء) بل علامات على تأملاتنا، أفكارنا"، "تصوراتنا" (1889: 16f). إن المفهوم التقني علامة "س")، الذي ينطبق على الكلمات، من الأفضل فهمه بهذه الطريقة. هذه "التصورات" يمكن أن تكون معقدة، كما نرى من أسلوبنا في التفرد individuation في ضوء التركيب، الشكل، المنشأ، والخواص الأخرى. فالإنسان [سيكون دوماً هو نفسه، تنطلق كل أفعاله وأفكاره من نفس نقطة بداية الحركة، أي تلك التي كانت موجودة عند خلقه؛ وسيكون النهر نفسه الذي يتدفق من منبعٍ واحد والمنبع نفسه، سواء كان الماء نفسه، أو ماء آخر، أو شيئاً ما آخر غير الماء، يتدفق من هناك [كما في المثال الكلاسيكي

لسفينة ثيسيوس يضيف هوبز]؛ وأن المدينة نفسها، التي تنبع أفعالها بشكل مستمر من المؤسسة نفسها] (p.16f).

كان الاستعلام في الهوية الشخصية من لوك locke إلى هيوم Hume، معنياً بالوحدة العضوية"، المفهوم العام الأوسع. فالشجرة أو الحيوان "تختلف / يختلف عن كتلة من المادة"، كما لاحظ لوك، بفضل "انتظام الأجزاء في جسم واحد متماسك، يتقاسم حياة مشتركة واحدة "ذات" تنظيم مستمر" ينبع من الداخل، خلافاً للأشياء الصنعية. إن هوية البلوطة تكمن في "تجانس الأجزاء" الذي يصب في "غاية مشتركة واحدة" هي غاية "دعم وتغذية وتكاثر "النوع، كما أضاف شافتسبري Shaftsburry. لقد اتفق هيوم مع هذا إلى حد كبير، مع أنه يعتبر "الهوية، التي ننسبها إلى عقل "البشر" و"النوع الشبيه" like kind الذي ننسبه إلى النباتات والكائنات الحيوانية" على أنهما [الهوية والنوع الشبيه] "ليسا سوى [وحدة تخيلية واحدة"، أوجدتها المخيلة، [و] ليس "الطبيعة الخاصة التي تنتمي إلى هذا الشكل" كما يقول شافتسبري. لقد أثبت جون يولتون John Yolton بقوة أن لب نظرية الأفكار من ديكارت إلى ريد Reid كان يعتبر أن الأفكار "ليست أشياء، بل طرقاً للمعرفة"، و"ليست علامات على البنية الجسمية corpuscular، بل علامات في ضوء ما نعرف عنه أو ما نحن على إطلاع عليه بالخبرة"، بحيث أن "العالم كما هو معروف هو عالم الأفكار، عالم المضمون المهم significatory (Yolton 1984: 213ff، الاستشهادات الأخرى هنا وأدناه مأخوذة عن ميجوسكوفيتش 1974: ص ص 97- 113).

– يكتسب استنتاج هيوم قوة أكبر عندما نمعن النظر إلى تعقيد المفاهيم. إن "[الشخص] مصطلح جدلي"، علّق لوك "ينتحل الأفعال وميزاتها، ولذلك [فهو] ينتمي فقط إلى الفاعلين الأذكياء المتمكنين من القانون، والسعادة والتعاسة"، بالإضافة إلى إمكانية محاسبتهم على أفعالهم، وغيرها الكثير. إن تفرد الأنهار والمدن ينطوي على عوامل كثيرة خارج الأصل. فتدفق النهر يمكن إعكاسه، أو يمكن حرفه إلى مجرى مختلف أو حتى تجزئته إلى جداول يمكن أن تتلاقى فيما بعد، أو تتغير بكل أصناف الطرق الأخرى، ومع ذلك يبقى النهر نفسه، في ظل ظروف ملائمة. تنقل الصحافة بشكل واضح أن العلماء "اكتشفوا منبع الأمازون" في مكان غير متوقع، المنبع الوحيد، مع أنه من المعتاد أن "تبدأ الأنهار على شكل عدد كبير من الأنهار الصغيرة". يلاحظ لوك أن البلوطة تظل نفسها عندما يقطع غصن ما. افترض أن البلوطة قد نقلت إلى مكان آخر واستبدلت في موقعها الأصلي بالغصن، الذي ينمو متحولاً إلى نسخة عن الشجرة في حين تذبل البلوطة المنقولة وتيبس ـ لكن تبقى هي الشجرة الأصلية، وفقاً للهوية الخيالية التي أنشأتها القدرات المعرفية الفطرية. وليس هذا سوى تناول أولي لمظاهر الأمر. بالتعمق أكثر، نجد أنه هذه القدرات تطرح إطاراً غنياً للتفسير والفهم، نتوقع أن يتأثر بالخبرة تأثراً هامشياً فقط، كما في حالة البنى العضوية المعقدة الأخرى.

والخطوة قصيرة بين هذه الأفكار حول أنماط المعرفة المولدة داخلياً التي تكيفها الخبرة والتحليل في ضوء السمات الدلالية، أو ما يدعوه

يوليوس مورافشيك الـ "عوامل (التوليدية)" للبنية المعجمية[14]. (Moravcsik 1975; 1990). بإعادة صياغة المشروع بهذه المصطلحات، نحاول أن نكشف تشريح العقل، بما في ذلك ملكة اللغة FL والأنظمة Systems في السطح البيني، واكتشاف كيف تُشكل الخبرة والتفاعل الاجتماعي في ضوء هذه الموارد الداخلية.

بعض مسائل المشروعية

يعتقد عموماً أن هذه النسخة من علم الطبيعة البشرية معقدة بشكل غير ضروري، أو موجهة توجيهاً خاطئاً في المبدأ. فمن ناحية أولى، إن الدليل المقدَّم لأجل مبادئ FL "يُفسر بشكل أبسط بكثير عن طريق الفرضية" التي تقول أن FL هي في الواقع "سليقية في الأدمغة البشرية "لكننا بحاجة فقط للقول إنه ثمة "مستوى عتادي hardware من الشرح في ضوء بنية الجهاز" و"مستوى وظيفي من الشرح يصف أي أنوع من اللغات يمكن اكتسابها Searle 1992)، 244)، أو، ينبغي علينا أن نستغني عن ملكة اللغة FL دفعة واحدة لصالح "الفرضية المنافسة" القائلة بأن البنى السليقية للدماغ" تكون وظيفتها الأصلية والأساسية مع ذلك هي تنظيم الخبرة الإدراكية الحسية، أما تنظيم المقولات الألسنية فهي الوظيفة الإضافية المكتسبة التي لم يلائمها التطور إلا بشكل عرضي"، وهو يؤدي إلى التغلب على مشكلة تعليل نشوء اللغات من بين "المزايا الأخرى" (Paul Church land)[15].

– مما لا خلاف حوله أن ثمة "مستوى عتادي"، إذا كنا نعني به أن الذرات والخلايا وهلم جرا متضمنة بشكل مفترض سلفاً في بنية الجهاز" FL الذي هو "سليقي في الأدمغة البشرية". في الوقت الحاضر، يمكننا فقط أن نتبع نصيحة جوزف بلاك الجيدة ونبني رصيداً من المبادئ "body of doctrine" حول FL؛ فمع التقدم نحو التوحيد لا يمكن أن يكون ثمة المزيد لقوله ـ ربما، كما في حالة الكيمياء، أن الافتراضات الراهنة حول "العتاد" قد أخطيء تصورها. إن رصيد المبادئ "body of doctrine" يُعنى "بأي أنواع من اللغات يمكن اكتسابها" وما هي خواصها، تفاعلاتها مع الأنظمة الأخرى، طريقة اكتسابها واستعمالها، مشاكل التوحيد، وأي شيء آخر يكون ملائماً للاستقصاء المفيد. باستنباط هذا، يبدو أننا نقاد رجوعاً إلى "قواعد اللاوعي العميق" التي يعتبرها سيرل من الممكن الاستغناء عنها. إن سيرل على حق في أنه لا توجد أية سلطة تنبؤية أو شرحية.. بالقول إنه يوجد [بالإضافة إلى المستوى العتادي والوظيفي] مستوى من قواعد اللاوعي العميق" (5- 244: 1992) لملكة اللغة FL. لكن ما تم اقتراحه مختلف تماماً: إنه بنى ومبادئ محددة لـ FL، تثمر على الأقل تفسيراً جزئياً لخواص اللغة. بشكل مماثل، تكون الكيمياء غير ذات شأن إذا قالت فقط إنه توجد خواص بنيوية عميقة للمادة، أي لا شيء سوى رصيد من المبادئ body of doctrine يتم تطويرها حول ذلك. في أفضل الأحوال، يذكرنا السجال إلى حد ما بالخلاف الماضي حول ما إذا كانت الخواص الكيميائية، البنية الجزيئية، الخ يتعين أن

تنسب إلى المادة أم تعد ببساطة بمثابة أجهزة حسابية؛ كل ذلك لا فائدة منه، كما هو متفق عليه إلى حد كبير لدى استعادة الماضي، ويندرج ذلك كله تحت ملاحظة بورغ الذكية أن مسائل الأونطولوجيا وما شابه هي "تالية ابستمولوجياً للأسئلة حول نجاح الممارسات التفسيرية والوصفية"[16]. (Burge 1986a: 18; see also Chomsky 1986: 25of.1995a; note)

وربما أصبح اقتراح بول تشرتشلند "فرضية منافسة" إذا تم ايضاحه بما يكفي لقول شيئاً ما حول أكثر خواص اللغة أولية (اللانهائية المتفردة discrete infinity، تبعية البنية structure dependence، الخ) وصولاً إلى خواص المثال (1) وغيرها من الأمثلة الشبيهة[17]. سيكون من الضروري أيضاً أن نعالج حقيقة أننا لا نجد، كما هو متوقع ظاهرياً، تساوقاً في التطور المعرفي والبنى المحققة عبر الحقول [المعرفية]، وتشابهات استعمال اللغة بين أنواع ذات أنماط متماثلة من تنظيم الخبرة الإدراكية الحسية وعدم الانفصال الوظيفي تحت حالات العجز، وتجانس بنية الدماغ، وهلم جرا.

– ثمة تحدٍ أكثر إثارة للتأمل يقدمه هيلاري بوتنام في نقده لـ "النزعة العقلية Mentalism لمعهد ميتشيفان للتكنولوجيا" MIT، وهي جزئياً وجهة النظر التي رسمت خطوطها إلى الآن (التي عزاها إلى فودور وإليّ، putntam 1986a; 1986b)[18]. وهدفه هو "تحطيم نظرية التمثيلات الدلالية السليقية"، دعونا نسميها TISR، التي تجزم بأن:

(5) ـ أ ـ "ثمة "تمثيلات دلالية" في العقل / الدماغ"

ب ـ "هذه [التمثيلات] سليقية وكلية".

حـ "كل مفاهيمنا قابلة للتفكيك إلى هذه التمثيلات الدلالية" (Putnam 1986b: 18).

ترى TISR أيضاً أن العقل "مشفر للرسائل السرية" Cryptographer: فالعقل يفكر أفكاره باللغة العقلية mentalese، يشفرها باللغة الطبيعية المحلية، ثم يبثها "إلى مستمع" يمتلك مشفراً للرسائل في رأسه أيضاً، بالطبع، يباشر من ثم إلى فك شيفرة "الرسالة" "message" (Putnam 1986b: 20) باللغة العقلية lingua mentis.

وتتجاوز TISR لسانيات الأنا تماماً. إن كون التمثيلات التي تولدها لغة الأنا تتحول إلى لغة عقلية ligua mentis إنما هو فرضية مستقلة. إن العبارة (5c) أيضاً تتجاوز دراسة اللغة، التي لها علاقة بملكة اللغة FL، وليس بالأنظمة المعرفية الأخرى، التي يمكن أن تكون (وافترض أنها) مختلفة في طبيعتها. إن العبارة (5B) تتطلب الإيضاح. وحدها العناصر التي تكوّن التمثيلات هي التي تعتبر سليقية (وبالتالي كلية، متاحة عموماً مع أنها غير محققة). لذلك فإن مكونات ونمط تركيب التمثيل الصوتي هي سليقية بشكل مفترض، لكن التمثيلات ليست كذلك، إنها تختلف في الانكليزية عنها في اليابانية، وحتى بين اللغات القريبة منها. يصح الشيء نفسه على ما ينطوي عليه تثبيت المعنى ـ سواءً أكان "التمثيلات الدلالية"، أو أي شيء ما آخر. فتختلف اللغات بهذا الخصوص،

وهذه من المشاكل العديدة التي تؤرق المترجمين. لا يوجد خلاف حول ذلك، ولا، بشكل مفترض، حول الطروحة القائلة بأن العناصر مهما كانت مشمولة بتثبيت المعنى هي سليقية. من الصعب أن نتخيل بديلاً.

ثمة أسس تجريبية للاعتقاد بأن التنوع بالنسبة للمظاهر الدلالية للغة هو أقل منه مما هو بالنسبة للمظاهر الصوتية. فالمعطيات الصوتية متاحة للطفل بوفرة، والفجوة بين الهدف المحرَز والمعطيات المتاحة تبدو أضيق مما هي بالنسبة للمنظومات الفرعية الدلالية.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن التنوع يكون محتملاً بسهولة أكبر. يتعين على دراسة المعنى أن تواجه حقيقة أن التعرض المحدود جداً في الظروف العالية الغموض يكفي بالنسبة للأطفال ليتوصلوا إلى فهم معاني الكلمات والتعبيرات الأخرى ذات الرهافة الملحوظة، الأمر الذي يتجاوز كثيراً أي شيء مما بدأت القواميس والأنحاء (ج نحو) الأكثر شمولاً بتبيينه، وهي معان ذات قدر كبير من الدقة والتعقيد لم تفهم إلا فهماً أولياً جداً. لهذه الأسباب، فإن الاستعلام التجريبي سعى لاكتشاف الخواص الدلالية التي تكون سليقية وكلية.

– هذه المشاكل ينبغي مواجهتها سواء تبنى المرء إطار "لسانيات الأنا" (أو بشكل أوسع، نظرية التمثيلات الدلالية TISR) أو أي إطار آخر. يبدو أن موقف بوتنام هو أن إواليات الذكاء العام كافية. من هنا فإن هذه [الإواليات] يجب أن تمتلك البنية السليقية اللازمة لنقل العقل من المعطيات المتاحة إلى الأنظمة المعرفية المكتسبة. فيما يتعلق باللغة، فإن المشكلة نقلت الآن من ملكة اللغة FL إلى الذكاء

العام. إننا نواجه الآن المشاكل التي تعترض "الفرضية المنافسة" [القائلة] بأن كل شيء يختزل بشكل ما إلى تنظيم إدراكي حسي. تبدو الآفاق غير مشجعة كما من قبل، لكن لا يوجد شيء لمناقشته إلى أن يتم اقتراح شيئاً ما محدداً.

فيما يتعلق باللغة، فإن الطروحة التي يهدف بوتنام إلى تهديمها تُختزل الآن إلى:

[أ ـ ثمة تمثيلات دلالية في العقل / الدماغ].

[ب ـ إنها تتكون من عناصر سليقية].

– إن الحكم (6b) غير ضار إذا ثبت الحكم (6a). لكن الحكم (6a) (6) لا علاقة له بشكل خاص بـ "عقلانية MIT". إن علم الدلالات التجريبي يفترض بشكل عام شيئاً مماثلاً. افترض مع ذلك أن الحكم (6a) زائف. هكذا، فلا FL ولا أي نظام آخر للعقل / الدماغ يتضمن "تمثيلات دلالية". لكن ثمة حالة داخلية / باطنية متضّمنة في كيفية فهم الجمل، كالتي في S أو الأمثلة في (1). فالبديل لـ (6)، إذاً، يُعتقد أن هذه الحالات لا تتضمن "تمثيلات دلالية". ظاهرياً، يبدو كأن البديل المقصود يبقي المسلمات حول حالات العقل / الدماغ المتصلة بالصوت، وربما أيضاً تلك المتعلقة بالخواص البنيوية لـ FL التي تدخل في تأسيس معنى العبارات، وليس "التمثيلات الدلالية". إن المعرفة المعقدة النوعية التي اكتسبها الطفل ويستعملها تكون ممثلة في العقل /الدماغ بطريقة ما، لكن ليس بالطريقة المطوَّرة في دراسات علم دلالات اللغة الطبيعية، التي تقطع شوطاً كبيراً الآن. هذا ليس مستبعداً؛ فالنظرية الصوتية

الراهنة يمكن أن يتبين أنها لا صلة لها بالموضوع. لكن التعليق مرة أخرى، غير ممكن.

وإذا وضعنا هذا جانباً، دعونا ننظر إلى نقد بوتنام للحكم (6a). إن له بضعة تفرعات. أحدها هو أن "المعنى كلياني" holistic. في الصيغة الكوانتية، تستوفي الجمل اختبار التجربة "بصفتها جسماً مندمجاً واحداً، والمراجعة يمكن أن تحدث في أي مكان. بالنسبة للعلوم، تبدو هذه الصيغة مؤاتية بما فيه الكفاية؛ إذ أن رودلف كارناب Rudolph Carnap يتفق مع هذه النظرة، مع أنه يفضل صياغة مختلفة (see Uebel and Hookway 1995). مع ذلك، فإن الأسئلة هنا لها علاقة باللغة البشرية، وهي موضوع بيولوجي، وليس بالعلوم التي يصوغها البشر، باستعمال ملكات مختلفة للعقل، كما يبدو.

يعتقد بوتنام، مع ذلك، أن "لغة الحياة العادية" تمتلك نفس الخواص الكليانية التي تمتلكها العلوم. السبب هو أن الخطاب اليومي يعول على افتراضات غير معلنة، لذلك فإنه "إذا كانت اللغة تصف الخبرة، فإنها تفعل ذلك كشبكة، وليس جملة جملة" (1986b:23). لكن اللغة لا "تصف الخبرة مع أنها قد تستعمل لوصفها أو إساءة وصفها، أو بعدد لا حصر له من الطرق الأخرى. إن حقيقة أن المسلمات الخفية تدخل في الاستعمال لا تنبؤنا شيئاً ذي صلة بالموضوع هنا.

وينكب الجانب الآخر من نقد بوتنام على الممارسة العملية. هذه الحجج، سواءً كانت صحيحة أم خاطئة، لا تؤثر على الافتراضات حول انتظام العقل التي تتطلب بالتأكيد تبريراً لا يزال مفقوداً حتى الآن. إن الأجزاء الأخرى من الجدال تعتمد على الاستنتاجات حول

اللغة العقلية lingua mentis و"اللغة العمومية" والحدوس حول الترادف والترجمة والمسائل الأخرى، التي لن يكون أي منها ذا صلة بالموضوع هنا حتى لو كانت ممكنة الدفاع عنها (وهو ما أشك فيه في كل مكان، انظر تشومسكي 1995 a).

يتصل ما بقي من حجته بـ "فرضية السليقية" innateness لتشومسكي". لم أفهم أبداً ماذا يفترض بها أن تكون. إنها تُفند غالباً، لكن لم يسبق لأحد أن صاغها أو دافع عنها، على حد علمي. بشكل مفترض مسبقاً، إن القدرات المعرفية، مثل كافة القدرات الأخرى، متجذرة في الموهبة الطبيعية البيولوجية، وملكة اللغة FL (إنْ وجدت) هي نوع ما من التعبير عن المورثات. خارج ذلك، لا علم لي بأي فرضية للسليقية، مع أنه ثمة فرضيات محددة حول ما هو سليقي على وجه التحديد.

يبدو أن بوتنام يماهي "فرضية السليقية" بـ:

(1) الطروحة القائلة بأن اللغة العقلية Lingua mentis هي سليقية؛ و(2) الطروحة القائلة بأن "المعجم العقلي" سليقي.

– إن لسانيات الأنا ليست ملتزمة بـ (1) أو (2) ـ على الأقل، بقدر ما أفهم هاتين الطروحتين وأعترف أن فهمي لا يذهب بعيداً. علاوة على ذلك، فإن الطروحتين مهما يكن مضمونهما، مختلفتان بشكل محتمل: فاللغة العقلية lingua mentis ليست المعجم العقلي، تماماً مثلما أن الانكليزية ليست معجمها [مجموع مفرداتها].

– ثم يلتفت بوتنام إلى الحجج التي يزعم على نطاق واسع أنها تقوض ليس النزعة العقلية لمعهد MIT فحسب بل تقوض أيضاً

مقاربة دراسة المعنى والإحالة / reference التي تمتد من أرسطو إلى ميل Mill ورسل Russell وفريغه Frege وكارناب Carnap، أي التراث يتبنى 7 (أ) و7 (ب):

7 (أ) حين نفهم كلمة ما أو أية "علامة" أخرى، نربط تلك الكلمة بـ"مفهوم" ما.

(ب) يحدد هذا المفهوم مرجع الكلمة (أو العلامة) ويرى بوتنام أن (7) قد دحضت بكون المرجع يحدد جزئياً عن طريق "تقسيم العمل اللغوي" و"ما تسهم به البيئة". ولا تقيد "لسانيات الأنا" نفسها بـ (7)، ولا يمكنها ذلك، إذا لم تفسّر المفاهيم التقنية بشكل ما. فأقصى ما تتقيد به "لسانيات الأنا" هو (8):

8 (أ) ـ حين يفهم "س" الكلمة "ك" فإن "س" يستخدم خواصها.
8 (ب) يمكن أن تشتمل هذه الخواص على "صوت الأنا" و"معنى الأنا" وإذا كان كذلك فإن معنى الأنا يؤدي دوراً في تحديد ما يحيل إليه "س" حين يستخدم "ك" وليس وراء ذلك شيء يمكن تحديده

– إن نقد (7) لا يبدو أنه يؤثر على الأقل على المكون الألسني الأناوي، للنزعة العقلية لـ MIT"، لكن دعونا نتفحصه بأي حال. لشرح تقسيم العمل اللغوي، يدرس بوتنام كلمة robin [أبو الحناء] في الانكليزيتين البريطانية والأميركية. لنفترض أن بيتر (بر) Peter (GB) الذي يعيش في بريطانيا وبيتر (أمر) PETER (US) الذي يعيش في الولايات المتحدة متماثلان من حيث المعايير ذات الصلة بالموضوع، وأنهما لا يدركان أن (9) "لا تحيل الكلمة robin إلى النوع نفسه من الطيور في بريطانيا والولايات المتحدة".

فلدى بيتر (بر) وبيتر (أمر) نفس كلمة "robin" في لغتي الأنا الخاصتين بهما، لكنها تحيل إلى معنيين مختلفين لأن "الإحالة ظاهرة اجتماعية" تنطوي على الاعتماد على الخبراء. لذلك يجب أن نتخلى عن الطروحة التقليدية (7).

- باتخاذ الجملة (9) على أنها حكم حقيقة حول علاقات اللغة بالعالم، نود أن نقرر ما إذا كانت صحيحة. يتعين علينا أولاً أن نفهم مصطلحاته: على وجه التحديد، "كلمة "robin"" و "يحيل" "refer"، علاقة يزعم أنها موجودة بين "الكلمة robin" ونوع بيولوجي. دعونا نقبل (بشكل أسرع من اللازم كثيراً) ونفهم بشكل كاف تماماً ما هو المقصود بالكلام عن "الكلمة robin"، بوصفها كياناً في "لغة عمومية" (كما هو المقصود). ماذا عن الكلمة "refer"؟ يستخدم الناس الكلمات للإحالة إلى الأشياء بطرق شتى، لكن الانكليزية لا يستعمل فيها مصطلح "refer"؟ أو "reference" بمعنى (9)[19]، ولا في اللغات المشابهة، [وهو] أحد الأسباب في أن فريغه Frege كان عليه أن ينحت مصطلحين تقنيين والسبب كذلك في أن ثمة الكثير من التنوع في كيفية ترجمتها، البعض يفضل الكلمات اللاتينية التي توضح المنزلة التقنية. يتعين إنجاز بعض العمل، إذاً، لجعل تقييم (9) كزعم تجريبي ممكناً.

- يوحي السياق (كاللجوء إلى تجارب الفكر، الخ..) أن الحكم (9) يجب أن يُفهم ضمن دراسة النظريات الشعبية. إذا كان كذلك، فليس للاستنتاجات تأثير واضح على لسانيات الأنا؛ أو ربما حتى على التراث، إذا فهم على أنه يقدم نوعاً من إعادة البناء [التصور

العقلانية. دعونا نسأل مع ذلك ما إذا كان (9) ذا أساس جيد ضمن دراسة النظرية الشعبية. لتجنب المصطلحات التقنية (غير المشروحة بعد)، دعونا نختار جملة انكليزية مناظرة لها، ربما تلك المصطلحات الواردة في (10):

(10) ـ "يستخدم بيتر الأمريكي كلمة robin ليحيل إلى نوع من الطيور، ويستخدمها بيتر البريطاني ليحيل إلى نوع مختلف".

هل (10) صحيحة؟ إن العصافير التي أسماها بيتر (أمـ) robins مختلفة بكافة الأوجه عن العصافير التي أسماها بيتر (بـ) robins، لكن هذا يصح أيضاً على بيتر (أمـ) وصديقه تشارلز، اللذين كانا جارين طوال حياتهما. لذلك يجب أن نعرف أشياء كثيرة لكي نقوم (10).

– افترض أننا سألنا ماذا كان بيتر (أمـ) سيقول لو ذهب إلى بريطانية ورأى المخلوقات ذات الصدر الأحمر هناك. بالفرضية، سوف يدعوها robins (أبو حناءات)، وهكذا لن يؤدي ذلك إلى أية نتيجة. افترض أن جونز قال إن بيتر (أمـ) يرتكب خطأً عندما يدعوا لعصافير في بريطانيا robins (أنا لن أفعل ذلك)، عندئذٍ نتعلم شيئاً ما حول جونز لا علاقة له بالموضوع هنا.

ربما كان جونز يفترض شيئاً مثل الطروحة (9). ربما كان يعتقد جونز أن مفهوم بيتر (أمـ) robin لا يشمل النوع الموجود في بريطانيا؛ وأن مفهوم أوسكار الأرضي للماء water لا يشمل xyz في توأم الأرض. لكننا نعود الآن إلى التساؤل الأصلي: كيف نتبين ما إذا كانت مزاعم جونز صحيحة؟

– افترض أن بيل ابن عم بيتر (أمر) يعيش في الجزء من الولايات المتحدة حيث الطيور التي تدعى robins تنتمي إلى نوع فرعي (نويع) مختلف. إذا قام بيتر (أمر) بزيارة بيل وأطلق على المخلوق الموجود في حديقة منزله robin، فهل يرتكب خطأ؟ هل يمكنه أن يفهم حديث بيل حول robins؟ افترض أن ماري زوجة بيتر (أمر) ترعرعت في جواره لكنها أمضت جزءاً من طفولتها في بريطانية. ما الذي تحيل إليه ماري عندما تتحدث حول robins؟ عندما تتغير الحالات، تتغير الأحكام أيضاً، بطرق متعددة كثيرة، وتكون غالباً على درجة عالية من عدم اليقين.

– لا تبدو الحالة إشكالية بالنسبة "للنزعة العقلية لـ MIT". ذلك أن الأشخاص المذكورين أعلاه المتشابهين في الجوانب ذات الصلة بالموضوع، ستكون لهم نفس الأحكام حول ما هو "robin" إن الاستنتاجات الأخرى حول ما إذا كانوا على حق أم على خطأ، أو كيف تستعمل كلمة "robin" للإحالة في "اللغات العمومية"، أو حول معتقداتهم، إنما تثير أسئلة أخرى قد تستحق الاستقصاء وقد لا تستحقه عندما تصاغ صياغة واضحة بما فيه الكفاية. يبدو أن ثمة القليل لقوله.

لشرح "مساهمة البيئة" يقدم بوتنام حجة توأم الأرض والحجج الأخرى، التي تقوم جميعها على افتراضات حول "ما يقوله شخص نموذجي" في ظل ظروف مختلفة. ومرة أخرى، ليس للحجج تأثير مباشر على نظرية اللغة T التي تتبنى الطروحة (8). إن أقصى ما يمكنها أن تظهره هو أن T (أو TISR) لا تقدم تفسيراً كاملاً للسلوك

اللغوي أو لا تسلط الضوء على الاستعمال اللغوي العادي، لكن ذلك واضح سلفاً.

وتقوم الحجج (عن "ماء" "Water") على افتراض أن الماء هو H2O. لتقييم مكانة هذا الحكم يتعين علينا أن نعرف إلى أية لغة ينتمي. فهو لا ينتمي إلى الانكليزية، التي لا توجد فيها كلمة "H2O". وليس إلى الكيمياء التي لا توجد فيها كلمة "ماء" (مع أن الكيميائيين يستعملون الكلمة بشكل غير رسمي). يمكننا أن نفترض أن الكيمياء واللغة الإنكليزية تنتميان إلى "لغة عليا" Superlanguage، لكن يبقى أن نشرح ماذا يعني هذا (انظر برمبرغر 1996).

– بوضع هذه الماحكات جانباً، فهل صحيح أن المتكلم النموذجي يعتمد على "المكونات" في تحديد ما إذا كان شيء ما يدعى ماء؟ افترض أن كأسين G و'G على الطاولة، G مملوءة من الحنفية و'G من بئر. افترض أن كيساً من الشاي تم تغطيسه في الكأس 'G. إن محتويات G و'G يمكن أن تكون متماثلة كيميائياً: فربما يأتي ماء الحنفية من خزان يستعمل "فلتر شاي" لإزالة الملوثات. بمعرفة أن المحتويين متماثلان سأقول أن المادة في G هي الماء، وليس الشاي؛ وأن المادة في 'G هي الشاي وليس الماء. أشك في أن يكون هذا مألوفاً. فالمكونات عامل [حاسم] في تقرير ما إذا كان شيء ما هو "ماء"، لكنها ليس العامل الوحيد[20].

– [هذا] الوضع يعيد إلى الأذهان مثال "الكتاب" "book" والأمثلة الأخرى المشابهة له. هنا أيضاً يمكننا أن نرتب الظروف بحيث نوجه الاهتمام إلى التكوين، وليس إلى العوامل الأخرى، في تحديد ما نتحدث حوله. في ظل هذه الظروف، يمكننا أن ندعو

محتويات كلاً من G وG' ماءً. يمكن أن تظهر الدراسة التجريبية أن التكوين عامل جوهري لأجل "الماء" أكثر من كونه كذلك لأجل "الكتاب"، ربما كان كذلك، لكن هذا يظل بدون صلة بـ (8). في الحالات العادية، لا توجد إجابات إلا في ضوء الظروف والمصالح المعقدة والمتغيرة التي تنتج ما يدعوه أكيل بيلغرامي (1992) Akeel Bilgrami "محلية المضمون" content locality. على سبيل المثال، إذا اعتقدت ماري أنه يوجد ماء على المريخ، وأن شيئاً ما يكتشف هناك تعتبره بمثابة "ماء" رغم أنه له التكوين الداخلي للماء الثقيل أو XYZ، فلا يوجد جواب عام على ما إذا كان اعتقادها صحيحاً أم خاطئاً.

ويضيف الاحتكام إلى الاستعمال الخبير مآزق جديدة. تستهل مقالة تقنية حديثة بالقول أن "الزجاج" في التصور الشعبي، والصحيح أساساً، هو سائل فقد قدرته على الجريان" ويتابع ليستنتج أن "معظم ماء الكون يوجد في الحالة الزجاجية (في المذنبات،...) بصفته "ماء متزجحاً يظهر بشكل طبيعي" (Agnell 1924 :1995). افترض أن سيناريو الشاي ـ الماء الذي ورد وصفه أعلاه يحدث على توأم الأرض، حيث يصنع سكانها كؤوسهم من مخلفات المذنبات الأرضية. افترض أن أوسكار الأرضي وصل إلى توأم الأرض وطلب ماءً، مشيراً إلى الكأس G. فهو مصيب إذا كان يحيل إلى الكأس ويكون مخطئاً إذا كان يحيل إلى محتوياته؟ إن أحكامي واضحة بشكل معقول وأشك في كونها نمطية.

لننظر إلى القضايا من وجهة نظر مختلفة، ولنعتبر ألبرت وبيل متشابهين بشكل وثيق الصلة بالموضوع وأن A وB تفاحتان لا يمكن تمييزهما عن بعضهما البعض، A موضوع خبرة ألبرت، B موضوع خبرة بيل. كل واحد منهما يفكر في تفاحته، ينظر إليها، ويأخذ قضة، ما يؤدي إلى تغيرات شاملة متماثلة للحالة في كل مكان. فهل سنقول إن الأفكار، والصور البصرية، والطعوم، وتغيرات الوزن، وهلم جرا..، هي نفسها بالنسبة لألبرت وبيل لكنها "موجهة" إلى شيئين مختلفين؟ أم أنها مختلفة بالنسبة لألبرت وبيل، مع كون الشيئين الخارجيين A، B "جزءان من" تفكيريهما، .. الخ؟ بسماع ترجمتين غير قابلتين للتمييز عن بعضهما للعبارة S، هل يمتلك ألبرت وبيل نفس الخبرة السمعية والفهمية الموجهة إلى شيئين مختلفين، أم خبرتين مختلفتين تتضمنان تلك الأشياء؟ إن الإنكليزية العادية يمكن أن تتحمل الاستعمال اللغوي "الموضوعاني" externalist لأجل التفكير والفهم أكثر مما تتحمل تغيرات الوزن، رغم أن ما نتعلمه من هذا غير واضح. وعلم الطبيعة البشرية أكثر بدائية من أن يثير هذا التساؤل. فالصور الذاتانية internalist تبدو ملائمة، مع أنها ناقصة بالمعنى غير المهم بالمعنى الذي تأخذ فيه دراسة ألبرت وبيل في بيئتيهما هذه الأخيرة [تغيرات الوزن] في الحسبان.

وغالباً ما تكون الأمثلة العادية أكثر تعقيداً. خذ نسخة من لغز كريبك kripke. افترض أن بيتر يقول: "كنت أظن أن القسطنطينية واستنبول هما مدينتان مختلفتان، لكنني أعرف الآن أنهما نفس المدينة"، ثم يضيف: "لكن استنبول سيتعين نقلها إلى مكان آخر، لذلك فإن القسطنطينية لن يكون لها طابع إسلامي" (لأجل أمثلة

حقيقية من هذا النوع انظر تشومسكي 1995a). فهل اعتمد بيتر مفردات معجمية جديدة؟ أو اعتقادات جديدة؟ أو أشياء مختلفة؟ إذا قال، مشيراً إلى استنبول، إنها يتعين أن تنقل ويعاد بناؤها في مكان آخر "(في حين تبقى المدينة نفسها)، فكيف لنا أن نفسر المفردات المكتوبة بخط مائل ـ التي تسلك سلوكاً مختلفاً بطرق مثيرة للفضول عندما تتغير الأمثلة؟ (Chomsky 1995a; see also ch.5 above، p. 127).

وليس بإمكاننا أن نتابع عملنا إلا بطريقة معقولة كما أوضحنا سابقاً، كما يبدو.

– تأمل قضية (القابلية للخطأ fallibility: إننا نريد بوضوح أن يكون باستطاعتنا أن نقول إن بيتر ربما يكون مخطئاً في تسمية شيء ما "س". لهذا فإن بيتر قد يخطئ في وصف محتويات 'G بأنها ماء، دون أن يعرف أنه شاي، وليس ماء. أو قد يخطئ مثقلة الورق فيحسبها كتاباً. ربما يكون بيتر مخطئاً برؤيته الخاصة: فهو ما كان ليسميه "س" لو كان مدركاً للحقائق. أو ربما كنا نتبنى وجهة نظر تعتمد على التركيب (البنية) لنقرر ما إذا كان على حق أم على خطأ، لذلك فإن ما يحسبه بيتر ماء قد يكون شيئاً ما آخر، ربما ماءً ثقيلاً، أو xyz. هذه المحاولات نموذجية في العلوم، لكن يتعين إثبات أنها ملائمة لأجل اللغة الطبيعية و، إذا كان الأمر كذلك، بأي وجه من الوجوه. إذ سيكون من الضروري أن نرسم الخطوط العامة للإطار النظري الذي تطرح فيه الأسئلة، وإذا كان يستعمل أفكاراً مثل concept [مفهوم]، لتعريفها بطرق لا تتوسل السؤال؛

ليس، لنقل، باشتراط أن المفاهيم يحددها التركيب الداخلي. لا يوجد سؤال واضح، وبالتالي لا توجد أجوبة مباشرة.

– افترض أن تشارلي الصغير يمتلك خبرات تقوده إلى معرفة أن استعماله للغة يختلف عن استعمال البالغين لها في مجتمعه[21]. افترض أنه في المرحلة (1) كان يشير إلى الحيوانات المائية الانسيابية بوصفها أسماك وإلى الحيوانات المائية الكبيرة جداً بوصفها حيتان. إنه، إذ يجد أن البالغين يعتمدون استعمالاً لغوياً مختلفاً لأجل تسمية أقرب النظائر (يلفظون الكلمات بشكل مختلف أيضاً). ينتقل إلى المرحلة 2، مكيفاً نفسه مع استعمال البالغين، بشكل واعٍ أو لا. فكيف نصف ما حدث؟

وربما يميل البعض إلى القول إن تفكير تشارلي عن الحيتان والأسماك في المرحلة (1)، والطريقة التي يستخدم بها الكلمات ويلفظها خاطئة. وأنه في المرحلة (2) صحح نفسه. إنه يحسّن معرفته باللغة الانكليزية، لغة مجتمعه (الاستعمال اللغوي العادي لا يقدم أية طريقة للإحالة إلى نظامه اللغوي في المرحلة1). إن البحث عن مزيد من الفهم يمكن أن يتبع المسارين المعتادين. إذ يمكننا أن نسعى إلى تعلّم المزيد حول كيف يتحدث البشر ويفكرون حول هذه المسائل، أو تعلم المزيد حول ما يحدث فعلاً.

– إن التفسير في ضوء "لغة الأنا" واضح، لكنه ناقص، من ناحية بسبب مداه، ومن ناحية أخرى بسبب انعدام الفهم ضمن مجاله. في المرحلة (1). يمتلك تشارلي لغة الأنا، L1 ذات المفردتين المعجميتين "سمك1" و"حوت1". أما في المرحلة 2، فتضم لغة الأنا الخاصة به، L2، المفردتين "سمك 2" "Fish2" و"حوت2"

"whale2"، اللتـان تختلفـان إلى حـد مـا في الخـواص. إذ تكـون السـمات الفونولوجيـة مختلفـة (بـالفرض)؛ لكـن منزلـة السـمات الدلالية غير واضحة. هل تمتلك المفردات الجديدة سمات مختلفـة، تـدمج المحكـات الجديـدة للإحالـة إلى الحيوانـات المائيـة؟ هـل تختاران منـاطق مختلفـة في اللغـة العقليـةlingua mentis، فضـاءً مفاهيمياً، منظومة اعتقاد؟ شيئاً مـا آخـر؟ إن مـا يـدعوها تشـارلي أشياء سوف تتغير بطرق مختلفة، اعتماداً على الحقـائق العارضـة: على سبيل المثال، ما إذا كانـت الحيوانـات المائيـة الضـخمة الـتي يمتلك بعض المعرفة بها في المرحلة 1 صدف أنها ثدييات أو أسماك التونا. يمكننا أن نبحث عن المبادئ التي تدخل فيما حدث أياً يكن ونسأل إلى أي حد كان من الممكن أن تتبع مساراً آخـر لـو اختلفـت الظروف. يعرف القليل للغاية حول هذه الموضوعات التي لا يمكننـا سوى أن نتأملها، لكن لا تبرز مشاكل مبدأية واضحة. إن المشـروع ما كان ليتقدم بـاللجوء إلى تعـيين "المعنـى (الدلالـة denotation) الحقيقي للكلمات في "لغـة عموميـة" معروفـة جزئيـاً ومشـتركة، أو "العقـل الجمعـي"، أو"كلمـات" تبقـى ثابتـة عنـدما يـتغير اللفـظ والاستعمال اللغوي، ومفاهيم عامة أخرى كهذه ظلت غامضة.

- افـترض أننـا قاربنـا المسـألة في ضـوء مفهـوم عـام للإحالـة reference في لغة عمومية، ربمـا في ضـوء نظريـة سـببية. عندئـذٍ سيكون علينا أن نقرر ما إذا كانت الإحالتان "حوت" و"سمـك" قـد بقيتا ثابتتين أم لا عندما غيّر تشارلي ما يدعوها أشياء (بما في ذلك موضوعات خبرته المبكـرة)، ومـاذا حـدث لمضمون أفكـاره. إذا تم

توضيح المفاهيم العامة التقنية، فقد يكون من الممكن صياغة أسئلة تجريبية هامة حول كيف يفكر البشر حول هذه المسائل في إطار ثقافي ولغوي أو غيره. بالنسبة لعلم الطبيعة البشرية، لا يبدو لي مساراً واعداً جداً.

تأمل أخيراً حالة ناقشها بورغ (1986b)، تشرح جنساً أدبياً genre مثيراً للاهتمام. افترض أن A يتقاسم مع متكلمي الانكليزية الآخرين كلمة "Sofa" "أريكة" وخبرات ذات صلة بأشياء يسمونها sofas (آرائك). لكن يتوصل إلى الاعتقاد بأن الآرائك "تقوم بوظيفتها ليس كأثاث للجلوس بل كأعمال فنية أو مصنوعات يدوية دينية"، وهي ليست "بشكل بارز لأجل" الجلوس. يتفق A والآخرون حول أي الأشياء من خبرتهم المشتركة هي الآرائك، لكنهم يختلفون حول وظيفة الآرائك؛ قد يختلفون أيضاً حول ما إذا كانت الأرائك قد استعملت فعلاً لأجل الجلوس (ويظن A أن الآخرين ضللوا حول ذلك) إذا ثبت أن شكوك A لها ما يبررها جيداً، يستنتج بورغ أن "المعنى التقليدي لـ "Sofa" سيتغير" لكنه "قد يبقى ملائماً ... لوصف - مواقف متناسبة تشمل المفهوم العام للأريكة" (1986b: 715) كما تم وصفه للتو.

– كيف يمكن وصف هذه الأحداث في الإطار الذاتاني، الذي نوسعه الآن إلى افتراض أنه ثمة منظومة مفاهيم أنا واعتقاد أنا بالتوازي مع "لغة أنا"؟

– مبدئياً، إن A والآخرين يمتلكون نفس المفردة المعجمية "Sofa"، نفس مفهوم الأنا sofa ونفس معتقدات الأنا حول الآرائك. لندعو هذا المركب المشترك sofa. الذي تعرف ضمنه

الآرائك بأنها نتاجات صنعية ذات خواص فيزيائية ووظائف محددة. بالنسبة لـ A، تتحول sofa إلى sofá مع تغير المعتقدات حول ما [تصلح] الأرائك لأجله. إن شخصاً آخر، ندعوه B، قد يغيره معتقداته حول تكوين الأرائك، مستنتجاً أن الأرائك هي بشكل نموذجي مستوية السطح لها رزات حديدية، مع أنها تستعمل لأجل الجلوس؛ بالنسبة لـ B، تتحول sofa إلى sofá. يتفق الجميع حول أي الأشياء من حولهم هي أرائك، لكن A يختلف عن الآخرين حول الوظيفة، ويختلف B حول تكوين الفئة التي تنتمي إليها هذه الأشياء، ويختلف "B" عنهم في مكوناتها.

وحتى الآن، لا توجد صعوبة في وصف الأحداث والحالات العقلية - الأناوية للمشاركين. مع ذلك، لم نقل شيئاً حول ما حدث للمعنى التقليدي والأفكار، والمعتقدات عندما تتكشف القصة؛ أو حول أين حدثت التغيرات في "الأريكة" sofa.

لا يمكن الانكباب على السؤال الأول قبل أن يتم إيضاح المفاهيم العامة. أما السؤال الثاني فقد يكون ذا صلة بالموضوع هنا، لكنه لا يزال غير قابل للإجابة. تحدث التغيرات افتراضاً في الكون الاعتقادي الأناوي للأريكة، لكن هذا يترك السؤال مفتوحاً عما إذا كان A و B قد غيّرا المفردات المعجمية للغتيهما أو غيرا جانباً آخر من المركب "أريكة" sofa. مهما يكن الجواب، فإن التفسير المباشر يبدو متاحاً.

يجادل بورغ بأنه سيكون من "السطحية بشكل غير مقبول" أن نقول إن A قد غيّر لغته عندما ثارت شكوكه، لأننا "لا نعاني أية صعوبة في فهم أنه يثير أسئلة حول ماهية الأرائك فعلاً" ونعرف

كيف نتقصى الأسئلة. بالتسليم بكل هذا، مع ذلك، لا نزال نجهل ما إذا كان A قد غير لغته الأناوية، مستبدلاً مفردة معجمية بأخرى. لو بقيت لغته الأناوية ثابتة، لكان يقول الآن إن ما كان البشر يظنونه عن الأرائك كان خاطئاً، فلو تغيرت الطريقة التي وصفناها، لكان يقول الآن إن الناس كانوا مخطئين في تسمية هذه الأشياء أرائك. وهناك قضايا تجريببة كامنة هنا، وربما يمكن الكشف عنها. مع ذلك، ليس واضحاً أن ثمة شيئاً آخر ذا أهمية.

– تُثار أسئلة مماثلة حول الحيتان والأسماك. افترض أن الحيتان تُعد أسماكاً في مجتمع بيتر، لكنه يقرر أن تصنيفاً مختلفاً سوف يكون أكثر ملاءمة وسوف يراجع استعماله اللغوي وفقاً لذلك. مرة أخرى، لا نعاني أية صعوبة في فهم أنه يطرح أسئلة حول الحيتان والأسماك (ماذا "تكون فعلاص"، ربما، رغم أنه ليس واضحاً أن هذا هو الأكثر ملاءمة)، ونعرف كيف نتقصى تلك الأسئلة.

ويبدو الاستعلام في هذه الأمثلة مع تنوعها المذهل أنه ينتج أسئلة تختلف اختلافاً واسعاً في ظل التغيرات الطفيفة للظروف المفترضة، مثيراً بعض الشكوك حول مدى ما يمكن تعلمه عن طريق المقاربة بهذه الطريقة. مهما يكن ذلك، لا يبدو لي أن لهذه الظواهر تأثيراً على صوابية المقاربات الذاتية للمظاهر الألسنية والمظاهر الأخرى للحياة البشرية، إلى الحد الذي يمكن أن تصل إليه، أو أنها توحي ببديلٍ مفضل آخر.

هوامش الكتاب

1- شرح استعمال اللغة :

1) يقبل ديفيز رأي بورغ القائل بأن مدرسة مار تعنى بالتمثيلات "المعلوماتية" informational ذات المضمون القصدي (وبالتالي السوابق السببية الفعلية)، لكن هذا الرأي لا يبدو متماشياً مع الممارسة التجريبية الفعلية أو مع النتائج النظرية (على سبيل المثال، مبدأ الجساءة لأولمان ullman)؛ بل من الصعب أن نفهم كيف يمكن أن يكون ذلك صحيحاً، ولو لمجرد أن عمل مار ـ كما يؤكد ديفير ـ لم يصل إلى تمثيل نموذج ثلاثي الأبعاد 3D على الإطلاق، وبقدر ما تبلغ دراسة الإدراك الحسي البصري هذا الحد (على سبيل المثال، كما في عمل اليزابيث حول تماسك الشيء في الطفولة المبكرة، spelke 1990)، فإنها تلتزم بالخبرة البصرية، وليس بالمضمون الإدراكي الحسي بالمعنى التقني للخطاب الفلسفي،

(Ullman 1979 ; Davies 1991)

2) إنه مما يكشف عن هذا الجهاز الوعائي الغني، يعلق ريتشارد ليونتين Richand Lewontin، أنه يمكن للمرء أن يضيف إلى القصص الوهمية الملفقة حول نشوء المعرفة افتراض أن الدماغ قد نشأ كمنظم حراري، يبرد الدم كما كان يعتقد أرسطو وينتج المعرفة البشرية كنتاج جانبي by-product

(lewontin 1990)

3) لايوجد، مرة أخرى، ما يعني ضمناً هنا أن أنظمة الأداء الفعلي سوف تطابق تماماً الاستعمال اللغوي اللارسمي، أو الخطاب الفلسفي أو أي خطاب تقني آخر،

4) بل أقل احتمالاً بكثير، حتى إذا كان بالإمكان إعطاء العبارة معنى واضحاً بما فيه الكفاية لأجل طرح السؤال بشكل أكثر معقولية،

5) وقد ظل الموضوع محل جدل واسع منذ مقالة سيرل "العقول والأدمغة، والبرامج" (سيرل 1980)، وليس واضحاً أنه قد تمت صياغة أي قضية جوهرية حتى الآن،

6) يعتقد أن مشكلة المرحلة البنيية interstage لا تبرز إلا عند افتراض "الكليانية الدلالية"،

7) يجب عدم خلط هذه الإجراءات مع مبادئ الإحسان وما شابه، إذا كان التمييز بين اللغة والاعتقاد صحيحاً؛ انظر لاحقاً في هذا الفصل لكي نكون واقعيين في الحد الأدنى حتى، ينبغي أن نميز حالات كثيرة، لذا فإن ما يفعله بيتر عندما تتكلم ماري لغة شديدة الصلة قد يكون ذا صلة واهية بإجرائه عندما يتكلم لغة غير قابلة للفهم، إن إدراج كل هذه السيرورات تحت "التفسير" أو "الترجمة" ليس إستراتيجية بحث جديدة،

8) حول تطوير سول كريبك لهذه المقاربة، واستنتاجاته حول صلتها باللسانيات، انظر تشومسكي: Chomsky (1986a): ch، 4، 1

9) في كتابه *التمثيل والواقع*، يجادل بوتنام (1986a) ضد الافتراض القائل بأن المادة المعجمية تنطوي على إحالة محددة لأحكام الخبير، وتقوم الحجة على افتراضات ضمنية حول اللغة العمومية المشتركة والترجمة لا يبدو لي أن من السهل الدفاع عنها، أو حتى صياغتها، مع ذلك، يمكن أن نقبل الاستنتاج، آخذين الاعتماد على حكم الخبير (من بين خيارات أخرى) على أنه خاصية عامة لطيف واسع من المواد المعجمية، وهو ما يرتبط بالطرق التي تدخل بها في أنظمة الاعتقاد،

10) انظر ستيتش 1983، وتتضح المشكلة الأساسية - وهي أن أي محك نتقدم به يكون في الوقت نفسه قوياً أكثر مما ينبغي وضعيفاً أكثر مما ينبغي - قد تم تلخيصها لدى شفلر (1955)،

11) من الناحية التقنية، ينبغي أن نتكلم عن "سجع الأنا"، الخ...،

12) انظر لاسنيك 1989: خصوصاً الفصل التاسع وتبرز أسئلة مثيرة للاهتمام في المثال (2c) أي في حالة *"التضمير خلفاً"* pronomina backwards lization) فيما يتعلق بمسائل مثل الاستعمال الإحالي للأوصاف المعرّفة والمعلومات القديمة - الجديدة،

13) شدد بوتنام بشكل متكرر على أن المعايير لأجل الاستدلال على الاعتقاد وتسويغه هي مرتبطة بالمصالح بشكل لا مفر منه، الأهم من ذلك، أن الصفة الخاصة (وبالتالي حدودها) للفهم البشري تفرض خيارات الإطار لأجل نظرية قد تكون غير ملائمة، وبذلك تترك مناطق إشكالية هي ألغاز متأصلة بالنسبة للبشر(خاصية عامة للمتعضيات)، انظر تشومسكي MC GINN 1991; 1975،

14) مما لاشك فيه، بالطبع، أن البشر يعتمدون على أحداث في مكان وزمان مختلفين، أما السؤال فهو ما إذا كان الاستعلام الطبيعاني سيصبح "ماركوفيا" Markovian (انظر ميلر وتشومسكي ff)، 4222:1963، مع الأخذ فقط بالحالة الناتجة للمتعضي لتدخل في الأداء المحلي الراهن، هكذا فإن الذاكرات يمكن أن تضعف أو يعاد تشكيلها، لكن لفهم ما يقوم به شخص هنا والآن، نسأل ما الذي يتم تمثيله داخلياً، وليس ما يكون قد حدث في الماضي، بشكل مماثل، فإن نمو الخلية لتتحول إلى إصبع أو عظم الساعد إنما يعتمد على الزمن المنقضي، لكن دراسة السيرورة تلتزم بمؤثرات مثل المكونات gradients الراهنة للتركيز الكيميائي التي تخبر الخلية بمثل هذه الحقائق، هذا إجراء نموذجي ويبدو معقولاً جداً،

15) ما إذا كان يتعين تطوير النظريات بهذه اللغة هي مسألة أخرى، إن هدفي ببساطة هو أن أنوّه إلى أنها إذا اعتمدت على مفاهيم الإحالة المقصودة، أو الاعتماد الدلالي،،،، الخ، بوصفها تمثل شيئاً أكثر من مظهر من مظاهر الكلام facon de parler، فذلك يعني أن شيئاً من النوع الملخص هنا يبدو مفترضاً مسبقاً ـ وليس إحالة إلى أشياء في الكون،

16) توجد اختلافات في التضمير خلفاً [عود الضمير على متأخر]، انظر هامش (12)،

17) النقطة الأساسية حول "التعابير المضللة منهجياً" بمفهوم رايل Ryle يمكن ردها على الأقل إلى نقد القرن الثامن عشر لنظرية الأفكار عند دو مارسيز du Marsais ولاحقاً عند توماس ريد Thomas; Reid انظر تشومسكي 199 : 1965،

18) أو حول المضمون الإدراكي الحسي بالمعنى التقني الخاص للخطاب الفلسفي، انظر الهامش (1) والنص، إن التمييز الذي يقيمه ديفيز بين التفسيرين "المحافظ" و"التنقيح" revisionary للمفهوم التقني العام ليس واضحاً، بأكثر مما يمكننا أن نميز التفسيرين المحافظ و التنقيحي للقوة الكهرطيسية،

19) انظر ملاحظات ستيتش (1983) حول عدم قدرة "معظم الآذان غير الملوثة سابقاً بالنظرية الفلسفية" على تقديم أحكام باكرة في كثير من هذه الحالات، الملاحظة ليست مقنعة بالضرورة؛ فربما لا يمكن تمييز حقائق علم النفس الشعبي إلا عن طريق الحدس المدرّب والموجّه، مع سياق نظري أغنى، يمكن لذلك أن يكون تخميناً معقولاً، لكن لا يوجد من الناحية الافتراضية سياق نظري، وبالتالي ثمة مبرر ضئيل لاعتبار الأحكام المعزولة كأنها تعني كثيراً،

3 ـ اللغة والتفسير : التأملات الفلسفية والاستعلام التجريبي

1) لهذا يترتب على العبارة الأخيرة المستشهد بها أني إذا كنت أعتقد أن السماء تمطر لأنني سمعت ذلك عبر الراديو، أي أن التفسير الكامل للعلاقة السببية بين اعتقادي والعالم هو هذا التفاعل، عندئذٍ لن تكون بحاجة لأن نعرف أي شيء آخر عن علاقة اعتقادي بأن السماء تمطر بحقيقة أنها تمطر أو لا تمطر؛ لا يوجد سؤال آخر فيما يتعلق بالعلاقة بين معتقداتي والعالم،

2) مع هذا، بالطبع، قد يختار المرء أن يتجاهل تمييزاً أو آخر لأغراض استعلام بعينه، النقطة هي أنه لا يوجد تفسير عام لـ "المفهوم الأساسي" لدومت (ليس له تفسير أضيق، على سبيل المثال) يتغلب على المشاكل من النوع الشار إليه، أو أية طريقة معروفة لبناء مثل هذا المفهوم بوصفه مثلنة مفيدة، أو أي مبرر لمحاولة القيام بذلك، لاحظ أن ليست كل مثلنة تستحق أن تصاغ، لكن هذه المثلنة، مهما كان المقصود منها بالضبط، ليست كذلك كما يبدو،

3) لا علم لي سوى بمحاولة واحدة نجحت في فهم هذه المشاكل 1987) (Pateman، يطور باتيمان مفهوماً عاماً للغة بوصفها "حقيقة اجتماعية" بطريقة تبدو معقولة، لكن لاصلة لها بالقضايا التي أناقشها هنا، بمفهومه، إن الشخص الذي يكون مدركاً لبعض الحقائق الأولية حول اللغة والمجتمع سوف يتكلم عدداً كبيراً من اللغات، مغيراً (لغته من لحظة إلى أخرى، اعتماداً على كيف يختار (أو تختار) أن يتماهى مع مشترك أو أخر،

إن الشخص غير المدرك لمثل هذه الحقائق سيكون لديه مجال كبير من المعتقدات (والتخيلات، كالعادة) حول ما يفعله أو تفعله؟ وهي معتقدات يمكن أن تلعب دوراً اجتماعياً ما في بعض المجتمعات،

4) حول سوء فهم كيني Kenny لرفضي هذه الآراء، وعدم الصلة الناتجة لرده على ذلك، انظر تشومسكي1988b،

5) هذا، في الحقيقة، هو بالضبط الاتجاه الذي أخذه كيني (1984) في وجه الاعتبارات المفاهيمية من هذا النوع، مع أنه لا يعترف بأن تغيراً جوهرياً حدث في فهم الـ "المقدرة" أو "القدرة" capacity، انظر تشومسكي 1988 b،

6) أعود مباشرة إلى بعض توصيفات كواين، فيما يتعلق بهذه المذاهب المثيرة للفضول،

7) لتركيز النقاش، أضع جانباً التعقيدات الأخرى؛ على سبيل المثال، حقيقة أن موارد الحالة البدئية أيضاً تلعب دوراً في تقرير ما يعد بمثابة دليل و كيف يستعمل (أو يهمل)، إن إدخال هذه العوامل سوف يقوي الاستنتاجات ببساطة،

8) [هذا] المثال، في الحقيقة، هو مثال واقعي، انظر تشومسكي 1986: 61،

9) يقترح أيضاً دراسات التماثلات في اكتساب اللغة؛ الاعتبارات نفسها تنطبق في هذه الحالة،

10) يمكن أن نلاحظ، بالصدفة، أن العبارة الأخيرة ملائمة فقط طالما أن المرء يمكن أن يرفض الكلام عن النظريات بوصفها صحيحة في الفيزياء، أي حين تكون مفيدة لغرض ما في حقل من الظاهرات؛ قد يرفض كواين هذا الاستنتاج على أساس افتراضاته فيما يتعلق بدراسة العقل (الدماغ من قبل "عالم اللغة"، وهي الحالة التي يعتقد فيها ضمناً أن القوانين المعيارية للعلوم الطبيعية غير مقبولة، كما نوقش في النص،

11) إنني أضع كلمة "التبسيط" ضمن علامتي اقتباس، نظراً لأن المفهوم مضلل إلى حد كبير، إن قاعدة عبارة الاستفهام الأمامي " front wh phrase" غير خاضعة لقيد البنية على العطف وشروط المحلية الأخرى، ستكون في الواقع أبسط من القاعدة الفعلية، التي تكون خاضعة لهذه الشروط عند كائن عضوي يفتقر لهذه الشروط (أو بشكل أدق، المبادئ التي تشتق منها) كجزء من بنيته الفطرية، بالنسبة للبشر، العكس هو الصحيح،

مهما يكن المعنى الذي يأخذه مفهوم "البساطة المطلقة"، مستقلاً عن بنية النظام الخاضع للاستقصاء، فليس له صلة بالموضوع هنا، لمناقشة هذه القضايا، انظر تشومسكي (1955 / 1975).

12) ويفترض كواين أن "قيد البنية" على العطف مرتبط بقابلية الترجمة، مسلماً بأنه لتحديد ما إذا كان ذلك يطبق في لغة ما فيجب علينا أن نحدد ما هي التعابير التي تعد بمثابة نظائر دلالية لعبارات العطف الانكليزية، لهذا القيد constraint، مع ذلك، علاقة بالبنى، مستقلة عن علاقتها الدلالية بعبارة العطف في لغة أخرى ما، ويمكن أن يشتق أيضاً، في جزء هام [منه] على الأقل، من شروط أكثر عمومية بكثير على محلية العمليات النحوية التي تكون مستقلة عن التركيب كله؟ بالتأكيد إن كثيراً من الأمثلة على القيود التي تطرح القضايا نفسها هي من هذه الطبيعة، وربما كلها.

13) لأجل مناقشة نسخة دومت، انظر تشومسكي 1986، لاحظ أن ديفيدسون، كما يبدو، يحصر الاهتمام هنا بما يدعى "الكفاية الرصدية" observational adequacy وليس "الكفاية الوصفية"، في الأدبيات الألسنية؛ لو فهمت نظرية الكفاية اللغوية بالمعنى الأخير، عندئذٍ فإنها سوف تعزو إواليات محددة (على المستوى المجرد، بالتأكيد).

14) انظر تشومسكي (1986: 240) لأجل المناقشة، يعزو روجر جيبسون إلى الاعتقاد بأنه "ليس في الفيزياء واللسانيات حقائق" (جيبسون 1986:141)، وهو استنتاج لا أقبله ولا توحي به المحاججة، التي يشير إليها، القائلة بأن دراسة اللغة لا تواجه أية مشكلة [من مشاكل] عدم التحديد التي لا تبرز في أي مكان من العلوم الطبيعية، يفشل سعيه الأخر لإقامة اختلاف على أسس اونطولوجية، وافقه عليه كواين في

الرد، وذلك للأسباب الواردة في الإحالات التي يوردها، يمكننا بالتأكيد أن نؤكد بكل ثقة، وبصوت عال إذا شئنا، على أنه توجد بالضبط عناصر كيميائية وأشكال معجمية، وروابط ذات تبعية دلالية، وعبارات، وربما سيتبين ذات يوم أن لهذا الاستنتاج ميزة حسنة، لكن المطلوب هو الحجة، فأن نقول إن "كتابين تعليميين للترجمة متعارضين يمكن أن يفيا بتحويل الميول إلى السلوك "وأنهما" منسجمان مع توزعات الحالات والعلاقات في الجسيمات الأولية كلها" (كواين 23: 1981) يكون له من المغزى جوهرياً كما لقول الشيء نفسه حول نظريتي الكيمياء أو النضوج الجسدي؛ وفي القرن السابع عشر، كان بإمكان المرء أن يضيف، بقدر مماثل من عدم الصلة بالموضوع، أنه لا يمكن دمج النظرية الكيميائية في "نظرية طبيعانية ـ جسدانية مقبولة تماماً" (Gibson 143: 1986)، ولو كنا نعني بالأخيرة "الفيزيائية الأساسية" التي يتعين تعديلها تعديلاً كبيراً لتدمج اكتشافات الكيميائي، من هذه الاعتبارات، الابستمولوجية أو الأونطولوجية، لا شيء يترتب على ذلك فيما يتعلق باللغة أو أي شيء أخر،

15) لأجل المناقشة، انظر تشومسكي (1987) ـ التي أخذت منها هذه الملاحظات والمصادر المذكورة هناك،

16) يصف كواين (1986 : 186) "التجهيزات المفترضة supposed equi pments "بأنها" أنحاء grammars هيكلية فطرية [سليقية]، خالطاً بشكل ظاهري بين بنية الحالة البدئية لملكة اللغة وبنية الحالات الناضجة المحرزة لها،

17) كان الافتراض الأساسي أن نظرية الجسد يمكن تحديدها بحدود صارمة تماماً، تكون في جوهرها حدود ميكانيك الاحتكاك الديكارتي،

لقد تقوضت هذه الفرضية على يد اسحق نيوتن ومنذ ذاك الوقت كان من المستحيل صياغة مشكلة عقل ـ جسد متساوقة بأي شيء يشبه المصطلحات الديكارتية، أو أي مصطلحات أخرى، على حد علمي، ذلك أنه لا يوجد مفهوم ثابت للجسد،

18) بالنسبة لكواين، تختلف الأنحاء (ج نحو) " بشكل امتدادي "إذا" كانت تتباعد في الناتج [الخرج] الصافي " [Quine 1986]، هذا الاستعمال اللغوي المألوف مضلل بشكل خطير، لأنه مقرون باشتراطات عما يؤلف "الناتج الصافي" لنحو ما، تذكر مرة أخرى، أن كواين لا يدرس مفهوم "التوليد القوي" للأوصاف البنيوية، المهم تجريبياً، بل بالأحرى، التوليد الضعيف لفئة ما k هو "الناتج الصافي"، لكن كيفما تم اختيار k، فإن خواصه تبدو بدون أي أهمية تجريبية، حول هذه المسائل انظر (chomsky (1955/ 1975; 1965، لقد أخذ كواين على الدوام مسألة النحوية grammaticality على أنها في جوهر مسألة "امتلاك المعنى"، ويعتقد أن هذا المفهوم، "بسبب كل نواقصه، هو في مرتبة أفضل بكثير من مفهوم "التشابه في المعنى" (Quine 1986)، لكن بقدر ما نمتلك أي فهم "للنحوية" تكون له صلة ضئيلة بـ "امتلاك المعنى" و، خلافاً لمختلف المفاهيم العامة الدلالية التي يجدها كواين إشكالية" فإن مفهوميه "للنحوية" و"امتلاك المعنى" يبدو أنهما يفتقران إلى أي معنى واضح تماماً، أو أية مكانة في دراسة اللغة،

19) افتراض مغلوط نظراً لأن مهمتي الطفل وعالم اللغة كما أشرنا من قبل مختلفتان اختلافاً جذرياً،

20) بقدر ما تستحق أية نظريات علمية هذا اللقب، يمكن أن نضع جانباً هنا أية أسئلة تطبق على الاستعلام العلمي عموماً، إنه لذو مغزى

ضئيل هنا أن نثير مثل هذه الأسئلة فيما يتعلق "بالعلوم الناعمة" إذا كان المرء مهتماً بايجاد الإجابات على الأسئلة، بدلاً من مجرد تسخير الحقول المعرفية والفهم لتوجيه الاستعلام بطريقة جدية.

21) لأجل تكرار حديث لهذه الفكرة انظر (Quine (1986، هنا يصف كواين "فكرة بارعة لـ و، هاس Haas،w تتعلق بالمحك لإقامة التمييز الذي يبدو أنه يضعه في ذهنه؛ المحك كما هو، يقدم تمييزاً بدون أية أهمية معروفة لأجل الاستعلام في دراسة اللغة،إن الاعتقاد السائد على النقيض من ذلك يقوم جزئياً على تشبيه خاطئ باللغات الصورية [الشكلية] formal في الأعمال المبكرة في النحو التوليدي، ويمكن أن يكون قد تعزز عن طريق المقاطع الإيضاحية في الأعمال المبكرة في النحو التوليدي التي كانت مضللة بشكل جلي، مع أن المؤهلات الملائمة قد عُبر عنها في الواقع.

22) انظر (Chomsky (1955/1975، حيث نوقشت هذه القضايا بلغة تبدو لي أنها لا تزال دقيقة، وجرت محاولة لتعريف مفهوم كهذا بلغة المبادئ لأجل تحديد البنية المكونة المشتقة.

23) لأجل المناقشة في سياق ألسني ـ معرفي، انظر (Jerne (1985، لأجل مناقشة موسعة أكثر، انظر (1986) piatelli –palmarini

24) ولا "النظريات القصيرة" هي بالضرورة نظريات قابلة للإحراز من قبل البشر، أو يمكن التعرف عليها بوصفها نظريات قابلة للفهم من قبل البشر، نظراً لقدراتهم الفكرية النوعية المحددة بيولوجياً.

25) مرة أخرى، إننا نفترض مثلنات idealizations مألوفة، كما نوقشت في أماكن أخرى.

26) كالاستراتيجيات، بنية الذاكرة، الخ، لاحظ أن المعرب parser، كما يتم تصوره في الأبحاث الراهنة، يشترط به، على صواب أم على خطأ، أن يكون مكوناً حقيقياً للعقل / الدماغ، نظيماً subsystem متماسكاً من نوع يتضمن بعض عناصر المفسر الكامل، وليس غيرها، كما في كل مكان، هذه الافتراضات عرضة تحديداً لتلك الأسئلة العامة التي تبرز في كل الاستعلام التجريبي، إن دراسة المعرب يعتقد غالباً أنها منيعة نوعاً ما على المشاكل العامة التي تبرز في دراسة الكفاية اللغوية (أي دراسة الإجراء التوليدي الذي يعد أحد مكونات المعرب)، لكن هذا خطأ، يجادل أحياناً بأنه بما أن الدليل يكون دائماً من الأداء، فليس لدينا مبرر لأجل استعماله لتحديد طبيعة الكفاية المنضوية بالحجة (المغالطة) نفسها، يمكن أن نستنتج أننا لسنا مبررين في استعمال مثل هذا الدليل لتحديد طبيعة المعرب الممثلن، ولن يكون لنا أي أساس لافتراض أن الفيزياء هي دراسة أي شيء خارج القراءات العدادية meter – readings لا تأتي المعطيات موسومة بأنها "دليل صالح لأجل X، وليس Y"،

27) تفيد الاعتبارات ذات الصلة في شرح السبب في أن الجهود المبذولة في الذكاء الاصطناعي التي يتحمس لها كثيراً دانييل دينت هي جهود عديمة النتائج (انظر Putnam 1988b; Dennett 1988)، يعتقد دينيت أنه توجد أو قد توجد نتائج هامة تندرج تحت شيء ما يدعوه "هندسة"، لكن ليس واضحاً ماذا يدور في ذهنه؛ كذلك، إن نقله للنقاش اللارسمي الجاري منذ بضع سنوات، الذي يقوم عليه تفسيره جزئياً، يبدو لي مضللاً إلى حد ما، على الأقل،

28) لاحظ مرة أخرى أنه لا يوجد مبرر لافتراض أن لغة الأنا "تولد بشكل ضعيف" مجموعة من التعابير المشكّلة جيداً، لذلك سيكون ذا مغزى أن نتكلم عن لغات الأنا ("الأنحاء" grammars) بوصفها "مكافئة امتدادياً" أو لا، بمصطلحات كواين؛ حتى إذا تبين أن هذا المفهوم يمتلك مغزى ما، أو دلالة ما، مجهولة الآن، فلا يوجد مبرر لافتراض أن الخواص الشكلية لهذه المجموعة ستكون لها أية أهمية لأجل دراسة بنية اللغة، المعنى، التعلم، التواصل، الإعراب، ، ،الخ، انظر Chomsky 1965، كان ثمة التباس كبير حول هذه المسائل، التي سأتابعها هنا،

29) بمعنى غريب، على كل، في هذه الحالة، أستخدم كلمة تفتقر إلى دليل محدد يكون وثيق الصلة باستعمالها، كما يحدده معجمي الداخلي، لن نقول إن جونز يخطئ استعمال لغته عندما يحيل إلى شيء أمامه بوصفه كرة، [وهو] غير عارف أن الجزء المخفي له شكل مختلف،

30) حتى من قبل الألسنيين الاجتماعيين والآخرين الذين يزعمون أحياناً أنهم لا يتبعون هذه الممارسة، حول هذه المسألة، انظر :Chomsky 1986 17 -18،

31) افترض أن معجم جونز يتضمن تبجيلاً لخبير ما، لنقل أنه متكلم ما للألمانية، في مادة "arthritis" (التهاب المفاصل)، عندئذٍ فإن نسب "الاعتقاد" إلى جونز يمكن أن ينطوي على مزيدٍ من التفصيل، أو قد نرغب في التخلي عن المفهوم بوصفه عديم الفائدة في أي شيء يشبه معناه المألوف لأجل علم النفس، بغض النظر عن كم يبدو من الأهمية أنه موضع

رهان، من أجل المزيد حول المسائل التي تم التطرق إليها هنا، انظر: segal 1987، Bilgrami 1987; ،

الفصل الرابع: الطبيعانية والثنائوية في دراسة اللغة والعقل

1) لمناقشة المسألة، انظر بيلغرامي 1933، حول الافتراض المسبق (الضمني غالباً) للمقاربة الذاتانية ـ الفردانية في الاستعلامات الأوسع (اللسانيات الاجتماعية، اكتساب اللغة، تقسيم العمل الاجتماعي" لهيلاري بوتنام، ، الخ) انظر (chomsky (1980: 25f،

2) إن مفاهيم العلوم الخاصة (الجيولوجيا، البيولوجيا، الخ) لا تحقق أيضاً الشروط الديفيدسونية؛ انظر (Folder (1987،

3) ليس واضحاً ما إذا كان كواين سيتوصل إلى هذا الاستنتاج، بسبب التفريق الذي يقيمه بين الدليل "السيكولوجي" والدليل "الألسني"، لذلك لأجل تحديد تخوم العبارات، يقبل الأول [الدليل السيكولوجي] بوصفه مشروعاً وليس الثاني؛ فالأول يتضمن تجارب على الإزاحة الإدراكية الحسية للطقطقات clicks؛ أما الثاني فيتضمن دراسات الاعتماد الإحالي، كما في حالة المثالين (1) و (2) الواردين أدناه، إن التمييز غامض، خصوصاً بالنظر إلى أنه على أسس طبيعانية يكون "الدليل اللغوي" أكثر إلزاماً بكثير، ناهيك عن حقيقة أن المعطيات لا تأتي مصنفة بهذه الطرق، مهما كان يعني هذا التمييز فربما يسمح بمراجعة مفهومه لـ "التشيؤ" reification، وإن كان ظاهرياً لا يسمح

بمراجعة اللغة، انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب لأجل المراجع المحددة والمناقشة،

4) من أجل مناقشة أكمل، انظر التعليقات على تقديم سيرل لهذه الآراء لدى Chomsky 1990، انظر كذلك تعليقات ندبلوك وآخرين، الاعتراضات متروكة بدون إجابة من قبل سيرل في رده أو في الكتاب اللاحق، Searle (1992)،

5) من أجل عرض حديث، انظر Quine 1990؛ من أجل مناقشة موسعة أكثر لطبعة أقدم (مماثلة جوهرياً)، انظر: Chomsky، 1987 and ch-3 in this volume

الفصل الخامس: اللغة كشيء طبيعي

1) إن كانت هذه التعليقات الساخرة موجهة ضد كتاب كولن ماك غرين المعنون مشكلة الوعي (MC Grinn 1991)، إن ماك غرين يكتشف زيف الحجة، انظر أيضاً MC Grinn 1993; Chomsky 1975

2) من أجل تعليق ما على تفسيره الخاطئ للنظريات الحوسبية التي يلمح إليها، ولطبيعة علم الدلالات، التي يتوقع أن يجد فيها حلا "للأزمة"، انظر Chomsky 1993a،

3) لاحظ أن هذا التفسير لهذه الدراسات يختلف عن بعض التفسيرات التي تظهر في الأدبيات الفلسفية، إن مصطلح لغة الأنا قد تم إدخاله للتغلب على سوء الفهم الذي يسببه الالتباس المنهجي لمصطلح "النحو"،

المستعمل للإحالة إلى لغة الأنا وإلى النظرية التي يصوغها عالم اللغة لـه، لهذا فإن معرفة جونز بلغة الأنا الخاصة بـه (النحـو، بأحـد معانيـه) لا يشبه في شيء بعض المعرفة (الجزئية) لعالم اللغة.

4) في حالات تطور اللغة التي درسـت بعنايـة، كـان ثمـة تعـرّض للغـة المعيارية (الفصحى) حتى 19 أو 20 شهراً، ثـم فـترة طويلـة قبـل بـدء التـدريب (في الحالـة الأكثـر نجاحـاً، حـوالي أربـع سنوات)، مـع أن الدليل الدامغ مفقود، فمن المعقول أن نشك فيما إذا كان التعـرض المبكـر قد يكـون حاسمـاً، بـالأخص في ضـوء الاكتشـافات الحديثـة حـول كـل اكتساب مبكر للغة، انظر تشومسكي 1986؛ مهلر وديلوكس 1994.

5) إنني أضع جانباً، هنـا وأدنـاه، الافـتراض الآخـر القائـل بـأن هـذه العلاقات تصح على الموضوعات في لغـة عموميـة، هـذا المفهـوم مجهـول بالنسبة للاستعلام التجريبي؛ ويخلق مشاكل تبدو غير قابلـة للحـل، لم يتم الانكباب عليها حتى الآن، لأجل المناقشة انظر:

Chomsky 1993a والفصل (2) من هذا الكتاب.

الفصل السادس: اللغة من منظور ذاتاني

1) ليس من الواضح تمامـاً أن بوتنـام و ديفيدسـون يختلفـان، نظـراً لأن بوتنام لا يشير إلى ما يقصده بـ "اللغـة" في حـين أن ديفيدسـون يوضـح مفهوماً عاماً مقولباً على نموذج اللغة الصورية لـيس بالتأكيـد هـو مفهـوم بوتنام؛ مع ذلك فقد استنتج ديفيدسون أنه يستبعد كـل مـا هـو مقصـود

(متعمد)، إن اللسانيات الذاتية قد استبعدت أيضاً ما لم نفهم كلمة الناس "people" على أنها تتضمن ملكاتهم وحالاتهم،،، الخ،

2) يصف بورغ ما يعتبره " علم نفس بحد ذاته"، لكن السياق يشير إلى أن المقصود أكثر من ذلك، حول هذه الفرضية، انظر في مكان لاحق من هذا الفصل،

3) هذه الدوافع تكمن خلف ورقة بوتنام المهمة (1975)، كما يكررها في (1992) Putnam،

4) ثمة هامش محذوف، ويبدو الحكم المتعلق بفراغ الفكر، أقوى مما ينبغي، لكن لندع ذلك جانباً،

5) وهذا مصطلح مشكوك فيه، نظراً لأن بوتنام يبدو أنه قد أسقط الشرط الضمني الذي مفاده أن "الخبراء" الذين نحتكم إليهم يتكلمون لغتنا، لذلك فإن الجانب الاجتماعي يختفي، ونعود إلى اعتبارات "الجوهر نفسه"،

6) بشكل لا علاقة له بالمضوع هنا، من المكن أن المفهوم التقني للإحالة reference ينبغي إدخاله في دراسة تركيب التمثيلات العقلية، بنفس القدر الذي تدخل فيه العلاقات بين السمات الصوتية في الفونولوجيا،

7) على كل، لايستتبع ذلك أن" التشابه في المعنى عندنا يعني فحسب، إن كان يعني أي شيء، أننا نتواصل بشكل ناجح" (تمّ الاستشهاد بكواين في Dreben 1992 :305)، بشكل مشابه، لا يعني التشابه في الصوت فحسب نتكلم أن حول ماهية "التشابه" بلغة الخواص المشتركة للغة و العقل، عندما نتخلى عن قيود كواين السلوكية المضادة للطبيعانية لكواين،

8) هذه الملاحظات، المألوفة في دراسة اللغة يجب تمييزها عن استنتاج ديفيدسون أن "لا يوجد شيء يمكن أن يؤخذ على أنه لغة" بالمعنى المفترض بشكل عام من قبل "الفلاسفة والألسنيين"، "لاشيء كهذا لنتعلمه، أو نتقنه، أو نولد به" (Davidson 1986b :446)، مع ذلك، فإن لديفيدسون مفهوماً مختلفاً جداً للغة في ذهنه؛ ورغم أنه محق بالتأكيد، في اعتقاده أنه لا يوجد شيء كهذا"، فإن الحجة لصالح هذا الاستنتاج أو حول مفاهيم الدراسة التجريبية اللغة هي حجة منقوصة، فهو يلاحظ بشكل صحيح أنه، في التواصل الحقيقي، تستعمل كل أنواع التأملات في "النظرية العابرة"، التي هي خاصة سيكولوجية محددة، مع ذلك، لايستتبع ذلك أنه لا يوجد استعمال لأجل "مفهوم اللغة، لأجل " آلة تفسير نقالة مصممة لا لشحذ معنى القول الاعتباطي" الخ (1986b:445)، كان يجادل أيضاً بأنه لا يوجد jet stream تيار نفاث، بسبب العناصر الفوضوية في أنماط الطقس، لأجل بعض التعليقات، انظر الفصل (2) من هذا الجلد،

9) والنقاش الذي تتضمنه الأبحاث حول "ما يعنيه مار Marr غريباً نوعاً ما؛ فالمهم هو ما يعمله العالم، لا ما يمكن أن يكون في ذهنه، انظر (د، ت) Egan،

10) والاقتراحات التي أوردها برادلي (Bradley 1994) مازالت مهددة، لكن المشكلة ظلت في تفسير عدم التناظر الواضح بين الوفرة الجزيئية للأحماض الأمينية DNA عبر موقع الأعضاء

الفصل السابع : استكشافات ذاتانية

1) حول بعض الأمثلة المشابهة، وعدد من القضايا التي تم المرور عليها سريعاً هنا، انظر تشومسكي (1995a)،

2) ناقشت وجون سيرل هذه القضايا على مدى سنوات، إننا نتفق كما يبدو على عدم اتساق الأحادية، الثنائوية، المادية، الخ (قارن سيرل 1992 : 25؛ تشومسكي 1968 : 98)، وحول مدى الدقة الجوهرية لتصورات القرن الثامن عشر للعقل ـ الجسد من النوع المذكور للتو، لكن ليس حول كيفية تفسير خواص اللغة، انظر أدناه،

3) لاحظ أنني لا أوافق على أن الاختيار يكمن بين تفسير الإحاطة والفهم بوصفهما حالتين واعيتين "أو بوصفهما مجرد نمطين من رد الفعل يستحثهما التدريب" (Gaitman 1996:387) يتبنى الرأي الذي ينسبه إلى مايكل دومت)،

إن فهم (1)،S، الخ، يبدو أنه يتضمن الحالات والسيرورات التي لا تندرج تحت أية مقولة،

4) حول كيفية الوصول إليه، ثمة أفكار مختلفة، لأجل المناقشة النقدية لبعض هذه الأفكار، ولبديل الإدخال المتأخر، انظر Halle and marntz 1993، سأتجاهل كل هذه المسائل هنا،

5) يورد ستيتش (38f: 1996) ـ دون أن يتبناها ـ الصياغات النموذجية، التي يميزها عن لسانيات الأنا والعلم الأصلي للإحالة

6) لاحظ أنه لا يوجد تناقض في قبول الملاحظات التحذيرية لفيتغنشتاين على هذه المسائل بالتوازي مع الاستنتاجات القوية تماماً حول ثبات الصوت والمعنى،

7) إن توماس ريد هو أشهر الذين جادلوا بأسلوب فلسفة اللغة العادية الحديثة القائلة بأن تصور فكرة ما بوصفها "الموضوع الذي يتفكره العقل" يقوم على سوء تفسير للنحو السطحي surface grammer؛ يمكن توسيع حجته إلى التفكير، الاعتقاد، والحالات الأخرى، حول الأفكار بوصفها موضوعات للتفكير أو أنماط من العقل في فكر القرن السابع عشر و الثامن عشر، انظر يولتن (1984) الذي يجادل بأن ريد والمعلقين الآخرين قد أخطأوا قراءة التراث، انظر أدناه،

8) في الأعمال المبكرة من النوع المدروس هنا، يفترض أن لغة الأنا تولد "علائم" على المستويات اللغوية العديدة (الصوتية، الكلمة، بنية العبارة، الخ)؛ كل واحد "يمثل" phon(E) بوصفه محمولاً صحيحاً عنه له، هكذا فإن phon(E) هو ،،،،،،،،، حيث تمثل النقاط،،،،،، "تمثيله الفونولوجي (الكلمة، بنية العبارة، الخ) (لأجل التفاصيل انظر تشومسكي 1975/1955)، إن phon(E) (وبالتالي، بشكل غير مباشر، العلائم، على كافة المستويات)، يمكن اعتباره "يمثل" منطوقات utterances بطريقة مشابهة، بما أن المنطوقات مرتبطة بحالات المتكلمين، فإن الحمل يمكن تفسيره بأنه يحمل هذه؛ المنهج الذي يتخذه بروميرغروهال (1996)؛ الذي يناقش المستويات الفونولوجية بلغة مقاصد المتكلمين (التي تفهم على أنها تزاد على حالات الدماغ)، إن هدفها هو مقارنة النظريات المتنافسة،[وهو] سبب وجيه لأجل عمل تأسيسي أكثر تأنياً، كان من النادر القيام به،

9) لأسباب مماثلة، في حين أن فرضية "استقلال التركيب" autonomy of syntax قد نبذت بقوة، فإن أحداً لم يدافع عنها، على حد علمي؛ ولم تتم صياغتها بطريقة مفهومة من قبل معارضيها،

10) لأسباب مشابهة، تتعرض نظرية الجمل المترجمة T-sentences، إلى مشاكل عندما يختلف الموضوع وما وراء اللغة metalanguage، بحيث أن الحصيلة المعلوماتية للجمل المترجمة اللامتماثلة صوتياً nonhomophonic لا تقدم أسساً جيدة لتبرير المقاربة، مهما تكن حسناتها، وهي حقيقية، فإنها لا تلامس مسألة كيف تتفاعل اللغة مع العالم، وهي التي تمثل صميم النظرية التقليدية للمعنى، انظر أيضاً Fodor 1990،

11) يجب عدم خلطه مع اشتراط القيم الدلالية (أو الصوتية) ككيانات عقلية، مع علاقات (لا، القيمة) التي تمتلك الخواص الشكلية للفعلين "يحيل" refer و"يعين" denote بمعنييهما التقنيين، إن هذا يتعين تقييمه بالتوازي مع اشتراط الموضوعات التركيبية الأخرى، يبدو لي من الملائم (مع أنه من غير المألوف) أن نفسر أعمالاً كثيرة في علم دلالات اللغة الطبيعية بهذه المصطلحات،

12) يمكن للمرء، ربما، أن يفهم بعض المقترحات البنيوية في ضوء هذا التحليل، لكن ذلك سيكون تفسيراً مشكوكاً فيه، كما أظن،

13) المقبوسات هي (Cudworth (1838:425)، لكن وجهة النظر عامة؛ وهي كذلك مؤثرة على الأقل في الطبيعة الكانطية؛ انظر تشومسكي، 8-67:1966

14) إن مورافتشيك (1975؛ 1990)، الذي يتبنى المفاهيم العامة الأرسطوية ويطبقها على نطاق واسع على علم الدلالات المعجمي، يعتبر هذه العوامل Tactors هي"المكونات، البنية، الوظيفة، والفاعلية agency"، لأجل بعض التعليقات، انظر Chmsky 1975; لتطوير أفكار مشابهة، انظر: pustejovsky 1995،

15) إنني أتجاهل الاختلافات الاصطلاحية التي لا علاقة لها بالموضوع،

16) يجادل سيرل بأن اشتراط القواعد اللاواعية غير مشروع، لكن على أسس تبدو لي بدون ميزة؛ انظر تشومسكي (1990)، إن reductio الذي يستعمل تشبيه "ملكة الرؤية" vision faculty لا علاقة له بالموضوع لأن المبدأ الذي يرفضه على حق يفتقر إلى أية قوة تفسيرية،

17) كان ثمة أعمال جادة ذات نكهة مشابهة، تقليدية وحديثة، انظر (ch :1944، 14) Jackendoff والمصادر المستشهد بها،

18) سأضع جانباً مسائل دقة العزو حيثما لا تكون لها صلة بالموضوع،

19) الملاحظة مألوفة، انظر على سبيل المثال Strawson 1952:189،

20) لأجل بعض الأعمال التجريبية التي تستنتج أن محتوى H2O يكون مرتبطاً بشكل ضعيف فقط بالأحكام حول ماهية "الماء"، أو حتى الماء النموذجي البدئي Protoypical انظر ;Malt 1994، يعرض (Braisby et all (1990 أفكاراً مختلفة وأعمالاً تجريبية حول هذه المسائل، ويقدم مكتشفات خاصة تظهر، كما يجادل، "أن مصطلحات النوع الطبيعي لا تستخدم بطريقة جوهرانية"، هذا الفهم محدود، وبالتالي فإن الثقة محدودة بتفسير المعطيات،

21) توجد تبصرات مثيرة كثيرة حول هذه الحالات في أوراق قدمها تايلر بورغ ومن ضمنها 1989، 1986b، ليس من الواضح تماماً ما إذا كنا نختلف، إن كنا نختلف، وأين نختلف بشكل جوهري حولها، لأجل أحد التفسيرات انظر Mercier 1992،

يتمتع تشومسكي بموقع فريد في المشهد الفكري العالمي. فقد كان الشخصية القيادية في "الثورة المعرفية" في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، وقد هيمن على حقل اللسانيات منذ ذلك الوقت. كما كانت نظريته في النحو التوليدي، بعدد من الأشكال المختلفة، دليلاً وملهماً لكثير من اللسانيين في أرجاء العالم.

إن لعمله التأسيسي حول اللغة تطبيقات واسعة الانتشار، ليس فقط بالنسبة للسانيات، بل أيضاً بالنسبة لعدة حقول معرفية أخرى، أبرزها الفلسفة وعلم النفس. ويكشف هذا الكتاب بعض خفايا التشويش والتحامل اللذين أصابا الدراسة الفلسفية للغة. وتشومسكي بفعله هذا، إنما يقدم حلولاً جديدة للألغاز التقليدية، ومنظورات جديدة حول قضايا الشأن العام، من مشكلة العقل ـ الجسد إلى توحيد العلم.

إن جوهر هذا الكتاب هو التأمل الموسّع حول تفسير تشومسكي "الذاتاني" لملكة اللغة البشرية. فقد تركز الكثير من التراث الفلسفي على اللغة بوصفها منشأ عمومياً يمتلك الأفراد معرفة جزئية به. وفي مقابل هذا التراث يدافع تشومسكي مطولاً، وبسلسلة من التحليلات الألسنية، عن الرأي القائل بأن معرفة اللغة هي معرفة فردانية، جوانية.

إن ما هو مؤثر في كتابة تشومسكي ليس فقط اتساعها الهائل ومداها الكبير، بل هو أن الرجل لا يزال بعد نصف قرن يمتلك القدرة على الإدهاش؛ من ملاحظة أن الكائنات البشرية ليست نوعاً طبيعياً إلى أهمية اللغة اليابانية لتحليل اللغة الإنكليزية؛ ومن رفض اختراعه المشهور "البنية العميقة" إلى حدسه بأن تلك اللغة، رغم طبيعتها البيولوجية، قد تكون قريبة من الكمال؛ وكذلك من التوتر بين البديهة والعلم إلى المعاني الضمنية لما نعرفه حول بيت بني اللون أو فنجان من الشاي. إن كل شيء يتفاعل ليعطي رؤية فريدة وطاغية للغة والعقل. فلنقرأ تشومسكي.

تصميم الغلاف : ناظم حمدان

دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ اللاذقية ـ ص. ب 1018 هاتف 422339
دار الحوار